

مَجَالِسُ شَرْحِ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ
لِابْنِ عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيِّ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى
أبو حمزة
محمد علي عبوشي
مكتبة الذكرى

مَجَالِسُ شَرْحِ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ

لِابْنِ عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيِّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

الطبعة الأولى

1443هـ – 2022م



مكتبة الذكرى
الإمارات العربية المتحدة

مَجَالِسُ شَرْحِ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ

لِابْنِ عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيِّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

أبو حمزة

محمد علي عبوشي

إهداء

أهْدِي هذا الكِتَابَ لِإخْوانِي وأَحِبَّتِي فِي اللهِ الذِينَ تَشَارَكْتُ مَعَهُم تَدَارُسَ هَذِهِ الحِكَمِ لِشُهُورٍ طَوِيلَةٍ، وكَانَ لَهُم الفَضْلُ بَعْدَ الله تَعَالَى فِي خُرُوجِ هَذَا الكِتابِ لأَنَّهُم كَانُوا السَّبَبَ الحَقِيقِيَّ لِإعْدادِه، كَمَا أَنّنِي انْتَفَعْتُ بِمُشَارَكَتِهِم واسْتَمَاعِهِم وحِرْصِهِم وتَأَثُّرِهم أَيّما انْتِفاعٍ، بَلْ لَعَلِّي أجْزِمُ أَنَّنِي انْتَفَعْتُ بِهِم أَكثَر مِمّا انْتَفَعُوا بِي.

فَإِلَيْهِم أهْدِي هَذا الكِتَابَ، وأَقُولُ لَهُم: جَزَاكُم اللهُ خَيراً، وتَقَبَّلَ اللهُ مِنِّي ومِنْكُم، وإنّي أُحِبُّكُمْ في اللهِ.

مقدمة الكتاب

الحَمْدُ للهِ المُنْفَرِدِ بالخَلْقِ والتَّدْبِيرِ، الوَاحِدِ فِي الحُكْمِ والتَّقْدِيرِ، المَلِكِ الذي ليسَ له فِي مُلْكِهِ وَزِيرٌ، المَالِكِ الذِي لا يَخْرُجُ عَنْ مُلْكِهِ صَغِيرٌ ولا كَبِيرٌ، المُتَقَدِّسِ فِي كَمَالِ وَصْفِهِ عَنِ الشَّبِيهِ والنَّظِيرِ، العَلِيمِ الذي لا يَخْفَى عليهِ خافِيَ الضَّمِيرِ، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ)، العَالِمِ الذي أَحاطَ بِمَبادِئِ الأُمُورِ ونِهَايَتِهَا، السَّمِيعِ الذي لا فَضْلَ فِي سَمْعِهِ بَيْنَ جَهْرِ الأَصْوَاتِ وَإِخْفَاتِهَا، الرَّازِقِ وهو المُنْعِمُ على الخَلِيقَةِ بِإِيصَالِ أَقْوَاتِهَا، وهو القَيُّومُ المُتَكَفِّلُ بها فِي جَمِيعِ حَالَاتِهَا، الوَاهِبِ وهو الذِي مَنَّ عَلَى النُّفُوسِ بِوُجُودِ حَيَاتِهَا، القَدِيرِ وهو المُعِيدُ لَهَا بَعْدَ وجُودِ وَفاتِهَا، الحَسِيبِ وهو المُجَازِي لها يَوْمَ قُدُومِهَا عليه بِحَسَناتِهَا وسَيِّئَاتِهَا، سُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ مَنَّ عَلَى العِبَادِ بالجُودِ قَبْلَ الوُجُودِ، وقَامَ لهم بِأَرْزَاقِهِمْ عَلَى كِلْتَا حَالَاتِهِمْ مِنْ إِقْرَارٍ وجُحُودٍ، أَمَدَّ كُلَّ مَوْجُودٍ بِوُجُودِ عَطَائِه، وحَفِظَ العَالَمَ بِإِمْدَادِ إِبْقَائِهِ، وَظَهَرَ بِحِكْمَتِهِ فِي أَرْضِهِ، وبِقُدْرَتِهِ فِي سَمَائِهِ.

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةَ عَبْدٍ مُفَوِّضٍ لِقَضَائِهِ مُسْتَسْلِمٍ فِي حُكْمِهِ وإِمْضَائِهِ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ، المُفَضَّلُ عَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، المَخْصُوصُ بِجَزِيلِ فَضْلِهِ وعَطَائِهِ، الشَّافِعُ فِي كُلِّ العِبَادِ حِينَ يَجْمَعُهُمُ الحَقُّ لِفَصْلِ قَضَائِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ المُسْتَمْسِكِينَ بِوَلَائِهِ، وَسَلَّمَ كَثِيراً. (من خطبة الاستفتاح من مقدمة كتاب التنوير في إسقاط التدبير لابنِ عطاءِ اللهِ السّكندري).

أمَّا بعدُ، فقدْ مَنَّ اللهُ علينا -أنا وبعض إخواني في اللهِ- أنْ عِشْنا مُدّةً مِنَ الزمَنِ في ظِلالِ الحِكَمِ العَطائيةِ، أجْمَعُ ما تَيَسَّر مِنْ شُروحِها، وأُضِيفُ من غَيرِ شُرُوحِها ما يَعضُدُ هذِه الشروحَ ويَصُبُّ في فَكِّ مَعانِيها، وتَدَارَسْناها معاً بإقْبالٍ وتَدَبُّرٍ، جَعَلتْ في نُفُوسِنَا وأَرْواحِنَا أثَراً واجْتِهاداً لم نَعْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ، وقَدْ شَاهَدْنا جميعاً هذا الأَثَرَ الكَبِيرَ وكَيفَ تَرَقّى في نُفُوسِنَا وأَثْمَرَ تَغْيِيراً حَقِيقِيّاً في سُلُوكِنَا طَرِيقَ العُبودِيّةِ ووُضُوحِ عِلَاقَةِ العَبْدِ بِرَبِّهِ، والتَّعَرُّفِ عَلَى مَعَانٍ كانَ لها تَأْثِيراً عَظِيماً في نُفُوسِنَا، كَالتَّسْلِيمِ والرِّضَى والمَحَبَّةِ والخُضُوعِ والخَوْفِ والرَّجاءِ والتَوكُّلِ وغَيرِها، وهذه المعانِي هي حَقِيقَةُ التَّوحِيدِ والعُبُودِيَّةِ.

ثُمَّ بَدَا لِي بَعْدَ زَمَنٍ مِنَ الانْتِهَاءِ مِنْ مَجالِسِ شُرُوحِ الحِكَمِ العَطائِيَّةِ أنْ أُرتِّبَ هذا الشَّرْحَ الْمَكْتُوبَ وأُخْرِجَهُ في كِتابٍ يَنْتَفِعُ بِه مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ هذا العِلْمِ وهو ما يُعْرَفُ بِعِلْمِ (السُّلُوكِ والتّزكيةِ).

ويَنبَغِي هنا أنْ أُوَضِّحَ: أنَّ ما جُمِعَ في هذا الكتابِ لم يَكُنْ شيءٌ منه مِنْ تأليفِي ولا مِنْ أَفْكارِي، وإنّما هو جَمْعٌ وتَرتِيبٌ ورَبْطٌ واخْتِصَارٌ وتَنْقِيحٌ، اعْتَمَدْتُ فيه بعدَ اللهِ على مَجْمُوعَةٍ مِنَ الكُتُبِ والمُتَفرّقاتِ مِمَّا يَخْدِمُ الشَّرحَ ويُجْلِي مَعانِيهِ، وأنا أعْلَمُ مِنْ نَفْسِي أَنَّنِي أَصْغَرُ وأَحْقَرُ أَنْ أَكْتُبَ أو أُؤَلِّفَ في هذا العِلْمِ العَظِيمِ، إِنَّمَا هو جُهْدٌ في نَقْلِ كَلَامِ القَوْمِ وتَرْتِيبِهِ، رَجَاءَ أنْ يُنْتَفَعَ بِهِ، وأنْ يَتَقَبَّلَهُ اللهُ مِنِّي.

وقد اسْتَعَنْتُ -بعدَ اللهِ- بِبَعْضِ الشُّروحِ على تَفاوتٍ في الأخْذِ منها، وقد لا أُشِيرُ أحياناً لموضِعِهَا، لجمعِها حِينذاكَ لغَرَضِ الإلقاءِ والاستفادةِ منها أنا وإخواني، وهي لا تَخْرُجُ عَنِ الشُّروحِ التالية:

1- مفتاحُ الفضائِلِ والنّعَمِ في الكلامِ على بعضِ ما يتَعلّقُ بالحِكَمِ للشيخِ أحمدَ زروقٍ الفاسِي.

2- الطُّرَرُ والحَواشِي على الحِكَمِ العَطائِيّةِ للشيخِ أحمدَ زروقٍ الفاسِي.

3- حِكَمُ ابنِ عطاءِ اللهِ شرحُ الشّيخِ زَروقٍ الفاسِي بتحقيقِ الإمامِ عبدِ الحليمِ محمود.

4- شرحُ الشيخِ ابنِ عبَّادٍ الرُّنديّ علي كتابِ الحِكَمِ.

5- الحِكَمُ العَطائيّةُ شَرْحٌ وتَحْلِيلٌ لمحمد سعيد رمضان البوطي.

6- شرحُ الحِكَمِ العطائيّةِ لعبدِ المجيدِ الشّرنُوبِي.

7- شرحُ الحِكَمِ العطائيّةِ لمحمد حياة السّندي المدني.

8- المِنَحُ القُدْسيّةُ على الحِكَمِ العَطائيَّةِ لعبدِ اللهِ بن حِجازِي الشّرقاوي.

9- إيقاظُ الهِمَمِ في شَرحِ الحِكَمِ لأحمدَ بن عَجِيبَةَ الحسني.

وقد أكثرتُ النَّقْلَ مِنْ شروحاتِ الشّيخِ زروقٍ الفاسي لكثرتِها ونَفاسَتِها وقِلَّةِ المآخِذِ عليها.

كما أضَفتُ أيضاً كَثِيراً مِنَ الآياتِ والأحاديثِ وشُروحِهَا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ والحَدِيثِ المختلفةِ، مع إضافةِ نُصوصٍ ومَعانٍ مُسْتَقاةٍ مِنْ كَلامِ بَعْضِ الأئِمَّةِ كابنِ تَيْمِيَّةَ وابنِ القَيِّمِ وابنِ الجَوْزِيِّ والغَزالِيِّ وغيرِهم.

ولعلَّ البعضَ يَطْرُحُ تَساؤُلاً عنِ المَنْهَجِ في هذِه الشُّروحِ وانْتِقَائِهَا، فأُحِيلُ في ذلكَ على مُقَدّمةِ المَجالِسِ؛ ففيها تَوضِيحٌ للمَسْلَكِ الذي اتُّخِذَ في انْتِقَاءِ وجَمْعِ هَذِه الشُّروحِ.

ولعلَّ سُؤالاً آخَرَ يُطْرَحُ هنا: لماذا اخْتَرْتَ الحِكَمَ العطائيةَ؟

لَقَدِ اخْتَرْتُ حِكَمَ ابْنِ عَطَاءِ اللهِ لِشُهْرَتِها، ولأَنَّ فِيهَا بَدَائِعَ ورَوَائِعَ مِنْ التَّعْبِيرِ عَنِ الحِكْمَةِ، ولأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ رُوحِ الأَعْمالِ وعُمْقِ التَّوَجُّهِ بِالْقُلُوبِ في السَّيْرِ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ عِلَاقَةِ العَبْدِ بِرَبِّهِ تَعْظِيماً وتَسْلِيماً ومَحَبَّةً وخَوْفاً ورَجاءً ورِضىً وعُبُودِيَّةً؛ نَادِراً ما نَجِدُ لَهَا نَظِيراً فِي مُصَنَّفاتٍ أُخْرَى، فابْنُ عَطاءِ اللهِ يَعَرِضُ أَلْفَاظَهُ لِلْقَواعِدِ التِي أَرَادَ إِيصَالَهَا إلى قُلُوبِ السّالِكِينَ السَّائِرِينَ إلى اللهِ بِصُورَةٍ بَلِيغَةٍ بَدِيعَةٍ يُدْهِشُ بِهَا قَارِئَها وَيُثِيرُ في قَلبِهِ أَثَراً مَاتِعاً يَتْبَعُهُ تَفَكُّرٌ يَدْفَعُهُ لِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ لِتَسْتَقِيمَ عَلَى مَعَانِي العُبُودِيَّةِ الحَقِيقِيّةِ مِمَّا يَحْتَاجُهُ المُسْلِمُونَ فِي زَمَانِنَا وفِي كُلِّ زَمانٍ.

فَهَذِه الحِكَمُ عِنْدَمَا تَقْرَؤُهَا ويَتَبَيَّنُ لَكَ شَرْحُهَا سَتَكُونُ كَافِيَةً للدّلَالَةِ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ ابْنِ عَطَاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ، لأَنَّكَ سَتَجِدُ بَيَاناً لَا نَظِيرَ لَهُ؛ بَلَغَ الغَايَةَ فِي بَابِهِ، لَا تَرَاهُ أو تَقْرَؤُهُ فِي كَلَامِ غَيرِه مِنَ المُؤَلِّفِينَ، قِمَّةً وعُلُوّاً فِي التَّوْحِيدِ، ومَعْرِفَةً بِأَسْرَارِ ودَقَائِقِ القُلُوبِ والنُّفُوسِ.

أسأَلُ اللهَ سبحانَه وتعالَى أن يَتقبَّلَ مِنّي هذا العَمَلَ ويجعلَهُ خالِصاً لوجْهِهِ، وأن يجْعَلَهُ نافِعاً مُباركاً، تَنتَفِعُ به نُفُوسُنَا، وتَصْلُحُ بهِ قُلُوبُنَا، ويَزِيدُ به يَقِينُنَا وخَشْيَتُنَا للهِ ومَحبَّتُنَا له ورَجاؤُنَا ما عِنْدَه.

اللهمَّ آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أنتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أنتَ وَلِيُّهَا ومَوْلَاها.

اللهمَّ عَلِّمْنَا ما يَنْفَعُنَا، وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وزِدْنَا عِلْماً (سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ).

كتبه: أبو حمزة محمد علي عبوشي

19 ذو القعدة 1443 هـ / 18 يونيو 2022 م

مقدمة المجالس

الحمدُ للَّهِ نَحمَدُه ونَسْتَعِينُه ونُؤمِنُ بِه ونَتوَكَّلُ علَيهِ، وأَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ. يا رَبِّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ، وأَعْمَالَنَا مِنَ الرِّيَاءِ، وأَلْسِنَتَنَا مِنَ الكَذِبِ. يا رَبِّ نَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قُلُوبِنَا، وغَفْلَةَ نُفُوسِنَا، وتَقْصِيرَنَا فِي طَاعَتِكَ، وغَفْلَتَنَا عَنْ ذِكْرِكَ. يا رَبِّ اجْعَلْنَا مِنْ قَوْمٍ تُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَكَ، ولا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ نَسُوكَ فَنَسِيتَهُمْ.

أمّا بعد: نَبدأُ بإذنِ اللهِ وحَوْلِه وقُوَّتِه مَجالِسَ شرحِ الحِكَمِ العَطائيةِ للشّيخِ الإمامِ تاجِ الدِّينِ ابنِ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ.

والحِكَمُ العَطائيةُ لا تَحْتَاجُ إلى تَعْرِيفٍ أو بَيانٍ فَشُهْرَتُهَا عَمَّتِ الآفاقَ، وقد تَصَدَّى لِشَرحِها كثيرٌ مِنَ العُلماءِ، وكذا الشّيخُ ابنُ عَطاءِ اللهِ غَنِيٌّ عنِ التّعريفِ، مَنْ أَرَادَ الاطّلاعَ على سِيرتِه فَلْيَرجِعْ إلى كُتبِه وشُروحاتِها، فأكثَرُها إنْ لم يكنْ كُلُّها تَذْكُرُ نبذةً مِنْ سِيرتِه وحَياتِه وعِلمِه وعبادَتِه.

ولَعَلّي قبلَ البَدْءِ أُبيّنُ المَسْلَكَ الذي أَتَّخِذُه في هذه الشروحِ بِعِدَّةِ نِقاطٍ:

– بدايةً: الهدفُ من اختيارِنا –أَنَا وإخْوَتِي الأَحِبّةُ في اللهِ– لِشَرْحِ هذه الحِكَمِ هو الاستفادةُ العمليةُ منها في تزكيةِ نُفوسِنا، والارتقاءِ بها في التّعرفِ على المعاني الإيمانيةِ التي تُقرّبُنا إلى اللهِ، وتَزيدُ مَعرفَتَنا به، من مَعانٍ قَلبيةٍ اعتقاديةٍ مَبْثُوثةٍ في

هذه الحِكَمِ، لا تَخرُجُ عن مِشْكاةِ الكتابِ والسُّنةِ وأقوالِ السّلفِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ.

– لا شأنَ لنا هنا بأقوالِ من اخْتَلفُوا في الحُكْمِ عليها إيجاباً أو سلباً، وكذلك لا شأنَ لنا بِخِلافِ مَنِ اختلفُوا في معاني ألفاظِها الموهِمَةِ أو المحتمَلَةِ أو المُبْهَمَةِ دِفاعاً و تَأْيِيداً ومُوافَقةً أو نَقْداً واسْتِنْكَاراً واعْتِراضاً.

– لَنْ أَتَطَرَّقَ لبعضِ الحِكَمِ التي قَدْ يَصعُبُ الخُروجُ مِنَ الإِيهَامِ أو الاحْتِمَالِ فيها، والتي حَمَلَها البعضُ على أنَّها مُخالِفَةٌ لِمَنْهَج السّلفِ في السُّلُوكِ والاعْتِقَادِ، علماً أنّ هذهِ الألفاظَ الموهِمَةَ، أو المحتمَلَةَ أو المُبْهَمَةَ قد لَاقَتْ في تَفْسِيرِها النَقِيضَيْنِ مِنَ المُؤَيّدِينَ أو المُعْتَرِضِينَ.

– مع التّنبيهِ على أنَّنا نُحْسِنُ الظَنَّ بِقَصْدِ مُؤَلِّفِها بما احْتَوَتْ عليه، وكذلك نُحسِنُ الظنَّ بكثيرٍ من الشُّرّاحِ الذين شَرحُوها، لأنّ كلامَ المؤلّفِ في بعضِ كُتبِه وكذلك كلامَ كَثِيرٍ مِمّنْ تَصَدَّى لِشَرْحِهَا يَدُلُّ على اسْتَقامَتِهم وبُعدِهِم عَنِ الغُلُوِّ فيما يُسَمَّى بعقائِدِ الحُلولِ أو وحدةِ الوجُودِ وأشْباهِ ذلك.

– كما نَتَحَفّظُ ونُعْرِضُ عَنْ بَعْضِ الشُّروحِ المُغالِيَةِ في ألفاظِهَا وتَفْسِيراتِهَا، التي تُوهِمُ مَعانِيَ مُخالِفَةً لِفَهْمِ السَّلفِ ومَنْ تَبِعَهُم مِنَ الأئمّةِ المُعْتَبَرِينَ.

لِأَجْلِ ما سَبَقَ ذِكْرُه، فقدْ نَتَجاوَزُ بَعْضَ الحِكَمِ بُغْيَةَ السَّلَامَةِ.

– وقد استعنتُ في هذا الشّرحِ بعدّةِ شُروحٍ للحِكَمِ، على رأسِها شُروح أحمدَ زرّوق وهو أكثرُ مَنْ أفاضَ في شرحِ الحِكَمِ بِشُروحٍ كثيرةٍ، ذكَرَ بعضُهم أنَّها بَلَغَتْ

أَكْثرَ مِنْ عِشْرينَ شرحاً، وكذا استَعَنْتُ بشرحِ البُوطيّ، وشرحِ ابنِ عَبَّادٍ، وابنِ عَجِيبةَ، والسِّنْدِيّ، والشَّرْنُوبِيّ، والشَّرْقاويّ، وغيرِهم، رَحِمَهُمُ اللهُ.

وكذلك استَعَنت في البيانِ والشّرحِ بِجُمَلةٍ مِنَ الآياتِ والأحاديثِ وشُروحِهَا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ والحَدِيثِ المختلفةِ، وأَضَفْتُ نُصوصاً ومَعانِيَ مُسْتَقاةٍ مِنْ كَلامِ بَعْضِ الأئِمَّةِ كابنِ تَيْمِيَّةَ وابنِ القَيِّمِ وابنِ الجَوْزِيّ والغَزالِيّ وغيرِهم، رَحِمَهُمُ اللهُ.

– كذلك أَعْرَضْتُ في هذا الشّرحِ عَنْ بعضِ الأَلْفَاظِ والتَّقْسِيماتِ، التي ذَكَرَها بعضُ الشُّراحِ كمثلِ: عُلومِ المُكاشَفَةِ والإيماءِ والإشَارَةِ، وأشباهِ ذلك من الألفاظِ أو التّقسيماتِ التي تُشَوّشُ على ما ذكرتُهُ في بدايةِ المقدّمة؛ مِنْ سَعْيِنَا للاستفادَةِ من الحِكَمِ لِتَزكِيَةِ نُفوسِنا، وإحياءِ قُلوبِنا بمعاني الإيمانِ باللهِ، والتّعرفِ عليه بِصفاتِه وأسمائِه، بما عَرَّفَنَا به عنْ نَفْسِه سبحانَه وتعالَى.

– الخُلاصةُ: أنَّنا سَنَسِيرُ في شَرحِنَا لِلْحِكَمِ، بالطّريقةِ التي نَقصِدُ بها التقرُّبَ إلى اللهِ، مُتجاوزينَ فيها أيَّ عَوائِقَ، من اختلافٍ بين العُلماءِ فيها، أو ألفاظٍ مُوهِمَةٍ أو تَقْسِيمَاتٍ؛ لا تَخدِمُ قَصْدَنا وهَدفَنا في تزكيةِ نُفوسِنَا، وتُعِيقُ طَرِيقَنَا في التَّعَرُّفِ على المَعانِي القَلْبِيَّةِ الإِيمانِيَّةِ التي هي حَقِيقَةُ العُبودِيّةِ.

نسألُ اللهَ سبحانَه وتعالَى أنْ يُسَدِّدَنا ويَنفعَ بِنَا ويَهْدِيَنا سَواءَ السّبِيلِ، ونَسألُه سبحانَه أن يَجعلَنا ممّن يَستمعونَ القَولَ فَيتَّبعونَ أحْسَنَهُ.

اللَّهُمَّ آتِ نَفُوسَنا تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا.

11 - 9 - 1442 هـ / 23 - 4 - 2021 م

الحِكَمُ التِي تَمَّ اخْتِيَارُهَا وشَرْحُها فِي هَذَا الكِتَابِ مِنْ مَجْموعِ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ:

1- مِنْ عَلَامَةِ الاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ.

2- سَوَابِقُ الْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ.

3- أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ.

4- اِجْتِهَادُكَ فِيمَا ضُمِنَ لَكَ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ، دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ.

5- لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِباً لِيأْسِكَ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ، لَا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ.

6- إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ، فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ، والْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهَ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟!

7- تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الأَعْمَالِ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ.

8- الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإِخْلَاصِ فِيهَا.

9- اِدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نِتَاجُهُ.

10- مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ.

11- كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟

12- إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ.

13- لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا، فَلَوْ أَرَادَكَ لَهَا لَاسْتَعْمَلَكَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ إِخْرَاج.

14- مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ.

15- لَا تَتَرَقَّبْ فُرُوغَ الأَغْيَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُراقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ.

16- لَا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الْأَكْدَارِ مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا، وَوَاجِبُ نَعْتِهَا.

17- ماَ تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ، وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ.

18- مِنْ عَلَامَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبِدَايَاتِ.

19- مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ، أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ.

20- مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ.

21- أُخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الحَقِّ مُجِيباً، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً.

22- أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَشَهْوَةٍ وَغَفْلَةٍ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا، وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ.

23- لا تَتَعَدَّيَنَّ هِمَّتُكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الآمَالُ.

24- لَا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً؟ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟

25- إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ، حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا؟ وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنَناً؟

26- العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ، {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

27- لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهِضُكَ حَالُهُ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ.

28- رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئاً فَأَرَاكَ الإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ.

29- مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلاَ كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ.

30- لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ، فَعَسَاهُ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}.

31- مِنْ عَلَامَةِ مَوْتِ الْقَلْبِ: عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَىَ مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوَافَقَاتِ، وَتَرْكُ الْنَّدَمِ عَلَىَ مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ.

32- لا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّـهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ.

33- لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ.

34- لَا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكَ. {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}.

35- مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ.

36- مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ.

37- أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ.

38- مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ، قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ الامْتِحَانِ.

39- مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا.

40- خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً لَكَ، {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}.

41- مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتُؤَخَّرُ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ، فَيَقُوْلُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوَءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الإمْدَادَ وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ، فَقَدْ يُقْطَعُ الْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعُ الْمَزِيدِ، وَقَدْ يُقَامُ مَقامَ البُعدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ.

42- مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا لِكُلِّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ.

43- إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلّاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لاَ بَقَاءَ لَهَا.

44- مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلاً.

45- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ، فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ.

46- مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِ عَنْهاَ، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً.

47- خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ.

48- الحُزْنُ عَلَى فُقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْها مِنْ عَلَامَاتِ الاغْتِرَارِ.

49- الرَّجَـاءُ مَا قَارَنَـهُ عَمَلٌ، وَإِلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ.

50- مَطْلَبُ العَارِفِينَ مِنَ اللَّهِ الصِّدْقُ فِي العُبُـودِيَّةِ، وَالقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبُـوبِيَّةِ.

51- رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، ورُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ.

52- مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ هُوَ عَيْنُ الْعَطَاءِ.

53- الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا.

54- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَى.

55- الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ.

56- جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً.

57- كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً.

58- كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ.

59- مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ.

60- إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ.

61- رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ القَبُولِ، وَقَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَاً فِي الوُصُولِ.

62- مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلّاً وَافْتِقَاراً خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْبَاراً.

63- مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ مِنْهُ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ.

64- لِيُخَفِّفْ أَلَمَ البَلَاءِ عَنْكَ، عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْتَلِي لَكَ، فَالَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدَارُ هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيَارِ.

65- مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ.

66- لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الْهَوَى عَلَيْكَ.

67- لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ.

68- مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ.

69- الغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ نَظَرَ فِي مَاذَا يَفْعَلُ، وَالعَاقِلُ نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ.

70- لِيَكُنْ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ، لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ.

71- الصَّلاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ، وَاسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ الْغُيُوبِ.

72- الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ، ومَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ؛ تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الأَسْرَارِ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوَارِ.

73- عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا، وَعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا.

74- مَتَى طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وِجْدَانُ السَّلَامَةِ.

75- لَا تَطْلُبْ عِوَضاً عَنْ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً، يَكْفِي مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً.

76- إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ، خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ.

77- لَا نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ.

78- كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً.

79- مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

80- مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرارِ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ وَالافْتِقَارِ.

81- لَوْ أَنَّكَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ، لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَغَطَّى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

82- لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ.

83- أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ.

84- السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وسَتْرٌ فِيهَا، فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ، والْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ.

85- مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ.

86- مَا صَحِبَكَ إِلَّا مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ.

87- خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لَا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ.

88- لَوْ أَشْرَقَ نُورُ الْيَقِينِ فِي قَلْبِكَ لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا وقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَنَاءِ عَلَيْهَا.

89- النّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا.

90- الْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

91- أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ فِيهِ.

92- إِذَا أُطْلِقَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ وَلَسْتَ لَهُ بِأَهْلٍ، فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

93- مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىَ وُجُودِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

94- إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبَباً يُؤْيِسُكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ.

95- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

96- رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ ماَ لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ، {لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً}.

97- حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلَاجُهُ.

98- رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَــاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إلَيْكَ.

99- اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

100- غَيِّبْ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ وُجُودِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ.

101- لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّباً إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ، وَقِيَاماً بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

102- كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَباً فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

103- جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ.

104- عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ؟

105- لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ، وَلاَ وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ.

106- عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ، فَقَالَ: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الأَزَلِ، فَقَالَ: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}.

107- إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَيْسَتْ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ.

108- رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ؛ اعْتِمَاداً عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ.

109- وُرُودُ الفَاقَاتِ أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ.

110- رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ.

111- تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

112- رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ.

113- تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ.

114- كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ.

115- الْعِبَارَاتُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ.

116- لَا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ.

117- مِنْ عَلَامَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّـكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ.

118- قَيَّدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ كَيْ لَا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةٌ فِي الاخْتِيَارِ.

119- عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ الإِيجَابِ، "عَجِبَ رَبُّـكَ مِنْ قَوْمٍ يُقادُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ".

120- أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلاَّ دُخُولَ جَنَّتِهِ.

121- مَنِ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ، فَقَدِ اسْتَعْجَزَ القُدْرَةَ الإِلَهِيَّةَ {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً}.

122- رُبَّمَا وَرَدَتِ الظُّلَمُ عَلَيْكَ، لِيُعَرِّفَـكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ.

123- مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدَانِهَا، عَرَفَهَا بِوُجُودِ فِقْدَانِهَا.

124- لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ القِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ.

125- تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ الْهَوَى مِنَ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ.

126- لا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ القَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ.

127- كَمَا لا يُحِبُّ العَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، كَذَلِكَ لا يُحِبُّ القَلْبَ الْمُشْتَرَكَ، العَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ.

128- أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الْوُصولِ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ.

129- رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ، فَوَجَدَتِ الْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ الآثَارِ، فَارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ.

130- فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَارِ، يَمْلَأْهُ بِالْمَعَارِفِ وَالأَسْرَارِ.

131- لا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ النَّوَالَ، وَلَكِنِ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبَالِ.

132- حُقُوقٌ فِي الأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، وَحُقُوقُ الأَوْقَاتِ لا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلـلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيْهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؟

133- مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لَا عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيمَةَ لَهُ.

134- مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً.

135- لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَذِهِ وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ لِمَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْكَ.

136- لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ.

137- النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وُجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

138- مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ، فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ العِيَانِ.

139- مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ.

140- لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

141- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وِلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ.

142- إِنْ رَغَّبَتْكَ البِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ.

143- إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلّاً لِلْأَغْيَارِ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ الْأَكْدَارِ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا.

144- عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا.

145- العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِنَاعُهُ.

146- خَيْرُ العِلْمِ مَا كَانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ.

147- العِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ، وَإِلَّا فَعَلَيْكَ.

148- مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ.

149- إِنَّمَا أَجْرَى عَلَيْكَ الأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، كَيْ لا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِم.

150- أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهَ شَيْءٌ.

151- إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ.

152- جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ.

153- مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقّاً، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقّاً.

154- لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنِ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ.

155- التَّوَاضُعُ الْحَقِيقِيُّ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ.

156- لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ، إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ.

157- المُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً.

158- لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ غَرضاً، فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ.

159- وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلاً، بَشَائِرُ العَامِلِينَ بِوُجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً.

160- كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ؟

161- أَكْرَمَكَ بكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ: جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ، وَلَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ.

162- رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيَلةٍ آمَادُهُ، كَثِيرَةٍ أَمْدَادُهُ.

163- الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَرحَلَ إِلَيْهِ.

164- الفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الأَغْيَارِ.

165- الفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ.

يَقُولُ ابنُ عَطاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ في أَوَّلِ حِكْمَةٍ سَطَّرَها:

1) مِنْ عَلَامَةِ الاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ.

– الاعتمادُ على اللهِ تعالى نَعْتُ المؤمنينَ الموحّدِينَ، والاعتمادُ على غيرِه وَصْفُ الجاهِلينَ الغافِلينَ، كائِناً ما كانَ ذلكَ الغيرُ، فالمؤمنونَ الموحّدونَ إذا وَقَعُوا في زَلّةٍ، أو أَصابَتْهُمْ غَفْلَةٌ، شَهِدُوا تَصْرِيفَ الحَقِّ تعالى لهم، وجَريانَ قَضائِه عليهِم، كما أنّهم إذا صَدَرَتْ عنهم طاعَةٌ، أو لَاحَ عليهم لائِحٌ مِنْ يَقَظَةٍ، لم يَشْهَدُوا في ذلكَ أَنْفُسَهُم، ولم يَروا فيها حَولَهُم ولا قُوّتَهُم، لأنّ السّابقَ إلى قُلوبِهم ذِكْرُ رَبِّهم، فأنفسُهم مُطمئنةٌ، وقلوبُهم ساكِنةٌ، ولافَرْقَ عندَهُم بينَ الحَالَيْنِ، لأنَّهم قدِ اسْتَوى خَوفُهُم ورَجاؤُهُم فلا يُنقِصُ مِنْ خَوْفِهم ما يَجتنبونَه مِنَ العِصْيانِ، ولا يَزِيدُ في رَجائِهِم ما يأتُونَ به مِنَ الإحسانِ.

– فيا أيُّها العبدُ إيّاك أنْ تَعْتَمِدَ في رِضا اللهِ على عَمَلٍ قد عَمِلْتَه، كالصّلاةِ والصّومِ والصّدقاتِ والذّكْرِ، بلِ اعْتَمِدْ على لُطْفِ اللهِ وكَرَمِهِ ورَحْمَتِه.

– يقولُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "لَنْ يُدْخِلَ أحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ قالوا: ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: لا، ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بفَضْلٍ ورَحْمَةٍ".
(البخاري ومسلم).

– لا يَعْتَمِدُ العَبْدُ في سُلُوكِ طَرِيقِ العُبوديّةِ على نَفْسِه ولا على عَمَلِه ولا على حَوْلِه وقُوّتِه، وإنّما يَعْتَمِدُ على فَضْلِ ربِّه وتوفِيقِه وهِدايَتِه وتَسدِيدِه، قالَ تعالَى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) القصص 68، وقال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) الأنعام 137، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) هود 118.

– فالاعتمادُ على النَّفْسِ والعَمَلِ مِنْ عَلامَةِ الشّقاءِ والبُؤْسِ، والاعتمادُ على اللهِ مِنْ تَحَقُّقِ الْمَعْرِفَةِ باللهِ، وعَلامَةُ الاعتمادِ على اللهِ أنَّه لا يَنقُصُ رَجاؤُه إذا وَقَعَ في العِصيانِ، ولا يَزيدُ رَجاؤُه إذا صَدَرَ منه إحسانٌ.

– فالعَمَلُ ليسَ ثَمَناً لِدُخُولِ الجَنّةِ، والمطلوبُ عندَ التّوفيقِ للطّاعاتِ أنْ تَطْمَعَ برضا اللهِ وثَوابِه، آمِلاً فَضْلَه وعَفْوَه وكَرَمَه.

– فَمِنْ أَبْرَزِ الدّلائلِ على الاعتمادِ على العَمَلِ، نُقصانُ الرّجاءِ عندَ التَّلَبُّسِ بالزَّلَلِ والـمَعاصِي والذُّنُوبِ.

– والمعنى أنّكَ عندما كنتَ تَرجُو كَرَمَ اللهِ وعَطاءَه إنّما كنتَ تَعتمِدُ في ذلك على عَمَلِكَ فلمّا قَلَّ غابَ الرّجَاءُ، فهذا هو الدَّلِيلُ على اعْتِمَادِكَ في رَجائِكَ على عَمَلِكَ لا على فَضْلِ اللهِ وكَرمِه.

– وهل تَأْدِيَةُ الأَوامِرِ التي طَلَبها اللهُ تُوجِبُ استحقاقَ الجنّةِ ومِلْكَهَا بِعَرقِ الجَبِينِ، كما يُوجَبُ استحقاقُ البَيْعِ والشِّراءِ والتَّمَلُّكِ بينَ العِبادِ؟ الأمرُ هنا مُختلِفٌ تماماً.

– ذلكَ شأنُ عِلَاقةِ العَبْدِ معَ العَبْدِ، أمّا معَ اللهِ عزَّ وجلَّ فليسَ كذلِكَ.

مَنِ الذي أَقْدَرَكَ على الصّلاةِ لِتُؤَدِّيَها؟ مَنِ الذي أَقْدَرَكَ على الصَّومِ وغيرِهِ مِنَ العِبادَاتِ؟ مَنِ الذي شَرَحَ صَدْرَكَ للإيمانِ؟ (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) الحجرات 17. مَنِ الذي حَبَّبَ إليكَ الإيمانَ وكَرَّهَ إليكَ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيانَ؟!

– لا يَجُوزُ لكَ أنْ تَتَصَوّرَ أنّكَ تَستحقُّ جَنّةَ اللهِ وثَوابَه لأنّكَ قَدّمْتَ له ما قد طَلَبَ وفَعَلْتَ ما أوجَبَ وتركْتَ ما حرَّمَ، لأنّ الاعتقادَ بذلك يعني أنّكَ تُؤمنُ بأنَّ عِباداتِكَ قُدْرةٌ ذاتيةٌ منكَ، وأنَّكَ تَفَضّلْتَ بها على اللهِ والعياذُ باللهِ، وأنّها بحركةٍ مِنْ كِيانِكَ، وأَنَّ كِيانَكَ مِلْكُ ذاتِكَ، وقُدرتَكَ مِلْكُ ذاتِك، فَعَمَلُكَ أنتَ المَالِكُ له، وقُدُراتُكَ أنتَ مُبدِعُها ومُوجِدُها، وكأنّكَ فيما تَتَخَيّلُ قُلتَ: هذه أوامِرُكَ قدْ أنْجَزْتُها كما تُريدُ بِقُدرَتِي وذَاتِي فأَعْطِنِي الجنّةَ التي وَعَدْتَنِي، فهي عَمَلِيَّةُ بَيْعٍ وشِرَاءٍ.

هل هذه حَقِيقَةُ العِلَاقةِ بينَ العَبْدِ ورَبِّه؟ أينَ إذَنْ وَاقِعُ العُبوديّةِ للهِ؟ أينَ قَوْلُنا: "لَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ".

– عندما أُحرِّكُ لِساني بالحَمْدِ، فأنا أَشْكُرُ اللهَ الذي حَرّكَ لِساني بالحمدِ، وإذا قُمتُ الليلَ، فأنا أُثْنِي على اللهِ الذي وفّقَنِي للقيامِ بين يديه، لولا حُبُّه ولولا عِنايتُه ولُطفُه لَغَرِقْتُ في الرُّقادِ.

– اعْتِمادِي على فَضْلِه وكَرَمِه أَوْلَى بي من اعْتِمادِي على أَفْعالِي المَدخُولَةِ، وصِفاتِي المَعْلُولَةِ، لأنّ مُقابَلَةَ فَضْلِه وكَرمِه بأفعالِنا من قِلّةِ مَعرفَتِنا بالكَرِيمِ الْمُتَفَضّلِ.

– أَمَةٌ صالحةٌ كانتْ تَقومُ مِنَ الليلِ، وسَمِعَها رَبُّ البيتِ تقولُ في سُجودِها: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بحبّكَ لي أنْ تُسْعِدَني، وأن تُعافِيَني، وتُكرِمَني. فاسْتَعْظَمَ الرَّجُلُ كلامَها، وبعد أنْ سَلَّمَتْ، قالَ لها، ما هذا الذي تَقُولينَ؟ قُولي: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بِحُبِّي لكَ. فقالتْ له: يا سيّدِي لولا حُبُّه لي لَمَا أَيْقَظَنِي في هذه السَّاعةِ، ولَمَا أَوْقَفَنِي بين يديهِ، ولَمَا أَنْطَقَنِي بهذهِ النّجْوَى.

– يَخْطُرُ هنا سُؤالٌ: هل يَتعارَضُ المعنى السّابقُ مع قولِ اللهِ تعالى: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) النحل 32، وغيرِها من الآياتِ التي جاءتْ كثيراً بمثلِ هذا المعنى؟

– إنَّ هذا القرارَ من طَرَفٍ واحدٍ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، لا من طَرَفَيْنِ مُتعاقِدَيْنِ. يُوَفِّقُكَ اللهُ للعَملِ ويُلهِمُكَ السّدادَ، وتَجأَرُ على بابِه بالدعاءِ: اللهمَّ لا حولَ لي ولا قوّةَ إلّا بِكَ، ناصِيَتِي بِيَدِكَ، تُصَرِّفُها كما تَشاءُ، فَخُذْ بها إلى طريقِ السعادةِ والرشادِ، فيستجيبُ اللهُ دعاءَك ويَشرحُ صدرَك للخيرِ، ويُوفّقُكَ للعملِ الصالحِ ثم يقولُ لكَ يومَ القِيامَةِ (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) النحل 32. فهل هذا يعني تنفيذاً لِعَقْدٍ رِضائِي بيني وبينه، كالعُقُودِ التي بينَ العبادِ؟ مَعَاذَ اللهِ، إنّه هو سبحانه جعلَ عملَكَ سَبباً لدُخولِ الجنةِ تَفضُّلاً وتَكرُّماً منه وإحساناً.

- وجُمِعَ بينَ الحديثِ والآيةِ أيضاً، بأنَّ العملَ لا يكونُ مُعتبراً إلّا إذا كانَ مَقْبُولاً، وقَبُولُه بِمَحْضِ الفَضْلِ، فَصَحَّ أنَّ دُخولَ الجنةِ بِمَحْضِ فَضْلِ اللهِ، وأنَّ العملَ سَبَبٌ ظَاهِرِيٌّ مُتَوَقِّفٌ عليه.

- فقد جَاءَ فِي المُستَدرَكِ للإمامِ الحَاكِمِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهُما قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي آنِفاً جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، إِنَّ للهِ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ عَبْدَ اللهَ تعالى خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعاً فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعاً، والبَحرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ اللهُ لَهُ عَيْنَا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبَعِ تَبُضُّ (يعني تَقطُرُ وتَسِيلُ) بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتُسْتَنْقَعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاتِهِ فَتَمَنَّى مِنْ رَبِّهِ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِداً وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلاً حَتَّى يَبْعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُهُ فِي الْعِلْمِ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَايِسُوا عَبدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ، فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَتِهِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ،

وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلاً عَلَيْهِ. فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ النَّارَ. قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ؛ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ لَهُ: أَكَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَمْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعُبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ فِي السَّنَةِ مَرَّةً، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِداً فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. قَالَ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، فَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي؛ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ. قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللهِ يَا مُحَمَّدُ».

– هذا الحَدِيثُ والذي قَبلَهُ يَدُلُّ على أنَّ دُخُولَ الجَنَّةِ لا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ العَمَلِ، بل لولا رَحمَةُ اللهِ تعالى وفَضْلُهُ لما دَخَلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ، لأنَّ الأَعمَالَ مَهمَا بَلَغَتْ لا تُقَاوِمُ نِعَمَ اللهِ تعالى التي أَنعَمَ بِهَا على عِبَادِهِ، فقد أَوجَدَهُم من عَدَمٍ، ورزَقَهُمُ الطَّيِّبَاتِ والنِّعَمَ الظَّاهِرَةَ والبَاطِنَةَ، وهَدَاهُم وشَرَحَ صُدُورَهُم للإسلامِ، وحَبَّبَ إِلَى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ، وأَعَانَهُم على فِعلِ الطَّاعَاتِ، وتَرْكِ المَعَاصِي والمُنكَرَاتِ.

– جَاءَ في الحَدِيثِ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ الْقَدَرِ، فَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ غَيْرَ

ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْراً مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ جَبَلُ أُحُدٍ أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ".

– فَدُخُولُ الجَنَّةِ لَيسَ عِوَضَاً عن العَمَلِ، ولا مُقَابَلَةً بِهِ، ولكنَّ الأَعمَالَ الصَّالِحَةَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الزخرف 72. وقَالَ تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل 32. إلى آخِرِ الآيَاتِ التي تَتَحَدَّثُ عن دُخُولِ الجَنَّةِ بِسَبَبِ العَمَلِ.

– فنحن يَنْبَغِي أن نَعْلَمَ أنّنا ندخُلُ الجنّةَ بِمَحْضِ التّفَضُّلِ منه عزَّ وجلَّ، تُؤَدِّي ما قد كَلّفَكَ به بِشُعورِ الحقِّ المترتّبِ عليك، حتى إذا فَعَلْتَ ما قد أمركَ اللهُ عزّ وجلّ به وأَنْجَزْتَهُ على النّحْوِ المطلوبِ، يَنْبَغِي أن تَعْلَمَ أنّكَ تَسْعَى إلى كرمِ اللهِ عزّ وجلّ مُجَرّداً من أيّ اسْتِحْقاقٍ لذلك، ليس معك إلّا الطَّمَعُ برحمتِه وصَفْحِه.

– رأى بعضُ الصالحينَ في مَنامِه رَجُلاً من الرّبانيينَ بعدَ وفاتِه، فقال له: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال: بِمَ جِئتَني؟ فقلتُ: يا رَبِّ أنا عبدٌ، والعبدُ لا يملكُ شيئاً يأتي به إلى سَيّدِه، جِئتُكَ بالطَّمَعِ بِعَفْوِكَ والأَمَلِ في كَرمِكَ.

– يَتَصَدَّقُ أحدُنا بِشَيءٍ مِنَ المالِ، ومِنَ المعلومِ أنّ المالَ مالُ اللهِ، وهو المالكُ الحقيقيُّ (وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) النور 33. ثم بعد ذلك يُخاطِبُنا بقوله: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) البقرة 245،

يُعطيكَ من مالِه ثم يَفترِضُ أنّكَ أنتَ المالكُ له، ويُقِيمُ ذاتَهُ العَلِيّةَ مَقامَ المقترضِ منك، قائلا: أَتُقْرِضُني من مَالِكَ هذا؟ إذاً أَعِدُكَ أنّي سَأُعِيدُه إليك أضعافاً مُضاعَفَةً. فهل تُصّدِّقُ أنّكَ أنتَ المالكُ حقاً؟ وأنّ اللهَ مُحتاجٌ إليكَ ومُقْتَرِضٌ منك؟ أَيُمكِنُكَ أنْ تَذْهَلَ عن الحقيقةِ وتُصَدِّقَ ذلك؟ ثم تَزعُمُ أنّ لكَ مَطالِبٌ عندَ اللهِ بما أَقْرَضْتَهُ إيّاهُ، مُضافاً إليها الفَوائِدُ التي وَعَدَكَ بها؟!

– (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) التوبة 111.

يُروَى عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال:"أَنْفُسٌ هو خَالِقُها، وأمْوَالٌ هو رَازِقُها، ثم يُعطِينا الجنّةَ، نِعْمَتِ الصَّفْقَةُ الرّابحةُ". ويُروَى عنِ الحسنِ البصريِّ رحمهُ اللهُ أنّه قَرَأَ هذه الآيةَ فقال: "انْظُرُوا إلى كَرَمِ اللهِ تَعالَى. أَنْفُسٌ هو خَالِقُها، وأموالٌ هو رَازِقُها، ثم يُكافِئُنا عليها متى بَذَلْنَاها فى سَبيلِه بالجنّةِ".

لأنّ النَّفْسَ له والمالَ له، أنْفُسٌ هو خَالِقُها، وأموالٌ هو رَازِقُها، والجنّةُ بِلَا مُقابِلٍ (بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ). فاللهُ تعالى هو المتفضّلُ في الحقيقةِ بالثّمنِ جميعاً، وهو الموفّقُ للعملِ والمُعينُ عليه، فلا جَرَمَ أنْ يكونَ دخولُ الجنةِ بفضلِه ورحمتِه.

– واعْلَمْ أنّهُ لا تَعارُضَ بينَ وَعْدِ اللهِ بِدُخُولِ الجنّةِ برحمتِه، وبينَ الأمرِ في الوقتِ ذاتِه بعبادَتِه، لأنّ العِبادةَ حقٌّ للهِ عليكَ بِوَصْفِ كَوْنِكَ عَبداً له، والجنّةَ مِنْحَةٌ وعَطِيّةٌ مِنَ اللهِ لك، كَوْنُهُ رحيماً بكَ وغَفُوراً لكَ، وقدْ قَضَى بِسَابِقِ حُكْمِهِ أنْ يَكُونَ أَوْلَى النّاسِ برحمتِه أكثرُهم أداءً لحقوقِه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ). الأعراف 156.

– إذاً (مِنْ عَلامَةِ الاعْتِمادِ عَلى العَمَلِ، نُقْصانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وُجودِ الزَّلَلِ)، فَمِنْ أَخْطَرِ نتائجِ اعتمادِكَ على العملِ، نُقصانُ رجائِكَ بعفوِه عندما تَتورَّطُ في الزّلَلِ والآثامِ، والسَّبِيلُ إلى تَجَنُّبِ ذلك أنْ لا تَعتمدَ على عملِكَ عندما يُحالِفُكَ التّوفيقُ، وتكونَ دائماً مُتطلّعاً إلى جُودِ اللهِ وكرمِه، بقدْرِ ما تكونُ خائفاً مِنْ غضبِه ومقتِه.

– فالخوفُ من غَضَبِ اللهِ وعِقَابِه يَجِبُ أن يكونَ مَوْجُوداً مع الرَّجاءِ الدّائمِ برحمتِه وفضلِه، لأنّ الإنسانَ لن يَنْفَكَّ عَنِ التّقْصِيرِ في أداءِ حُقوقِ الله، في سائرِ التَّقلُّباتِ والأحْوَالِ.

– أَمْرانِ لا يَنفكُّ واقعُ العُبوديةِ عنهما: أحدُهما: سُلُوكُ مَسالِكِ الهُدَى والالتزامُ بالأوامرِ والابتعادُ عن النّواهي، وثانيهما: العِلْمُ بأنّهُ بِرَحمةِ اللهِ وعفوِه، لا بالجُهدِ والعملِ تُنَالُ المثوبةُ والأجرُ.

– وهذا لا يُنافِي الطَّمَعَ في إحْسَانِه، بِمُقْتَضى فَضْلِه عند حُصولِ الطاعةِ، والخوفَ من عِقابِه بِمُقْتَضى عَدْلِه عند الابْتِلَاءِ بالمَعصيةِ، فَنَظَرُ العامِلِ إلى رَبِّه، لا إلى عَمَلِه.

– أنَفِّذُ أوامري لله، وهي ضَريبةُ العُبوديةِ، ثم أَبْسُطُ كَفَّيَّ إلى السماءِ قائلاً: "يا رَبِّ، أنا عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتِي بيدكَ مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤُكَ، أسألُكَ رَحمتَكَ، لا تُعامِلْنِي بما أنا لَهُ أَهْلٌ، بلْ عَامِلْنِي بما أنتَ له أهلٌ، إنّكَ أهلُ التقوى وأهلُ المغفرةِ". أقولُ ذلك دون أنْ أُطالِبَهُ بأجرٍ على

عملٍ أَرَى أنّي قد بَذَلْتُه، بلْ أَسْتَرْحِمُهُ بِمُقْتَضى ضَعْفِي وشِدّةِ احْتِياجِي، وأَسْتَجْدِيه العَطاءَ والفضلَ والكرمَ. هكذا تكونُ العبوديةُ للهِ سبحانَه وتعالَى.

– واعْلَمْ أنَّ التَّلَبُّسَ بِعَكْسِ ما ذكرَهُ ابنُ عَطَاءِ اللهِ، هو الآخرُ دليلٌ على الاعتمادِ على العملِ، أيْ فَمَنِ ازْدَادَ رَجاؤُهُ بِفَضْلِ اللهِ ومَثُوبَتِه كُلّما ازْدَادَ إقبالاً على اللهِ بالعملِ الصالحِ، فذلك دليلٌ منه على أنّه إنما يَعتمدُ على عَمَلِه، لا على صَفْحِ اللهِ ومغفرتِه ورحمتِه. ذلك أنّ النتيجةَ التي سينتهي إليها هذا العبدُ، أنّه في مَرحلةٍ مُعَيّنةٍ سَيجزمُ بأنّه قد أصبحَ من أهلِ الجنّةِ، ومن الـمُكْرَمِينَ بالنّعيمِ، إذ هو بِمُقْتَضى ذلك الرّبْطِ بين العملِ والأجرِ، لا بُدّ أنْ يَعتقدَ أنّ عملَه كلَّه مبرورٌ وأنّ حياتَه مليئةٌ بالطاعاتِ، إذَنْ فهو مِنْ أهلِ الجنّةِ قَطْعاً، وهذا هو التَّأَلّي على اللهِ والعِياذُ باللهِ.

– فحقوقُ اللهِ على العبادِ لا تُؤَدَّى بطاعاتِه مهما كَثُرتْ وعَظُمَتْ، بل سَتظلُّ باقيةً، ولو أُدِّيَتْ حُقوقُه بالطاعاتِ لكانَ أَوْلَى النّاسِ بذلكَ الرسلُ والأنبياءُ، ومع ذلك فما وَجدْنا واحِداً منهم عَقَدَ رَجاءَهُ بمثوبةِ اللهِ بطاعاتِه وقُرُباتِه، بل كانوا جميعاً يَتطلّعُونَ إلى مغفرةِ اللهِ وصفحِه.

– وخيرُ مثالٍ على ذلك قولُ سَيّدِ المرسلينَ والأنبياءِ صلى الله عليه وسلم: "لَنْ يُدْخِلَ أحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: لا، ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بفَضْلٍ ورَحْمَةٍ". (البخاري ومسلم).

– وصَفْوَةُ القولِ أنّه يجبُ على العبدِ أنْ يَعْبُدَ اللهَ لأنّه عبدُه ولأنّ اللهَ ربُّه، سواءً أثابَهُ على عبادتِه أمْ لم يُثِبْهُ، ثم عليه أن يَسألَه جنّتَهُ تَفضّلاً منه وإحساناً، ويَستعيذُ به من نارِه وعذابِه، تَلَطُّفاً واسْتِرْحاماً.

– ومقصودُ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ هو تنشيطُ العبدِ في الطاعاتِ وأفعالِ الخيرِ، ورفعُ هِمّتِه عن الاعتمادِ عليها إلى الاعتمادِ على فضلِ الله، وليسَ مقصودُه الأمرُ بتركِ العبادةِ، فهو أرادَ بهذه الحكمةِ عدمَ التّعويلِ على الأعمالِ، بل الاعتمادُ على فضلِ الله، حتى لا يَقْنَطَ مُخطئٌ من رحمةِ ربه، بل يَطْمَعُ دائماً في رحمتِه، ويَجْعَلُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ قولَه تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ). الشورى 25.

2) سَوَابِقُ الْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ.

– الهِمّةُ هي قُوّةُ انْبِعَاثِ القَلْبِ في طَلَبِ الشيءِ والاهْتِمَامِ به، فإنْ كانَ ذلك الأمرُ رفيعاً كمعرفةِ اللهِ وطلبِ رضاهُ سُمِّيَتْ هِمّةً عاليةً، وإنْ كانَ أمراً خَسِيساً كطلبِ الدنيا وحُظوظِها سُمِّيَتْ هِمّةً دَنِيّةً.

– يعني أنّ ما قَدَّرَهُ اللهُ في الأَزَلِ لا تَخْرِقُ أسْوارَه المُحيطةَ به سوابِقُ الهِمَمِ، والهِمَمُ السوابقُ هي قُوى النّفسِ التي تنفعلُ عنها الأشياءُ بإرادةِ اللهِ، وتكونُ للمؤمنِ كرامةً، ولغيره كالسّاحرِ والعائنِ إهانةً.

– ولنْ نقفَ هنا عندَ بيانِ كراماتِ اللهِ لأوليائِه وعبادِه الصالحينَ تَفْصِيلاً، ولكنْ لا بأسَ أنْ نُذَكِّرَ أنّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يُؤمنونَ بوقوعِ الكراماتِ الخارقةِ للعادةِ لمن أرادَ اللهُ من عبادِه، لِثُبوتِ ذلك بِنُقولٍ لا تُحصى، ولِدَلالَةِ الكتابِ والسنةِ وسيرةِ السلفِ ومَن تبعهم بإحسانٍ.

– ومَنْ عادَ إلى كُتُبِ أهلِ السنةِ وجدَ موقفَهم من الكرامةِ وسَطاً بين إنكارِ الجافينَ، وتوسُّعِ الغَالِين. قال الطحاويُّ رحمهُ اللهُ عنِ الأولياءِ: "ونُؤمنُ بما جاءَ مِنْ كَراماتِهم وصَحَّ عنِ الثِّقاتِ مِنْ رِواياتِهم". وقال ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ: "ومِنْ أُصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ: التصديقُ بكراماتِ الأولياءِ، وما يُجْرِي اللهُ على أيديهِم مِنْ خَوارقِ العاداتِ في أنواعِ العُلومِ والمُكاشفاتِ، وأنواعِ القُدرةِ والتّأثيراتِ، كالمَأثُورِ عنِ سالفِ الأُمَمِ في سُورةِ الكهفِ وغيرِها، وعنْ صَدْرِ هذه الأمّةِ مِنَ الصّحابَةِ والتّابِعينَ وسائِرِ قرونِ الأمةِ، وهي مَوجُودَةٌ فيها إلى يومِ

القِيامَةِ". وقال أيضاً: "ولقد تواترتْ نصوصُ الكتابِ والسنةِ والوقائعُ قديماً وحديثاً على وقوعِ كراماتِ اللهِ لأوليائِهِ المُتّبِعينَ لأنبيائِه".

– إذاً فالهممُ السابقةُ قد يقعُ بها خارقٌ للعادةِ، ولكنّها لا تَخْرِقُ أسوارَ الأقدارِ، لأنّ أسوارَ أقدارِ اللهِ أَجَلُّ مِنْ أنْ تَنْخَرِقَ بها، إنّما تقعُ خوارقُ العاداتِ بها إذا أَذِنَ اللهُ بها وقدَّرَها، فإذا كانَ هذا حالُ سوابِقِ الهِمَمِ، فكيفَ حالُ أَرَاذِلِها؟ فلا يَنبغي للعبدِ أن يُرِيدَ غيرَ ما أرادَه مولاهُ، بل يَرضَى بما أَوْلَاهُ.

– "سَوَابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدارِ". الهِمَمُ والعَزائِمُ التي يُمَتِّعُ اللهُ بها الناسَ مهما اشتدّتْ وقَوِيَتْ في نُفوسِ أصحابِها، فإنّها لا تَستطيعُ أنْ تَخترقَ أسوارَ الأقدارِ، فَشَبَّهَ ابنُ عطاءِ اللهِ القَدَرَ الذي قدّرَهُ اللهُ بِسُورٍ مُحْكَمٍ عالٍ غليظٍ، مهما أرادَ الأعداءُ أنْ يَخترقُوهُ لن يَستطيعوا إلى ذلك سَبيلاً، أيْ أنّكَ لا تَسْتَطِيعُ أنْ تُلغِيَ أو تَقْفِزَ أو تَخْتَرِقَ أقْدَارَ اللهِ تَعالَى بِهِمَمِكَ مهما أُوتِيتَ من عزمٍ وهِمّةٍ وقوةٍ.

– والمعنى الذي يَرمِي إليهِ ابنُ عطاءِ اللهِ: يا ابنَ آدمَ اكْدَحْ كما تُحِبُّ، وابحثْ عن النّتائجِ كما تَشاءُ، ومَارِسِ الأسْبابَ في عالَمِها الذي أقامَك اللهُ فيه جُهْدَ استطاعتِكَ، ولكنْ فَلْتَعْلَمْ: أنَّ الأسبابَ التي تتعاملُ معها مهما كانتْ، تَتَحَوّلُ إلى ظَواهِرَ مَيّتةٍ، إنْ هي عارَضَتْ قضاءَ اللهِ وحُكْمَهُ الْمُبرمَيْنِ في سابِقِ غَيْبِهِ.

– والهِمَمُ السّابقةُ ولو كانتْ خارقةً للعادةِ، لا تَنفعلُ الأشياءُ عنها إلّا بالقضاءِ والقَدَرِ، وذلك قولُنا: "بإذنِ اللهِ تعالى"، وهذه الهِمَمُ قد تكونُ كرامةً للصّالحينَ،

وقد تكونُ لغيرِهم استدراجاً ومكراً، كما في حالِ العائنِ والسّاحرِ، وقد ثبتَ بالنّصوص أنّهما حَقٌّ، ولكنْ يجبُ أنْ يُعتقَدَ أنّها أسبابٌ لا تأثيرَ لها ولا فَاعِلِيَّةِ، لأنّ الفاعلَ هو اللهُ تعالى وحدَهُ عندَها لا بِها.

– انظرْ إلى قولِه تعالى: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)، إلّا بإذنِ اللهِ بإرادتِه وقضائِه وقَدَرِه. فإنّ الأسبابَ مهما بَلَغَتْ في قُوّةِ التّأثِيرِ، فإنّها تابِعةٌ للقضاءِ والقَدَرِ ليستْ مُستقلَّةً في التّأثيرِ. (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). التكوير 29.

– غيرَ أنّ هذا قد يُثيرُ التّساؤلَ لدى البعضِ: إذنْ فِيمَ التعاملُ مع الأسبابِ، ما دامَ أنّها لا تَخْرِقُ أسوارَ الأقدارِ؟ فِيمَ المَشْيُ في مَناكِبِ الأرضِ والسّعيُ من أجلِ الكَدْحِ والرِّزقِ؟

– والجوابُ أنّنا من الأسبابِ الكونيةِ المختلفةِ في إحدى حالتَيْنِ:

الأُولى، أنْ تكونَ الأسبابُ المشروعةُ كلُّها بعيدةً عنكَ غيرَ خاضعةٍ لجُهُودِكَ، فالمطلوبُ منك الاستسلامُ والانتظارُ، أما الأسبابُ غيرُ المشروعةِ فتكاثُرها في حُكمِ العَدَمِ، فينبغي تجاهلُها والابتعادُ عنها.

والحالة الثانية: أن تكونَ الأسبابُ المشروعةُ مَوفورةً أمامَكَ ومن حَوْلِكَ، إذنْ فينبغي أنْ تُقْبِلَ إليها وتتعاملَ معها، لا لأنّها ذاتُ فاعليّةٍ أو مُقاوِمَةٌ لقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، مَعَاذَ اللهِ، بل لأنّ اللهَ لَمّا أقامَك فيها فقد أمرَك بالتّعاملِ معها، مع اليقينِ الذي يجبُ أن لايُبارحَ عقلَكَ، من أنّ الفاعليةَ إنّما هي لإرادةِ اللهِ وحُكمِهِ،

لا لتلك الأسبابِ التي تتعاملُ معها وكأنّك تعتمدُ عليها، فالتّعاملُ في الحقيقةِ معه، لا معها، والآثارُ المترتّبةُ إنما هي منه عزّ وجلّ، لا منها، وهذا يعني أنّ الأسبابَ خَدَمٌ لقضاءِ اللهِ وقدرِه، وليسَ القضاءُ والقدرُ خادمَيْنِ للأسبابِ.

– إنّ ما يَتراءى لنا أنّه أسبابٌ ليس إلّا جنوداً مَحكومةً بسلطانِ اللهِ وأمرِه، وليس فيها فاعليةٌ كامِنةٌ مُنفصلةٌ عن الفاعلِ الأوحدِ وهو اللهُ عزّ وجلّ.

– وتتجسدُ هذه الحقيقةُ، في الكلمةِ القدسيةِ التي علّمَنا إيّاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ)، فانظرْ إلى هذه الجملةِ الجامعةِ، كيف نَفَتْ جِنْسَ الحولِ كلِّه والقوةِ كلِّها، عن كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ لحظةٍ، لحصرِهما في ذاتِ اللهِ عزّ وجلّ، نَفْيُ الحولِ والقوةِ عن كلِّ المخلوقاتِ أيّاً كانتْ، وإثْباتُها للهِ وحدَه.

– إنَّ التَّعامُلَ مع اللهِ عزّ وجلّ إنّما يكونُ بالانسجامِ مع أوامرِه، والتعاملِ مع نظامِه الذي أقامَ هذا الكونَ على أساسِه. وقد أُمِرْنا إذا جُعنا أن نأكلَ، وإذا ظَمِئنا أن نشربَ، وإذا مَرِضْنا أن نَتداوى، وأن نأخذَ حِذْرَنا ممّا يبدُو أنّه سببٌ للآلامِ أو الهلاكِ أو الأسقامِ، ثم أُمرنا أن نعلمَ علمَ اليقينِ أنْ لا فاعليةَ إلّا للهِ، وأن لا تأثيرَ إلّا بحكمِ اللهِ، وأن نعلمَ أنَّ اللهَ هو الخالقُ لكلِّ شيءٍ والآمرُ لكلِّ شيءٍ بأداءِ ما وُكِلَ إليه: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والْأَمْرُ) الأعراف 54. أُمرنا أن نتعاملَ مع ما يَبدُو لنا أنّه سببٌ وَعِلّةٌ، وأُمرنا في الوقتِ ذاتِه أن نعلمَ أنَّ: "سَوابِقَ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أسوارَ الأقْدارِ".

3) أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ.

- كأنَّ المؤلفَ رحمهُ اللهُ يقولُ لك تَتِمَّةً للحِكْمَةِ السّابِقَةِ: إذا كانتْ سَوابقُ الهممِ لا تَخرِقُ أسوارَ الأقدارِ، فكيفَ بالتّدبيرِ والاخْتيارِ؟ وما لا فائدةَ فيهِ تعبٌ لا ينبغي التشاغلُ به.

- قال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ الله: "ذَرُوا التّدبيرَ والاختيارَ، فإنّهما يُكدِّرانِ على الناسِ عَيْشَهُم". وقال مسروقُ بنُ الأَجْدَعِ رحمه الله: "مَنْ تركَ التدبيرَ فهو في راحةٍ". وقال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ رحمه الله: "الرِّضَى بابُ اللهِ الأعظمُ، ومُسْتَرَاحُ العابدينَ، وجنّةُ الدنيا".

- وإنّما يُعِينُ على إسقاطِ التدبيرِ النظرُ لِسَابِقِ القِسمةِ، وأنّ الأمرَ مَفروغٌ منه، وهو ما أشارَ إليه بقولِه: "فَما قامَ بِهِ غَيرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بهِ لِنَفْسِكَ".

ففي طَيِّ كلامِه أنّ هناك أمراً وُكِلَ إلى قيامِكَ به، لا يَصِحُّ إهمالُكَ له، وهو العملُ فيما لابُدَّ لك منه في دينِكَ ودُنياكَ.

- يقول سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ: "للعبادِ على اللهِ تعالى ثلاثةُ أشياءَ: تَكْلِيفُهُم، وآجالُهُم، والقِيامُ بأمْرِهِم، وللهِ تعالى على العبادِ ثلاثةُ أشياءَ: التوكُّلُ عليه، واتّباعُ نبيّه، والصَّبرُ على ذلك إلى المَوْتِ".

– فَمَنْ لم يَتَّبِعْ فمُبْتَدِعٌ، ومَنْ لم يَتَوَكَّلْ فمُدَبِّرٌ، ومَنْ لم يَصْبِرْ فمُنازِعٌ، وكُلُّ ذلك مِنْ عَمَى البَصيرةِ، وسُوءِ السَّريرةِ، بخلافِ العكس، وهذا ما نبّه عليه كما سيأتي في الحكمةِ اللاحقةِ: (اجْتِهادُكَ فيما ضُمِنَ لَكَ وَتَقصيرُكَ فيما طُلِبَ مِنْكَ دَليلٌ عَلى انْطِماسِ البَصيرَةِ مِنْكَ).

– أرِحْ نَفْسَكَ من أنواعِ عذابِ التَّدْبِيرِ فيما ضَمِنَ لكَ مَولاكَ، فالإراحةُ منه جَنّةٌ عاجلةٌ، والانهماكُ فيه نارٌ عاجلةٌ، فما قامَ به غيرُكَ نيابةً عنك هو اللهُ الذي تكفّلَ بأرزاقِ عبادِه، لا تَقُمْ به لِنَفْسِكَ، إذ قيامُ القادِرِ يُغني عن قيامِكَ، بل قيامُكَ عَبَثٌ وسُوءُ أدَبٍ معه، واتّهامٌ له فيما تَكَفّلَ.

– أرحْ نفسَكَ من تَعَبِ التدبيرِ المُنافِي للعبوديةِ، بأنْ تقولَ: لولا فعلتُ كذا ما كانَ كذا، فإنَّ اللهَ تعالى دَبَّرَ الأشياءَ في سابقِ علمِه، وما قامَ به غيرُك عنكَ لا تقومُ به لنفسِكَ، لأنّك عاجزٌ عن القيامِ به، وأمّا التّدبيرُ المصحوبُ بالتفويضِ للعليمِ الخبيرِ فلا بأسَ به.

– وقد يكونُ معنى التدبيرِ هنا: النّظَرُ إلى عواقبِ الأمورِ والمآلاتِ والنتائجِ، وهي تَتعلّقُ بمعنى التّوكلِ على الله (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) آل عمران 173، (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران 159، (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) التوبة 51.

– وهناك فارقٌ مُعتَبَرٌ بين التوكّلِ وبين التّدبيرِ، وهو الفارقُ بين الأسبابِ والنتائجِ، أي بين الأخذِ بالأسبابِ وبذلِ الجُهدِ، وبين نتيجةِ العملِ والمآلاتِ، أنت عليك العملُ فيما يَرضى اللهُ ويُحبُّ، وعليك التوكّلُ، ولكنْ ليس عليكَ أنْ تُدَبِّرَ الأمرَ، فالذي يُدِبّرُ الأمرَ هو اللهُ سبحانه وتعالى.

– التعاملُ مع الأسبابِ جهدٌ مادّيٌّ يَبذُلُه المتعاملُ معها، وأما التّدبيرُ فعملٌ فكريٌّ وقرارٌ عقليٌّ.

يُحدّثُ الإنسانُ نفسَه بأنّه بتعامُلِه مع الأسبابِ قد رتّبَ لنفسِه خُطّةَ الرّبحِ وضَمِنَ لنفسِه النتائجَ، فالأسبابُ في نظرِه خَدَمٌ تحتَ سُلطانِه وأدواتٌ لتدبيرِه، وعقلُه هو مِفْتاحُ نجاحِه ومصدرُ تدبيرِه، أَلَا تَراهُ يقولُ: أرحْ نفسَك، بدلاً من أن يقولَ: أرحْ جِسْمَك. فالتعاملُ مصدرُه الجسمُ، وهو مطلوبٌ ومرغوبٌ، والتدبيرُ مصدرُه النفسُ والفكرُ، وهو مرفوضٌ ومكروهٌ.

– واجباتٌ كلّفني اللهُ بها، أَدّيتُها كما طلبَ. ما الذي سيَخْلُقُه اللهُ مِنْ وراءِ ذلك؟ إنّه عائدٌ إلى تدبيرِ اللهِ وحُكمِه، وأنا مُستسلمٌ لقضائِه راضٍ بحُكمِه.

– إذاً هو تعاملٌ مع الأسبابِ القائمةِ بما يَتّفِقُ مع الشّرعِ، وتسليمٌ لِحُكمِ اللهِ وتدبيرِه مع ذلك وبعدَ ذلك.

– أُنظرْ إلى نَبِيّنا وقدوتِنا صلى الله عليه وسلم يومَ هاجرَ مُصطحباً أبا بكرٍ رضي الله عنه، كيف تعاملَ في هجرتِه مع الأسبابِ كلِّها، خرجَ مُتخفّياً، تركَ عليّاً رضي الله عنه ينامُ في فراشِه، تركَ الرّاعيَ يسيرُ بأغنامِه لِتَعْفِيَ آثارَهما، أقاما ثلاثةَ أيامٍ في غارِ ثورٍ، عَهِدَ إلى رجلٍ من المشركينَ مأمونِ الجانبِ أنْ يَلقاهُما عند غارِ ثورٍ لِيَدُلّهما على الطريقِ إلى المدينةِ، وفي أثناءِ اختفائِهما في الغارِ، وصلَ جمعٌ من المشركينَ، وأصبحتْ فتحةُ الغارِ تحتَ أبصارِهم، واضطربَ أبو بكرٍ وقال: لو أنّ أحدَهم نظرَ عند قدمِه لَرَآنا، فقال له: "ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟". ولَمّا خَرجا لِيُواصِلا سيرَهُما أدرَكَهُما سُراقَةُ على فرسِه، وأخذَ أبو بكرٍ يتلفّتُ إليه وقد دَاخَلَهُ الخوفُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ورسولُ اللهِ ماضٍ في سَيْرِه لا يَلتفِتُ يُسْرةً ولايُمنةً، يُواصلُ مُعتمِداً على حِمايةِ اللهِ وتدبيرِه، وهذا هو إسقاطُ التّدبيرِ والاعتمادُ على تدبيرِ الله.

– مارَسَ الأسبابَ وتعامَلَ معها خُضوعاً لأمرِ الله، ثمّ نَسِيَ الأسبابَ وقِيمَتَها، ورَبطَ النتائجَ في يقينِه الاعتقادِيّ، بِحُكمِ اللهِ ولُطْفِه، مع ثِقَتِه التّامّةِ بِحِكْمَتِه ورحمتِه وتوفيقِه.

– إذن فهذا المشهدُ النّبويُّ يشرحُ لنا قولَ ابنِ عطاءِ اللهِ: "أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ. فَما قامَ بِهِ غَيرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بهِ لِنَفْسِكَ".

4) اِجْتِهَادُكَ فِيمَا ضُمِنَ لَكَ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ، دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ.

– يقولُ إبراهيمُ الخَوّاصُ رحمهُ اللهُ: "العِلْمُ كُلُّهُ في كَلِمَتَيْنِ: لا تَتكَلَّفْ ما كُفِيتَ، ولا تُضَيّعْ ما اسْتُكْفِيتَ".

– الشيءُ المضمونُ للعبدِ هو رِزْقُهُ، فاللهُ تَكفّلَ بذلك، وفَرّغَ العبادَ عنه، والشيءُ المطلوبُ من العبدِ هو العملُ الذي يُتوصّلُ به إلى سعادةِ الآخرةِ، والقُرْبِ من اللهِ تعالى من عباداتٍ وطاعاتٍ، فهو مَوْكُولٌ إلى اجتهادِ العبدِ فيه، ومُراعاةِ شُروطِه وأسبابِه وأوقاتِه. (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ). الذاريات 56، 57، 58.

– يقولُ الإمامُ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في تَفسيرِه: (مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ) أيْ: أنْ يَرزُقُوا أحداً مِنْ خَلْقِي ولا أنْ يَرزُقُوا أنفسَهم (وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) أي: أن يُطعِمُوا أحداً من خَلْقِي، كما جاءَ في صحيحِ مُسلمٍ، يقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ كيفَ أعُودُكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قالَ: يا رَبِّ وكيفَ أُطْعِمُكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّه اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو

أطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِندِي، يا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قالَ: يا رَبِّ كيفَ أسْقِيكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: اسْتَسْقاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أما إنَّكَ لو سَقَيْتَهُ وجَدْتَ ذلكَ عِندِي". ثم بيّن أنَّ الرّازِقَ هو لا غَيرُه فقال: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) يعني: لجميعِ خلقِه.

– قال ابنُ عباسٍ وأبو الجوزاءِ كما في تفسيرِ القرطبيّ: (مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) أي ما أُريدُ أن يَرزُقوا أنفسَهم ولا أنْ يُطعِمُوها. وقيل: المعنى ما أُريدُ أنْ يَرزُقوا عبادِي ولا أنْ يُطْعِمُوهم.

– وفي الحديثِ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه: "تَلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم"، أي: قَرَأَ على الصَّحابَةِ قوْلَهُ تَعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "يقولُ اللهُ: ابنَ آدَمَ! تفرَّغْ لِعِبادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وإِلَّا تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا ولم أَسُدَّ فَقْرَكَ". أخرجَهُ الترمذيُّ، وابنُ ماجَه، وأحمدُ مُختصراً، وهو في صحيح الترغيب للألباني.

– وعنْ حَبَّةَ وَسَوَاءَ اِبْنَيْ خَالِدٍ أنَّهمَا أَتَيَا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَعملُ عملًا يَبني بِناءً، فلمَّا فَرَغَ دَعانَا، فقالَ: "لَا تُنَافِسَا فِي الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُؤُوسُكُمَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ وَيَرْزُقُهُ".
(الترغيبُ والترهيبُ للمُنذريّ بإسنادٍ صحيحٍ أو حسنٍ).

– وقد وَرَدَ في بَعْضِ الكُتُبِ: "يَقُولُ اللهُ تَعالى: ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ لِعِبَادَتِي فَلَا تَلْعَبْ، وتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ فَاطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتَّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ".

– ويُفهَمُ من الحكمةِ أيضاً: أنّ دَلِيلَ انطماسِ البصيرةِ هو اجتماعُ الأمرينِ، أيْ الاجتهادُ في طلبِ الرّزقِ مع التّقصيرِ في العملِ. أمّا الاجتهادُ في طلبِ الرزقِ الحلالِ مِنْ غيرِ تَقْصيرٍ في العبادةِ والطاعةِ فإنّهُ يُكْسِبُ الخيرَ، ويُعْقِبُ الأجرَ (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ). الملك 15

– وتعبيرُ المؤلفِ رحمهُ اللهُ بالاجتهادَ إشعارٌ بأنّ طَلَبَ الرِّزْقِ من غيرِ اجتهادٍ فيه غيرُ مقصودٍ بالكلامِ، وهو كذلك، لأنّهُ مُباحٌ ومأذونٌ فيه، فلا يَدُلُّ ذلك على انْطِماسِ بَصِيرَةِ صَاحِبِه إلّا إنِ اقْتَرَنَ به تَقصيرٌ فيما أُمِرَ به.

– ففي الناسِ مَنْ يجتهدونَ ويَجِدُّونَ ويُرهِقُونَ أنفسَهم فيما قد ضَمِنَهُ اللهُ لهم، ويُعْرِضُونَ عنِ الوظيفةِ التي طلبَها اللهُ في مُقابِلِ ذلك منهم، وهذا دليلٌ كما قال ابنُ عطاءِ اللهِ على انطماسِ البصيرةِ مِنْ هؤلاءِ الناسِ، وهو إنْ دَلَّ على شيءٍ، فإنّما يَدُلُّ على عدمِ الثّقةِ بوعدِ اللهِ وما قد ضَمِنَه للإنسانِ كما يدلُّ على الرّعونَةِ النّفسيةِ التي تُهَيْمِنُ على كِيانِه وتفكيرِه.

– قال ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في كتابه (التنويرُ في إسقاطِ التدبيرِ): في قوله تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) طه 132، أي: قُمْ بخدمتِنا، ونحن نقومُ لك بقِسمَتِنا، وهما شيئانِ: شيءٌ ضَمِنَهُ اللهُ لك، فلا تَتّهِمْهُ، وشيءٌ طلبَه منك، فلا تُهْمِلْهُ، فمَنِ اشتغلَ بما ضُمِنَ له عمّا طُلِبَ منه، فقد عَظُمَ جهلُه، واتّسعتْ غفلتُه، وقلَّ أن ينتبهَ لمن يُوقظُه، بل حَقِيقٌ على العبدِ أن يَشتغلَ بما طُلِبَ منه عمّا ضُمِنَ له، إذا كان اللهُ سبحانه وتعالى قد رَزَقَ أهلَ الجحودِ كيفَ لا يَرْزُقُ أهلَ الشُّهودِ، وإذا كان سبحانه قد أَجرَى رِزقَه على أهلِ الكُفرانِ، فكيف لا يُجْرِي رِزقَه على أهلِ الإيمانِ؟

– فاجتهادُكَ واهتمامُكَ الشّاغلُ عن العبادةِ فيما ضُمِنَ لك من الدنيا، مما تقومُ به حياتُكَ من غِذاءٍ وكِساءٍ ونحوِ ذلك، وتَقصيرُكَ فيما طُلِبَ منكَ من العباداتِ والطاعاتِ وغيرِها ممّا يُتوصّلُ به إلى الله، ويَصْلُحُ به أمرُك في الآخرةِ، دليلٌ وبرهانٌ على عَمَى البصيرةِ منك.

– وصفوةُ القولِ في فهمِ هذه الحكمةِ على الوجهِ الشّرعيّ السّليمِ، تتمثّلُ في قولِ اللهِ عزّ وجلّ: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ). النور 36، 37، 38.

لا تَصُدُّهم تجاراتُهم وأسواقُهم ولا تُشغلُهم عن وظائِفِهم الدينيةِ التي أقامَهُمُ اللهُ عليها وكلّفَهُم بها، فيُعطُونَ حقَّ اللهِ من جُهودِهم وأوقاتِهم دونَ إعراضٍ عنها أو تقصيرٍ فيها، فإذا انْتَهَوْا من هذا الحقِ كامِلاً غيرَ مَنقوصٍ، تَحوّلُوا بعد ذلك إلى شُؤونِهم وأعمالِهم يُؤَدُّونَ فيها واجباً كلّفَهُمُ اللهُ بهِ. كلُّ هذا تُدركُه من قولِه جلّ جلالُه: (لا تُلْهِيهِم)، وكم من فرقٍ بينه وبين ما لو قال: "لا يَشتغلُون بتجارةٍ ولا بيعٍ...".

اِجْعلُوا وظائِفَكم الدُنيويّةِ دائرةً في فَلَكِ واجباتِكم الدِّينيّةِ، وعندئذٍ تَتَحوّلُ دُنياكُم التي كانتْ تُشغلُكم عنِ اللهِ إلى دِينٍ يُقرّبُكم إلى اللهِ عزّ وجلّ.

5) لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِباً لِيأْسِكَ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ، لَا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ.

- إذا كنتَ طالباً من ربّكَ مَطلباً وتأخَّرَ وقتُ العطاءِ لِمَا سَبَقَ مِنَ الحُكْمِ، والحالُ أنّكَ مُلِحٌّ في سُؤالِكَ، فلا يَكُنْ التأخّرُ مُوجباً لِيأْسِكَ مِنَ اللهِ في مَطلوبِكَ فإنّه مُنافٍ للعُبوديةِ، فإنّ مُقتضاها دَوامُ الطّلبِ مِنْ غيرِ مُنازعةٍ للربِّ، وهو لا يُخيّبُ مَنْ لَجأَ إليهِ وطَلَبَ ما يُرجى مِنَ الآمالِ، ولذلك قال: "فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإجابةَ فيما يَخْتارُ لَكَ لا فيما تَخْتارُ لِنَفْسِكَ. وَفِي الوَقْتِ الَّذي يُريدُ لا فِي الوَقْتِ الَّذي تُريدُ".

- وحُكْمُ العبدِ أنْ لا يَتخيّرَ شيئاً على مولاه، ويَجزِمُ بِصحّةِ حالٍ من الأحوالِ له، لأنّه جاهلٌ من كُلِّ وجْهٍ، قد يَكرهُ الشيءَ، وهو خيرٌ له، ويحبُّ الشيءَ، وهو شرٌّ له. قال تعالى: (وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). البقرة 216

- فَلَرُبَّ أَمْرٍ تَكْرَهُهُ فِيهِ نَجاتُك، ولَرُبَّ أَمْرٍ تُحِبُّهُ فِيهِ عَطَبُكَ.

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جَرَّ أَمْراً تَرْتَجِيهِ *** خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ

- فربّما طَلَبْتَ شيئاً كان الأَوْلَى لكَ منعُه عنكَ، فيكونُ المنعُ عينَ العطاءِ، قال بعضُ الصالحين: "ومَنعُكَ في التَّحْقِيقِ ذَا عَيْنُ إِعْطاء".

– (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)، هو أعلمُ بعواقبِ الأُمُورِ منكُمْ، وأخْبَرُ بما فيهِ صَلاحُكُم في دنياكم وأُخْرَاكُم، فاسْتَجِيبوا له، وانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، لَعلّكُم تَرْشُدُون.

– وممّا يجتمعُ فيه ضَمانٌ وطلبٌ وجودُ الدّعاءِ، إذ هو مَطلوبٌ ضُمِنَتْ معه الإجابةُ.

لأنّ الدعاءَ مطلوبٌ، والإلحاحَ فيه كذلك، والعطاءَ مضمونٌ، يعني الإجابةُ عند السؤالِ، كلُّ ذلك في قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر 60، وقوله عز وجل: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ). البقرة 186

– رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ: يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي".

– ورَوَى ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ".

– قال ابنُ القَيّمِ: "ومِنْ أَنْفَعِ الأَدْوِيَةِ: الإلحاحُ في الدُّعَاءِ".

– ويقول الحافظُ ابنُ حجرٍ: "في هذا الحديثِ أَدَبٌ من آدابِ الدعاءِ، وهو أنّه يُلازمُ الطّلبَ، ولا يَيْأَسُ من الإجابةِ، لما في ذلك من الانقيادِ والاستسلامِ، وإظهارِ الافتقارِ، حتى قال بعضُ السّلفِ: لَأَنَا أَشَدُّ خَشيةً أنْ أُحرَمَ الدعاءَ من أنْ أُحرمَ الإجابةَ".

– فلا يكنْ تأخُّرُ أمَدِ العطاءِ المضمونِ في الكتابِ، مع الإلحاحِ في الدعاءِ المطلوبِ في السُّنّةِ، مُوجِباً ليأسِكَ مِنْ مولاكَ فيما وعدَكَ، لكونِكَ قُمتَ بما عليكَ، ولم ترَ ما هو إليكَ، لأنّ ذلك منكَ اجتهادٌ في المضمونِ بإرادةِ تَعجيلِه، وتقصيرٌ في المطلوبِ بتركِه لعدمِ تحصيلِه، وهذه حالةُ مَنْ لم يفهمْ عنِ اللهِ تعالى مُرادَه بالطلبِ والضّمانِ، وأنّ الطلبَ لإظهارِ العبوديةِ، والضّمانَ لِيَظْهَرَ وُثُوقُ العبدِ بالربوبيةِ، لذلك قال بعضُهم: "فائدةُ الدعاءِ إظهارُ الفاقةِ بين يديه، وإلّا فالرّبُّ يفعلُ ما يشاءُ"، وقال آخرُ: "مَنْ لم يكنْ في دعائِه تاركاً لاختيارِه، راضياً باختيارِ الحقِّ تعالى له، فهو مُسْتَدْرجٌ، فإنْ كانَ مع اختيارِ الحقِّ تعالى لا مع اختيارِه لنفسِه كان مُجاباً وإن لم يُعطَ، والأعمالُ بخواتيمِها".

– وذلك لتنالَ ما هو الأصلحَ لكَ لأنّكَ جاهلٌ به، وتُوافقَ مُرادَ مولاكَ في ضمانِه وطلبِه، إذ لم يَضْمَنْ لك إجابةً مطلقةً، وهذا ما نبّه عليه ابنُ عطاءِ اللهِ بقوله: "فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإِجابةَ فيما يَخْتارُ لَكَ، لا فيما تَخْتارُ لِنَفْسِكَ، وَفي الوَقْتِ الَّذي يُريدُ لا فِي الوَقْتِ الَّذي تُريدُ".

– فجعلَها في مُختارِه عَيْناً ووَقْتاً، إذ قالَ تعالى: (أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، ولم يقل: بِعَيْنِ ما أَرَدْتُم، ولا بما شِئْتُم، ولا كيف شِئتُم، ولا متى شِئْتُم، بل جعلَها إجابةً مُطلقةً راجعةً لِمُرادِه في كلِّ الوُجوه.

- وقد نبّه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الإطلاقِ بقوله: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ". رواه أحمدُ في المسندِ، وجَوَّدَ إسنادَهُ المنذريُّ في الترغيبِ والترهيبِ، وصحّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الأدبِ المفردِ.

- فالحقُّ أَوْلَى بِكَ من نفسِكَ في جميعِ أحوالِك، لأنّه أرحمُ بكَ منكَ، وأعلمُ بمصالحِكَ، مع قُدرتِه وعَجْزِكَ، فارجعْ إليه بتركِ الكلِّ منكَ، يكنْ لكَ في كلِّ شيءٍ تُرِيدُ. ولله درُّ القائل:

وكَمْ رُمْتُ أَمْراً خِرْتَ لِي فِي انْصِرَافِهِ *** فَمَا زِلْتَ بِي مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَما

عَزَمْتُ عَلَى أَنْ لَا أُحِسَّ بِخَاطِرٍ *** عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ الْمُقَدَّما

وأَنْ لَا تَرَانِي عِنْدَ مَا قَدْ نَهَيْتَنِي *** لِأَنَّكَ فِي قَلْبِي كَبِيراً مُعَظَّما

- فعلى العبدِ أن يُسلِّمَ نفسَه إلى مولاه، ويَعلمَ أنّ الخِيرةَ له في جميعِ ما به يَتولّاه، وإنْ خالفَ ذلك مُرادَهُ وهَوَاهُ، فإذا دَعا وطلبَ مِنْ مولاهُ شيئاً، يَرى أنَّ له فيه مَصلَحَةً أيْقَنَ بالإجابةِ لا مَحالَةَ، فالأمورُ على ما يُريدُ، لا على ما تُريدُ، فإذا أَخّرَ حاجتَكَ فلا تُسِيءِ الظنَّ بهِ، بل لُمْ نفسَكَ العَجُولَ الجهولَ، وابْكِ على نُقصانِكَ في إيقانِكَ.

فقُمْ أيّها العبدُ بما أمرَك اللهُ به مِنَ الدعاءِ، وسلِّمْ له مُرادَه، فربَّما أجابَك، وادّخَرَ لك مطلوبَك ما تَنالُ به الحُسنى وزيادَةً.

– فإذا تَحَقَّقَتِ الشُّروطُ والآدابُ المطلوبةُ في الدعاءِ كلُّها، فإنَّ اللهَ سيستجيبُ الدعاءَ ويُحقّقُ المطلوبَ، ولكنْ إيّاك أنْ تَتصوَّرَ بأنّ الاستجابةَ تعني أن يُحقّقَ اللهُ لك حَرفِيّةَ ما طلبْتَه منه، بلِ اعلمْ أنّ الاستجابةَ التي وعدَ اللهُ بها عبادَه أعَمُّ وأوسعُ من ذلك كما تقدم، وإلى هذا يُشيرُ ابنُ عطاءِ اللهِ بقوله: "فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإِجابةَ فيما يَخْتارُ لَكَ، لا فيما تَخْتارُ لِنَفْسِكَ".

– واعْلَمْ أنّ كثيراً من النّاسِ يَظنُّونَ أنَّ الدّعاءَ إنّما هو وَسِيلةٌ إلى غايةٍ، أيْ اللجوءُ إلى الدعاءِ إنّما يكونُ لعارضٍ كحاجةٍ أو مُصيبةٍ وَقعتْ، فإذا زالتْ لم تَبْقَ حاجةٌ إلى الدعاءِ، وقد يَحمِلُهم هذا الظنُّ على تركِ الدعاءِ إذا لم يَجِدُوا سُرْعَةَ الاستجابةِ، وهم لا يَعلَمُونَ أنَّ الدعاءَ غايةٌ في حَدِّ ذاتِه، وأنَّ الدعاءَ عِبادَةٌ قائمةٌ بذاتِها، فهو غايةٌ لا وسيلةٌ.

– وسواءٌ رأى العبدُ آثارَ سُؤالِه ودعائِه أو لم يَرَ شيئاً من ذلك، فإنَّ شأنَ العبوديةِ أنْ يَظَلَّ العبدُ واقِفاً على الأبوابِ مُتذلِّلاً عندَ الأعتابِ، وهذا لا يَنْطَبِقُ إلّا على عبوديةٍ واحدةٍ لا ثَانِيَ لها، هي عبوديةُ الإنسانِ للهِ. وهذا معنى قولُه صلى الله عليه وسلم: "الدُّعاءُ هُوَ العِبَادَةُ". أمّا الإجابةُ فهي تَفَضُّلٌ وإكرامٌ من اللهِ عزّ وجلّ.

6) إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ، فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُوْرِدُهُ عَلَيْكَ، والْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهَ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟!

– معرفةُ اللهِ تعالَى هي غايةُ المطالبِ، ونهايةُ الآمالِ والمآربِ، فإذا وَجَّهَ اللهُ عبدَه ببعضِ أسْبابِهَا، وفَتَحَ وهَيَّأَ ويَسَّرَ له بابَ التَّعرُّفِ له منها، وأوْجَدَ له سَكينةً وطَمأنينةً فيها، فذلك من النِّعَمِ الجزيلةِ عليه، فينبغي أن لا يَكْتَرِثَ بما يَفُوتُه بسببِ ذلك من أعمالِ البِرِّ، وما يَترتبُ عليها من جَزيلِ الأجرِ، ولَعَلِمَ أنّه سَلَكَ به مَسْلَكاً مُؤَدِّياً إلى حَقائقِ التوحيدِ واليقينِ، من غيرِ اكْتِسابٍ من العبدِ ولا تَعَمُّلٍ، والأعمالُ التي من شأنِه أن يَتلبّسَ بها هي باكتسابِه وتَعَمُّلِه، فلا تَسْلَمُ من دُخولِ الآفاتِ عليها والمطالبةِ بوجودِ الإخلاصِ فيها، وقد لا يَحْصُلُ له ما يُريدُ من الثوابِ عندَ مُناقشةِ الحسابِ، وأين أحدُهما من الآخَرِ؟

– ومثالُه ما يُصابُ به الإنسانُ من البَلايا والشّدائدِ التي تُنَغِّصُ عليه لَذّاتِ الدنيا، وتمنعُه من تكثيرِ أعمالِ البرِّ، فإنّ مُرادَه أن يَستمِرَّ بَقاؤُه في دنياه، طَيِّبَ العَيْشِ، نَاعِمَ البالِ، ويكونَ حالُه في طَلَبِ سَعادةِ الآخِرَةِ حالَ المترفِّهينَ المتورِّعينَ، فلا تَسْخُو نَفْسُه إلّا بالأعمالِ الظّاهرةِ، التي لا كَبيرَ مُؤنةٍ عليها، ولا مَشقّةَ، ولا تَقْطَعُ عليه لَذّتَهُ، فإذا أنزلَ اللهُ على العبدِ شيئاً من البَلايا، فمُرادُ

اللهِ منه أن يُطهّرَه من أخلاقِه اللئيمَةِ، ويَحُولَ بينه وبين صِفاتِه الذّمِيمَةِ، فإذا فَهِمَ عَلِمَ أنَّ اختيارَ اللهِ له، ومُرادَه منه خيرٌ له من اختيارِه لنفسِه، ومُرادِه لها.

– قال الحَكيمُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ رحمه الله: "ولقد مَرِضْتُ في سالِفِ أيّامي مَرْضةً، فلمّا شفاني اللهُ تعالى منها، صَوَّرْتُ في نفسِي ما دَبَّرَ اللهُ تعالى من هذه العِلّةِ في مِقْدارِ هذه المدّةِ، وبين أن تكونَ لي عبادةُ الثّقَلَيْنِ في قَدْرِ أيّامِ عِلّتِي، فقلت: لو خُيِّرْتُ بين هذه العلّةِ، وبينَ عبادةِ الثّقَلَيْنِ في مِقْدارِ مُدّتِها فما يكونُ اختيارِي؟ فَصَحَّ عَزْمِي، ودَامَ يَقِينِي، ووقَعَتْ بَصِيرَتِي، أنّ ما اختارَ اللهُ تعالى أكثرُ شَرفاً، وأعْظَمُ خَطراً، وأنْفَعُ عاقبةً، وهي العِلّةُ التي دَبّرَها لي، ولا شَوْبَ فيه إذا كان فِعْلُه، فَشَتّانَ بين فعلِه بكَ لتَنْجُوَ به، وبين فِعْلِكَ لِتنجُوَ به. فلمّا رَأَيْتُ ذلك دَقَّ في عَيْنِي عبادةُ الثّقَلَيْنِ في مقدارِ تلك المدّةِ في جَنْبِ ما آتاني، فصارتِ العلّةُ عندي نِعمةً، وصارتِ النّعمةُ مِنّةً، وصارتِ الْمِنّةُ أمَلاً، وصارَ الأمَلُ عَطْفاً، فقلتُ في نفسي: بهذا كانوا يَسْتَمِرُّونَ في البلاءِ على طِيبِ النُّفوسِ مع الحقِّ، وبهذا الذي انكَشَفَ كانوا يَفْرَحُونَ بالبلاءِ".

فهذه هي وِجْهَةُ التعرُّفِ التي فَتحَها اللهُ تعالى له، وحَصَلَتْ له الغِبْطَةُ بها.

– فإذا فتح اللهُ لعبدٍ جهةً من جهاتِ التعرّفِ إليه، كالأمراضِ والبلايا والفاقاتِ، فإنّها سببٌ لمعرفةِ اللهِ بصفاتِه، كاللُّطْفِ والقهرِ والرحمةِ وغيرِها، فلا يُبالي ولا يَهتمُّ معها بقلّةِ عَمَلِه.

– فإنّ اللهَ تعالى يقولُ في الحديثِ القُدسِيّ: "إذا ابْتَلَيْتُ عَبدِي الْمُؤْمِنَ فلمْ يَشْكُنِي إلى عُوَّادِهِ؛ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أُسَارِيَّ، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، ودَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ". صحّحهُ الألبانيُّ في صَحيحِ الترغيبِ.

– وفي صحيحِ البخاريِّ أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "إذَا مَرِضَ العَبْدُ، أوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ ما كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا".

– وفي صحيحِ الترغيبِ قولُ النّبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: "ما مِنْ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ يُصابُ بِبَلاءٍ في جَسَدِهِ؛ إلَّا أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الملائكةَ الذينَ يَحْفَظُونَهُ؛ قالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ مَا كَانَ فِي وِثَاقِي".

وِثاقي، أي: قَيْدِي؛ وذلك لأنَّ الْمَرَضَ قَدَرٌ منَ اللهِ يَمنَعُ العبدَ العَمَلَ، وهو مع رِضاهُ بقَدَرِ اللهِ يُعْطيهِ اللهُ، وهذا من رَحْمَةِ اللهِ وكَرَمِه على عِبادِه.

– فقد جعَل اللهُ ابتِلاءَ العِبادِ بالـمَصائِبِ والبلايا كفَّاراتٍ للذُّنوبِ ومَحْوًا للسَّيِّئاتِ؛ وذلك أنَّ اللهَ إذا أحَبَّ عبدًا ابتَلاهُ؛ لِيَغفِرَ له ذُنوبَه، حتَّى إذا لَقِيَه لم يَكُنْ عليه خطيئةٌ.

– والمخاطَبُ بذلك: هو الْمُتيَقِّظُ بذكرِ اللهِ عند نُزولِ المصائبِ والنّوازِلِ، وليس الغافلُ الذي يَسْخَطُ عند نُزولِها. ولا شكَّ أنّ تلك المصائبَ والنّوازلَ قد تَعُوقُ عنِ العملِ فَيَقِلُّ. فلا تُبَالِ بما يَفُوتُكَ بها مِنَ الأعمالِ البَدنِيّةِ، فإنّما هي وسيلةٌ للأعمالِ القلبِيّةِ، فَطِبْ نَفْساً أيُّها العبدُ بما يَنْزِلُ عليك مِنَ هذه التَعَرُّفاتِ الجَلالِيّةِ والنّوازلِ القَهْرِيّةِ.

ويُستفادُ من ذلك: أنّ العملَ القليلَ مع المعرفةِ، خيرٌ من العملِ الكثيرِ بِدُونِها.

– يقول: "إذا فتحَ لكَ" أيِ اللهُ عزّ وجلّ "وِجْهةً مِنَ التّعرُّفِ" أيْ نافذةً يُعَرِّفُكَ من خلالها على ذاتِه، يُغنِيكَ بها عن دِراسةٍ وجُهدٍ تَستغرِقُ زمناً طويلاً، "فلا تُبالِ معها أنْ قَلَّ عَمَلُكَ"، أيْ فلا تَعْجَبْ عَجَباً قد يَزُجُّكَ في رَيْبٍ، مِنْ أنّكَ قد بلَغْتَ هذا الأَوْجَ مِنَ التَوجّهِ إلى اللهِ والتعلّقِ به، دونَ أنْ تَستَعِينَ على ذلك بكثيرٍ من العباداتِ والنّوافلِ والأذكارِ والقُرُباتِ، كما هو الشّأنُ في العَادَةِ. ذلك لأنَّ طَرِيقَ الفتحِ الإلهيِّ مُختلِفٌ عن طريقِ السَّيْرِ الإنْسانِيِّ.

– وهو جلَّ جلالُه ما فتحَ تلك الوِجهةَ لك إلّا وهو يُرِيدُ أنْ يَتعرّفَ إليك، أيْ إلّا وهو يُرِيدُ أنْ يُعرِّفَكَ على ذاتِه، وهذا مِنْ شأنِه أنْ يَمْلأَ كِيانَكَ مَعْرِفةً وحُبّاً وتَعْظِيماً له ومَهابَةً منه، حتّى وإنْ قَلَّ عَمَلُكَ المُقَرِّبُ إلى الله.

– أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُوْرِدُهُ عَلَيْكَ والأَعْمالَ أَنْتَ مُهديها إِلَيهِ. وَأَينَ ما تُهْديهَ إِلَيهَ مِمَّا هُوُ مُورُدهُ عَلَيْكَ؟ أيْ تأمَّلْ، كم هو الفرقُ كبيرٌ بين سُلَّمِ الأعمالِ التي تَرقَى بها إلى اللهِ –وجُلُّها لا يَخلُو من الشّوائبِ والحُظوظِ–، وبين الأَلْطَافِ التي تَهبِطُ وتَرِدُ إليك مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، وما كان منه سبحانه لا تَدْخُلُه العِلَلُ والآفاتُ. لا شكّ أنّ قوةَ الجذبِ في هذه الألطافِ الإلهيةِ الهابطةِ إليك أجلُّ وأفضلُ، مِنْ قوّةِ الطاعاتِ الصّاعدةِ منكَ إلى اللهِ.

– وَأَينَ ما تُهْديهَ إِلَيهَ مِمَّا هُوُ مُورُدهُ عَلَيْكَ؟ بينهما في الحُكمِ ما بينكُما في الوصفِ، ربٌّ وعبدٌ كيف يَشْتَبِهانِ؟ (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ).

– ما كان منه لا يَفتقِرُ إلى شَرْطٍ، ولا تَلْحَقُه عِلّةٌ، وما كان منك مَصحوبٌ بِالعِلَلِ مطلوبٌ بالشّروطِ، فإنَّ الهديّةَ تَحتاجُ إلى الإخلاصِ في القصدِ، والتّخليصِ من الشّوائبِ، والكمالِ في الصّورةِ، وإلّا كانتْ إلى العُقوبةِ أقربَ منها إلى المثوبةِ.
– ولا يُفهمُ من قولِ ابنِ عطاءِ اللهِ هذا، ما يَحلُو للبعضِ أنْ يَفهمُوه مِنْ أنّ الذين اجتباهُمُ اللهُ بالتّعرفِ عليه لهم خُصوصِيّةٌ مِنَ القُربِ والحُبِّ، تُغْنِيهُم عن كثرةِ الطاعاتِ والعباداتِ، والتّنزُّهِ عن المحرّماتِ، تلك هي وساوسُ الشياطينِ لأوليائِهِم من الزّنادِقَةِ، وهي وسوسةٌ تُناقِضُ الحقيقةَ تماماً، فالْمُجْتَبَوْنَ هم أكثرُ الناسِ تَعلُّقاً بالطاعاتِ والعباداتِ، وأكثرُهم ابتَعاداً عنِ المحرماتِ والشُّبُهاتِ، ولو كانَ في الْمُقرّبِينَ إلى اللهِ مَنْ قد حَطَّ اللهُ عنهُمُ الالتزامَ بالأوامرِ والابتعادَ عن النّواهي، لكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أَوْلاهُم بذلك. وإنّما كان عليه الصلاةُ والسلامُ، أكثرَ الناسِ تَحمُّلاً لِعَزائِمِ الطاعاتِ، وصبراً على النوافلِ والعباداتِ وابتعاداً عن الشبهاتِ.

أَلَمْ يَكُنْ هو صلى الله عليه وسلم الذي تتورّمُ قدماهُ من طُولِ القِيامِ في الصّلاةِ؟ أَوَلَمْ يكنْ أوّلَ الناسِ في أصحابِه زُهداً في الدنيا؟ كذلك سائرُ الصّالحينَ مِن بَعدِه، كانوا أكثرَ الناسِ إقبالاً على أوامرِ اللهِ وأشدَّهُم وَرَعاً في فهمِ الحلالِ والحرامِ، وأدْومَهُم على النوافلِ والأذكارِ.

7) تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الأَعْمَالِ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ.

- أي اختلفَتْ أجناسُ الأعمالِ الظاهرةِ، لاختلافِ الوارداتِ التي هي الأحوالُ القائمةُ بالقلبِ، والأعمالُ الظاهرةُ تابعةٌ لأحوالِ القلبِ. ففي الصّحِيحَيْنِ، قولُه صلى الله عليه وسلم: "ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ".

- فإذا وردَ على القلبِ مثلاً: العلمُ بفضائلِ قيامِ الليلِ توجّهَ إليه، وآثَرَهُ على غيرِه، فتقومُ به الجوارحُ، وكذلك الصّدقةُ والصيامُ وباقي الأعمال.

- والأحوالُ هنا أعمالُ القلوبِ المُوصلةُ إلى الله، وهي التي تأتي نتيجةَ وقوفٍ وتَأمّلٍ عند بعضِ صفاتِ اللهِ تعالى وأسمائِه، إذ تَتأثّرُ النّفسُ بتلك الصّفاتِ، ممّا يَدفعُ صاحبَها إلى الأعمالِ التي تتناسبُ وذلك التأثيرَ الذي هَيْمنَ على نفسِه، كما تأتي نتيجةَ وضعٍ شَرَدَ فيه المسلمُ عن أوامرِ اللهِ ووقعَ في الخطايا، ثمّ تذكّرَ وأنابَ فأورثَهُ مَزيداً من الخوفِ مِنْ عِقابِ اللهِ، وألَماً مِنْ تَذكُّرِ ماضِيه في جَنْبِ اللهِ عزّ وجلَّ.

- ففي الصالحينَ مَثَلاً مَنْ يَغْلِبُ عليهِمُ الوقوفُ عندَ صفاتِ الرّحمةِ والكرمِ والإحسانِ والمغفرةِ وسِعَةِ العفوِ، فيَتَصرّفُ على أساسٍ راسخٍ مِنْ حُسنِ الظنِّ باللهِ، وإذا ذَكَّرَ الناسَ باللهِ يُذكّرُهم بالكثيرِ من فضلِه وعطائِه ومغفرتِه وعفوِه، وإذا اتّجهَ إلى الطاعاتِ والعباداتِ فَبِدافعٍ مِنْ هذا الشّعورِ، ويَنعكِسُ عليه طَيْفٌ مِنْ هذه الصفاتِ نفسِها، فتكونُ أعمالُه مُنبثقةً عنها.

– وفي الصالحينَ مَنْ يَغلِبُ عليهِمُ الوقوفُ عندَ صفاتِ القهرِ والعِقابِ والسّلطةِ الإلهيةِ الواسعةِ النّافِذَةِ، والعقابِ الذي تَوعّدَ به المسرفينَ والظالمينَ، فيتصرّفُ تصرّفاتٍ قائمةً على أساسٍ مِنْ تَغَلُّبِ الخوفِ، والشّعورِ بالتقصيرِ وسُوءِ الحالِ.

– فهذه الأوضاعُ القلبيةُ تُسمّى أحوالاً، إذ هي تَعْرِضُ لصاحبِها فتتلبّثُ لديه ثمّ تمرُّ وتَمضِي، وقد تُعاوِدُه مرةً أخرى، وقد يطولُ أمدُ بقائِها وقد يَقْصُر.

– كان في الصالحين مثلاً مَنْ تَمُرُّ به الليالي الكثيرةُ دون أنْ تَغْمِضَ له عَينٌ لِرُقادٍ، كداودَ الطّائيّ الذي كان يقول: "إلهي، همُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ هُمومَ الدنيا وحالَ بيني وبينَ الرُّقادِ".

– وفيهم مِثلُ الفُضيلِ بنِ عياضٍ الذي وقفَ في عَرَفَةَ مع الحَجيجِ، وقد انتابَتْهُ حالةٌ مِنْ تَذَكُّرِهِ لِماضِيهِ يومَ كان مُسرفاً على نفسِه، جَعلَتْهُ نَهْباً لمشاعِرَ مِنَ الخَجلِ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، حَجَبْتُه عنِ الانشغالِ بالدّعاءِ والأذكارِ، رَوَى إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الطّبَرِيُّ أنّه وقفَ مع الفُضيلِ بنِ عِياضٍ بِعَرفَاتٍ، فلم يَسْمَعْ منه دُعاءً، إلّا أنّه وَضَعَ يَدَهُ اليُمنى على خَدِّه، وطَأْطَأَ رأسَهُ يَبْكِي خَفِيّاً، فلمْ يَزَلْ كذلك حتى أفاضَ الإمامُ، فرفَعَ رأسَه إلى السماءِ يقولُ: "وا سَوْأَتَاهُ واللهِ مِنْكَ، وإنْ غَفَرْتَ لي"، قالها ثلاثاً.

– وفيهم مَنْ حَمَلْتُه هذه الحالُ، على الاستغفارِ مِمَّا يُعَدُّ في الظاهرِ عبادةً، مِثلُ سَرِيِّ السّقَطِيِّ الذي كان يقولُ: منذُ ثلاثينَ سنةً، وأنا أستغفرُ اللهَ مِنْ قولي مرةً، الحمدُ للهِ. قيل له: كيف ذلك؟ قال: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فاستقبلني رجلٌ، فقال لي: لقد نَجا حانُوتُكَ، فقلت: الحمدُ للهِ، فأنا إلى الآنَ نادمٌ على ما قُلتُ، إذْ أردتُ لِنَفْسِي خَيراً مِمّا حصلَ للمُسلِمينَ.

– "تَنَوَّعَتْ أَجْناسُ الأَعْمالِ لَتَنَوُّعِ وارِداتِ الأَحْوالِ". إذنْ فليسَ عنوانُ العملِ في ظاهرِه، هو مَناطُ المثوبةِ والقبولِ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، ولكنْ مناطُ ذلك ما تُفرزُه الحالةُ التي يمرُّ بها العبدُ المُتّجِهُ بِكُليّتِه إلى الله.

– ولقد نوّعَ اللهُ قُدُرَاتِ عبادِه بما يُهَيِّئُها للنّهوضِ بأنواعِ الطاعاتِ والقُرُباتِ كُلِّها، فكان من مُقتضَى ذلك أن يَنهضَ صاحبُ كلِّ قدرةٍ بالأعمالِ المنسجمةِ مع قُدرتِه.

8) الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإِخْلَاصِ فِيهَا.

- هذه الحكمةُ تَتِمّةٌ لما قبلها، فالأعمالُ في وجودِها لا تَتِمُّ إلّا بإخلاصٍ وصدقٍ. والأعمالُ هي الحركاتُ الموافقةُ لأمرِ اللهِ قلبيةً كانتْ أو بدنيةً.

- ومعنى كونِها صُوَراً أيْ أنّه يُدرَكُ كيفيةُ وجودِها. أي الأعمالُ الصادرةُ من الأعضاءِ صُوَرٌ، كصُوَرٍ قائمةٍ لا أرواحَ فيها، وأرواحُها التي تَحيا بها وجودُ سِرِّ الإخلاصِ فيها.

- أرواحُ هذه الأعمالِ إنّما هي سِرُّ الإخلاصِ الذي هو الصّدقُ المُعَبَّرُ عنه بالتّبرّي مِنَ الحَوْلِ والقُوّةِ.

كما قال بعضُ الصالحين: "صَحّحْ عملَكَ بالإخلاصِ، وصَحّحْ إخْلاصَكَ بالتّبرّي مِنَ الحَوْلِ والقُوّةِ".

- فصلاحيةُ الأعمالِ، وأثرُها في تحقيقِ مرضاةِ اللهِ ونيلِ المثوبةِ منه، مَشروطٌ بسلامةِ القصدِ الدافعِ إلى فعلِها، القصدِ الخالي عن شوائبِ الأغراضِ والمصالحِ كلِّها، إلّا قصدَ التقربِ إلى اللهِ والوصولِ إلى مرضاتِه.

قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) البينة 5، وقال عزَّ وجَلَّ: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) الزمر 2.

- وفي صحيح مسلمٍ أنّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: قال اللهُ تَعالى: "أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ".

– وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكْم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ". رواه مسلم.

– وقال: "إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نَوى، فَمَنْ كانَتْ هِجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومَنْ كانَتْ هِجرتُهُ إلى دنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يَنْكِحُها فَهِجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إليْهِ". البخاري.

– يقول ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: "أَعْمَالُ القُلُوبِ هي الأَصْلُ، وأعمالُ الجوارحِ تَبَعٌ ومُكَمِّلَةٌ، وإنّ النيّةَ بمنزلةِ الروحِ، والعملَ بمنزلةِ الجسدِ للأعضاءِ، الذي إذا فارقَ الروحَ ماتتْ، فمعرفةُ أحكامِ القلوبِ أهمُّ من معرفةِ أحكامِ الجوارحِ".

– وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: "تركُ العملِ من أجلِ الناسِ رياءٌ، والعملُ من أجلِ الناسِ شركٌ، والإخلاصُ أنْ يُعافِيَكَ اللهُ منهما".

– وعن يحي بنِ أبي كثيرٍ قال: "تعلّمُوا النيةَ، فإنّها أبلغُ من العملِ".

– فإخلاصُ كلِّ عبدٍ هو روحُ عملِه، فبوجودِ ذلك تكونُ حياتُها وصلاحِيّتُها للتّقرُّبِ بها، ويكونُ فيها أهليةُ وجودِ القَبولِ لها، وبعدمِ ذلك يكونُ مَوتُها وسُقوطُها عن درجةِ الاعتبارِ، وتكونُ إذْ ذاك أشباحاً بلا أرواحٍ، وصُوَراً بلا مَعانٍ.

– يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في (تاجِ العَروسِ): "يا مَنْ لا يأكلُ الحِنْطَةَ إلّا مُغَرْبَلةً، لا بُدَّ لكَ أنْ تُغَرْبِلَ عملَكَ، فلا يَبْقَى لكَ إلّا ما أَخْلَصْتَ فيه، وما عدَا ذلك يُرمَى".

9) اِدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نِتَاجُهُ.

– وكما أنّ العملَ حِصنُه الإخلاصُ، فالإخلاصُ حِصنُه الخمولُ الذي هو إهمالُ فضائلِ النفسِ، والمقصودُ إشعارُ النفسِ بخمولها وذِلَّتِها حتى لا تَبقى لها دَعْوَى، فتتفجّرُ منها يَنابِيعُ الحِكْمَةِ.

– وليس معنى كلمةِ الخُمولِ كما يَتصوّرُ البعضُ أنّها الكَسَلُ والدَّعَةُ، وإنّما الخمولُ في اللغةِ الابتعادُ عن الأضواءِ وعن أسبابِ الشُّهرةِ، والمقصودُ بها هنا أن يكونَ الإنسانُ مجهولاً لا يعرِفُه أكثرُ الناسِ.

– اِدْفِنْ وُجودَكَ في أَرْضِ الخُمولِ، أي عندما تُريدُ أنْ تنهضَ بمهامِ العبوديةِ تِجَاهَ ربِّك، عليك قبلَ أن تَشتهرَ بين الناسِ ويُشارَ إليك بالبَنانِ، أن تَدْفِنَ وجودَك لمدةٍ من الزمنِ، بعيداً عن الشُّهرةِ، مُتوارياً عن أضوائِها، ولْيَكُنْ عملُك هو السَّعيَ إلى أن تَرعَى ذاتَكَ وتُرَبِّيَ نفسَكَ وتُصَفِّيَ سريرتَكَ من الشّوائبِ.

– أيْ اِخفِ ذاتَكَ التي هي مَصدرُ صُدورِ أفعالِكَ التي يَقعُ بها التّظاهرُ بين أقرانِكَ في غيبِ أرضِ الخَفاءِ لِتَنْتُجَ في سُلوكِكَ. فلا شيءَ أضرُّ على العبدِ من الشُّهرةِ، وانتشارِ الصِّيتِ، لأنّ ذلك من أعظمِ حُظوظِه التي هو مأمورٌ بتركِها، ومجاهدةِ النفسِ فيها، فمحبّةُ الجاهِ، وإيثارُ الاشتهارِ مُناقِضٌ للعبوديةِ التي هو مُطالبٌ بها.

– فما نَبَتَ من الحَبِّ ممّا لم يُدفنْ بَذْرُهُ أو غَرْسُه في الأرضِ لا يتمُّ نِتَاجُه، بل يخرجُ مُصفرّاً، ولا يُرجى ثمرُه لأنّه يَنْهَلِكُ قبل ذلك، وكذلك العابدُ السالكُ، إذا تعاطى أسبابَ الشهرةِ في بدايتِه، قلَّ أنْ يُفلحَ في نهايتِه، ولا يُرجى نَفْعُه، بل يَنْهَلِكُ في المهالِكِ قبل أنْ يَصِلَ إلى هُنالِكَ.

– قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: "ما صَدَقَ اللهَ مَنْ أَحَبَّ الشهرةَ".

– وقال أيوبُ السَّخْتِيَانيُّ: "واللهِ ما صَدَقَ اللهَ عبدٌ، إلّا سَرَّهُ أنْ لَا يُشْعَرَ بمكانِه".

– وقال بعضُهم: "ما أعرِفُ رجلاً أحَبَّ أنْ يُعرَفَ إلّا ذَهَبَ دِينُهُ وافْتُضِحَ". وقال أيضاً: "لا يَجِدُ حَلاوةَ الآخِرَةِ مَنْ أحَبَّ أنْ يَعرِفَهُ النّاسُ".

– وبقدرِ تَحقُّقِكَ بوصفِ الخمولِ يَتحقّقُ لك مَقامُ الإخلاصِ، حتى تَتخلّصَ بذلك من رؤيةِ إخلاصِك، وبهذا يتبينُ لك أنّ الإخلاصَ في غايةِ الصّعوبةِ على النّفسِ، وأنّه أعزُّ الأشياءِ في الوُجودِ.

وقد قِيلَ لِسَهْلِ بنِ عبدِ اللهِ: أيُّ شَيءٍ أشَدُّ على النّفسِ؟ قال: "الإخلاصُ، لأنّها ليسَ لها فيهِ نَصِيبٌ".

– فإذا أخملَ العبدُ نفسَه، وألزمَها التواضعَ والمذلّةَ، واستمرَّ على ذلك، حتى صارَ له خُلُقاً وجِبلّةً، بحيثُ لا يَجِدُ لِضِعَتِهِ ألَماً، ولا لِمَذَلّتِه طَعْماً، فحينئذٍ

تَتزكَّى نفسُه، ويستنيرُ بنورِ الإخلاصِ قلبُه، وينالُ من ربِّه أعلى درجاتِ الخصوصيةِ، ويحصلُ على أوْفَى نصيبٍ من المحبةِ الحقيقيةِ.

– وقد قال صلى الله عليه وسلم: "وما تَواضَعَ أحَدٌ لِلَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ". رواه مسلم.

– وفي الجامع الصغير للسُّيوطِيِّ وصَحّحَهُ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: إنَّ أغْبَطَ الناسِ عندِي لَمُؤْمِنٌ خَفيفُ الحاذِ، ذو حظٍّ منَ الصلاةِ، أحسنَ عبادَةَ ربِّهِ، وأطاعَهُ في السِّرِّ، وكان غامِضًا في الناسِ، لا يُشارُ إليه بالأصابِعِ، وكان رِزْقُهُ كَفَافًا فصبَرَ على ذَلِكَ، عُجِّلَتْ منِيَّتُهُ، وقلَّتْ بواكيه، وقَلَّ تُرَاثُهُ".

– وفي الحديث الذي رواه مسلمٌ وغيرُه: "رُبَّ أَشعَثَ أَغْبرَ ذِي طِمْرَينِ مَدفُوعٍ بالأبوابِ لَو أَقسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ".

– وروى مسلمٌ في صحيحه أيضاً، عن سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: "إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ".

والخَفيُّ، أيِ: الخامِلُ المُنقطِعُ إِلى العِبادةِ والاشتِغالِ بأُمورِ نَفسِه، والإشارَةُ بالخَفيِّ إِلى خُمولِ الذِّكْرِ والشُّهرةِ عندَ النَّاسِ، فالغالِبُ عَلى الخاملِ السَّلامَةُ.

10) ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ.

– هذه الحكمةُ تَتِمّةٌ للتي قبلَها، لأنّ معرفةَ العبدِ بنفسِه حتى يُخمِلَها إنّما تُستفادُ من الفكرةِ في أحوالِهَا وأحوالِ الخلقِ معها، ولا فِكرةَ إلّا بِعُزلةٍ، كما أنّه لا كمالَ للعُزلةِ إلّا بالفِكرةِ، وهما دَواءُ القلبِ.

– والعُزلةُ أو الخَلْوةُ هي الانفرادُ بالحالِ، والفكرةُ تمشيةُ القلبِ في المعلومِ لاستخراجِ ما يتضمنُّه من الخفيَّاتِ.

– وفي هذه الحكمةِ يُركّزُ على ضرورةِ اتخاذِ المسلمِ ساعاتٍ من العزلةِ بين الحينِ والآخَرِ، يخلُو فيها إلى نفسِه، والعزلةُ أخَصُّ من الخمولِ، فالعزلةُ أنْ لَا يكونَ معك فيها أحدٌ، أمّا الخمولُ فهو الابتعادُ عن الشهرةِ وإظهارِ الأعمالِ.

– ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرَةٍ. أي ما نفعَ قلبُ العبدِ شيءٌ من الأشياءِ المُطَهِّرَةِ له من الغفلاتِ مثلُ عزلةٍ عن الخلقِ، يَدخلُ بها ميدانَ فكرةٍ، أي تَفَكُّرٍ في مصنوعاتِ بارئِ الأرضِ والسمواتِ.

– وشَبّهَ الفكرةَ بالميدانِ لِتَرَدُّدِ القلبِ فيها كَتَرَدُّدِ الخيلِ في الميدانِ، والتّفكّرُ يُوصِلُ إلى معرفةِ حقائقِ الأشياءِ، وتزدادُ به معرفةُ اللهِ، ويَطّلِعُ به المتفكّرُ على خفايا آفاتِ النّفسِ ومكائدِ الشيطانِ وغرورِ الدنيا.

– وقد قيل: إنّ العبدَ لَيَعْقِدُ في خَلوتِه على خِصالٍ من الخيرِ يَعْمَلُها، فإذا خرجَ إلى الناسِ حَلُّوا عليه ذلك عُقدةً عُقدةً، حتى يرجعَ إلى بيتِه وقد انحلّتِ العُقَدُ كلُّها.

– وبالجملةِ؛ القلبُ للمعاني كالمَعِدَةِ للمحسوساتِ؛ بيتُ الدّاء، والحِميةُ التي هي للقلبِ العُزلةُ؛ رأسُ الدواءِ، ومن طَمِعَ في الشفاءِ مع إهمالِ الدواءِ فَقَلَّ أن يَظفرَ بما نَوى.

– ومَجارِي الفكرِ في وجوهٍ منها:

1- النظرُ في الكونِ وما يُفيدُه أو يَهدِي إليهِ.

2- والفكرةُ في ضعفِ الخلقِ وعجزِهم وماهُمْ عليه من ذلك.

3- والفكرةُ في كمالِ اللهِ وصفاتِه ونعوتِه.

4- والفكرةُ في التّوحِيدِ ومواقِعِه وأسبابِ دوامِه.

5- والنظرُ في الحسناتِ وحُسْنِها الحامِلِ على فعلِها، وأسبابِ دوامِها ووجوهِ الإقامةِ فيها.

6- والنظرُ في الشهواتِ والغفلاتِ والهفواتِ والسيئاتِ وقُبحِها، وما تُوصِلُ له من النقصِ والتقصيرِ، ووجهِ دفعِها ونَفْيِها، ووجهِ التّنصُّلِ بعدَ الوقوعِ فيها.

- وللخلوةِ أو العزلةِ فوائدُ منها:

1- السلامةُ من آفاتِ اللسانِ. وقد قال ﷺ: "رَحِمَ اللهُ امْرءًا تَكلَّمَ فغَنِمَ، أو سَكتَ فسَلِمَ". حسّنه الألباني في صحيح الجامع. ولا يَسلمُ غالباً إلّا من آثرَ الخلوةَ على الاجتماعِ. وفي كثرةِ الكلامِ آفاتٌ كثيرة، كقِلّةِ الورعِ، ومَظَنّةِ الكذبِ، والغِيبَةِ والنّميمةِ، والغفلةِ عن الذكرِ.

2- حفظُ البصرِ، والسلامةُ من آفاتِ النظرِ، فمن اعتزلَ سَلِمَ من النظرِ إلى الناسِ وما هم مُنْكَبُّونَ عليه، وتمنعُ النّفسَ من التّطلُّعِ إلى ما هم فيه والمنافسةِ لهم، وسَلِمَ كذلك من نَظرةٍ حرّمها اللهُ. قال محمدُ بنُ سيرينَ رحمه الله: "إيّاكَ وفُضولَ النّظرِ، فإنّها تُؤدّي إلى فُضولِ الشهوةِ". وقال بعضهم: "مَنْ كَثُرَتْ لَحَظَاتُهُ دامَتْ حَسَرَاتُهُ".

3- حفظُ القلبِ وصَونُه عن الرياءِ والمداهنةِ وغيرِهما من الأمراضِ. وقد قال بعضُ الحُكماءِ: "مَنْ خَالَطَ الناسَ دَارَاهُم، ومَنْ دَارَاهُم رَاءَاهُم، ومَنْ رَاءَاهُم وقعَ فيما وَقَعُوا فَهَلَكَ كما هَلَكُوا".

وقال بعضُهم: "يا هذا تَنظُرُ إلى اللاعِبِينَ، وتَسمعُ كلامَ الجاهلينَ، وتُعامِلُ البَطّالِينَ، وتَسكُنُ إلى الهالِكينَ، وتُريدُ أنْ تَجِدَ حلاوةَ الطاعةِ وقلبُكَ مع غيرِ اللهِ، هَيْهاتَ، هذا لا يكونُ أبداً".

4- حصولُ الزّهدِ في الدنيا والقناعةِ منها، وفي ذلك شرفُ العبدِ وكمالُه، وسببُ محبّتِه عندَ مَولاهُ. وقد قال ﷺ: "اِزْهَدْ في الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ، وازْهَدْ فيما عندَ النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ". أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

5- السلامةُ مِنْ صُحبةِ الأشرارِ، ومُخالَطَةِ الأرْذَالِ، وفي مُخالَطَتِهم فسادٌ عظيمٌ وخطرٌ جسيمٌ، وقد قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صاحِبِ المِسْكِ وكِيرِ الحَدَّادِ؛ لا يَعْدَمُكَ مِن صاحِبِ المِسْكِ إمَّا تَشْتَرِيهِ أوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أوْ ثَوْبَكَ، أوْ تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً". رواه البخاري.

6- التفرغُ للعبادةِ والذكرِ، والعزمُ على التقوى والبِرّ، ووُجدانُ حلاوةِ الطاعاتِ، وتَمكُّنُ لذيذِ المناجاةِ. ولا شَكَّ أنّ العبدَ إذا كان وحدَهُ تفرّغَ لعبادةِ ربّه وانْجَمَعَ عليها بجوارحِه وقلبِه لقلّةِ مَنْ يُشغلُه عن ذلك.

7- صيانةُ النفسِ والدِّينِ من التعرضِ للشرورِ والخصوماتِ التي تُوجبُها الخُلْطةُ، فإنّ للنّفسِ تَولُّعاً وتَسارُعاً للخوضِ في مثلِ هذا إذا اجتمعتْ بأربابِ الدنيا وزاحمَتْهُم فيها.

8- التمكّنُ من عبادةِ التّفكُّرِ والاعْتبارِ، وهو المقصودُ الأعظمُ من الخَلوةِ.

قال الحسنُ رحمه الله: "الفكرةُ مِرْآةٌ تُريكَ حَسَنَكَ مِنْ سَيِّئِكَ، ويَطّلِعُ بها على عظمةِ اللهِ وجلالِه إذا تَفَكّرَ في آياتِه ومصنوعاتِه، ويَطّلِعُ بها على آلائِه ونعمائِه الجليّةِ والخفيّةِ، فيَسْتَفِيدُ بذلك أحْوَالاً سَنِيّةً، يزولُ بها مرضُ قلبِه، ويَستقيمُ بها على طاعةِ ربّه".

– إذاً العزلةُ التي يَنْدُبُنا إليها الإسلامُ ويُنَبِّهُنا إليها ابنُ عطاءِ اللهِ هي تلك التي تكونُ مَكاناً ومَجالاً للتأمُّلِ والتّفكُّرِ فيما يُزَكّي المسلمَ ويُقَرّبُه إلى الله، وفيما يُعْتِقُه مِنْ أسبابِ الشَّقْوَةِ التي تَتَرَبّصُ به.

– العزلةُ التي تُمَكّنُ مِنَ التّفكُّرِ الذي يُقرّبُ إلى اللهِ وإلى معرفةِ ذاتِه، ويُوقِظُ إلى إدراكِ هُوِيّةِ العبدِ المملوكِ لله، ومِنْ ثَمَّ يُقرّبُه إلى معرفةِ ربّه وصفاتِ الربوبيةِ فيه، ومِنْ ثَمَّ يُدنِيه مِنْ مَحبّةِ اللهِ وتعظيمِه وتعظيمِ حُرُماتِه.

11) كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟

- هذه الحكمةُ كالتّوجيهِ للحكمةِ التي قبلها، وذلك لأنّ العُزلةَ المصحوبةَ بالفِكرةِ، يَتخلّى القلبُ بها عنِ الأغيارِ (كلِّ ما سِوى اللهِ)، وبها يَرحلُ إلى اللهِ، لِيَتحلّى بالفهمِ والإيمانِ، وأمّا القلبُ الذي طُبِعَتْ في مِرْآتِه صُوَرُ الْمُكَوَّناتِ، فاشتغلَ بها، وصارَ مُقيّداً بالشهواتِ، فإنّه لا ينالُ الإشراقَ، ولا يَستَنيرُ بالقُربِ، لأنّه لم يَتَطهّرْ مِنْ غَفَلاتِهِ الشّبيهةِ بالجَنابَةِ المانعةِ للعبادةِ والمناجاةِ.

- يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنَّ العَبْدَ إذا أخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فإذا هوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وإنْ عَادَ زِيدَ فيها حتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللَّهُ: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطففين 14". الترمذي وحسّنه الألباني.

- <u>وانطباعُ الأكوانِ في مِرْآةِ القلبِ على وجوهٍ منها:</u>

1- مِنْ طريقِ التأثيراتِ التي تُؤَثِّرُ في القلبِ، ممّا يَقتضِي الاعْتِمادَ عليها والاسْتِنادَ إليها والنّظرَ لِمَا يَرِدُ منها، وأصلُه مِنْ غَلَبَةِ الوَهْمِ، وضَعْفِ اليَقِينِ والفَهْمِ.

2- مِنْ طريقِ الوُلُوعِ والحُبِّ، والبُغْضِ والرّدِّ، والأخذِ والتّرك، لِنَفْعٍ أو دَفْعٍ، وهذا مِنْ غَلَبَةِ الشّهوةِ.

3- مِنْ طريقِ الشُّغلِ والإهمالِ، وأصلُه الأُنْسُ بالفوائدِ دونَ سَبَبٍ باعِثٍ، وهو بِساطُ الغَفْلَةِ.

- وكلُّ ذلك صارفٌ عن الحقِّ، مانعٌ من شُروقِ نُورِ العِلْمِ والمعرفةِ واليقينِ في القلبِ، لأنّ الحقيقةَ والوهمَ لا يَصِحُّ اجتماعُهما، كالظُّلمةِ والنّورِ، والحُزنِ والسّرورِ، وغيرِ ذلك.

- فأعرضْ عنِ الكُلِّ له، تَجِدِ الكُلَّ به، وإلّا فأنتَ في عَمَى الحِجابِ الذي منه التّعلُّقُ بالشهوةِ كما نبّهَ عليه ابنُ عطاءِ اللهِ بقوله: "أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟". فالرحلةُ إلى اللهِ بمعنى تَرْكِ ما سِواهُ، وإلّا فلا مَسافَةَ.

وإنّما كانتِ الشهواتُ كَبَلاً للقلوبِ مِنْ وجُوه منها:

1- أنّها مَانْعَةٌ مِنَ النُّهوضِ باسْتِحْسانِها والاشتغالِ بها.

2- وأنّها مُعَثِّرَةٌ في المسيرِ إنْ لم تمنعْ مِنَ النّهوضِ، لإشغالِها للبالِ عندَ عُروضِها.

3- وأنّها إنْ لم تُعَثِّرْ ولم تَمنعْ ثَبَّطَتْ، فَأَبْطَأَ السَّيْرُ بِصاحِبِها.

- والشهواتُ المباحةُ لم تُتْرَكْ لِذاتِها، إذ قد أذِنَ الشّرعُ فيها أخذاً وتركاً، فلا يَصِحُّ تَرْكُها إلّا لِمَا يُقْتَرَنُ بها مِنْ مَنفعةٍ تُرجَى أو مَضَرّةٍ تُخشَى.

- ثمّ الشهوةُ تَتضمّنُ وجودَ الغفلةِ في مُلابَستِها، "أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؟". وحضرةُ اللهِ دائرةُ القربِ التي اخْتَصَّ بها مَنْ أكْرَمَهُ مِنْ عِبادِه، وهي في المعاني كالمسجدِ في الحِسّياتِ، فكما

أنّ المسجدَ لا يدخُلُه الجُنُبُ، فكذلك المعنويّةُ لا يدخُلُها الجُنُبُ جَنابَةَ الحِسِّ وهي الغَفْلَةُ.

– فالحاصلُ أنّ الغفلةَ تمنعُ دخولَ الحضرةِ، وتَسْتَلْزِمُ وجودَ الهفوةِ، وتمنعُ فهمَ المُرادِ.

– "أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟"، والهفوةُ مانعةٌ من الفهمِ، لأنّها ظُلْمَةٌ مِنْ حيثُ هي، ومُبَعِّدَةٌ بوجودِها غيرُ مُقَرِّبَةٍ.

– ابنُ عطاءِ اللهِ يُشبّهُ القلبَ بالْمِرْآةِ، إذْ تَنعكسُ عليها مشاعرُ الإنسانِ وأحاسيسُه، أرأيتَ إلى الْمِرْآةِ إذْ تُوجِّهُهَا إلى بِئْرٍ مُظلمَةٍ كيفَ يَغْدُو سطحُها أسودَ مُظلِماً، وإذا تُوجّهُها إلى الشّمسِ كيف تَتلأْلَأُ بمثلِ ضِياءِ الشّمسِ، فكذلك القلبُ، إنْ هو إلّا مِرْآةٌ تنعكسُ عليه صُوَرٌ مِنْ أحوالِ صاحبِه.

– فإذا كان الإنسانُ مُتّجِهاً دائماً بِرَغَباتِه إلى الدنيا مِنْ أموالٍ ودُورٍ ومُتَعٍ ومَجدٍ وشُهرةٍ ونحوِ ذلك، فلا بُدّ أنْ يَنْطَبِعَ ذلك كلُّه في مِرْآةِ قلبِه، وتتحوّلَ عواطفُه كلُّها إلى جُنودٍ مُجَنّدَةٍ في خِدمتِه، فأنّى لِوُجُودِ اللهِ وسُلطانِه أنْ يَجِدَ مُتّسَعاً على صفحةِ هذا القلبِ؟ وِعاءٌ امْتَلَأَ بالآمالِ الدنيويةِ والرّغائبِ النّفسيةِ، ثمّ تَكاثَرَ فَوقَه الكثيرُ مِنْ مشاعرِ الحِقْدِ على الْمُنافِسينَ، ومشاعرِ الحَسَدِ والبَغْضاءِ للمُتَمَيّزِينَ، كيف يمكنُ أنْ يَبقَى فيه مُتّسعٌ للشّعورِ بمحبّةِ اللهِ أو تعظيمِه والمخافةِ منه؟ هما ظلامٌ وضياءٌ إنْ احْتَلَّ أحدُهما القلبَ غابَ عنه الآخَرُ، إذ هما نَقِيضانِ لا يجتمعانِ.

– وكم يَتجلّى هذا الأمرُ في العبرةِ التي يَسُوقُها لنا كتابُ اللهِ عزّ وجلّ، إذْ يُحدِّثُنا عن ذاكَ الذي آتاه اللهُ آياتِه فانْسَلَخَ منها، فأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكان مِنَ الغاوينَ. وقِيلَ في كتبِ التفسيرِ أنّ اسْمَهُ بِلعامُ بنُ باعُوراءَ، أحدُ علماءِ بني إسرائيلَ. لقد آتاه اللهُ آياتِه عِلْماً، ولكنّه أخلدَ إلى الأرضِ واتّبعَ هواهُ، تعلّقَ قلبُه بالدنيا، فكانتْ سيرتُه كسِيرَةِ الكلبِ، يلهثُ وراءَها دونَ أنْ يَشبعَ منها: قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). الأعراف 175، 176.

12) إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ.

– إذا كانَ العبدُ مُتلبِّساً بحالٍ من أحوالِ دنياه، وكان له فيها شُغْلٌ يَمنعُه من العملِ بالأعمالِ الصالحةِ، وأحالَ ذلك العملَ على فَراغِه من تلك الأشغالِ، وقالَ: إذا تَفرّغْتُ عَمِلْتُ، فذلك مِنْ رُعونةِ نفسِه، والرّعُونةُ: ضَرْبٌ مِنَ الحَماقَةِ والهَوجِ والاضْطِرابِ والاسترخاءِ، وهي عندَ أربابِ السّلُوكِ: الوقوفُ مع حُظوظِ النّفْسِ ومُقْتَضى طِباعِهَا.

– وحماقتُه ورعونتُه مِنْ وُجوهٍ:

الأولُ: إيثارُ الدنيا على الآخِرَةِ، وليس هذا مِنْ شأنِ عُقلاءِ المؤمنينَ، وهو خِلافُ ما طُلِبَ منه، قال الله تعالى: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى). الأعلى 16،17.

والثاني: تَسويفُه بالعملِ إلى أوانِ فراغِه، وقد لا يَجِدُ مُهلةً، بل يَختطِفُه الموتُ قبلَ ذلك، أو يَزدادُ شُغْلُه، لأنّ أشغالَ الدنيا يَتداعَى بعضُها إلى بعضٍ.

والثالثُ: أنْ يَفْرَغَ منها إلى الذي لا يُرضِيهِ، مِنْ تَبَدُّلِ عَزْمِهِ، وضَعْفِ نِيّتِه.

ثمّ فيهِ مِنْ دَعْوَى الاستقلالِ ورؤيةِ الحولِ والقوةِ في جميعِ الأحوالِ ما يَسْتَحْقِرُ في جنبِه جميعَ هذا.

– بل الواجبُ عليه أنْ يُبادِرَ إلى الأعمالِ على أيِّ حالٍ كان، وأنْ يَنْتَهِزَ فُرصةَ الإمكانِ قبلَ مُفاجأةِ الموتِ، وحلولِ الفَوتِ، وأنْ يتوكَّلَ على اللهِ تعالى في تِيْسِيرِها عليه، وصَرْفِ الموانعِ الحائِلَةِ بينَها وبينِه.

– رَوَى التِّرمِذِيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: "بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقراً مُنسياً، أَوْ غِنىً مُطغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفسِداً، أَوْ هَرَماً مُفنِّدًا، أَوْ مَوتاً مُجْهِزاً، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ".

– وعَنْ أبي يَعْلَى شَدَّادِ بْن أَوْسٍ رضي الله عنه عن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: "الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتمَنَّى عَلَى اللَّهِ". رواه التِّرْمِذيُّ وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ.

– وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله: "ما مِنْ يومٍ يَنْشَقُّ فَجْرُهُ إلّا ويُنادِي: يا ابنَ آدمَ أنا خَلْقٌ جديدٌ، وعلى عملِكَ شهيدٌ، فتزوّدْ منِّي فإنِّي إذا مَضَيْتُ لا أَعُودُ إلى يومِ القيامةِ".

– وكم مِنْ مُسَوِّفٍ فاتَه ما تمنّاه، ولا يُدرِكُ الْمَرْءُ كُلَّ ما يَهواهُ، ولِكُلِّ وَقْتٍ عَمَلٌ مُسْتَغْرِقٌ له، فلا يُمكنُ دَرْكُهُ إذا فاتَ وقتُه.

– وإحالتُك الأعمالَ وتأخيرُها إلى وقتٍ آخَرَ مِنْ علامةِ الرّعُونةِ والحُمقِ، وهو غُرُورٌ.

ومِنْ أين لكَ أنْ تَصِلَ إلى ذلك الوقتِ؛ والموتُ هاجِمٌ عليكَ مِنْ حيثُ لا تَشعُرُ؟

وعلى تقديرِ وُصُولِكَ إليه لا تَأْمَنُ مِنْ شُغْلٍ آخَرَ يَعْرِضُ لك.

- وفراغُ الأشغالِ مِنْ حيثُ هو نادرٌ لقولِه صلى الله عليه وسلم: "نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ". صحيح البخاري. فمَنْ حَصَلَ له الأمْرانِ: الصِّحَّةُ والفراغُ وكَسِلَ عنِ الطَّاعاتِ، فهو الْمَغْبُونُ الخَاسِرُ في تِجَارَتِه.

- وكم مِنْ مُسلمٍ مَدَّ جُسُوراً مِنَ الآمَالِ بينه وبين ظُلُماتِ الغيبِ الذي هو مُقْبِلٌ عليه، فلمْ يُتَحْ له أنْ يَقْطِفَ مِنْ آمالِه تلك إلّا الحَسْرةُ والأَسَى، فقد كان الموتُ أسرعَ إليه مِنْ آمَالِه التي كان يَنْسُجُها، وحاقَ به قولُ اللهِ عزّ وجلّ: (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ). الانشقاق 6.

13) لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا، فَلَوْ أَرَادَكَ لَهَا لَاسْتَعْمَلَكَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ.

– أي لا تطلبْ من اللهِ تعالى أن يُخرجَكَ من حالةٍ مُوافِقَةٍ للشّرعِ دُنيويةٍ أو دينيةٍ لِتَوَهُّمِكَ أنّ غيرَها أَرْقَى منها، لأنّهُ تَخْيِيرٌ على مولاكَ، ولا خِيَرَةَ لك في ذلك، فاللهُ سُبحانه لو أرادَ لاسْتَعْمَلَكَ اسْتِعمالاً مَحْبُوباً عندَه مِنْ غيرِ إخراجٍ مِنَ الحالةِ التي أنتَ عليها.

– فإنّ اللهَ قادرٌ على أن يستعملكَ فيما يزيدُكَ قُرباً إليه، ويَزيدُكَ رِضاً عنه، دونَ أنْ تَتَحوّلَ عن العملِ الذي أقامَك فيه.

– إذا أحبَّكَ اللهُ فما أيسرَ أن يستعملَكَ في أَجَلِّ القُرُباتِ التي يُحِبُّها من خلالِ عملِك الذي ساقَه حالُكَ إليه.

– وإنّما النّهْيُ في ذلك لوجوهٍ، منها: فَوْتُ العبوديةِ بالاختيارِ على اللهِ سبحانه، ووجودُ التدبيرِ معه. وجهلُك بالمصالحِ، فقدْ تُحبُّ الشيءَ وهو شرٌّ لك، وتكرهُ الشيءَ وهو خيرٌ لك.

– حُكيَ عن بعضِهم أنّه كان يَتمنّى كلَّ يومٍ رغيفينِ ويَتفرّغُ للعبادةِ، فَسُجِنَ وكان يُؤْتَى كُلَّ يومٍ برغيفينِ، فَفَكّرَ في أمرِه فقِيلَ له: إنّكَ سَأَلْتَ الرّغِيفَيْنِ ولم تَسْأَلِ العافيةَ.

– فلا تَطْلُبْ أن يُخرجَكَ من أمرٍ ويُدخِلَك فيما سِواهُ إذا كان ما أنتَ فيه مُوافِقاً لحُكمِ اللهِ، وأمّا إذا كانتِ الحالةُ الحاصلةُ غيرَ مَرْضِيّةٍ شرعاً، فيجبُ طَلَبُك للخُروجِ عنها والدُّخولِ فيما هو مَطْلوبُ الشّرعِ.

– قال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) الإسراء 80. أي: اجْعَلْ مَداخِلي ومَخارِجي كلَّها في طاعتِك وعلى مرضاتِك، وذلك لِتَضَمُّنِها الإخلاصُ ومُوافَقَتِها الأمرَ. (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) الإسراء 80. أي: حُجّةً ظاهرةً، وبُرهانًا قاطعًا على جميعِ ما آتيهِ وما أَذَرُه.

وهذا أَعْلَى حالةٍ يُنزِلُها اللهُ العبدَ، أن تكونَ أحوالُه كلُّها خَيرًا ومُقَرِّبَةً له إلى ربّه، وأنْ يكونَ له –على كلِّ حالةٍ مِنْ أحوالِه– دَليلاً ظاهرًا.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ). القصص 68

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). التكوير 29

– فاصبرْ لِئَلّا تطلبَ الخروجَ بنفسِك فتُعطَى ما طَلَبْتَ وتُمْنَعُ الرّاحَةَ فيه، فَرُبَّ تَارِكٍ شَيئاً ودَاخِلٍ في غيرِه لِيَجِدَ الرَّاحةَ، فقُوبِلَ بُوجُودِ التّعَسُّرِ عُقوبةً لِوُجُودِ الاخْتِيارِ.

قال بعضُهم:

فَإِنْ أَقَامَكَ عَظِيمُ الْمِنَّهْ *** في عَمَلٍ مُوَافِقٍ لِلسُّنَّهْ

فَهوَ مَقَامُكَ الّذِي يَلِيقُ بِكْ *** فَلَا تَرُمْ خِلَافَهُ بِشَهْوَتِكْ

لَوْ شَاءَ ربُّنَا الْعَظِيمُ الْمَالِكْ *** وَمَنْ لَهُ التَّصْرِيفُ في الْمَمَالِكْ

لَكُنْتَ في الْمَطْلُوبِ مِنْ غَيْرِ طَلَبْ *** فَارْضَ بِحُكْمِ اللهِ والْزَمِ الْأَدَبْ

وَإِنْ أَقَامَكَ هَوَاءُ الطَّبْعِ *** في عَمَلٍ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ

فَبَادِرِ الْخُروجَ لَا تُمَاطِلْ *** واقْطَعْ بِسَيْفِ الْعَزْمِ كُلَّ حَائِلْ

وقال آخَرُ:

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ، وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ *** والدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ، والرِّزْقُ مَقْسُومُ

والْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا *** وفي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ والشُّومُ

– ولَعَلَّ التَّوْجِيهَ في هذه الحِكْمَةِ يُمكنُ أنْ يكونَ لِمَعانِي الرِّضَى عنِ اللهِ وتَرْكِ التّسَخُّطِ.

والرِّضا هو سُكونُ القلبِ لِقَدِيمِ اختيارِ اللهِ لِعَبْدِه، يَنْظُرُ إلى ما كتبَهُ اللهُ فيَرضَى بِصِحّتِه، يَرْضَى بمالِه، يَرضَى بِوَلَدِه، يَرضَى بِخَسارتِه، ويَرضَى في كلِّ شؤونِ حَياتِه، أمّا مَنِ اعْترضَ فقد فاتَهُ الأجرُ والثّوابُ من عندِ اللهِ، وعاشَ في هَمٍّ وغَمٍّ لا يَعْلَمُ به إلَّا خالِقُه، فيفُوتُه الأجرُ والثوابُ ويَحصُلُ له الألمُ؛ لأنّ قَدَرَ اللهِ لازِمٌ، فَإِنْ رَضِيَ به العبدُ جَرَى عليه القَدَرُ وهو مَأْجُورٌ، وإنْ لم يَرْضَ جَرَى عليه القَدَرُ وهو مَأْزُورٌ.

– نقولُ ذلك لأنَّ نُصوصَ الكِتابِ والسُّنّةِ دَلَّتْ على أنَّ المسلمَ يَطْلُبُ مِنَ اللهِ خَيْرَيْ الدّنيا والآخِرَةِ، ويطلبُ كلَّ المراتِبِ والأعمالِ التي تُقَرِّبُه إلى اللهَ، ولو كان غَيْرَ حائزٍ لها.

فالمسلمُ يطلبُ من اللهِ العافِيَةَ والغِنَى كما يَطْلُبُ زيادةَ الإيمانِ والتّقوَى. ويَسْتَعِيذُ باللهِ مِنَ المرضِ والبُؤسِ والفَقْرِ، كما يَسْتَعِيذُ مِنَ الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيانِ.

14) مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ.

– الأنفاسُ أزمنةٌ دقيقةٌ، تَتعاقَبُ على العبدِ ما دامَ حيّاً، فكُلُّ نَفَسٍ يَبدُو منه ظَرْفٌ لِقَدَرٍ مِنْ أقدارِ اللهِ تعالى، يَنْفُذُ فيه كائناً ما كانَ، وحياةُ الإنسانِ إنْ هي إلّا مجموعةُ أنفاسِه، وإنّما تَتحقّقُ أعمالُ أحدِنا وأقوالُه وتَصرّفاتُه في ساحةِ هذه الأنفاسِ التي يَتمتّعُ بها.

– والمعنى أنّه ليسَ مِنْ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِكَ تُبدِيه، أيْ تُظْهِرُه بِقُدرةِ اللهِ، إلّا وله تعالى فيكَ أمْرٌ مُقَدّرٌ ناشِئٌ عنْ قُدْرَتِه وإرادتِه، يُنْفِذُه كائناً ما كان، فأنتَ رَهِينُ القضاءِ والقَدَرِ في كلِّ نَفَسٍ وفي كلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ، فكُنْ عبداً للهِ في كلِّ شيءٍ، عَطاءً ومنعاً وعِزّاً وذُلّاً وقَبْضاً وبَسْطاً وفَقْداً ووَجْداً، فإنّ المؤمنَ يُراعي الحقَّ في كلِّ نَفَسٍ حتى يكونَ مُوافِقاً لأمرِ اللهِ ورضوانِه.

– فابنُ عطاءِ اللهِ يُخاطبُ كُلّاً مِنّا مِنْ خلالِ حِكْمَتِه هذه قائلاً: يا ابنَ آدمَ، إنّ كلَّ تقلباتِكَ وكلَّ أحوالِكَ الصغيرةِ والكبيرةِ، الخفيّةِ والْمُعلَنَةِ، داخلٌ في قضاءِ اللهِ وقَدَرِه، بحيثُ ما تَكادُ تُطْلِقُ شَهْقَةً ثمّ زَفْرَةً إلّا وهو داخلٌ في سِجلِّ عِلْمِ اللهِ عنك.

– في صحيحِ مسلمٍ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الكَيْسِ وَالْعَجْزِ".

أي: لا يَقعُ فِي الوُجودِ إلَّا وقدْ سَبقَ بِه عِلمُ اللهِ عزَّ وجلَّ ومَشيئتُه وتَقديرُه؛ حتَّى العَجزُ، وهوَ عَدمُ القُدرةِ، والكَيْسُ، وهوَ النَّشاطُ والحِذقُ بالأُمورِ؛ أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ قدَّرَ العَجزَ والكَيْسَ وكُلَّ شيءٍ، لا يقَعُ فِي الوُجودِ إلَّا وقدْ سَبقَ بِه عِلمُ اللهِ ومَشيئتُه.

- وتُشيرُ الحكمةُ إلى ضرورةِ التّسليمِ بِكُلِّ ما يَجرِي به القَدَرُ والقضاءُ.

فإذا عَلِمْتَ أيّها الإنسانُ أنّ أنفاسَكَ، قد عمَّها القَدَرُ، ولا يَصْدُرُ منك ولا مِنْ غيرِكَ إلّا ما سبقَ به علمُه، وجَرى به قلمُه، لَزِمَكَ أنْ تَرضَى بكلِّ ما يَجرِي به القضاءُ، وإذا كانتِ الأنْفَاسُ معدودةً، فما بالُكَ بالخُطُواتِ والخَطَراتِ، وغيرِ ذلك مِنْ سَائرِ التّصرُّفاتِ.

ولله درُّ القائلِ:

مَشَيْنَاهَا خُطَىً كُتِبَتْ عَلَيْنَا *** وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَىً مَشَاهَا

ومَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ *** فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

15) لَا تَتَرَقَّبْ فُرُوغَ الأَغْيَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُراقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ.

– والأغيارُ جمعُ غِيَرٍ، وغِيَرُ الدَّهْرِ: أَحْدَاثُهُ، ونَوَائِبُهُ، وصُرُوفُهُ. والغِيَرُ هي الكَدَرُ والنَّكَدُ.

والمقصودُ أنْ تأخذَ بالحزمِ في حالِك، وتَعُدَّ تَوجّهَكَ إلى اللهِ مع أشغالِكَ مِنْ جُملةِ أشْغالِك.

– ومِنَ المعلومِ أنّ هذه الحياةَ الدنيا، مليئةٌ بالْمُغْرياتِ والْمُلهِياتِ والْمُنْسِياتِ، التي مِنْ شأنِها أنْ تَقْطَعَ العبدَ عنِ اللهِ، ومهما حاولَ الإنسانُ أنْ يَنْتَقِيَ لنفسِه حياةً صافيةً نظيفةً مِنْ هذه الشواغلِ، فلنْ يَعْثُرَ عليها، ما دامَ يَتَقلَّبُ في هذه الدنيا.

– فهذه الشواغلُ هي الامتحانُ الذي يَبْتَلِي بِهِ اللهُ عبادَه، فإذا تَرفّعُوا وتَغلّبُوا على آفاتِها استجابةً لأمرِ اللهِ وَفَّى لهم وعدَهُ وأجْزَلَ لهم الْمَثُوبةَ والأجرَ، وإنْ رَكَنُوا إليها فنَسُوا في سبيلِها اللهَ وأحكامَهُ، نَفَذَ فيهم وَعِيدُه، وقَضَى عليهم بِشَقاءٍ لا نهايةَ له.

– فيجبُ أنْ يعلمَ كلٌّ منّا أنّ انتظارَ التّخلّصِ من الشواغلِ والأحداثِ والنوائبِ جهلٌ بحقيقةِ الدنيا وانتظارٌ في غيرِ طائلٍ، إذِ الشواغلُ ستظلُّ موجودةً، فلا ينبغي الانتظارُ والتّسويفُ، بل ينبغي الْمُبادرةُ والعملُ مع وُجودِ الشواغلِ.

- فَتَرَقُّبُ الفراغَ من الشواغلِ يُوجبُ الأُنْسَ بالفانِي، وذلك مِنْ جهلِه به، إذْ لو عَلِمَ أنّ الدّارَ دارُ بلاءٍ، وأنّها إلى انقضاءٍ، ما سَكنَ إليها، ولكانَ في كلّ نَفَسٍ يعملُ في الفرارِ منها على كلّ حالٍ من أحوالِه، وقد قِيلَ: "سِيرُوا إلى اللهِ عُرْجاً ومَكاسِيرَ، فإنَّ انتظارَ الصِّحّةِ بَطالةٌ".

- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي اللَّه عنهما قَالَ: أَخَذَ رسولُ اللَّه ﷺ بِمَنْكِبِي فقالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ". وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي اللَّه عنهما يقولُ: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ". رواه البخاري.

- قالَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمه الله: "إِذَا جَنَّكَ اللَّيْلُ فلا تأمَلِ النَّهارَ حتّى تَسْلَمَ لَيْلَتُكَ لَكَ، وتُؤَدِّيَ حَقَّ اللهِ فِيهَا، وتَنْصَحَ فِيهَا لِنَفْسِكَ، وإذا أَصْبَحْتَ فَكَذَلِكَ حتَّى تُمْسِي".

16) لَا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الْأَكْدَارِ مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا، وَوَاجِبُ نَعْتِهَا.

– أي لا تَعُدَّ وُقوعَ الأكدارِ أمراً غريباً مُدّةَ كونِكَ في هذه الدارِ الدنيويةِ، فإنّها ما أظْهَرَتْ إلّا وصفَها المستحقَّ لها، ونعتَها اللازمَ لها، فلم تأتِ في ذلك بغريبٍ يُستغربُ، ولا بنادرٍ يُتعَجّبُ منه، بل بما هو معلومٌ من حالِها، مشهورٌ من شأنِها، فمن ضَرُورِيّاتِها وُجُودُ المكارِهِ فيها مع الانهماكِ فيها.

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا *** صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ والأَقْذَارِ

ومُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا *** مُتَطَلِّبٌ في الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

– بل وطِّنْ نفسَكَ على أنّها دارُ الأنكادِ والأكدارِ والهمومِ والغمومِ والبلايا والمحنِ، فإذا وَرَدَ عليك أمرٌ من ذلك لم تَرَهُ غريباً، فيَصِيرُ تعبُكَ فيها راحةً، إذْ لم يَرِدْ عليكَ سِوَى ما تَعْرِفُ.

– رُوِيَ عن جعفرِ الصّادِقِ رَحِمَهُ اللهُ أنّه قالَ: "مَنْ طَلَبَ ما لم يُخْلَقْ، أتْعَبَ نَفْسَهُ ولم يُرزَقْ". قيلَ له وما ذاكَ؟ قالَ: "الرّاحةُ في الدنيا".

ومَنْ رَامَ في الدُّنْيَا حَيَاةً سَلِيمَةً *** مِنَ الْهَمِّ والْأَكْدَارِ رَامَ مُحَالَا

– وقد جعلَ اللهُ الدنيا دارَ فِتنةٍ وابتلاءٍ، لِيَعْمَلَ كلُّ أحَدٍ فيها على مُقْتَضَى ما سَبَقَ له، ويُوَفَّى جزاءَهُ في الدارِ الآخِرَةِ.

قال تعالى: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الأنبياء 35.

فمِنْ ضرورياتِ الدنيا وُجْدَانُ المكارِهِ والْمَشاقِّ فيها، فتقعُ الأكدارُ بسببِ ذلك أيضاً.

– فالواجبُ على العبدِ، ألّا يُوَطِّنَ على الراحةِ في الدنيا نَفْساً، ولا يَركَنُ فيها إلى ما يَقتضِي فَرَحاً وأُنْساً، وأنْ يعملَ على قولِ النّبي صلى الله عليه وسلم: "الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ". صحيح مسلم.

فتوطينُ العبدِ على الْمِحَنِ في دنياه، يُهَوِّنُ عليه ما يلقاهُ ويَجِدُ السِّلْوانَ عندَ فُقْدانِ ما يَهْواهُ.

– فَلْيَتّقِ العبدُ ما يَرِدُ عليه مِنْ ذلك بالصّبرِ والرّضا والاستسلامِ عندَ جريانِ القضاءِ، فعَنْ قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ يَنْجَلِي الأمرُ، ويَستَوْجِبُ مِنَ اللهِ تعالى جَزِيلَ الأجْرِ.

– قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ). الزمر 10.

– وفي صحيح مسلمٍ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكانَ خَيْرًا له".

– وفي وصيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: "واعمَلْ للهِ بالشُّكرِ واليقينِ، واعلَمْ أنَّ في الصَّبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ، وأنَّ الفرَجَ مع الكرْبِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا". الترمذي وأحمد.

– فمَنْ جَعَلَ الصّبرَ مُعْتَمَدَهُ في نَوازِلِه، واعتَدَّهُ مِنْ أعظمِ عُدَدِه ووسائلِه، فهو مُصِيبٌ في رأيه، مُنَجَّحٌ في سَعْيِه، ومَنْ جَزِعَ مِنَ المصائبِ، واضْطَرَبَ عندَ وُقوعِ النّوائِبِ، كان عامِلاً فيما يَزِيدُهُ ضُرّاً، ويُكسِبُه وِزْراً، ويُفَوّتُه أجراً، ونَاهِيكَ به خُسْراً.

فَمَا الدُّنْيَا وزُخرُفُهَا بِشَيءٍ *** ومَا أَيَّامُهَا إلَّا عَوَارِ

ولَيْسَ بِعَاقِلٍ مَنْ يَصْطَفِيهَا *** أَتَشْرِي الْفَوْزَ وَيْحَكَ بِالتَّبَارِ

فَتُبْ واخْلَعْ عِذَارَكَ في هَوَى مَنْ *** لَهُ دَارُ النَّعِيمِ ودَارُ نَارِ

وحُبُّ اللهِ أَفْضَلُ كُلِّ أُنْسٍ *** فَلَا تَنْسَ التّخَلُّقَ بِالوَقَارِ

جَمَالُ اللهِ أَكْمَلُ كُلِّ حُسْنٍ *** فَلِلَّهِ الكَمَالُ ولَا مُمَارِ

وذِكْرُ اللهِ مَرْهَمُ كُلِّ جُرْحٍ *** وأَنْفَعُ مِنْ زُلَالٍ لِلْأُوَارِ

(إبراهيم بن محمد بن علي التازي)

17) ماَ تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبّكَ، وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ.

– طَلَبُ الشيءِ باللهِ، هو خُروجُكَ عمّا عندك لما عِندَ اللهِ في شأنِه، بالاعتمادِ عليه في تحصيلِه وتيسيرِه، بحيثُ يَلْجَأُ إليه العبدُ في المبدأِ ويُفَوّضُ له في الْمَطْلَبِ، ويَشْكُرُه إنْ أَعْطَى، ويُسَلِّمُ إنْ مَنَعَ. ثمّ هو في كُلِّ ذلك يَتوكَّلُ عليه في التّحصِيلِ، ويُحْسِنُ الظَّنَّ به عندَ العطاءِ أو المنعِ.

– قال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ). الطلاق 2، 3.

– وقال صلى الله عليه وسلم: "هذا رسولُ ربِّ العالَمِينَ؛ جِبريلُ نَفَثَ في رُوعِي: إنَّه لا تَموتُ نَفْسٌ حتى تسْتكمِلَ رِزْقَهَا وإنْ أبطأَ عليهَا، فاتَّقُوا اللّهَ؛ وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يحْمِلَنَّكم اسْتِبْطاءُ الرِّزقِ أن تَأْخذُوهُ بِمعصيةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ لا يُنالُ ما عِندَه إلّا بِطاعتِه". صحيح الترغيب، حسن صحيح.

– وأمّا طلبُ الشيءِ بالنَّفْسِ، فهو الرجوعُ إليها فيما تَستعْمِلُه مِنْ حِيَلٍ وأسبابٍ، اعْتَماداً أو اسْتِناداً، ويَظْهَرُ ذلك في وجوهٍ، منها:

1- شِدّةُ الحِرصِ والرّغبةِ على وَجْهٍ يُخِلُّ بالأدبِ، حتى يَنْسَى حقَّ اللهِ في طَلَبِه، بِأَنْ يأخُذَ مِنْ غيرِ وَجهٍ، أو يَتساهلَ في حقّ مَندوبٍ مُتأكّدٍ.

2- التوغّلُ في الأسبابِ، حتى إذا تَخلّفَتْ ضاقَ ذَرْعُهُ مِنْ حُصولِ مَقصُودِه، وذلك مِنِ اعْتِمادِهِ عليها فيما هو بِه، إذْ لو كان واثِقاً باللهِ لم يُبالِ بأمرِه.
3- الإعجابُ، ورؤيةُ النّفْسِ فيه، ومَحبَّةُ اطّلاعِ النّاسِ على ما له في تَحصِيلِهِ مِنْ سَبَبٍ وغيرِه.

– وقد قال ابنُ عطاءِ اللهِ في التنويرِ: "ما أدْخَلَكَ اللهُ فيه تَولَّى إعانَتَكَ عليه، وما دَخَلْتَ فيه بِنَفْسِكَ وَكَلَكَ إليه".

– فَمَنْ أنزلَ حوائِجَهُ باللهِ تعالى، والْتَجَأَ إليه، وتوكّلَ في أمرِه كلِّه عليه، كَفاهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ، وقَرّبَ عليه كلَّ بعيدٍ، ويَسّرَ عليه كلَّ عَسِيرٍ، ومَنْ سَكنَ إلى عِلْمِهِ وعقلِه، واعْتَمَدَ على قُوّتِه وحَوْلِه، وَكَلَهُ اللهُ إلى نفسِه، وخَذَلَه، وحَرَمَهُ توفِيقَه وأهْمَلَهُ، فلمْ تَنْجَحْ مَطالِبُه، ولم تَتَيسّرْ مآرِبُه، وهذا مَعلومٌ على القَطْعِ مِنْ نُصوصِ الشّريعةِ، وأنواعِ التّجارِبِ.

– والحاصلُ أنّه لا حولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ العظيمِ، فَيَنْبَغِي طَلَبُ المطلوبِ به لا بغيرِه، والنّظَرُ إلى الغيرِ نَقْصٌ في تَوحِيدِ العبدِ.

– إذاً خُلاصَةُ معنى هذه الحِكْمَةِ: لنْ تَخِيبَ في طَلَبِ أمرٍ تَسعَى إليه مُعتمِداً على توفيقِ اللهِ تعالى، مُتَبَرّئاً مِنْ أوهامِ حَوْلِكَ وقُوّتِكَ، بلْ سيكونُ التّوفيقُ فيه حَلِيفَكَ. ولنْ تُوَفَّقَ في تحقيقِ الهدفِ الذي تَبْغِيهِ مِنْ طَلَبٍ تَعتمدُ فيه على حِيلَتِكَ وأوهامِ قُدُراتِكَ، بل سيكونُ الخِذْلانُ هو الْمَآل.

– وأجمعُ آيةٍ دالّةٍ على هذه الحقيقةِ الاعتقاديةِ، قولُ اللهِ عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ). فاطر 15.

– وأجمعُ كلمةٍ دالّةٍ على هذه الحقيقةِ ممّا عَلَّمَنَا إيّاهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "لا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلّا بالله".

– وكذلك قولُ النّبيّ صلى الله عليه وسلم: "يا غُلامُ إِنِّي أعلّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَأَلتَ فَاسْأَلِ اللّهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِن باللّهِ، واعْلَمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ علَى أن يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وإنْ اجْتَمَعوا على أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلَامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ". الترمذي وأحمد، وصححه الألباني.

18) مِنْ عَلَامَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الْبِدَايَاتِ.

– النُّجْحُ: الحصولُ على الخَيرِ والظُّفْرُ بالمقصُودِ أو ببعضِه أو بما هو خيرٌ منه، وذلك في نِهايةِ كُلِّ شيءٍ مِنْ أمرِ الدنيا والآخرةِ؛ على حَسْبِ البِدايةِ، ولا أَحْسَنُ مِنْ بدايةِ الأمورِ باللهِ، فالنهايةُ فيها بالكرامةِ مِنَ اللهِ، وذلك على ثلاثةِ وجوهٍ:

1- الرجوعُ إلى اللهِ بالتّقوى، وكرامةُ اللهِ فيها بِحَمْدِ العاقِبَةِ، (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) الطلاق 2، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) الطلاق 4، (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) طه 132.

2- الرجوعُ إليه بالدعاءِ والسؤالِ واللَّجَإِ والافتقارِ، وكرامةُ اللهِ في ذلك الإجابةُ، (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر 60، (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) النمل 62، (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) البقرة 186.

3- الرجوعُ إليه تَعالى بِحُسْنِ الظَّنِّ به المُوجِبِ للتوكّلِ عليه والتفويضِ إليه، وكرامتُهُ في ذلك تيسيرُ المقصودِ والشُّكرُ، أو الرِّضَى في عَدَمِه، لأنّه تعالى عندَ حُسْنِ ظَنِّ عبدِه بِه كما وردَ عنِ النبيِّ ﷺ: "يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي". صحيح مسلم. (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) الطلاق 3، وقال في الذين قالوا "حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ": (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ). آل عمران 174.

- فَمَنْ صَحّحَ بِدايَتَهُ بالرجوعِ إلى اللهِ، والتوكّلِ عليه في جميعِ أمُورِه، نَجَحَ في حياتِه، وَوَصَلَ إلى مَطلوبِه، ومَنْ لم يُصَحّحْ بِدايَتَهُ انْقَطَعَ عنِ الوصولِ، ولم يَبْلُغْ في نِهَايَةِ أمرِه الْمَأْمُولَ، وإنْ قُضِيَتْ في الظَّاهِرِ وُكِلَ إليها.

- فإذا تَوجّهَتْ هِمّتُكَ أيّها العبدُ إلى طَلَبِ شَيءٍ ما، وأرَدْتَ أنْ يَنْجَحَ مَسعاكَ، فارْجِعْ إلى اللهِ في بِدايةِ طلبِكَ، وانْسَلِخْ مِنْ حَوْلِكَ وقُوّتِكَ. وقُلْ كما قالَ صلى الله عليه وسلم: "إنْ يَكُنْ هذا مِنْ عِندِ اللّهِ يُمْضِهِ". صحيح البخاري.

- ومِنْ أعظمِ الأدعيةِ التي نَدعُو بها ونُكرّرُها، الدعاءُ بِحُسْنِ الخاتِمَةِ ومنها ما وردَ في الحديثِ: "اللهمَّ أحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَأجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ". الطبراني وأحمد وابن حبان والحاكم، وقال عنه ابن كثير حديث حسن.

- ونعلمُ أيضاً أنّ العبدَ إذا آلَ إلى اللهِ بخاتمةٍ حسنةٍ، آلَ إليه مَغْفُوراً مُكْرَماً، والعكسُ أيضاً صَحِيحٌ، ويَشهدُ لذلك كثيرٌ مِنَ الآياتِ في كتابِ اللهِ، مثلُ قولِه تعالى: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ). ق 31، 32، 33.

- إنّ خاتمةَ العبدِ لا تكونُ إلّا ثَمَرةً ونتيجةً لِمَا قبلَها مِنَ البِداياتِ والأحوالِ السّابقةِ، إنّها الصّدَى لِمَا كان عليه حالُه مِنْ قَبْلُ، مُعْتَقَداً وسُلُوكاً.

- الخُلاصةُ أنْ نَعلمَ أنّ حُسْنَ الخواتيمِ في كلِّ الأعمالِ والأعمارِ، رَهْنٌ بِحُسْنِ البِداياتِ في الرُّجوعِ إلى اللهِ.

19) مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ، أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ.

– مَنْ أشرقتْ بدايتُه في كلِّ شيءٍ بتقوى اللهِ، أشرقتْ نهايتُه بالإعانةِ والتيسيرِ مِنَ اللهِ.

مَنْ أشرقتْ بدايتُه بِاللَّجَإِ إلى اللهِ، أشرقتْ نهايتُه بالإجابةِ مِنَ اللهِ.

مَنْ أشرقتْ بدايتُه بالاعتمادِ على اللهِ، أشرقتْ نِهايتُه بالرِّضَى عنِ اللهِ أو الشُّكْرِ للهِ.

لأنّ مَنْ كان للهِ، كانَ اللهُ لَهُ، ومَنْ كان في اللهِ تَلَفُهُ، كان على اللهِ خَلَفُهُ.

وإنّما حُرِمُوا الوُصُولَ بِتَضْيِيعِهِم الأصُولَ.

– لذلك قالَ بعضُهم: "مَنْ ظَنَّ أنّه يَصِلُ إلى اللهِ بغيرِ اللهِ قُطِعَ به، ومَنِ اسْتَعانَ على عبادةِ اللهِ بنفسِه وُكِلَ إليها".

– والبدايةُ الْمُشرقةُ تعني التي يَنبغِي أنْ يَتلقّاها العبدُ في بدايةِ طريقِه، عقيدةً وتزكيةً يُصْلِحُ بها قلبَه ونفسَه، وإنّها مرحلةٌ تأسيسيةٌ ذاتَ أهميةٍ كُبرى.

– فإذا أقامَ العبدُ هذا الأساسَ في صدرِ بداياتِه، ونَجحَ في ترسيخِه، غَدَا سُلوكُه إلى اللهِ عملاً سهلاً، لا يُرهِقُه بأيِّ جُهْدٍ، وأصبحَ تعامُلُه مع مَنْ حولِه دائراً على مِحْوَرٍ دائمٍ مِنْ مُراقبةِ اللهِ عزّ وجلّ، وتلك هي ضمانةُ الحياةِ المشرقةِ، سَيْرٌ على صراطِ اللهِ في اتّباعِ أحكامِه، ومُراقبةٌ للهِ في التّعامُلِ مع عبادِه.

– ومَنْ عمَّرَ أوقاتَه في حالِ سُلُوكِه طريقَ العبوديةِ بأنواعِ الطاعةِ، ومُلازمةِ الذِّكرِ، وكثرةِ الإقبالِ على اللهِ، والمسارعةِ في تنفيذِ أحكامِه، واجتنابِ المحرماتِ والشبهاتِ، أشرقتْ نِهَايَتُهُ بإفاضَةِ النُّورِ، والعملِ النافعِ، والخُلُقِ القويمِ، والظُّفْرِ بالْمُرادِ.

– فمَنْ أشرقتْ بدايتُهُ بالرجوعِ فيها إلى اللهِ تعالى كما يُحِبُّ ويَرْضَى أشرقتْ نهايتُهُ، ومَنْ أظْلَمَتْ بدايتُهُ بالرجوعِ إلى غيرِ اللهِ تعالى أظلمتْ نهايتُهُ.

والحاصِلُ ما يُغْرَسُ في البدايةِ يُجْتَنَى في النهايةِ.

– فمَنْ جَدَّ وَجَدَ، ومَنْ زَرَعَ حَصَدَ، ولِكُلِّ مُجتهدٍ نَصِيبٌ، وبِقَدْرِ المجاهدةِ تكونُ أنوارُ الهدايةِ.

قالَ تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). العنكبوت 69.

وقال تعالى: (إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ). الأعراف 56.

20) مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ.

– إنّ الظّاهِرَ عُنوانُ الباطِنِ، فمَنْ طابتْ سَرِيرَتُهُ حُمِدَتْ سِيرَتُه.

ومَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ *** وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

– فما في القلبِ مِنْ محمودٍ أو مذمومٍ يَظْهَرُ على الجوارحِ، فمَنِ ادّعَى بقلبِه معرفةَ اللهِ تعالى ومحبَّتَه، ولم تَظْهَرْ على ظاهِرِه ثَمَراتُ ذلك مِنَ اللَّهَجِ بِذكرِه، والمسارعةِ إلى اتّباعِ أمرِه، والفِرارِ مِنَ القواطِعِ الشاغلةِ عنه، فهو كَذّابٌ في دَعْوَاهُ مُتّخِذٌ إِلَهَهُ هَواهُ.

– يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ الله: "وهذه الأمورُ الباطنةُ والظّاهرةُ بينهما ارتباطٌ ومناسبةٌ؛ فإنّ ما يقومُ بالقلبِ مِنَ الشعورِ والحالِ يُوجبُ أُمورًا ظاهرةً، وما يقومُ بالظّاهرِ مِنْ سائرِ الأعمالِ يُوجبُ للقلبِ شُعورًا وأحوالاً". (اقتضاء الصراط المستقيم).

– ويقولُ أيضاً: "إنّ الظّاهِرَ لابُدَّ له مِنْ باطِنٍ يُحَقّقُهُ ويُصَدّقُهُ ويُوافِقُهُ، فمَنْ قامَ بظاهِرِ الدّينِ مِنْ غيرِ تَصْدِيقٍ بالباطنِ فهو مُنافِقٌ، ومَنِ ادّعَى باطنًا يُخالِفُ ظاهرًا فهو كافِرٌ مُنافِقٌ، بلْ باطنُ الدّينِ يُحَقّقُ ظاهرَهُ، ويُصَدّقُه ويُوافِقُه، وظاهرُهُ يُوافِقُ باطنَه، ويُصدّقُه ويُحَقّقُه". (مجموع الفتاوى).

– ويُبَيّنُ شيخُ الإسلامِ التّأثِيرَ المتبادَلَ بينَ أعمالِ القلوبِ وأعمالِ الجوارحِ فيقولُ: "إذا قامَ بالقلبِ التّصديقُ به والمحبةُ له، لَزِمَ ضرورةً، أنْ يَتَحرّكَ البَدَنُ بِمُوجِبِ ذلك مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ، فما يَظْهَرُ على البَدَنِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ هو مُوجَبُ ما في القلبِ ولازِمُه ودليلُه ومعلولُه،كما أنَّ ما يقومُ بالبَدَنِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ له أيضًا تأثيرٌ فيما في القلبِ، فكُلٌّ منهما يُؤثّرُ في الآخَرِ، لكنَّ القلبَ هو الأصلُ، والبَدَنَ فرعٌ له، والفرعُ يَستَمِدُّ مِنْ أصلِه، والأصلُ يَثْبُتُ ويَقْوَى بِفَرْعِه". (مجموع الفتاوى).

– وبذلك يَتَبَيّنُ أنّه مِنْ حيثُ اللزومُ، فإنّ الإيمانَ الباطنَ يستلزمُ العملَ الصالحَ الظّاهِرَ، ولا عكسَ كما هو شأنُ المنافقينَ، وأمّا مِنْ حيثُ التأثيرُ فإنّ كُلّاً مِنَ الظاهرِ والباطنِ يُؤثّرُ أحدُهُما في الآخَرِ.

– ومِنْ أدلّةِ كونِ الباطنِ يُؤثّرُ في الظاهرِ قولُه صلى الله عليه وسلم: "ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألَا وهي القَلْبُ". (أخرجه البخاري ومسلم).

– فمَنْ كانتْ طَوِيَّتُهُ طَيّبةً ظهرتْ آثارُ طِيبِها في أقوالِه وأفعالِه، ومَنْ كانتْ سَرِيرَتُهُ سَيّئةً بَدَتْ علاماتُها في أعمالِه، فالظاهرُ دليلُ الباطنِ، كما أنّ الباطنَ أصلُ الظاهرِ.

قالَ تعالى: (سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم) الفتح 29، وقال تعالى: (تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ) البقرة 273، وقال في المنافقين: (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) محمد 30.

– فما اسْتَودَعَ اللهُ في القلوبِ وجعلَه فيها مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، مِنْ نُورٍ أو ظُلمةٍ، مِنْ رحمةٍ أو قسوةٍ، مِنْ بُخلٍ أو شُحٍّ أو كَرمٍ وسَخاءٍ، ويقظةٍ أو غفلةٍ، أو غيرِ ذلك مِنَ الأخلاقِ المحمودةِ أو المذمومةِ، لا بُدَّ أنْ يظهرَ آثارُ ذلك على الجوارحِ، مِنْ أدَبٍ وتهذيبٍ، وسُكونٍ وطمأنينةٍ، وبذلٍ وعفوٍ، أو طَيْشٍ وغضبٍ، وغيرِ ذلك مِنَ أعمالِ الباطنِ والظاهرِ.

– فالأَسِرّةُ تَدُلُّ على السّرِيرَةِ، والكلامُ صِفَةُ المتكلّمِ، وما فِيكَ يَظْهَرُ على فِيكَ، "وكُلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرْشَحُ (يَنْضَحُ)"، وما خَامَرَ القلوبَ فعلى الوُجُوهِ أَثَرُهُ.

21) أُخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الحَقِّ مُجِيباً، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً.

- أوصافُ البشريةِ التي لا يُمكنُ خُلُوُّهِم عنها ثلاثةٌ:

1) ما كان مُوافقاً للعبوديةِ بكلِّ وجهٍ، وهي: الطاعةُ والعفّةُ واليقظةُ، لأنّها المطلوبةُ مِنَ العبدِ بأمرِ اللهِ تعالى.

2) ما كان مُخالفاً للعبوديةِ بكلِّ وجهٍ، وهي: المعاصي، والشهواتُ، والغَفَلاتُ، لأنّ العبدَ مَنهيٌّ عنها بأمرِ اللهِ تعالى.

3) ما كان مُخالفاً بوجهٍ، مُوافقاً بوجهٍ، وهو كلُّ وصفٍ كانت فيه شائِبَتانِ مِنَ الوجوهِ المتقدّمةِ، فيكونُ تارةً عُبوديةً وتارةً عكسها، كالأسبابِ إنْ قُصِدَ بها القيامُ بِحَقِّ اللهِ كانت عبوديةً وكمالاً، وإنْ قُصِدَ بها غيرُ ذلك كانت وَبَالاً، وإنْ تَجرّدَتْ عنِ القصدِ كانت مِنْ حُظُوظِ العبدِ فلمْ يَفُتْهُ بها غيرُ القُرْبِ مِنَ اللهِ. ومِنْ ذلك ما رُوِيَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمه الله أنه قال: "إذا وافقَ الحقُّ الهوى فذلك الشُّهْدُ بالزُّبْدِ".

- والخروجُ ممّا ذُكِرَ إنّما يَتَحقّقُ باتّباعِ أمرِ اللهِ في كُلِّ وِرْدٍ وصَدَرٍ، "لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الحَقِّ مُجِيباً، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً".

وإجابةُ نداءِ الحقِّ باتّباعِ أمرِهِ ونَهيِه عندما يَرِدُ مثلُ قولِه تعالى: (يا بَنِي آدَمَ)، (يا أيُّها النّاسُ)، (يا أيُّها الذين آمنوا).

– يقول العِزُّ بنُ عبدِ السلامِ رحمه الله: "والشريعةُ كلُّها مصالحُ؛ إمّا تَدْرَأُ مفاسِدَ أو تَجلِبُ مَصالحَ، فإذا سَمِعْتَ اللهَ يقولُ: {يا أيُّها الذين آمنوا}، فتأمّلْ وصيّتَه بعدَ ندائِه، فلا تَجِدُ إلّا خيراً يَحثُّكَ عليه أو شرّاً يَزْجُرُكَ عنه، أو جمعاً بين الحَثِّ والزّجْرِ". (قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام).

– وقال أيضاً في نَفْسِ الكتابِ: "والسعادةُ كلُّها في اتّباعِ الشريعةِ في كُلِّ وِرْدٍ وصَدَرٍ، ونبذِ الهوى فيما يُخالِفُها؛ فقد قال تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى}".

– وأمّا القُربُ مِنْ حَضْرَتِه فمُضَمَّنٌ فيما ذُكِرَ مِنْ إجابةِ النِّداءِ بِحُكْمِ وعدِه الكريمِ وكرمِه العَميمِ، ويَتحقّقُ القُربُ مِنْ حَضْرَتِه بِدَوامِ ذِكْرِه بالإعراضِ عنِ النّفسِ، واللَّجَإِ إليه طلباً لِبرِّهِ، والرِّضا عنه في جميعِ ما أمَرَ.

– فابنُ عطاءِ اللهِ يقولُ في هذه الحكمةِ: أُنْظُرْ إلى مَا رُكِّبَ فيكَ مِنْ أوصافِ البشريةِ، وتَبيّنْ كلَّ ما لا يَتّفِقُ مع عُبوديتِكَ للهِ منها، فابتعدْ عنه وأَخْرِجْ نفسَك منه، لِتُصْبِحَ مُهَيّأً لِنِداءِ اللهِ مُصْغِياً إليه، لِيَتَحقّقَ لكَ القُربُ منه سبحانه وتنالَ وعدَه الكريمَ وأجرَه العظيمَ.

– فالمهمّةُ العظيمةُ التي يجبُ على العبدِ أنْ ينهضَ بها، تتمثّلُ في ضرورةِ التّخلُّصِ مِنَ الطِّباعِ والصِّفاتِ التي لا تَتّفِقُ معَ مَسالِكِ العبوديةِ للهِ، كَالكِبْرِ والعُجبِ، والحسدِ والحقدِ والشُّحِّ، والتّكالُبِ على الدنيا، والرِّياءِ والسُّمعةِ، وحُبِّ الجاهِ والمالِ، والعداوةِ والبغضاءِ، وطُولِ الأملِ، والغِلِّ والغِشِّ، والفظاظةِ والغِلظةِ،

والغفلةِ والجفاءِ، وقِلّةِ الرحمةِ، وقلّةِ الحياءِ، وتركِ القناعةِ، والانتصارِ للنّفْسِ، وغيرِها مِنَ الصّفاتِ الذّميمةِ، والأخلاقِ اللّئِيمةِ.

– فإذا قامَ العبدُ بذلك، طَهُرَ قلبُه، وتزكَّتْ نفسُه، واتّصَفَتْ بمحاسِنِ الصفاتِ التي ينالُ بها مِنْ قُربِ اللهِ غايةَ المرادِ، فيَظْهَرُ حينئذٍ عليه آثارٌ حميدةٌ: مِنَ التواضعِ للهِ، والخشوعِ بين يديْهِ، والتعظيمِ لأمرِه، والحفظِ لحدودِه، والخوفِ منه، والتذلّلِ لربوبيتِه، والإخلاصِ في عبوديتِه، والرِّضا بقضائِه، ويَتّصِفُ بالرّأفَةِ والرحمةِ، والرّفقِ وسِعَةِ الصّدرِ، والأمانةِ والثّقةِ، والوَقارِ والسّخاءِ، والجودِ والحياءِ، وسلامةِ الصّدرِ، إلى غيرِ ذلك مِنْ أخلاقِ الإيمانِ التي يَنالُ بها العبدُ غايةَ السَّعادةِ، والحُسْنَى والزّيادةِ.

– وفي قوله: "لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقّ مُجِيبًا وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا" إلماحٌ إلى أنّ العبدَ المسلمَ مهما أكثرَ مِنَ الطاعاتِ، وداومَ على العباداتِ، لا تُدنِيه طاعاتُه وعباداتُه مِنْ حضرةِ مولاهُ جلَّ جلالُه، إنْ بَقِيَ مُثقلاً بتلك الصفاتِ التي تَتعارَضُ مع عُبوديتِه للهِ عزّ وجلّ.

– وهذا المعنى الذي جاءتْ به الحكمةُ يُعبِّرُ عنه أئمةُ الوَرَعِ والزُّهدِ والسُّلوكِ "بالتَّحَلّي والتَّخَلّي". أي التخلّي عن الصفاتِ المذمومةِ المناقضةِ للعبوديةِ، والتحلّي بالصفاتِ المحمودةِ التي تُقرّبُ مِنَ المولى عزّ وجلّ.

- واعلمْ أنّ المرادَ بحضرةِ اللهِ تعالى -حيثُ أُطْلِقَتْ في لِسانِ أهلِ السُّلوكِ- شُهُودُ العبدِ أنَّه بينَ يدي اللهِ تعالى، فما دامَ هذا مَشْهَدُه، فهو في حَضرةِ اللهِ، فإذا حُجِبَ عنْ هذا المشهدِ، فقد خرجَ منها، وهذا السُّلوكُ لا يَتَيسّرُ إلّا لِمَنْ حاسبَ نفسَه، وأخذَ حِذْرَهُ منها، وأيقنَ أنَّ اللهَ مُطّلعٌ عليه ويراهُ في كلِّ حالٍ. وهي درجةُ الإحسانِ التي وَرَدَتْ في الحديثِ: "أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ". البخاري ومسلم.

22) أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَشَهْوَةٍ وَغَفْلَةٍ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا، وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ.

– خلاصةُ ما تَرمِي إليه هذه الحكمةُ، أنّ السبيلَ إلى مرضاةِ اللهِ يَتمثّلُ في اتّهامِ العبدِ نَفْسَه وعَدَمِ رضاهُ عنها، وأنّ السبيلَ إلى سَخَطِ اللهِ يتمثّلُ في إعجابِ العبدِ بنفسِه ورضاهُ عنها.

يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) النساء 49، والاسْتِفْهامُ هنا استنكاريٌّ، أيْ أَلَا ترى إلى قَباحةِ شأنِهم، إذْ يَمدحُونَ أنفسَهم ويُعَبّرونَ عن إعجابِهم بها ورِضاهُم عنها.

وأصْرَحُ مِنْ هذا في التّعبيرِ عن المعنى ذاتِه قولُ اللهِ عزّ وجلّ: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) النجم 32، أيْ لَا تَحكُمُوا لها بالصّلاحِ والسُّموّ، ولا تَمدَحُوها وتُثْنُوا عليها بما قد تَتَوهّمُونَ، فإنّ اللهَ أعلمُ بما في نُفوسِكم منكم.

– وقال ﷺ: "ثلاثٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه". (صحيح الجامع، والسلسة الصحيحة).

– وقال ﷺ: "إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوًى مُتَّبعًا، ودُنْيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كُلِّ ذِي رأيٍ برأيِه، فعليكَ بخاصّةِ نفسِكَ، ودَعْ عنكَ أَمْرَ العَوَامّ". رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

ولا فرقَ بين الرّضا عنِ النّفسِ والإعجابِ بها.

- فالرّضا عنِ النفسِ أصلُ جميعِ الصفاتِ المذمومةِ، وعدمُ الرّضا عنها أصلُ الصفاتِ المحمودةِ، وذلك لأنّ الرّضا عنِ النفسِ يُوجبُ تَغطيةَ عُيوبِها ومَساوِيها، ويُصيّرُ قَبيحَها حَسَناً، وكما قِيل:

وَعَينُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *** وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

- وعدمُ الرّضا عنِ النّفسِ على عكسِ هذا، لأنّ العبدَ إذْ ذاكَ يَتّهِمُ نفسَه، ويَتَطَلّبُ عُيوبَها، ولا يَغْتَرُّ بما يُظْهِرُ مِنَ الطاعةِ والانقيادِ.

- فَمَنْ رَضِيَ عنْ نفسِه استَحْسَنَ حالَها، وسَكَنَ إليها، ومنِ استحسنَ حالَ نفسِه وسَكنَ إليها اسْتَوْلَتْ عليهِ الغفلةُ، وبالغفلةِ يَنْصَرِفُ قلبُه عنِ التّفَقُّدِ والمراعاةِ لخَواطِرِه، فتثُورُ حينئذٍ دَواعِي الشهوةِ على العبدِ، وليس عندَه مِنَ المراقبةِ والتّذكيرِ ما يدفَعُها به ويَقْهَرُها، فَتَصِيرُ الشهوةُ غالبةً له بسببِ ذلك. ومَنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُه، وقعَ في المعاصي لا مَحالةَ، وأصلُ ذلك كُلِّهِ رِضاهُ عن نفسِه.

- ومَنْ لم يَرْضَ عن نفسِه لم يستَحْسِنْ حالَها، ولم يَسْكُنْ إليها، ومَنْ كان بهذا الوصفِ كان مُتَيقّظاً مُنْتبِهاً للطّوارِقِ والعَوارِضِ، وبالتّيَقُّظِ والتّنبُّهِ يتمكّنُ مِنْ تَفَقُّدِ خواطِرِه ومُراعاتِها، وعندَ ذلك تَخْمُدُ نيرانُ الشهوةِ، فلا يكونُ لها عليه غلبةٌ ولا قُوّةٌ، فَيَتّصِفُ العبدُ حينئذٍ بصفةِ العفّةِ، فإذا صارَ عَفِيفاً كان مُجتنِباً لِكُلِّ ما نَهاهُ اللهُ عنه، مُحافظاً على جميعِ ما أمَرَهُ به، وهذا هو معنى الطاعةِ للهِ عزّ وجلّ، وأصلُ هذا كُلِّهِ عدمُ رِضاهُ عن نفسِه.

– فإذنْ لا شَيءَ أوجبُ على العبدِ مِنَ المعرفةِ بنفسِه، ويلزمُ من ذلك عدمُ الرّضا عنها، وبِقَدْرِ تَحقّقِ العبدِ في معرفةِ نفسِه يَصْلُحُ له حالُه، ويَعلُو مقامُه.

– يقولُ أبو حفصٍ الحدّادُ رحمه الله: "مَنْ لم يتّهِمْ نفسَه على دوامِ الأوقاتِ، ولم يُخالِفْهَا في جميعِ الأحوالِ، ولم يَجُرَّهَا إلى مكروهِها في سائرِ أيامِه، كان مَغرُوراً. ومَنْ نظرَ إليها باستحسانِ شيءٍ منها فقد أهلَكَها. وكيف يَصِحُّ لِعاقِلٍ الرّضَى عن نفسِه، والكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يقولُ: (وما أَبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)".

وقالَ أيضاً رحمه الله: "مُنْذُ أربعينَ سنةً، اِعْتِقادِي في نفسِي أنَّ اللهَ ينظرُ إِلَيَّ نظرَ السُّخْطِ، وأعمالي تَدُلُّ على ذلك".

– وقال الجنيدُ رحمه الله: "لا تَسْكُنْ إلى نفسِكَ، وإنْ دامَتْ طاعتُها لكَ في طاعةِ ربِّكَ".

– وقال أبو سليمانَ الدّارانيُّ رحمه الله: "ما رَضِيتُ عنْ نفسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ".

– ويُحكَى عنِ السَّريِّ السّقَطيّ رحمه الله أنه قال: "إِنِّي لَأَنْظُرُ إلى وَجْهِي في اليومِ كذا وكذا مَرّةً، مَخافةَ أنْ يكونَ قدِ اسْوَدَّ، لِمَا أخافُه مِنَ العُقوبةِ".

– "ولَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَى عَن نفسِه خيرٌ لكَ مِن أنْ تَصْحَبَ عَالِماً يرضى عَنْ نَفْسِه".

– قال صلى الله عليه وسلم: "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ". رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

وقال عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ". أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ

– ففائدةُ الصُّحبةِ إنّما هي الزّيادةُ في الحالِ، وعدمُ النُّقصانِ فيها، حَسْبَما ذَكَرَ فِيما سَيأْتِي مِنَ الحِكَمِ بقولِه: "لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنهِضُكَ حَالُهُ، ولا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقَالُهُ".

– فَصُحْبَةُ مَنْ يَرضَى عنْ نفسِه وإنْ كانَ عَالِماً شَرٌّ مَحْضٌ، ولا فائدةَ فيها، لأنّ عِلْمَهُ غيرُ نافعٍ له، وجهلَهُ الذي أوجبَ رِضاهُ عنْ نفسِه صارَ غايةَ الضَّرَرِ، وكأنّه إذْ فاتَهُ هذا العلمُ الذي يُرِيهِ عَيْبَهُ حتى لا يَرضَى عنْ نفسِه؛ لا علمَ عندَه.

– وصُحبَةُ مَنْ لا يَرضَى عنْ نفسِه، وإنْ كان جاهلاً خيرٌ مَحْضٌ، وفيه كُلُّ الفائدةِ، لأنّ جهلَه غيرُ ضارٍّ، وعلمَه الذي أوجبَ له عدمُ رِضاهُ عنْ نفسِه نافعٌ غايةُ النّفعِ، وكأنّه إذْ حصلَ له هذا العلمُ لا جهلَ عندَه.

– ومَنْبَعُ الاستقامةِ والرُّشدِ في العبدِ أنْ يكونَ دائمَ الخوفِ مِنْ نفسِه، وغيرَ راضٍ عنها، وعندئذٍ تكونُ عُلُومُه ومَعارفُه مَصابيحَ هدايةٍ ورُشدٍ له ولِكُلِّ مَنْ يَصْحَبُه؛ وحتى لو كان جاهلاً. فإنّ تَخوّفَه مِنْ نفسِه وحَذَرَه الدائمَ منها، دليلُ خَيْرٍ، ولِسَانُ مَوعظةٍ، وعِبْرةٌ للآخرين.

– ومَنْبَعُ الانحرافِ والضلالِ في العبدِ أنْ يكونَ راضِياً عنْ نفسِه مُعجباً بها مُبرّراً لجُموحاتِها، وعندئذٍ لا بُدَّ أنْ تَتحوَّلَ معارفُه وعلومُه كُلُّها مهما كَثُرَتْ وتَنوّعَتْ، إلى جُنودٍ خاضعةٍ لسُلطانِ نفسِه، ولا بُدَّ أنْ تُصبحَ أَلْسِنَةَ تبريرٍ لِأَهوائِها وانحرافاتِها.

– وانظرْ إلى هذه الآياتِ مِنْ كلامِ اللهِ عزّ وجلّ، كيف تُعبِّرُ عن هذا المعنى بأبلغِ بيانٍ، لِعَبْدٍ عَالِمٍ لم يَنْفَعْهُ علمُه الغزيرُ الذي مَنحَهُ اللهُ إيّاهُ، عندما انْساقَ وراءَ نفسِه، واستسلمَ لمشاعرِ غُرُورِه، بل تحوّلَ عِلْمُه إلى وَبَالٍ عليه، قال سبحانه وتعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). الأعراف 175، 176.

– فهذا المعنى يَنْطَبِقُ على كلِّ مَنْ أُوتِيَ عِلماً فصادفَ منه إنساناً أَخْلَدَ إلى هواهُ واستسلمَ لِغَرائزِه الشّهوانيّةِ، لا بُدَّ أنْ يتحوّلَ العلمُ في رأسِه إلى سَكَرٍ يُحِيلُ إنسانيّتَه إلى وَحْشٍ ضَارٍ لا يُتقِنُ إلّا فَنَّ الفَتْكِ بالآخرينَ.

– وصُحبةُ الرّاضِي عنْ نفسِه تَزيدُ في رِضاكَ عنْ نفسِك، وذلك أصلُ كلِّ شَرٍّ، وصُحبةُ السّاخِطِ عنْ نفسِه تَزيدُ في سَخَطِكَ عنها، وذلك أصلُ كلِّ خيرٍ، لأنّ المرءَ مُبتلىً بنفسِه، فإذا رأى مَنْ هو أَسْوَأُ حالاً منه رأى لنفسِه الفضلَ والتّزكيةَ، وإنْ رأى مَنْ هو خيرٌ منه استشعَرَ نَقْصَه وتَقْصِيرَه، لا سِيَّما مع الملازمةِ والدّوامِ.

– وقد قيل: "إيّاكَ أنْ تَعْرِفَ مَنْ لا يِعْرِفُ نفسَه فَتَتْعَبُ معه". وقيل أيضا: "لا خيرَ في صُحبةِ مَنْ لا يَرى لكَ مِثْلَ الذي تَرى له".

– واعلمْ أنّ مقصودَ العلمِ إنّما هو العبوديةُ للهِ تعالى لوجُودِ الخشيةِ، وذلك مفقودٌ مِنَ الرّاضِي عن نفسِه، فهو جاهلٌ في علمِه بعلمِه وإنْ كان أعلمَ البريّةِ، وغيرُ الرّاضِي عن نفسِه عكسُه، وهو ما ذكره ابنُ عطاءِ اللهِ بقوله: "فأيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نفسِه؟! وَأيُّ جَهْلٍ لجَاهِلٍ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِه؟".

– انقلبتْ أحكامُهما لانقلابِ الحقائقِ عندَهُما. إذْ لا أَجْهَلَ ممّنْ جَهِلَ نفسَه التي بينَ جَنْبَيْهِ، ولا أعْلَمَ مِمَّنْ عرفَ مقصودَ الحقِّ بوجُودِه، لأنّ مَنْ عَرَفَ نفسَه عرفَ ربَّه، ومَنْ عرفَ ربَّه فقد حصلَ على الغايةِ، وإنْ قلّتْ بِضاعتُه مِنَ المسائلِ، فهو يُحصِّلُها بالطّلبِ في الآجلِ، لأنّ اللهَ لم يَتّخِذْ وليّاً مِنْ جاهلٍ، لكنْ إذا اتّخذَهُ عَلّمَهُ ما يَكْتَسِبُ بِطَلَبِه.

– والرّاضِي عنْ نفسِه كُلَّما ازدادَ مسألةً ازدادَ جهلاً بربِّه وبنفسِه، أمّا جهلُه بربّه فدليلُه فَقْدُ خَشْيَتِه ورُؤْيَةُ قَدْرِه ومَنْزَلَتِه عندَه بعلمِه، وأمّا جَهْلُه بنفسِه فِلَأَنَّهُ إذا ازدادَ مسألةً رأى لنفسِه من المَزِيّةِ بِقَدْرِ ذلك، وهذا جَهْلٌ عظيمٌ.

– قال الفضيلُ رحمه الله: "العَالِمُ طَبِيبُ الدِّينِ، ودَوَاءُ الدُّنيا دَاءُ الدِّينِ، فإذا كان الطبيبُ يَجُرُّ الدّاءَ إلى نفسِه فمتى يُبْرِئُ غيرَهُ؟".

– وقال رجلٌ للشّعبِيِّ رحمه الله: أيُّها العالِمُ. فقال: "اُسكُتْ، إنّما العالِمُ مَنْ يَخشى اللهَ".

– وقال مَسروقٌ رحمه الله: "كَفَى بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْماً، وكَفَى بالاغْتِرارِ باللهِ جَهْلاً".

– وقيل لسهلِ بنِ عبدِ اللهِ رحمه الله: يا أبا محمدٍ مَنِ العُلَمَاءُ؟ قال: "الذينَ يُؤْثِرُونَ الآخِرَةَ على الدُّنيا، ويُؤْثِرُونَ اللهَ على نُفوسِهِم".

– فإذا استيقظَتْ مشاعرُ الرَّقابَةِ في القلبِ، عاشَ العبدُ حياتَه كلَّها، عَدُوّاً لنفسِه، خائفاً منها، مُتّهِماً إيّاها، إلى أنْ يَرحلَ مِنْ دُنياهُ مَكْلُوءاً بالخاتِمَةِ الحسنةِ التي هي مَطْمَحُ أبصارِ الصّالحينَ الْمُقرّبِينَ، وعندئذٍ يَتحقّقُ معنى النّفسِ الْمُطمئنّةِ، وينطبقُ عليها قولُ اللهِ عزّ وجلّ: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).

الفجر 27، 28، 29، 30.

23) لا تَتَعَدَّيَنَّ هِمَّتُكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الآمَالُ.

– أيْ لا تتجاوزْ بقصدِ همّتِكَ بابَ مولاكَ.

والمقصودُ النّهيُ عنِ التعلّقِ بغيرِ اللهِ سبحانه، وعنِ القصدِ لسِواهُ بطلبِ ذلك الغيرِ أو الطلبِ منه، وفي طَيِّ ذلك أمرٌ بإيقافِ الهمّةِ عليه، والاكتفاءِ به دونَ كلِّ شيءٍ في الطلبِ، والطلبِ منه.

– وهو معنى قولنِا: "حسبُنا اللهُ" أيْ: اكْتَفَيْنَا به عن كلِّ شيءٍ سِواه، فلا نَطلبُ مِنْ غيرِه، ولا نَطلبُ إلّا إيّاهُ، لأنّه الكريمُ ذاتاً ووصفاً وفِعلاً، على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها.

– فلا تجعلْ قصدَك مُتعدّياً إلى غيرِه سبحانه وتعالى، فالكريمُ لا تَتخطّاه آمالُ المُؤَمّلِينَ، فإنَّ ذا الهِمّةِ العَلِيَّةِ يَأنَفُ مِنْ رفعِ حوائِجِه إلى غيرِ كريمٍ، ولا كريمَ على الحقيقةِ إلّا ربَّ العالمين.

فهو الكريمُ الذي خزائنُه لا تَفْنَى، ويَجُودُ بما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وهو الذي يُحِبُّ مِنْ عبادِه الطمعَ فيما لديه، والسؤالَ عنْ ما هو بين يديه، ويكرهُ لهمُ الطمعَ في غيرِه، فلو شاهدَ العبدُ جُودَه وفضلَه لم يطمعْ في غيرِه.

– قال بعضُهم: "الكريمُ: الذي إذا وعَدَ وفَّى، وإذا أَعطى زادَ على مُنتهى الرَّجا، ولا يُبالِي كم أَعطى ولا لِمَنْ أَعطى، وإنْ رُفِعَتْ حاجةٌ إلى غيرِه لا يَرْضَى، وإذا جُفِيَ عاتبَ وما اسْتَقْصَى، ولا يُضِيعُ مَنْ لاذَ بهِ والْتَجَا، ويُغْنِيهِ عنِ الوسائلِ والشُّفَعَا".

- فإذا كانتْ هذه الصفاتُ لا يَستحقُّها أحَدٌ سِوَى اللهِ تعالى، فَينبغِي إذنْ ألّا تَتخطّاهُ آمالُ المؤمّلينَ إلى غيرِه.

كما قال بعضُهم:

حَرامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللهَ رَبَّهُ *** وَأفْرَدَهُ أنْ يَجْتَدِي أَحَدَاً رِفْدا

ويَا صَاحِبِي قِفْ بِي مَعَ الحَقِّ وَقْفَةً *** أَمُوتُ بِهَا وَجْداً وَأَحْيَا بِهَا وُجْدا

وقُلْ لِمُلُوكِ الأرضِ تَجْهَدُ جُهْدَها *** فَذَا الْمُلْكُ مُلْكٌ لَا يُبَاعُ ولَا يُهْدَى

(يَجْتَدي: يَسْأَلُ ويَطْلُبُ. الرِّفدُ: العَطاءُ. الوَجْدُ: الحُزنُ. الوُجْدُ: اليسارُ والسَّعَةُ).

- واعلمْ أنَّ الطّلَبَ مِنَ الخَلْقِ المُنافِي للعبوديةِ هو الطّلبُ منهم على وجهِ الاعتمادِ عليهم، والاستنادِ إليهم، والغفلةِ في حَالِ الطلبِ عنِ اللهِ تعالى، أمّا الطلبُ منهم مِنْ حيثُ كونهم أسباباً ووسائِطَ مع الاعتمادِ في نَيْلِ المطلوبِ على اللهِ، ورُؤيةِ أنّه المُعطِي فليس مُنافياً للعبوديةِ.

- فإذا تَحقّقَ التَّوجُّهُ بالقصدِ والأمَلِ إلى الواحِدِ الذي لا ثَانِيَ له، فالتّعاملُ بعد ذلك مع الأسبابِ -أسباب الرزقِ والعافيةِ والقوةِ والأمنِ والطمأنينةِ والعلمِ- تَنْفِيذٌ لأمرِ اللهِ وجزْءٌ لا يَتَجَزّأُ مِنْ تَوحِيدِ اللهِ.

- فإذا عَلِمْنَا أنْ ليسَ مع وُجودِ اللهِ، وليس مع قُدرتِه أيُّ قدرةٍ، وليس مع كَرمِه أيُّ كَرمٍ أو كَريمٍ، وليس مع مَالِكِيَّتِه أيُّ مالِكٍ، وليس مع غِناهُ أيُّ غَنِيٍّ، فكلُّ شيءٍ مِنَ اللهِ وباللهِ وإليه، إذا عَلِمْنَا ذلك، فَوَجَبَ أنْ تَتعلّقَ آمالُنا بِكَرمِهِ وفضلِه ورحمتِه سبحانه وتعالى.

– فإذا تَعلّقَتْ منك الآمالُ بالرِّزقِ، فاتّجِهْ بها إلى مَنْ بيدِه وحدَهُ خزائنُ السمواتِ والأرضِ وهو اللهُ، (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الشورى 12، (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) المنافقون 7.

وإذا تعلّقتْ منك الآمالُ بالصِّحةِ والعافيةِ فتوجّهْ بها إلى الله (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) الشعراء 80.

وإذا تعلّقتْ منك الآمالُ بالطمأنينةِ والسّعادةِ والأمنِ، فاتّجِهْ بها إلى الله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) النحل 97.

وإذا تعلّقتْ منك الآمالُ بِمَنَعَةٍ تَتحصّنُ بها خَشْيَةَ ظالمٍ أو عَدُوٍّ، فاتّجِهْ بها إلى الله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) آل عمران 173، 174.

– وخلاصةُ هذا المعنى في قولِ النّبيِّ ﷺ: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

24) لَا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً؟ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟

– كلُّ حَوائجِ الدنيا والآخرةِ هو مُورِدُها عليكَ، إذْ لا حُكْمَ لغيرِه، ولا تَصَرُّفَ لِسِوَاهُ، فلذلك لا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يَرفعَ ما وَضعَهُ، ولا أنْ يَضعَ ما رَفعَهُ، "ولَيْسَ لِمَا تَبْنِي يَدُ اللهِ هَادِمٌ".

– ومِنْ أدْعِيَةِ النُّبوّةِ قولُه ﷺ: "اللَّهمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ". صحيح البخاري.

أيْ: لا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يمنعَ ما أَرَدْتَ إِعْطاءَهُ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، ولا يمْلِكُ أحَدٌ أنْ يُعطِيَ مَنْ أَرَدْتَ مَنْعَهُ، والجْدُّ: هو الحَظُّ والغِنَى، أيْ: لا يَنْفَعُ ذَا الحَظِّ حَظُّهُ ولا ذَا الغِنَى غِنَاهُ، وإنَّما يَنْفَعُهُ العَمَلُ الصَّالحُ.

– فاللهُ هو الغَنِيُّ المُطْلَقُ الذي لا يَفتَقِرُ لِشَيءٍ، والكُلُّ مُفْتَقِرٌ إليهِ، والقادرُ المُطلَقُ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ معه، فالكُلُّ عَاجِزٌ بينَ يديْهِ، والكريمُ المُطْلَقُ الذي كَرَمُهُ لا تَرَدُّدَ فيهِ ولا تَوَقُّفَ.

– فاحتياجُكَ إليه لا لِغَيْرِه، لِتَعْرِفَ افْتِقارَكَ فلا تَطْغَى، وتَشهدَ اضطرارَكَ فلا تَعْتُو، وترى احتياجَكَ فلا تَلهُو، وكذلك لِتَعْرِفَ جلالَه بِقَهْرِهِ لكَ وعِزِّهِ عليكَ، فَتفْزَعَ إليهِ ولا تُعَوِّلَ في كلِّ الأمورِ إلّا عليه، وكذا لِتَتِمَّ لكَ العبوديةُ بالدّوامِ بينَ يديْهِ، ويَكْمُلَ لكَ الحَالُ بالعُكُوفِ على ما لَدَيْهِ.

– فيجبُ أنْ تعودَ بالحاجةِ التي تُلاحِقُكَ، إلى مَنْ قدْ أنْزَلَهَا فيكَ وأخْضَعَكَ لهَا، وأنْ تعودَ لِدَفْعِ كُربكَ إلى مَنْ قدِ ابْتَلاكَ بِهَا، وأنْ تعودَ لِشُكْرِ النِّعَمِ والعطايَا إلى الذي مَتَّعَكَ بها، وقد عَلِمْتَ أنّه اللهُ وحدَهُ، لا يُشركُهُ في ذلك أحَدٌ، وليس مِنْ قَبْلِه، ولا مِنْ بَعدِه، ولا معَهُ مَنْ يَنُوبُ عنه أو يُعِينُه في شَيءٍ مِنْ ذلك.

وقد أَحْسَنَ مَنْ قالَ:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدمَ حَاجَةً *** وسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

فَاللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ *** وَبُنَيُّ آدمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

– ومعنى العَوْدِ في ذلك إلى اللهِ، أنْ لَا تُعلِّقَ آمَالَكَ إلّا به، وأنْ تَعْلَمَ مُسْتَيْقِناً أنّ الوسائِطَ مهما تَكاثَرَتْ، فليسَ فيها أَيُّ فَاعِلِيّةٍ أو تَأْثِيرٍ معَ اللهِ عزّ وجلّ. (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف 54.

– ثمّ ممّا يُنفِّرُكَ عنِ التّوجُّهِ لِلْخَلْقِ في حَوائِجِكَ عِلْمُكَ بِوُجودِ احْتِياجِهِم: "مَنْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَكونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟!".

– فَمِنَ المُحَالِ أنْ يَرفعَ غيرُه ما كان هو له وَاضِعاً، فإنّ اللهَ غالبٌ على أمرِه، والعبدَ شأنُه العجزُ عنْ رفعِ النّازلةِ عنْ نفسِه، فكيفَ يَستطيعُ أنْ يَرفعَهَا عنْ غيرِه.

فالطلبُ مِنَ الخلقِ غُرُورٌ وباطِلٌ، وليس تحتَهُ طائلٌ.

- هذا إذا كانَ على وجهِ الاعتمادِ عليهِم، والاستنادِ إليهِم، معَ الغفلةِ في حالِ الطلبِ عنِ اللهِ تعالى، وأمّا إذا كانَ مِنْ بابِ الأخذِ بالأسبابِ، معَ النّظَرِ أنّ المُعطِيَ في الحقيقةِ المَلِكُ الوَهّابُ، فهو يَدخُلُ في هذا المعنى السليمِ.

- وقد قِيل: "اسْتِغَاثَةُ المَخْلُوقِ بالْمَخلُوقِ، كاسْتِغاثَةِ الْمَسْجُونِ بالْمَسْجُونِ".

- وقال آخَرُ: "يَئِسْتُ مِنْ نَفْعِ نَفْسِي لِنَفْسِي، فكيفَ لا أَيْأَسُ مِنْ نَفْعِ غيرِي لَهَا؟ وَرَجَوْتُ اللهَ لِغَيْرِي، فكيفَ لا أَرْجُوهُ لِنَفْسِي؟".

- واعْلَمْ أنّكَ إنْ أيْقَنْتَ ورَسخَ في فُؤادِكَ هذا اليقينُ الذي هو مِنْ أهَمِّ دعائِمِ توحيدِ اللهِ، فَمَضَيْتَ تَطْرُقُ بابَ الأسبابِ بيدِكَ، وتطرقُ بابَ المُسَبِّبِ القهّارِ الذي لا ثَانِيَ له بِإدْرَاكِكَ ويَقِينِكَ، أَرَاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بينَ الحِينِ والآخَرِ مِنْ مَظاهِرِ لُطْفِهِ بِكَ وحِمايَتِهِ لكَ، ما يَزِيدُكَ توحِيداً لهُ وتَعلُّقاً بهِ، ونِسياناً لِحَواجِزِ الوَسائِطِ والأسبابِ، فقدْ يَخْرِقُ لكَ العَوَائِدَ، ويَطْوِي عنكَ مُقْتَضَياتِ الأسبابِ، ويُسَخِّرُ لكَ ما لا تَتَوقّعُهُ تَنفِيذاً لِحَاجَتِكَ التي طَرَقْتَ بها بابَ مولاكَ وخالِقِكَ، لا تَتأمَّلُهَا إلّا منه، ولا تَمْضِي بها إلّا إليه.

25) إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ، حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا؟ وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنناً؟

– حُسْنُ الظَّنِّ: هو عَقْدُ الضّميرِ على تَوَقُّعِ الجَميلِ بَوَجْهٍ لا يَتزَلْزَلُ إلّا بِيَقِينٍ.

والمقصودُ تَحسِينُ الظنِّ باللهِ تعالى على كلِّ حالٍ وبكلِّ وجهٍ، ففي الحديثِ قال ﷺ: "يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي". البخاري ومسلم. وقوله ﷺ: "لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ". صحيح مسلم.

– فإحسانُ الظَّنِّ باللهِ تباركَ وتعالى واجِبٌ، وهو أُنْسٌ للعبدِ في حياتِه، ومَنْجَى له بعدَ مَماتِه.

– قالَ ابنُ القيّم رحمه الله: "كلّما كان العبدُ حَسَنَ الظَّنِّ بالله، حَسَنَ الرَّجاءِ له، صادِقَ التوكُّل عليه: فإنَّ اللهَ لا يُخَيِّبُ أمَلَه فيه البَتَّة؛ فإنَّهُ سبحانه لا يُخَيِّبُ أمَلَ آمِلٍ، ولا يُضَيّعُ عَمَلَ عامِلٍ... فإنَّه لا أَشْرَحَ لِلصَّدْرِ، ولا أَوْسَعَ لَهُ بعدَ الإيمانِ مِنْ ثِقَتِهِ باللهِ، ورَجائِه له، وحُسْنِ ظَنِّه به".

– وقال داودُ الطَّائيُّ رحمه الله: "ما نُعَوِّلُ إلّا على حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ تَعالى، فأمَّا التَّفريطُ فهو المُسْتَوْلِي على الأبْدانِ".

– وقال يَحيَ بنُ معاذٍ رحمه الله: "أَوْثَقُ الرَّجَاءِ رَجَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَأَصْدَقُ الظُّنُونِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ".

- ومعنى حُسْنِ الظَّنّ لِأَجْلِ وَصْفِهِ: هو أنْ يَنْظُرَ إلى كَمالِه فَيَقْتَضِي لَهُ أنَّه جَمِيلٌ، والجَمِيلُ لا يَصْدُرُ منهُ إلّا الجَميلُ، فعندَ ذلك يَرضَى بِكُلِّ ما يَرِدُ عليهِ مِنْ قِبَلِهِ، ويُحِبُّهُ لِمَا هو عليهِ مِنْ كَمالِ الوَصْفِ.

وَمَا زِلْتُ أَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي *** أَرَى بِجَمِيلِ الصُّنْعِ مَا هُوَ صَانِعُ

- وحُسْنُ الظَّنّ بهِ لَأَجْلِ مُعامَلَتِه: هو أنْ يَنْظُرَ لِعَظِيمِ إِحْسَانِه، وعَمِيمِ فَضلِه وامْتِنانِه، المُواجِهِ لهُ قبلَ السُّؤالِ، والجَارِي لهُ قبلَ وُجودِ الأحوالِ والأعمالِ، فيَحْمِلُه ذلك على الثِّقَةِ به في جميعِ الأحوالِ، وعلى الرّجاءِ فيه على كُلِّ حالٍ، لأنّ الكريمَ إذا بَدأَ كَمَّلَ، وإذا خَوَّلَ نَوَّلَ، وهذا ما أشارَ إليهِ ابنُ عطاءٍ بقولِه: "فهَلْ عَوَّدَكَ إلَّا حَسَنًا؟ وهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنَناً؟".

- فقد عَوَّدَكَ ووَصَّلَ إليكَ عنْ طريقِ التِّكرارِ والاستمرارِ جَميلاً، وأَسْدَاكَ وأَعْطاكَ وخَوَّلَكَ وأَجْرَى لكَ الْمِنَنَ والعَطايَا التي لا تَتَوقَّفُ على سَبَبٍ ولا عِلّةٍ، وكلُّ عَطائِه كذلك لا عِلّةَ له فهو مِنَّةٌ، ولا انقطاعَ له فهو عادَةٌ.

"واللهُ عَوَّدَكَ الجَمِيلَ، فَقِسْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى".

- ويَنبغِي للعبدِ أنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بربّه في أمرِ دنياه وأمرِ آخِرَتِه:

أمّا أمرُ دنياه فأنْ يكونَ وَاثقاً باللهِ تعالى في إيصالِ المنافِعِ إليهِ مِنْ غيرِ كَدٍّ ولا سَعْيٍ، أو بِسَعْيٍ مَأذُونٍ فيه مأجُورٍ عليهِ، بحيثُ لا يَفُوتُه شيئاً مِنْ فرضٍ ولا نفلٍ، فيُوجبُ له ذلك سُكوناً وراحةً في قلبِه، فلا يَستفزُّهُ طَلَبٌ، ولا يُزعِجُه سَبَبٌ.

وأمّا أمرُ آخِرَتِه فأنْ يكونَ قَوِيَّ الرّجاءِ في قَبُولِ أعمالِه الصالحةِ، فيُوجبُ له ذلك المبادرةَ لامتثالِ الأمرِ، والتكثيرَ مِنْ أعمالِ البِرّ، ومِنْ أعظمِ مَواطِنِ حُسْنِ الظَّنّ باللهِ تعالى حَالَ المَوْتِ، كما مَرَّ في الحديثِ: "لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ".

– خلاصةُ ما تَنطِقُ به هذه الحكمةُ:

أنّ ابنَ عطاءِ اللهِ يُخاطِبُ المؤمنَ باللهِ، أيّاً كانَ، قائلاً:

إنْ عَجَزْتَ أنْ تكونَ مِمّنْ حَمَلَهُ على حُسْنِ الظَّنّ باللهِ، عِلْمُهُ بِجَمِيلِ صِفاتِه، مِمّا وَعَى وأيْقَنَ مِنْ صِفاتِ اللهِ وأسمائِه، فإنّهُ بِوُسْعِكَ أنْ تَجِدَ ما يَحْمِلُكَ على حُسْنِ الظَّنّ به مِنْ واقِعِ مُعاملتِه لك، فهل عَوَّدَكَ إلّا على الإحسانِ، وهل وَصَلَتْكَ منه إلّا جَلائِلُ النّعَمِ، وهل عامَلَكَ إلّا بِمُنتهَى الرحمةِ والحنانِ؟

26) العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ، (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

– العجبُ كلُّ العجبِ ممّنْ يَهربُ مِنْ مولاهُ الذي مَنَّ عليهِ بكلِّ خيرٍ وأَوْلَاهُ، ثُمّ لا بُدَّ لهُ مِنْ لِقائِه، ولا مَحِيدَ لهُ عَنْ قَضائِه، ويَطلبُ دنياهُ التي إنْ لم تَزُلْ عنهُ بالحَياةِ زَالَ عنها بالْمَمَاتِ.

– وهذا مُضادٌّ لِحُكْمِ العقلِ بالتزامِ الأَبْعَدِ وإهْمالِ الأقْربِ، وهو مُناقِضٌ لِوَضْعِ الشّرعِ بإِيثارِ العاجِلِ وإهمالِ الآجِلِ، وهو أيضاً مُعارِضٌ لِوَجْهِ التّحقِيقِ بإِيثارِ الفَانِي على البَاقِي.

– قال بعضُهم: "عَجِبْتُ لِلْخَلِيقَةِ كيفَ أرَادَتْ بِكَ بَدَلاً، عَجِبْتُ للخَلِيقَةِ كيفَ اسْتَأْنَسَتْ بِسِوَاكَ". وأنشدَ بعضُهم:

سَهَرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ *** وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

بَصَرِي وَسَمْعِي طَايَعَاكَ وَإِنّمَا *** أنَا مُبْصِرٌ بِكَ فِي الحَيَاةِ وسَامِعُ

أَقْصَيْتَنِي وَالْقَلْبُ نَحْوَكَ نَازِعٌ *** وَهَجَرْتَنِي دَهْراً فَمَا أَنَا صَانِعُ

– وإنّما المُوجِبُ للانْحِرافِ عنِ الجادّةِ عَمَى البَصِيرةِ، (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)، لا تَعْمَى الأبصارُ عَمىً يَعودُ بالضّررِ، ولكنِ القُلوبُ التي في الصُّدورِ هي التي يَضُرُّ عَماهَا، ولا تَعْمَى الأبصارُ حقيقةً وإنْ ذَهَبَتْ صُورَتُها، ولكنْ تَعْمَى القلوبُ، إذْ لا عِبرةَ بِصُوَرِ الأبصارِ عندَ

عَمَاهَا، ولا تَعْمَى الأبصارُ عنْ دَرْكِ الحَقائقِ، إذْ ليستْ بِمَحَلٍّ لإدْراكِها، ولكنْ تَعْمَى القلوبُ، لأنّها مَحَلُّ إدْراكِها.

– فَوا عَجَباً، مِنْ عبدٍ يَهرُبُ ويَتباعَدُ مِنْ ربِّه الذي لا انْفِكاكَ لهُ عنه، بِتَرْكِ ما يُقرِّبُه إليه، مع تَوارُدِ إحسانِه عليه، ويَطلبُ ما لا بَقاءَ له معه، وهو الدنيا، وكلُّ شيءٍ سِوَى الله، بأنْ يُقْبِلَ على شَهواتِه، ويَتّبعَ شيطانَه وهواهُ.

يقول بعضُهم في وصفِ مَنْ هذا حالُه:

تَفْنَى اللَّذَائِذُ يَا مَنْ نَالَ شَهْوَتَهُ *** مِنَ الْمَعاصِي ويَبْقَى الإِثْمُ والْعَارُ

تَبْقَى عَواقِبُ سُوءٍ لا انْفِكَاكَ لهَا *** لا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

– هَرَبَ مِنْ مولاهُ نتيجةَ عَمَى قلبِه، وجَهْلِه بربِّه، لأنّه اسْتَبْدَلَ الذي هو أدْنَى بالذي هو خيرٌ، وآثَرَ الفانِي على الباقِي، ولو كانتْ له بصيرةٌ لَفعلَ ما فَعلَهُ سَحَرَةُ فِرعونَ لَمّا آمنُوا بربِّهم: (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَاۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ). طه 72، 73.

– (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًاۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ). الحديد 20.

27) لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهِضُكَ حَالُهُ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقَالُهُ.

– الصُّحبةُ مطلوبةٌ للاستعانةِ على البِرِّ والتقوى، ممنوعةٌ للتّعاونِ على الإثمِ والعُدوانِ، فَيلزمُ المرءَ اتخاذُ صَديقٍ صالحٍ، إنْ نَسِيَ ذَكّرَهُ، وإنْ ذَكَرَ أعانَه، لا عكسُه وهو الذي لا يُنهِضُ حالُه إلى الله، ولا يَدُلُّ مَقالُه على الله، وإنْ كان أعْلَمَ البَرِيَّةِ وأعْبَدَهُم.

– قال سبحانه وتعالى: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ). الزخرف 67.

رُوِيَ عنْ عَلِيٍّ، وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم في تفسيرِها: "فَكُلُّ خُلَّةٍ هِيَ عَدَاوَةٌ إِلّا خُلّةُ الْمُتّقِينَ".

وقال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِها: "أيْ: كُلُّ صَداقَةٍ وصَحابَةٍ لغيرِ اللهِ، فإنّها تَنقلِبُ يومَ القيامةِ عَداوةً، إلّا ما كانَ للهِ عزّ وجلّ، فإنّهُ دائِمٌ بِدَوامِهِ".

– وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تُصَاحِبْ إِلّا مُؤْمِنًا، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلّا تَقِيٌّ". رواه أَبُو داود والترمذي بإِسْنَادٍ لا بأْسَ بِهِ.

– وقال أيضاً عليه الصلاةُ والسلامُ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ". رواه أَبُو داود والترمذي بإِسنادٍ صحيحٍ، وَقالَ الترمذي: حديثٌ حسنٌ.

– وقال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: خِيَارُكُمْ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ". صحيح ابن ماجه، صحيح لغيره.

– سألَ رَجُلٌ الجُنَيْدَ: مَنْ أَصْحَبُ؟ فقالَ: "لا تَصْحَبْ إلّا مَنْ تَهَابُهُ لِدِينِهِ، أو تَسْتَأْنِسُ بِرُؤْيَتِهِ، أو تَسْتَفِيدُ مِنْ مَقَالَتِهِ، أو تَجِدُ رَاحَةً عِنْدَ فِعَالِهِ، أو يَكُونُ لَكَ قُوَّةٌ مِنَ حَالِهِ".

– وقال مالِكُ بنُ دِينارٍ: "إنّكَ إنْ تَنْقُلَ الأحجارَ مع الأبرارِ، خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تَأْكُلَ الخَبِيصَ (الحَلْواءُ المخْبُوصَةُ مِنَ التّمْرِ والسَّمْنِ) معَ الفُجّارِ". وأَنْشَدَ:

وَصَاحِبْ خِيَارَ النَّاسِ تَنْجُ مُسْلِما *** وصَاحِبْ شِرَارَ النَّاسِ يَوْماً فَتَنْدَما

وممّا نُسِبَ مِنَ الشِّعْرِ لأميرِ المؤمنينَ عَلِيّ بنِ أبي طالبٍ رضى الله عنه:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ *** وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أَرْدَى *** حَلِيماً حِينَ آخَاهُ

يُقاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ *** إِذَا مَا الْمَرءُ مَاشَاهُ

ولِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ *** مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ

ولِلقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ *** دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

– وقال سعيدُ بنُ الْمُسَيّبِ رحمه الله: "عليكَ بإِخوانِ الصِّدقِ تَعِشْ في أَكْنافِهِم، فإِنّهُم زِينَةٌ في الرّخاءِ، وَعُدّةٌ في البَلاءِ".

– الذي يُنهِضُكَ حالُهُ هو الذي إذا رأيتَه ذَكَرْتَ اللهَ، فقد كنتَ في حالِ الغفلةِ، فلمّا رأيتَه نَهضَ حالُكَ إلى اليقظةِ، أو كنتَ في حالةِ الرّغبةِ، فلمّا رأيتَه نَهضَ حالُكَ إلى الزهدِ، أو كنتَ في حالةِ الاشتغالِ بالمعصيةِ، فلمّا رأيتَه، نَهضَ حالُكَ إلى التوبةِ، أو كنتَ في حالةِ الجهلِ بمولاكَ فنَهَضْتَ إلى معرفةِ مَنْ تولَّاكَ... وهكذا.

– والذي يَدُلُّكَ على اللهِ مَقَالُه هو الذي يَتَكَلّمُ باللهِ، ويَدُلُّ على اللهِ، إذا تَكَلَّمَ أخَذَ بِمَجامِعِ القُلوبِ، وإذا سَكَتَ أنْهَضَكَ حالُهُ إلى عَلّامِ الغُيوبِ، فحَالُهُ يُصَدِّقُ مَقَالَه، ومَقَالُه مُوافِقٌ لِعِلْمِهِ.

28) رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئاً فَأَرَاكَ الإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ.

– المقصودُ أنّ صُحبةَ مَنْ حَالُه سَيِّئةٌ تَزيدُ في سُوءِ حَالِكَ بِرُؤيةِ إحسانِكَ، الذي يُشعرُكَ إيّاهُ مُشاهدةُ إساءَتِه، حَسْبَما جُبلَتْ عليه النُّفوسُ مِنْ شُعورِها بِكَمالِها عندَ مُعايَنَةِ النَّقصِ مِنْ غيرِها، وكذلك مشاهدةُ الإساءةِ على الدّوامِ تُوجبُ اسْتِخْفافَها.

– وهذه أعظمُ آفةٍ تَدخلُ على مَنْ خالفَ ما ذُكِرَ في الحكمةِ السابقةِ، وصَحِبَ مَنْ هو دُونَه في الحالِ، وهي استحسانُه لما هو عليه، فيُؤَدِّيه ذلك إلى رِضاهُ عنْ نفسِه، ورُؤيتِه لإحسانِها.

– وقد رُوِيَ أنّ عيسى عليه السلامُ قال لأصحابِه: "لا تُجالسُوا الموتَى فَتَمُوتُ قُلوبُكم". قالوا: ومَنِ الموتى؟ قال: "الرّاغِبُونَ في الدنيا الْمُحِبُّونَ لها".

– فُلانٌ مِنَ النّاسِ يُؤَدِّي الفرائضَ، ويَنهَضُ بالواجباتِ، ولكنّه مُقصّرٌ في جنبِ اللهِ، مُنغمسٌ في الْمُتَعِ والأهواءِ، يَصرفُ جُلَّ وقتِه لمصالحِ الدنيا، وفي الوقتِ نفسِه يَرْكَنُ إلى صُحبةِ السُّوءِ ممّنْ هم أقَلُّ منه أداءً للواجباتِ والفُروضِ، فَمِنْ شأنِ هذه الصُّحبةِ أنْ يُخَيَّلَ له أنّه نموذجٌ للمسلمِ الملتزمِ المستقيمِ، وأنّه مِنَ النُّخبةِ الخَيِّرةِ مِنَ المسلمينَ بأدائِه الفروضَ والواجباتِ، وهذا التفكيرُ وهذه الرُّؤيةُ تَجُرُّ صاحبَها إلى أخطرِ النتائجِ وأسوءِ الأحوالِ، إذْ يُنسِيهِ سُوءَ حالِه وعيوبَه وتقصِيرَه في جنبِ اللهِ.

– أعجبَتْهُ نفسُه مِنْ خِلالِ صُحبةِ مَنْ هم أسْوَأُ حالاً منه، فلم يَجِدْ ما يُنهِضُه نحوَ إصلاحِ نفسِه أو الارتقاءِ بها في سُلّمِ العبوديةِ والقُرْبِ مِنَ اللهِ، بل قد يَدفعُه ذلك إلى التراجعِ والنُّكوسِ عنْ ما هو عليه مِنْ أدائِه لِفُروضِه وواجباتِه.

– وقد يَستأنِسُ بهذه الصُّحبةِ بَدلاً أنْ يَستأنِسُوا به، وبَدلاً مِنْ أنْ يركنُوا إليه يَرْكَنُ إليهم وإلى سُوءِ حالِهم وكثرةِ تقصيرِهم ومعاصِيهم، وهذا كلُّه بسببِ الصُّحبةِ لِمَنْ لا يُنهِضُ حالُه، ولا يَدُلُّ على اللهِ مَقالُه، وبسببِ إعجابِه بنفسِه وشعورِها بنوعٍ مِنَ الكَمالِ.

– فهذا ما يقوله ابنُ عطاءِ اللهِ في حِكْمَتِه هذه: رُبّما خَيّلَتْ صُحبتُكَ لِمَنْ هم أسْوَأُ حالاً منكَ، أنّكَ مُحسنٌ في الالتزامِ بأوامرِ اللهِ، مُستقيمٌ في السّيرِ على صراطِ اللهِ، وحَجَبَتْكَ عنْ شُهودِ نَقائِصِكَ وعُيوبِكَ، وعنْ تقصيرِك في جَنْبِ اللهِ.

– فالحكمةُ تُرشِدُ إلى أنّ صُحبتَكَ مَنْ هو دُونَكَ شَرٌّ مَحْضٌ، لأنّها تُغَطّي عنكَ عُيوبَكَ، وتُبيّنُ لكَ كَمالَكَ، فتُوجِبُ لكَ حُسْنَ الظَّنِّ بنفسِكَ، فتُعْجَبُ بأعمالِكَ، وتَقنَعُ بأحوالِكَ، وتَرضَى عنْ نفسِكَ، والرِّضَى عنِ النّفسِ، ورؤيةُ إحسانِها، أصْلُ كُلِّ شَرٍّ.

أمّا صُحبتُكَ لِمَنْ هو أحْسَنُ حالاً منكَ، فتَجْعَلُكَ لا تَرى مِنْ نَفْسِكَ إلّا التّقصيرَ، وفي ذلك خَيْرٌ كَثِيرٌ.

29) مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلاَ كَثُرَ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ.

– ليسَ العملُ القليلُ مِنَ الزّاهِدِ بِقَلِيلٍ، فالعملُ القليلُ إنْ كانَ مع الزُّهدِ كَثيرٌ في المعنى، إذْ يَعْظُمُ ثَوابُه، ويَحصُلُ لِصاحبِه اقْتِرَابُه، لأنّه خَلِيٌّ القَلْبِ ممّا سِوَى مَولاهُ، مُتَوجِّهٌ له بِكُلّيَتِه، إذا زَهِدَ فيما سِواهُ، وذلك هو مَقْصُودُ العبادةِ ورُوحُها.

– ولا العملُ الكَثيرُ مِنَ الرّاغِبِ بِكَثِيرٍ، لأنّ العملَ الكثيرَ إنْ صَحِبَهُ الحِرْصُ على الدنيا فإنّه في حُكْمِ القليلِ، لِعَدَمِ فائِدتِه، وقِلّةِ حاصلِه وعائدتِه، فاعْتَبِرْ بِزُهدِ الْمَرْءِ، لا بِكَثْرَةِ عَمَلِهِ.

– وقد شَكا بعضُ النّاسِ لِرَجُلٍ مِنَ الصّالحينَ، أنّه يَعملُ أعمالَ البِرّ ولا يَجِدُ لها حَلاوةً في قلبِه، فقال: لِأَنّ عندَك بِنْتَ إبليسَ؛ وهي الدنيا، ولَا لِلْأَبِ أنْ يَزُورَ ابْنَتَه في بيتِها؛ وهو قلبُكَ، ولا يُؤَثّرُ دُخولُه إلّا فَساداً.

– وقد رُوِيَ عنْ أميرِ المؤمنينَ عَلِيّ بنِ أبي طالبٍ رضى الله عنه أنّه قالَ: "كُونُوا لِقَبولِ العملِ أشدَّ اهْتِماماً مِنْكُم بِالعَملِ، فإنّه لا يَقِلُّ عَملٌ مع التقوى. وكيف يَقِلُّ عَملٌ يُتَقَبّلُ؟".

– ورُوِىَ أنّ بعضَ الصّحابةِ قالَ لِصَدْرِ التّابعينَ: أنتم أكثرُ أعمالاً واجتهاداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهم كانُوا خَيْراً مِنْكُم. قِيلَ: ولِمَ ذلك؟ قال: كانُوا أَزْهَدَ منكم في الدنيا.

- وعن بعضِ الصّحابَةِ أيضاً قال: تَابَعْنَا الأعمالَ كُلَّهَا فَلَمْ نَرَ في أمرِ الدنيا والآخرةِ أَبْلَغَ مِنَ الزُّهدِ في الدنيا.

- وقال أبو سليمانَ الدّارانيُّ: سَأَلْتُ مَعْرُوفاً الكَرْخِيَّ عَنِ الطّائِعينَ للهِ، بِأَيِّ شيءٍ قَدِرُوا على الطاعةِ؟ فقال: بإِخْرَاجِ الدنيا مِنْ قُلُوبِهم، ولو كان شيءٌ منها في قُلوبِهم، ما صَلُحَتْ لهم سَجْدَةٌ.

30) لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللهِ فِيهِ، فَإِنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ، فَعَسَاهُ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}.

- لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ، بل اذكُرْهُ على كلِّ حالٍ، فإنْ كانَ مع الحُضورِ فهو الكَمالُ، وإنْ كانَ دُونَه فَمِنْ جُملةِ الأعمالِ.

لأنَّ المُرادَ منكَ الحُضورُ مع العملِ، لا تَرْكُ العملِ لأجلِ فَقْدِ الحُضورِ، فاذْكُرْ مولاكَ كيفَ أمْكَنَكَ، وعلى أيِّ وجْهٍ تَيسَّرَ لكَ.

- قال تعالى: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا). البقرة 200.

وقال عز وجلّ: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ). النساء 103. وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا). الأحزاب 41، 42.

- وفي الحديثِ: أنَّ رَجُلًا قالَ يا رسولَ اللهِ إنَّ شرائعَ الإسلامِ قدْ كَثُرتْ عَلَيَّ فأخْبِرني بشيءٍ أَتَشَبَّثُ بهِ. قالَ ﷺ: "لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ". أخرجه الترمذي، وصححه الألباني.

- فالاشتغالُ بِمَقْدُورِ العبدِ مُقَدَّمٌ على ما لا يَدخلُ تحتَ اختيارِهِ.

ثمّ في ذلك فائدةٌ عاجلةٌ وأُخرى آجلةٌ، فأمّا العاجلةُ فَتَزْيِينُ جارِحَةٍ بِذِكْرِ اللهِ، وأمّا الآجلةُ فالتّأْثِيرُ بِوُجُودِ الْمُثابَرَةِ.

وفي تَرْكِهِ فِتْنَتَانِ: إِخْلاءُ الوقتِ مِنَ العبادةِ، والتَّعَرُّضُ لِوُجُودِ الفُضولِ بَدلاً مِنْ ذلكَ.

– ولذلك قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ: "فإنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ".

لأنّ غَفْلَتَكَ عنْ وُجُودِ ذِكْرِه إعراضٌ بالكُلّيةِ، وغَفلتَكَ فيه مع ذِكْرِه حُضورٌ بالجُزْئِيّةِ، وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِنْ بعضٍ، وأنّ وُجُودَ ذِكْرِه وإنْ كانَ مع الغفلةِ تَضمّنَ تَزيينَ جارِحةٍ بِذِكْرِه، وغَفلَتُكَ عنه رُبّما كانَ عُرضةً لِضِدّه، لأنّ الفراغَ دَاعِيةُ الفُضول، ولأنّ في وُجُودِ ذِكْرِه تعرُّضاً لِنَفَحاتِ رَحمتِه، وهو ما أشارَ إليه بقولِه: "فَعَسَاهُ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ".

– والغفلةُ هنا عَدَمُ الانتباهِ لِمَعانِي الذِّكْرِ ومَقاصِدِه، واليَقَظَةُ الانتباهُ لِمَعانِي الذِّكْرِ باسْتِحضارِ مَقاصِدِه، لا على سَبِيلِ الدّوامِ، ولا على سَبِيلِ الاسْتِغْراقِ. فإنْ كانَ على سَبِيلِ الدّوامِ فهو الحُضُورُ، حُضُورُ القلبِ لْمَعانِي الذِّكْرِ ومَقاصِدِه، وهي الْمَرتَبَةُ الثّالِثَةُ التي ذكرها بقولِه: " وَمِنْ ذِكرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ إلى ذِكرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ". والحُضورُ هو اسْتِشعارُ مَعانِي الذِّكْرِ ومُقْتَضياتِه، مُدّةَ وُجُودِهِ أو دائِماً، بَوَجْهٍ مِنَ التّأثِيرِ.

– ذلك أنّ القلبَ له عَلاقةٌ بالجوارحِ والتفاتٌ لِمَا يَبدُو منها، فإذا ذَكَرَ اللِّسانُ الْتَفَتَ إليهِ القلبُ، فكانَ تارةً معه وتارةً غافِلاً عنه، ثمّ يَصِيرُ مُصاحِباً له باعْتِبارِ إِلْفِ الْالْتفاتِ إليه، حتى تَنْطَبِعَ مَعاني ما يَجري على اللسانِ فيه.

– ثمّ يأتي أنّه قد يكونُ الذّاكرُ غائِباً في المَذْكُورِ سُبحانَه عمّا سِوَاهُ، وهو قولُه: "وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ". والغَيْبَةُ عَمّا سِوَى المذْكُورِ باسْتِيلاءِ ذِكْرِه على القلبِ حتى لا يَخْطُرَ بهِ غَيْرُه، ثم يَسْرِي ذلك في الجوارحِ فلا تَعْصِي، ولا تَتَوَقّفُ عندَ الأمرِ والنّهْيِ، وهو أفضلُ الأذكارِ وأتَمُّها وأكْمَلُها على مَراتِبِه.

– ثمّ أَتَمَّ هذه الحكمةَ مُتَمَثِّلاً قولَ اللهِ تعالى: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}.

يَعني أنَّ الارْتِقاءَ مِنْ أَقَلِّ رُتبةٍ في ذِكْرِهِ إلى أعْلَى مَقامٍ مِنْ مَقاماتِ العابدِينَ الذّاكِرينَ ليسَ بِمُمْتَنِعٍ مِنْ فَضلِ رَبِّ العالمينَ، لا سِيَّما في حقِّ مَنْ تَوَجَّهَ لهُ مُخلِصاً لِيَتعَرَّضَ لِنَفَحاتِ رَحمتِه. (ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ). الجمعة 4.

– ولو لم يَرِدْ في فضلِ الذِّكْرِ إلّا قولُه تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) البقرة 152، وقولُه عزّ وجلّ فيما رَواهُ عنه رسولُ اللهِ ﷺ: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ". (البخاري ومسلم). لكانَ في ذلك اكْتِفاءً وغُنْيَةً.

31) مِنْ عَلَامَةِ مَوْتِ الْقَلْبِ: عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَىَ مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوَافَقَاتِ، وَتَرْكُ الْنَّدَمِ عَلَىَ مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ.

– قلبٌ يُحِسُّ بِقُبْحِ الذّنبِ عند وُرُودِه عليه فيَحْزُنُ، ويُحِسُّ بحُسنِ الطّاعةِ فيَفْرَحُ بها ويَتألّمُ لِفَقْدِها؛ قلبٌ حَيٌّ. وقلبٌ لا يُحِسُّ بشيءٍ مِنْ ذلك؛ قَلبٌ مَيّتٌ.

– فالقلبُ الحَيُّ هو الذي يَتألّمُ بالمعاصِي ويَفِرُّ منها، ويَتلذّذُ بالطاعةِ ويَطلُبُها. لِمَا أَحَسَّ مِنْ أَلَمٍ أو مُلاءَمةٍ، ووجَدَهُ مِنْ مَرارةٍ أو حَلاوةٍ، فيَحْزُنُ لِمَا فاتَه مِنَ الموافَقاتِ (الطاعاتِ، واجباتٍ أو مَندوباتٍ) على حَسْبِ هِمّتِه، ويَنْدَمُ على ما فَعلَهُ مِنْ وُجُودِ الزّلّاتِ كذلك، والمَيّتُ لا يُحِسُّ بشيءٍ مِنْ ذلك، فلا يَقَعُ لهُ حُزْنٌ ولا نَدَمٌ. قالَ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ". صحيح الجامع.

فمِنْ علاماتِ الإيمانِ إذا أذنَبَ العبْدُ أنْ يَسوءَه ذلك الذَّنبُ، ويَظَلَّ نادِمًا يَلُومُ نفسَه على ارْتِكَابِه ذلك الذَّنبَ، وإذا فَعَلَ قُرْبةً للهِ عزَّ وجلَّ يَظَلُّ مَسرورًا بتوفِيقِ اللهِ له، وشاكِرًا للهِ على تَثْبيتِه وتَوفِيقِه وهِدايَتِه.

– وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: "إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليهِ، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا". قالَ أبو شِهابٍ: بيَدِهِ فَوْقَ أنْفِهِ.

32) لا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ.

– هذه الحكمةُ ساقَها ابنُ عطاءِ اللهِ اسْتِدراكاً أو تَقْيِيداً للتي قبلَها. فقدْ يَستَرْسِلُ العبدُ في النّدمِ والحُزنِ على المعصيةِ إلى أنْ يَقعَ في اليأسِ، وأنّه ليسَ أهلاً لمغفرةِ اللهِ وعفوِه، وأنّ انقيادَه للطاعةِ وتركَه للمعصيةِ لا يَنْفَعُهُ بشيءٍ، فَعقّبَ ابنُ عطاءِ اللهِ بهذا الاستدراكِ مُحذِّراً مِنْ أنْ يَعْظُمَ الذنبُ على العاصِي عَظمةً تَصُدُّه عنْ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ، وتُنْسِيهِ وَاسِعَ فضلِه وعظيمَ رحمتِه، فإنّ مَنْ عَرَفَ رَبَّه وعرفَ صِفاتِه لا بُدَّ له أنْ يَستصغِرَ الذنبَ أمامَ كرمِ اللهِ ورحمتِه وعفوِه.

– ولَمّا أفادتِ الحكمةُ السابقةُ أنَّ النّدمَ على المعصيةِ فيه حياةٌ للقلبِ، أشارتْ هذه الحكمةُ إلى أنّ المُرادَ بالنّدمِ هو النّدمُ الذي لا يُؤَدِّي بِصاحبِه إلى اليأْسِ مِنْ رحمةِ اللهِ، إذِ المطلوبُ مِنَ المسلمِ أنْ يكونَ خائفاً راجياً، تحقيقاً لقولِه تعالى: (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) الإسراء 57، وقولِه سبحانه: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) الأنبياء 90.

– وعَظَمَةُ الذنبِ عندَ مُرتكبِه على وجهينِ:

أحدُهما: أنْ يَعْظُمَ عندَه عظمةً تَحْمِلُه على التوبةِ منه، والإقلاعِ عنه، وصدقِ العزمِ على ألّا يَعودَ إلى مثلِه، وهذه عظمةٌ محمودةٌ، وهي مِنْ علاماتِ إيمانِ العبدِ.

والثاني: أنْ يَعْظُمَ عندَه عظمةً تُوقِعُهُ في اليأْسِ والقُنوطِ، وتُؤدِّيه إلى سُوءِ الظَّنِّ باللهِ، فهذه عظمةٌ مذمومةٌ، قادحةٌ في الإيمانِ، وهي شَرٌّ عليهِ مِنْ ذُنُوبِه.

– فالحضُّ على تعظيمِ الذنبِ ليس ذلك على الإطلاقِ، بل عظمةٌ تُوجبُ التوبةَ والرجوعَ واللَّجأَ إلى الله، كما أنّه لا يَصِحُّ أنْ يُحتقَرَ الذنبُ احتقاراً يُؤدّي إلى الاغترارِ بالله.

فَعَظِّمِ الذنبَ تَعظيمَ مَنْ يَعلمُ أنّ اللهَ لا يَتعاظَمُه ذنبٌ يَغفرُه، واحْتَقِرْهُ احتقارَ مَنْ يَعلمُ أنَّ الرّبَّ العظيمَ الكبيرَ يَنظرُهُ، لأنّ اليأسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ والقُنوطَ مِنْ رَحمتِه خُسرانٌ، والاغترارَ به مِفتاحُ الإصرارِ على العِصيانِ.

– قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الزمر 53، وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ). آل عمران 135، 136.

– وفي الحديثِ كما في البخاري ومسلم، يقولُ النَّبِيُّ ﷺ: "أَذنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ ربِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تباركَ وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ،

وَيأخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ".

– وقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ". رواه مسلم.

– وقد قِيلَ: "أربعةٌ في الذَّنبِ أعظمُ من الذَّنبِ: الإصرارُ على الذنبِ، والمُجاهرةُ بالذنبِ، وتَعظيمُ الذنبِ، واحتقارُ الذنبِ".

– وقِيلَ: "إنَّ المعصيةَ كلّما استُعظِمَتْ صَغُرتْ عندَ اللهِ، وإنّ الطاعةَ كلّما استُصْغِرَتْ كَبُرَتْ عندَ اللهِ".

– ويُذَمُّ تعظيمُ الذنبِ والاسترسالُ فيه لِمَا فيه مِنَ الاعتمادِ على العملِ، ونقصِ الرّجاءِ عندَ وجُودِ الزّلَلِ، وكذلك لأنّه يُوجبُ اليأْسَ، وفيه أيضاً مِنْ سُوءِ الظَّنِّ باللهِ، وذلك مِنْ فَقْدِ المعرفةِ بِسَعَةِ كَرمِه.

ولذا أشارَ ابنُ عطاءِ اللهِ إلى ذلك بقولِه: "فإنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ في جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ".

وكذا مَنْ عَرَفَ رَبَّه، اسْتَعْظَمَ لِأَجْلِ تَعْظِيمِ جلالِه عَيْبَهُ، فالذنبُ بالنَّظَرِ إلى عَظَمَةِ اللهِ خَطيرٌ، وبالنِّسبةِ إلى فَضْلِ اللهِ وكَرَمِهِ حقِيرٌ.

– يقولُ الجُنيدُ رحمهُ الله: "إذا بَدَتْ عَيْنٌ مِنَ الكَرَمِ، أَلْحَقَتِ المُسِيءَ بالمُحْسِنِ".

– ويقولَ يَحيَ بنُ معاذٍ رحمه الله: "إذا بُسِطَ بِساطُ الكَرَمِ تَلاشَتْ ذُنوبُ الأوّلينَ والآخِرِينَ في حَاشِيَةٍ مِنْ حَواشِيهِ".

– ولكنْ لا يَحمِلَنَّكَ ما تَعلَمُهُ مِنْ كَرمِه وإحسانِه على وُجُودِ عِصيانِه.

– قال إسماعيلُ بنُ نُجيدٍ رحمه الله: "التَّهاوُنُ بالأمرِ مِنْ قِلَّةِ المعرفةِ بالآمِرِ".

– وقِيلَ لبعضِهم: هل تَعْرِفُ اللهَ؟ فَغَضِبَ على السَّائِلِ وقال: أتَرانِي أعْبُدُ مَنْ لا أَعْرِفُ؟ فقالَ له: أوَ تَعْصِي مَنْ تَعْرِفُ؟

– دخلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على شابٍّ وهو في الموتِ فقالَ: "كيف تجِدُكَ؟" قال: أرجو اللهَ وأخافُ ذُنُوبي، فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يَجتمعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثْلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ اللهُ ما يَرجُوهُ وأمَّنَهُ مِمَّا يَخافُ". رواه الترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح.

– فالعبدُ دائمًا بينَ الخوفِ والرّجاءِ، لا يَأْمَنُ مِنْ عذابِ اللهِ ولا يَيْأَسُ مِنْ رحمةِ اللهِ، فالمؤمنُ يَسيرُ إلى اللهِ بينَ الخوفِ والرّجاءِ.

ذُنُوبِي إنْ فَكَّرْتُ فِيهَا كَثِيرَةٌ *** ورَحْمَةُ رَبِّي مِنْ ذُنُوبِي أَوْسَعُ
هُوَ اللهُ مَوْلَايَ الّذي هُوَ خَالِقِي *** وإِنِّي لَهُ عَبْدٌ أَذِلُّ وأَخْضَعُ
وما طَمَعِي في صَالِحٍ قَدْ عَمِلْتُهُ *** ولَكِنَّني في رَحْمَةِ اللهِ أَطْمَعُ

33) لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ.

– حَقُّ العبدِ أنْ يكونَ ناظِراً لِمَوْلاهُ مِنْ حَيْثُ ما يَقتضِيهِ وَصْفُهُ سبحانَه، لا مِنْ حيثُ فِعْلُ العبدِ.

والمقصودُ هنا أنّ كُلَّ ذنبٍ مُعْتَبَرٌ بما يُقابِلُه مِنْ وَصْفِ الحَقِّ سبحانَه في الدارِ الآخرةِ، لا بِمُقتَضَى ظَاهِرِهِ في هذه الدارِ، إذْ كُلُّ ذنبٍ باعتبارِ المَعْصِيِّ لهُ سبحانَه كبيرٌ، وباعتبارِ فضلِه حَقيرٌ.

– إذا ظَهَرَتِ الصِّفاتُ العَلِيّةُ، بَطَلَتْ أعمالُ العاملينَ، فإذا ظَهَرَتْ صِفَةُ العدلِ على مَنْ أبْغَضَهُ ومَقَتَهُ، بَطَلَتْ حَسناتُه، وعادَتْ صغائرُه كبائرَ، وإذا ظَهَرَ وَصْفُ الكَرمِ والفضلِ لِمَنْ أَحَبَّهُ، اضْمَحلَّتْ سَيّئاتُه، ورَجَعَتْ كبائِرُه صغائرَ.

– قال يحيَ بنُ معاذٍ رحمه الله: "إذا أَنالَهُم فضلَهُ لم تَبْقَ لهم سَيِّئةٌ، وإنْ أقامَ عليهم عَدْلَهُ لم تَبْقَ لهم حَسَنَةٌ". ومِنْ دُعائِه رحمه الله: "إِلَهِي، إنْ أَحْبَبْتَنِي غَفَرْتَ سَيِّئاتِي، وإنْ مَقَتَّنِي لم تَقْبَلْ حَسَناتِي".

– ورَحِمَ اللهُ الإمامَ الشافعيَّ القائِل:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي *** جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ *** بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ *** تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

34) لَا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ لِأَنَّهَا بَرزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لِأَنَّهَا بَرزَتْ مِنَ اللهِ إِلَيْكَ. (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).

– لا يكُنْ فَرَحُكَ بالطاعةِ مِنْ حيثُ صُدورُها عنكَ، باختيارِكَ وحولِكَ وقُوّتِكَ، فهذا هو الفَرَحُ المذمُومُ المَنهِيُّ عنه، وإنّما لِيَكُنْ فَرَحُكَ بالطاعةِ مِنْ حيثُ تَفَضُّلُ اللهِ بها عليكَ، فهي نِعمةٌ منه إليكَ، وفَضْلٌ مِنَ اللهِ عليكَ، وهذا هو الفَرحُ المحمُودُ المطلُوبُ مِنَ العبدِ، وهو المُقتَضِي شُكْرَ النّعمةِ، قال تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ). إبراهيم 7.

– واللهُ سبحانه غَنِيٌّ عنكَ وعنْ عِبادتِكَ وطاعتِكَ، قال تعالى: (وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ). العنكبوت 6.

– وفي صحيحِ مسلمٍ فيما يَروِيهِ النّبِيُّ ﷺ عنِ اللهِ تعالى: "يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا".

– إنّما تَفرحُ بها مِنْ حيثُ أنّها هَدِيّةٌ مِنَ اللهِ إليكَ، فالفرحُ إنّما هو بفضلِ اللهِ ورحمتِه، (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ). يونس 58.

– وفرحُكَ بالطاعةِ مِنْ حيثُ أنتَ يُؤَدِّيكَ إلى أُمورٍ مذمومةٍ في الشّرعِ، منها:

1- تزكيةُ النّفْسِ، وهو بِساطُ الكِبْرِ.

2- ومنها وُجُودُ العُجْبِ، ورُؤيةُ العَملِ الدّاعِي إلى التّفاخُرِ والتّصَنُّعِ والتَّزَيُّنِ.

3- ومنها اعتِمادُكَ على الطاعةِ، واسْتِنادُكَ إليها، وطَلَبُ العِوَضِ عنها.

– وفَرحُكَ بها لِأَجْلِ مِنَّتِه سبحانَه يُفِيدُكَ بِكراماتٍ مِنْهَا:

1- شُهُودُ الْمِنَّةِ الْمُؤَدّي إلى حُبّ اللهِ والفَرَحِ بهِ المُوصِلِ إلى كُلِّ خَيْرٍ.

2- ومنها وُجودُ شُكرِهِ المتَضمّنِ للمَزِيدِ.

3- ومنها التَّبرِّي منَ الدّعوى النّافي لكلِّ وصفٍ ذميمٍ يتعلّقُ بالعمل، فينتفي العُجْبُ، ويتحقّقُ الإخلاصُ.

35) مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ.

– قِيلَ فِي معنى الطَّمَعِ: نُزوعُ النَّفسِ إلى الشَّيء شَهْوةً له. وقِيل: الطَّمَعُ تَعلُّقُ البَالِ بالشَّيءِ مِنْ غَيرِ تَقَدُّمِ سَبَبٍ لهُ. وقيل أيضاً: الطَّمَعُ ذُلٌّ يَنْشَأُ مِنَ الحِرْصِ، والجَهْلِ بِحِكْمَةِ البَارِي.

– إذا كانَ الذُلُّ فِي حَيَاةِ الإنسانِ شجرةً قابلةً للانتشارِ والنُّمُوِّ، فليستِ النّواةُ التي تَفجَّرَتْ هذه الشجرةُ منها إلَّا الطّمعُ. فلولا الطّمعُ لَمَا ذَلَّ إنسانٌ لإنسانٍ مِثلِه، الطّمعُ في مالٍ أو رتبةٍ أو شهوةٍ مِنْ شَهَواتِ النّفْسِ يَنَالُها.

– أمّا التذلّلُ بينَ يَدَيِ اللهِ فهو الثّمَنُ الكَاملُ لِلْعِزَّةِ أمامَ عِبادِ اللهِ، فَمَنْ أَعْطَى ذلك الثّمنَ وافِياً، كان لَا بُدَّ أنْ يَنالَ هذهِ البِضاعةَ العزيزةَ كاملةً.

– الطمعُ أصلُ جميعِ الآفاتِ، لأنّه مُوجبٌ لِلْوُقُوعِ في عَظِيمِ الْهَلَكَاتِ، فلا يَزالُ صاحِبُه يَتَملّقُ إلى الناسِ حتى يَحصُلَ له مِنْ يَقِينِه الإفْلَاسُ، مع أنّ المؤمنَ يَنبغِي أنْ يَحرِصَ على عِزّةِ إيمانِه الْمَتِينِ، ويُردّدُ قولَه سبحانه: (وللهِ العِزّةُ ولرسولِهِ وللمُؤمنينَ) المنافقون 8.

ولا يكونُ ذلك إلّا باعتمادِه على مَوْلاهُ، وقَطْعِ الطّمعِ فيما سِوَاهُ، فإنّ مَنْ طَمِعَ في شيءٍ ذَلَّ له وانْقَادَ لِحُكْمِه.

أَتَطْمَعُ فِي لَيْلَى وتَعْلَمُ أَنَّمَا *** تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمَطَامِعُ

- وإنّما كان الطّمعُ أصلَ جميعِ الآفاتِ لأنّه مَحْضُ تَعلُّقٍ بالناسِ، والْتِجاءٍ إليهم، واعْتِمادٍ عليهم، وعبوديةٍ لهم، وفي ذلك مِنَ الْمَذَلَّةِ والْمَهانَةِ ما لا مَزِيدَ عليه، ولا يَحِلُّ للمؤمنِ أنْ يُذِلَّ نفسَه لأنّه مُطالَبٌ بالعِزّةِ التي اتّصفَ بها المؤمنونَ، والتي تكونُ بَرَفْعِ هِمَمِهم إلى مولاهُم، وطَمأنينةِ قلوبِهم إليه، وثِقَتِهم به دونَ سِوَاهُ.

- قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: "الطّامِعُ في وَثَاقِ الذُّلِّ".

وقال أيضًا رضي الله عنه: "الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ".

- وقال بعضُهم: "ما قُدِّرَ لِمَاضِغَيْكَ أنْ يَمْضُغَاهُ فَلَا بُدَّ أنْ يَمْضُغاهُ، فَكُلْهُ وَيْحَكَ بِعِزٍّ، ولَا تَأْكُلْهُ بِذُلٍّ".

36) مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ.

- وهذه الحكمةُ تَتِمّةٌ للتي قبلَها:

فالطّمَعُ الذي يكونُ سَبباً لِتَحمُّلِ المَهانَةِ والذُّلِّ، سَببُه الوهمُ الذي يَحمِلُ صَاحبَهُ على تَناسِي يَقِينه الإيمانيَّ، فَيُخَيِّلُ إليه أنّ الناسَ مِنْ حولِه يملكونَ له نفعاً أو ضُرّاً.

- إذنْ فالوهمُ هو الذي يقودُ إلى الطّمعِ، الذي يَتوجَّهُ بالعبدِ إلى عبدٍ مِثْلِه، ومِنْ ثَمَّ يَزُجُّهُ الطّمعُ في المَهانَةِ والذُّلِّ.

- إنّما يَتولّدُ الطّمعُ مِنِ اتّساعِ دائِرَةِ الوهمِ، وانْغِلاقِ دائرةِ الفهْمِ.

فلا شيءَ أعْمَلُ في انقيادِكَ للأمورِ مثلُ الوهمِ، الذي يُجَوِّزُ لكَ أمراً ما، بِوَجْهٍ ما، دونَ مُسْتَنَدٍ، فهو تَصديقٌ للوهمِ الكاذبِ، وذلكَ بِسَاطُ الطّمعِ.

- وقد قيلَ: "لولا الأَطْمَاعُ الكاذِبةُ ما اسْتُعْبِدَ الأحرارُ بكلِّ شيءٍ لا خطرَ له".

- وقيل: إنّ العُقَابَ يَطِيرُ في عِزِّهِ بحيثُ لا يَرْتَقِي طَرْفٌ إلى مَطَارِهِ، ولا تَسْمُو هِمّةٌ إلى الوُصولِ إليه، فَيرَى قِطعةَ لَحْمٍ مُعلّقةً على شَبكةٍ فَيُنزِلُه الطّمعُ فَيَعْلَقُ بالشّبكةِ، فَيَصِيدُهُ صَبِيٌّ يَلْعَبُ بهِ.

37) أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ.

– وهذه الحكمةُ مع اللّتَيْنِ قبلَها، تَدُورُ على مِحْوَرٍ واحدٍ، هو التّحذيرُ مِنَ الطّمعِ في المخلوقِ ونِسيانِ الخالقِ.

– إِنَّ يَأْسَكَ مِنَ الشيءِ يعني تَحَرُّرُكَ مِن سُلطانِه، وخُروجُكَ مِنْ أَسْرِ التّذلُّلِ له، في حينَ أنَّ آمالَكَ في إمكانِ الحُصولِ منه على ما تَطْمَعُ يُوقِعُكَ في بَراثِنِ العُبوديةِ له.

– فعلى العبدِ الكريمِ الْمُعْتَزِّ بِذاتِه أنْ لا يَطْمَعَ إلّا بِمَنْ لا يُغَيِّرُ الطّمعُ مِنْ عِلاقتِه به، وهو اللهُ سبحانَه وتعالَى، فالعبدُ مملوكٌ للهِ على كلِّ حالٍ، طَمِعَ به أمْ لم يَطْمَعْ، سَأَلَه أمْ لم يَسْأَلْه، فَطَمَعُكَ فيه سبحانَه هو وَضْعٌ لِلْأَمْرِ في نِصابِه، وتَطبيقٌ لِحَقِيقةِ العُبوديةِ له سُبحانَه.

– أنْتَ حُرٌّ مِمَّا أنتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أنْتَ لَهُ طَامِعٌ، لأنّ الْمَطمُوعَ فيه مَحْبوبٌ، وكلَّ مَحبوبٍ مَالِكٌ، والميؤوسَ منه مَتروكٌ، وكلَّ مَتروكٍ لا سَبِيلَ له على تَارِكِه.

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَع *** وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِع

– وما أَقْبَحَ الإنسانَ الذي يُرِيدُ سَيِّدُه منه أنْ يكونَ مَلِكاً وهو يُرِيدُ أنْ يكونَ مملوكاً، يُرِيدُ سَيِّدُه أنْ يَجعلَهُ حُرّاً وهو يُرِيدُ أنْ يكونَ عَبْداً، خَلَقَ له الكونَ لِيَخْدِمَه، فَجعلَ يَخْدِمُ الكونَ ويَتَعبَّدُ لأقلِّ شيءٍ وأخَسِّه.

38) مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى اللهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ، قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ الامْتِحَانِ.

– أيْ مَنْ لم يُقبِلْ على اللهِ تعالى بِسَبَبِ مُلاطفاتِه إيّاهُ بأنواعِ الإحسانِ، والقيامُ بِشُكرِ الإنْعامِ والامْتِنانِ، قادَهُ اللهُ وجَرَّهُ إليهِ بالامتحاناتِ الشَّبِيهَةِ بالسّلاسِلِ، وضُروبِ البلايا والْمِحَنِ، والابتلاءِ في الضّرّاءِ والسّراءِ لعلّهُ يَرجِعُ.

فنُفُوسٌ تُقبِلُ على اللهِ لِإحسانِه، ونُفوسٌ لا تَرجِعُ إليه إلّا بِبَلائِه وامتحانِه.

– يقول الشيخُ أبو مدينَ رحمه الله: "سُنّتُهُ عزّ وجلّ استدعاءُ العِبادِ لِعِبادتِه بِسَعَةِ الأرزاقِ ودوامِ المُعافاةِ لِيَرجِعُوا إليهِ بِنعمتِه، فإنْ لم يَفعلُوا ابْتلاهُم بالسّرّاءِ والضّرّاءِ لعلّهم يرجِعون، لأنّ مُرادَهُ عزّ وجلّ رُجوعُ العبدِ إليه طوعاً أو كرهاً".

– والتحقيقُ أنْ يُقالَ أنّ النِّعَمَ والنِّقَمَ كلاهُما ابْتلاءٌ وامْتحانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، واللهُ العَلِيمُ الحكيمُ أعلمُ بِعبادِه، وهو الرّحِيمُ العدلُ في أحكامِه يَعلمُ مَنْ يَبْتَلِيهِ بالنِّعَمِ ومَنْ يَبتلِيهِ بالنِّقَمِ، ثمّ هل مَنْ يُبتَلَى بالنِّعَمِ يَشكُرُ ويُقْبِلُ على اللهِ أم يَكفُرُ ويُقبِلُ على الدنيا؟ وهل الذي يُبتَلَى بالنِّقَمِ يَصْبِرُ ويَلْجَأُ إلى اللهِ ويَعُودُ إليهِ أم يَسْخَطُ ويَتَمَرَّدُ على اللهِ سبحانه؟

– قال تعالى: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الأنبياء 35.

قال ابنُ عباسٍ: قولُه (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) قال: "بالرّخاءِ والشِّدّةِ، وكلاهُما بَلاءٌ". وعنه أيضاً: قولُه (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ) يقول: "نَبْتَلِيكُمْ بالشِّدّةِ

والرّخاءِ، والصِّحّةِ والسَّقَمِ، والغِنَى والفقرِ، والحلالِ والحرامِ، والطاعةِ والمعصيةِ، والهُدَى والضلالةِ".

– فاللهُ سبحانه إنّما يُريدُ بِعَبْدِه خيراً، إذِ الْمَآلُ أنْ يُقبِلَ على اللهِ عزّ وجلّ، ويَنقادَ لِسُلطانِه، ويَنضبِطَ بأحكامِه، فإمّا أنْ يكونَ ذلكَ بِجَاذِبٍ مِنْ لَطائِفِ إحسانِه، أو بِقَوارِعَ مِنْ عِصِيِّ الابْتلاءِ والامتحانِ.

– وقد يكونُ وُجُودُ الامتحانِ عُقُوبةً على فَقْدِ الشُّكرِ وسَلْباً للنِّعمةِ، كما أشارَ ابنُ عطاءِ اللهِ في الحكمةِ التاليةِ.

39) مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا.

– مَنْ لم يَشكرِ النِّعمَ بالإقبالِ على المُنْعِمِ سبحانه فقد تَعَرّضَ لِزَوالِها، حتى يَرجِعَ إليه، وإنْ لم يَرجِعْ كانَ وُجُودُها حُجّةً عليهِ لِيَتَذكّرَ، وسَلْبُها تَأكِيداً لِتَتِمَّ الحُجّةُ.

– قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) إبراهيم 7، وهذا وَعْدٌ وبِشَارةٌ، ثمّ قالَ: (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم 7، وهذا تَهْدِيدٌ ونِذَارةٌ.

– فَشُكرُ النِّعَمِ مُوجبٌ لبقائِها والزيادةِ منها، وكُفرانُها وعَدمُ شُكرِها مُوجبٌ لِزوالِها ونُقصانِها.

– ومَنْ شَكرَها قَيّدَها بِعِقالِها، والعِقالُ الحَبْلُ، شَبّهَ أثَرَ شُكرِ النِّعمِ في تَقييدِها والإبقاءِ عليها، بِأَثَرِ تَقْييدِ البَعِيرِ بِالعِقالِ في ضَمانَةِ بَقائِه وعَدمِ شُرُودِه.

– قال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: "قَيِّدُوا النِّعَمَ بِالشُّكْرِ".

– وقال الحسنُ البصريُّ: "إنَّ اللهَ لَيُمَتِّعُ بالنِّعْمَةِ ما شَاءَ، فإِذَا لَمْ يُشْكَرْ عَلَيْها قَلَبَها عَذَابًا".

– ولهذا كانوا يُسمُّونَ الشُّكرَ: (الحافِظَ)؛ لأنَّهُ يَحْفَظُ النِّعَمَ المَوْجُودَةَ، و(الجَالِبَ)؛ لأنه يَجْلِبُ النِّعَمَ المَفْقُودَةَ.

– يقولُ سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: "الشّاكرُ هو الذي يَعْلَمُ أنَّ النِّعْمَةَ مِنَ اللهِ تَعالى، أَعْطَاهُ إِيّاهَا لِيَنْظُرَ كيفَ يَشْكُرُ وكيفَ يَصْبِرُ".

– وحقيقةُ الشُّكرِ في بابِ الأعمالِ هو أنْ لَا تَعصِي اللهَ بِنِعَمِه، فإذا عَصَيْتَه بها فأنْتَ غَيرُ شاكرٍ، وهو دَليلُ الاسْتِدراجِ.

– وشُكرُ النِّعْمَةِ ضامِنٌ لِحفظِها عنِ الزّوالِ، وزِيادَتِها في الحالِ، وبَرَكَتِها في الْمَآلِ، واتِّصالِ العبدِ بِمَوْلاهُ على وَجْهِ العافِيَةِ بِلَا إِخْلالٍ.

وعَدَمُ الشُّكرِ ضامِنٌ لِلسّلْبِ، وتَشْوِيشِ القلبِ، ومَقْتِ الرَّبِّ.

وما أَلْطَفَ قولَ القائِلِ:

إِذَا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَهَا *** فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَم

وَدَاوِمْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلَهِ *** فَإِنَّ الْإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَم

40) خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً لَكَ، {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}.

– خَفْ أيُّها العبدُ المغرورُ مِنْ دَوامِ إحسانِ الحقِّ إليكَ، بالصِّحَّةِ والمالِ والبَنِينَ، معَ دَوامِ إسَاءَتِكَ إليهِ، بالغفلةِ والتّقْصِيرِ وعَدمِ الشُّكرِ؛ أنْ يكونَ ذلكَ اسْتِدْراجاً لكَ، يُصْعِدُكَ دَرجةً فدَرجةً إلى سَخَطِهِ وغَضَبِهِ وعِقابِه، ولا تَأْمَنْ مِنْ قَهْرِ القَهّارِ، أو سَطْوَةِ الجَبّارِ، حينَ تَتَجَرّأُ بالإحسانِ على الأَوْزَارِ.

– واعْلَمْ أنّ زَوَالَ النّعْمَةِ قدْ يَكونُ مِنْ وَجْهٍ يَعلَمُه العبدُ، وقد يكونُ من وجهٍ لا يَعلَمُه، وهو الاسْتِدْرَاجُ، أيْ أَخْذاً لكَ بوجهٍ لا تَخْشَاهُ، فإنَّ الاستدراجَ مِنَ الدَّرَجِ وهو أَخْذُ الشَّيءِ قليلاً قليلاً بحيثُ لا يَشعرُ بِه، فالمُستَدْرَجُ هو الذي تُؤخَذُ منهُ النِّعمةُ بوجهٍ لا يَشعرُ به.

– ومِنْ أَمَارَاتِ الاسْتِدراجِ رُكُوبُ السّيئةِ والاغْتِرارُ بِزَمَنِ الْمُهلَةِ، وحَمْلُ تَأخِيرِ العُقوبةِ على استِحقاقِ القُرْبِ والوُصْلَةِ.

– قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا). آل عمران 178.

– وقال تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ). الأعراف 182.

يعني نأخُذُهم بالمُهلةِ حتى نَسلِبَهُمُ النِّعمةَ مِنْ حيثُ لا شُعورَ لهم.

– وقال تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ). الأنعام 44.

- عن مجاهدٍ في قولِ اللهِ تعالى ذِكرُه: (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)، قال: رَخاءُ الدُّنيا ويُسْرُها. وعن قتادةَ قال: يعني الرّخاءُ وسَعَةُ الرِّزقِ.

- يقول الطبريُّ رحمه الله في قولِه تعالى: (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ): بَدّلْنَا مكانَ البأساءِ الرّخاءَ والسّعَةَ في العيشِ، ومكانَ الضّراءِ الصِّحةَ والسّلامةَ في الأبدانِ والأجسامِ، اسْتِدْراجًا مِنَّا لهم. ويعني تعالى ذكره بقوله: (أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)، أتيناهم بالعذابِ فجأةً، وهم غَارُّونَ لا يَشعرُونَ أنَّ ذلكَ كائِنٌ، ولا هو بهم حَالٌّ.

- ويقول البَغَوِيُّ رحمه الله في تفسيره: (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)، وهذا فَتْحُ استدراجٍ ومَكْرٍ، أيْ: بدّلْنا مكانَ البلاءِ والشّدةِ الرّخاءَ والصّحةَ.

- ويقول ابنُ كثيرٍ رحمه الله: أيْ: فَتحْنَا عليهِم أبوابَ الرِّزقِ مِنْ كُلِّ ما يَخْتَارُونَ، وهذا اسْتِدراجٌ منه تعالى وإمْلَاءٌ لهُم، عِياذاً باللهِ مِنْ مَكْرِهِ.

- ويقول القرطبيُّ رحمه الله: فكانَ ذلكَ اسْتِدراجاً مِنَ اللهِ تعالى كما قال: (وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) الأعراف 183. نعوذُ باللهِ مِنْ سَخَطِهِ ومَكْرِه. قال بعضُ العلماءِ: رَحِمَ اللهُ عَبْداً تَدَبّرَ هذه الآية (حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً). وقال محمدُ بنُ النَّضْرِ الحارثيُّ: أمْهَلَ هؤلاءِ القومَ عِشْرِينَ سَنَةً.

– وعَنْ عقبةَ بنِ عامرٍ عَنِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ: "إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ مِنَ الدّنيا على مَعاصِيهِ ما يُحِبُّ، فإنّما هو اسْتِدْراجٌ، ثمّ تَلا: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)". السلسلة الصحيحة للألباني.

– مَنْ يَبلغُ الرتبةَ التي بَلَغَها الفاروقُ عمرُ رضي الله عنه؟ ومعَ ذلكَ، فقد كانَ إذا جَاءَتْهُ الغَنائِمُ مِنَ الفُتُوحاتِ، أطْبَقَ عليهِ الكَرْبُ، واسْتَبدَّ بهِ الخَوْفُ مِنْ أنْ يكونَ هذا الذي اخْتَصَّهُ اللهُ به ابتْلاءً واسْتِدراجاً.

رَوَى ابنُ كَثيرٍ في البدايةِ والنّهايةِ، وابنُ سَعْدٍ في الطّبقاتِ: أنّه لَمَّا سِيقَتْ إلى عُمَرَ غَنائِمُ الفُرْسِ بعدَ فَتْحِ القادِسِيّةِ، جَعلَ يَبكِي قائلاً: "كَلَّا والذي نَفْسِي بِيَدِه، ما حَبَسَ اللهُ هذا عنْ نَبِيّه صلى الله عليه وسلم، وعنْ أبِي بَكْرٍ، إِرَادَةَ الشَّرِّ لهُمَا، وأعْطَاهُ عُمَرَ إرَادَةَ الخَيرِ لَهُ".

41) مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتُؤَخَّرُ الْعُقُوْبَةُ عَنْهُ، فَيَقُوْلُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الإِمْدَادَ وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ، فَقَدْ يُقْطَعُ الْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعُ الْمَزِيدِ، وَقَدْ يُقَامُ مَقامَ البُعدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ.

– مِنْ وجُوهِ الاستدراجِ الذي سبقَ في الحكمةِ السابقةِ: إِمْهالُ المولى سبحانه وتعالى لِعَبْدِه عندَ إساءةِ أدَبِه، وظَنُّ العبدِ أنّ ذلكَ مِنْ إهمالِ اللهِ لهُ وعَدمِ مُعاقبتِه.

– يُسيءُ العبدُ فلا يُعاقَبُ في ظاهرِه بالبلايا والأسقامِ، ولا في باطنِه بِحَسْبِ زَعمِهِ، ويَنتصِرُ لِنَفْسِه ويُخاطِبُها بأنَّه لو كانَ مُسيئاً لَقُطِعَ عنهُ ما يَرِدُ إليهِ مِنْ فضلِ اللهِ وإنعامِه، ولَوَجَبَ بُعدُه بِعَدَمِ حُضُورِه معهُ بِذكرِهِ أو عِبادَتِه، وغَفِلَ هذا العبدُ الجَاهِلُ أنّه قد يُقطَعُ عنهُ الفضلُ والإمدادُ بأنواعِ النِّعَمِ مِنْ حيثُ لا يَشعُرُ، ولو لم يكنْ مِنْ قَطْعِ الفضلِ والْمَدَدِ عنهُ إلّا مَنْعُهُ مِنْ زِيادَةِ الفضلِ والْمِنَنِ لكانَ ذلكَ كافِياً في القَطْعِ.

– بل قد يُقامُ هذا العبدُ الْمُسِيءُ في مَقامِ البُعدِ عَنِ اللهِ بِحرمانِه مِنْ أنواعِ الأفضالِ الباطِنَةِ، وهو لا يَدْرِي، ويَكْفِي مِنْ ذلكَ أنْ يُخَلِّيَهُ الْمَولى بينَهُ وبينَ ما يُرِيدُ، بأنْ يُسَلِّطَ عليهِ نَفْسَه، ويَمْنَعَ نُصْرَتَهُ عليهَا.

– قد يَبْدُرُ مِنَ العبدِ مُخالفَةً لأحكامِ اللهِ ومُخالفةً لآدابِ الشّريعةِ والعُبوديةِ، فَيَمُرُّ عليهِ زَمَنٌ دونَ أنْ يَعْرِضَ لهُ السُّوءُ أو الْمُنَغِّصاتُ ما قد يكونُ عِقاباً وتأدِيباً لهُ

على ما بَدَرَ منه، فَيُخَيّلُ إليهِ أنّ ما قد ظَنّهُ معصيةً أو زلّةً بَدرَتْ منه ليس كذلكَ، ويَظُنُّ بِنَفْسِه ظَنّاً حَسناً، وأنّه لو كانَ مُسِيئاً لَظَهَرَتْ نَتائِجُ إسَاءَتِه عِقاباً عاجِلاً مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، أو انْقَطَعَتْ عنهُ بعضُ رَوافِدِ نِعَمِهِ سبحانه عليهِ، أو ظَهَرَ لهُ بُعْدٌ وَصَدٌّ عَنْ قُرْبِه وعِبادَتِه للهِ.

والحقيقةُ التي يَذْهَلُ عنها هذا العبدُ، أنّ هذا الوهمَ ليسَ إلّا أثراً مِنْ آثارِ القسوةِ التي ابتُلِيَ بها قلبُه دونَ أن يَشعُرَ، فلولا هذه القسوةُ لَمَا وَجَدَ الوهمُ إليه سبيلاً، ولكانَ في حالٍ مِنَ الوَجَلِ والاضطرابِ ممّا أصابَ مِنْ زَلّةٍ أو معصيةٍ، ولَأَسَاءَ الظَنَّ بنفسِه وبَقِيَ خائفاً وَجِلاً.

– إنّ شأنَ العبدِ الذي أخَلَّ الأدَبَ مع اللهِ، أنْ يَنْبَعِثَ في قلبِه مِنَ الخوفِ والاستحياءِ مِنَ اللهِ، بمقدارِ ما فيهِ مِنَ الخَشيةِ والرِّقّةِ والرَّقابَةِ لنفسِه مع اللهِ، فإنْ لم يَشعُرْ بذلك؛ فذلكَ لأنّ قلبَه لم يَعُدْ فيهِ ما يَبْعَثُ فيهِ شيئاً مِنَ الخوفِ والقَلَقِ مُطمئِنّاً إلى ما ارْتَكَبَ مِنْ سُوءٍ وَزَلّةٍ.

– وهذا يَعني أنّ الاستخفافَ بالمعاصِي مهما صَغُرَتْ، ليسَ إلّا أثراً مِنْ آثارِ قَسوةِ القلبِ، وحَسْبُ العبدِ المسِيءِ الذي هذا شأنُه مِنَ العِقابِ العاجِلِ أنْ يَبتليَهُ بغفلةِ القلبِ بعدَ حُضُورِه، وبقسوتِه بعدَ سَرَيانِ الخَشيةِ فيهِ، وهو عِقابٌ خَفِيٌّ يَتِيهُ عنهُ كثيرٌ مِنَ الناسِ.

– إنَّ العَبْدَ الذي يُجاهِدُ لِتزكِيَةِ نفسِه وتَطهِيرِها، يَنبغي أنْ يَتوقّعَ ضَرَباتِ التّأدِيبِ مِنَ اللهِ في حَقِّه، كُلّما شَعَرَ بإساءةٍ أو تقصيرٍ في حقِّ اللهِ عزّ وجلّ بَدَرَ منهُ،

وعليهِ أنْ يَعلمَ أنَّ ضَرَباتِ التّأدِيبِ ليستْ بالضّرورةِ مادّيّةً دائماً، بل رُبّما تَمَثّلَتْ بافْتِقادِهِ حَلَاوةَ الطاعةِ والعبادةِ، وإنّها لَمُصِيبةٌ كُبرى، وربّما تمثّلَتْ في انقطاعِه عنْ مُتابعةِ طريقِه في التّزكيةِ، أو تمثّلَتْ في تَسلِيطِ محبَّةِ الدنيا على قلبِه، وربّما ادّخَرَها اللهُ له عِقاباً يَنالُه يومَ القيامةِ.

- وجهلُ العبدِ بذلكَ مِنْ وُجُوهٍ، منها:

1- رِضاهُ عنْ نفسِه، إذْ لو لم يَرْضَ عنها ما احْتَجَّ لها ولا عَمِيَ عنْ عَيْبِها.

2- وكذلِكَ غَفْلَتُه عنْ نفسِه بما هو بِهِ، إذ لو لم يكنْ غافلاً لَتَأَثّرَ بما يَرِدُ عليه، فَعَرَفَ نَقْصَه.

3- ثمّ كذلكَ جَهلُه بأفعالِ المولى جلّ وعلا، إذْ جَعلَ ما ظَهرَ عليهِ مِنْ بَقاءِ إمدادِه علامةً على رِضاهُ بِفِعلِه، وهذا خلافُ الأصلِ، وهو ما أشارَ إليهِ بقولِه: فَقَدْ يُقْطَعُ المَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعُ المَزِيدِ.

وذلكَ أبلَغُ في استدراجِه، وأتَمُّ لإبعادِه، وأقْوَى في عُقوبتِه، لأنَّ العِلْمَ بذلكَ قد يَهْدِي إلى الاستدراكِ، أمّا الجَهْلُ بهِ يُوجِبُ التّمادِي عليهِ، لاسِيَّما معَ الاستنادِ إلى ما يُقَوّي جَهْلَه وغَفلَتَه كقولِه: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الإمْدَادَ وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ.

- قال بعضُهُم: "اِلزَمِ الأدَبَ ظاهراً وباطناً، فما أساءَ أحَدٌ الأدبَ ظاهراً إلّا عُوقِبَ ظاهِراً، وما أساءَ أحَدٌ الأدَبَ باطِناً إلّا عُوقِبَ باطناً".

42) مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا لِكُلِّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ.

– ثلاثُ علاماتٍ إنِ اجتمعْنَ في شخصٍ، كان ذلك دليلاً على وجُودِ جهلِه، ولعلَّ كلَّ خصلةٍ منها كافيةٌ في الدِّلالَةِ على جهلِ صاحبِها، ولكنْ يَبدُو أنَّ الحِيطةَ في الحُكمِ حملَتْ ابنَ عَطاءِ اللهِ على أنْ يَعُدَّ الجهلَ ثمرةً لاجتماعِ هذه الخِصالِ كلِّها في شخصٍ واحِدٍ.

– أمّا الأُولى أنْ تَراهُ لا يَتردّدُ في الإجابةِ عنْ كلِّ ما يُسألُ عنه. فمَنْ رَأيتَهُ يُجِيبُ جَوابَ العارفِ عنْ كلِّ ما يُسأَلُ عنه، فاعْلَمْ أنّهُ يُغَطِّي جهلَه بِدَعَاوَى المعرفةِ والعلمِ، لأنّه لا يُمكنُ أنْ يُحِيطَ أحَدٌ بكلِّ العُلومِ.

– أمّا الخَصْلَةُ الثانيةُ، فهي أنْ تَرَى الرّجُلَ يَروِي للناسِ كلَّ ما شهِدَهُ، إذ لو لم يكنْ جاهلاً، لَعَلِمَ أنّ الأمانَةَ تَقتضِي أنْ يُمسِكَ عن الحديثِ عنْ أكثرِ ما قد يَرَاهُ، إذْ كَثِيراً ما يكونُ الشيءُ الذي رَآهُ ثمّ رَوَاهُ، عائِداً إلى خُصُوصِيّاتِ بعضِ الناسِ التي لا يَحِلُّ نَشْرُ أخبارِهم دونَ رِضاهُم.

وقد تَضُرُّ رِوايَةُ الْمُشاهَدَاتِ –ولو كانت حقائق– بأقوامٍ، وقد يَفهَمُ بعضُ الناسِ بعضَها أيضاً على غيرِ مُرادِها.

– أمّا الخَصلَةُ الثّالثةُ مِنَ الخِصالِ التي تَدُلُّ على جهلِ صاحبِها، أنْ يَتَحدَّثَ للنّاسِ عن كلِّ ما عَلِمَ مِنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ، دونَ تَفريقٍ بينَ ما يُصْلِحُ الناسَ ويُفيدُهم، وبينَ ما يُربِكُهُم ويُشَوِّشُ فِكرَهُم ويُدْخِلُهُم في الوَساوِسِ والشُّكُوكِ.

– وجهلُ هذا الشخصِ يكونُ مِنْ وُجُوهٍ، منها: جَهْلُه بِحكمةِ اللهِ فيما أوْدَعَ عندَهُ مِنَ العلمِ والمعرفةِ، إذْ لم يُعطِهِ حَقَّهُ في مَحلِّه، وجهلُه بنفسِه بأنْ ظَنَّ الإحاطةَ بالعلمِ، وكذلك جهلُه بمواقِعِ ما وَصَلَ إليهِ أو أرَادَ توصِيلَه مِنْ إجَابةٍ أو تعليمٍ أو تَعبيرٍ.

– فليسَ كلُّ سؤالٍ يُوجَدُ جَوابُه، فمنْ أجَابَ عنْ كلِّ ما سُئِلَ أجابَ بما لا يَعْلَمُ، ولذلكَ قِيل: "جنّةُ العَالِمِ: لا أدْرِي، فإذَا أخْطأَها أُصِيبَتْ مَقاتِلُهُ".

وسُئِلَ بعضُهم عنِ العلمِ النّافِعِ، فقال: "أنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ، ولا تَتَعَدَّى طَوْرَكَ".

– وقد كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يَتَوَقَّوْنَ الفُتْيَا، كما قالَ أحدُ السّلفِ: "لقد رأيتُ ثلاثَمِائَةٍ مِنْ أصحابِ بَدْرٍ ما فِيهِم أحَدٌ إلّا وهو يُحِبُّ أنْ يَكْفِيَهُ صاحِبُهُ الفُتْيا".

– وقالَ ابنُ أبي لَيْلَى: "أدركتُ عِشرينَ ومِائَةً مِنَ الأنصارِ مِنْ أصحابِ النّبيِّ ﷺ يُسألُ أحَدُهُم عَنِ الْمَسْأَلَةِ فَيَرُدُّ هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتّى تَرْجِعَ إلى الأَوَّلِ".

– قال أَبُو حَصِينٍ الأَسَدِيُّ: "إنَّ أحَدَكُمْ لَيُفْتِي في الْمَسْأَلَةِ لَوْ وَرَدَتْ على عُمَرَ بنِ الخطّابِ لَجَمَعَ لهَا أهْلَ بَدْرٍ".

– وسُئِلَ الشَّعْبِيُّ عَنْ مَسأَلةٍ فقالَ: لا أَدْرِي، فقِيلَ: أَلَا تَسْتَحِي مِنْ قولِكَ: لا أدْرِي، وأنتَ فَقِيهُ أَهْلِ العِراقِ؟ قال: لَكِنَّ الملائِكةَ لم تَسْتَحِ حِينَ قَالَتْ: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا.

– وهذا الإمامُ مالكٌ رحمهُ اللهُ، سُئِلَ عنْ ثَمانٍ وأرْبَعِينَ مَسألةً، فقال في اثْنَتَيْنِ وثَلاثِينَ منها: لا أدْرِي، يقولُ لهُ السّائِلُ: ماذا أَرْجِعُ للنّاسِ، وماذا أقولُ لهم؟ قال: قلْ لهم يقولُ الإمامُ مالكٌ: لا أدْرِي.

– ثمّ أنّه ليس كلُّ سائلٍ يَسْتَحِقُّ الإجابَةَ، ولا كلُّ أحَدٍ يُحَدَّثُ بكلِّ عِلْمٍ أو مَسألةٍ أو خَبرٍ، والجوابُ على قدْرِ السّائِلِ، لا على قَدْرِ الْمَسائِلِ، وكذا ليس كلُّ وقتٍ يَستحقُّ الجوابَ، بل للأُمُورِ تَوقُّعاتٌ ومَواضِعُ، وقد تكونُ إجابَةُ كلِّ سائِلٍ جَهْلاً وضَرراً، إذ قد يكونُ السّائِلُ مُتَعَنّتاً لا يَستحِقُّ جواباً، وقد تكونُ المسألةُ التي سَأَلَ عنها لا تَلِيقُ بهِ لأنَّه لا يَفهَمُهَا ولا يَطِيقُ مَعرفَتَها، فتُوقِعُهُ في الحيرةِ أو الإنْكارِ.

– قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: "حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ ورَسولُهُ".

– وقال عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "ما أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إلَّا كانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً".

– وبوّبَ البخاريُّ في ذلك: "بَابُ مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا".

– وأَوْرَدَ الغَزاليُّ في الإحياءِ رِوايةً عنْ نَبيِّ اللهِ عِيسى عليهِ السّلامُ، قالَ: "بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُم يا مَعْشَرَ الحَوارِيّينَ، لا تُعَلِّقُوا الدُّرَّ في أَعْنَاقِ الخَنازِيرِ".

– والغالبُ في سَبَبِ هذه الجَهالَاتِ كلِّها إنّما هو حُبُّ الظُّهُورِ والتّفاخُرِ بِمَا عَلِمَ، والتّظاهُرُ بِمَا لا يَمْلِكُ، وهي إساءَةُ أَدَبٍ معَ الحَقِّ سبحانَه وتعالى في القَصْدِ والعَمَلِ، وذلك مِنْ إيثارِ الدنيا، لأنَّ مَنْ أَرَادَ بِعَملِه وَجْهَ اللهِ والآخِرَةَ لم يُظْهِرْ شيئاً إلّا بِعِلْمٍ وفي المَحَلِّ والوقتِ والْمُناسَبةِ.

– رُوِيَ عن الإمامِ مالكٍ رحمه الله أنّه قال: "مَنْ أجابَ في مَسألةٍ، فَينبغِي قبلَ الجَوابِ أنْ يَعْرِضَ نفسَه على الجنةِ والنارِ، وكيفَ خَلاصُهُ، ثمّ يُجِيبُ".

– ثمّ لا يَنبغِي للمُسلمِ أنْ يدَّعِيَ ما ليس فيه، ولا أنْ يَتظاهَرَ بِغَيرِ الحَقِيقةِ؛ لأنَّه بذلكَ يُشْبِهُ لابِسَ ثَوْبَيْ زُورٍ كما أخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ بقولِه: "الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ". البخاري ومسلم.

فالَّذي يَدَّعِي ويَتظاهَرُ بِمَا ليسَ فيه وليس عندَه كمَنْ يَلْبَسُ ثَوبَيْنِ لِغَيرِهِ ويتظاهَرُ أنَّهما مِلْكُه، ومعناهُ أنّهُ كالكاذِبِ القائِلِ ما لم يكنْ، والْمُتَشَبِّعُ الْمُتزَيِّنُ بما ليس عندَه، يَتَكَثّرُ بذلكَ ويَتزيّنُ بالباطلِ.

ومِنْ ذلكَ داءُ التّعالُمِ والتّعاظُمِ والادِّعاءِ بما ليسَ في الإنسانِ، وبما لا يَمْلِكُه؛ مِنِ ادِّعاءِ العلمِ وهو ليسَ بِعَالِمٍ.

43) إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلّاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لاَ بَقَاءَ لَهَا.

– اللهُ سبحانَه لمْ يَرْضَ الدُّنيا أهْلاً لِعُقُوبَةِ أعْدَائِه، كمَا لم يَرْضَها أهْلاً لِإثَابَةِ أحِبَّائِه.

فهذِهِ الدّارُ الدنيا ضَيّقَةٌ عنْ عَطايَاهُ الجَسِيمَةِ الكثيرةِ، فهي لا تَسَعُ ما يُرِيدُ أنْ يُعْطِيَهُم مِنْ أنواعِ النّعيمِ، فهي مُتَدانِيَةُ المسَافاتِ، ضَيّقةُ الأقطارِ، أمّا الآخِرَةُ فيقولُ عنها ربُّنا سبحانَه: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) آل عمران 133، وقال سبحانه: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الحديد 21.

– وقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فيما يَرْوِيهِ عنْ رَبّه: قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اِقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}. صحيح البخاري.

– وقال صلى الله عليه وسلم: "ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما عَلَيْهَا". البخاري.

– وقال عليه الصلاة والسلام: "وَلَقَابُ قَوْسٍ في الجَنَّةِ، خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وتَغْرُبُ". البخاري.

– وقولُه صلى الله عليه وآله وسلم: "إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسيرُ الرَّاكبُ الجَوادَ المُضَمَّرَ السَّريعَ مائةَ عامٍ، لا يقطَعُها". البخاري ومسلم.

– وأنَّ اللّهَ تعالى أَجَلَّ أقْدَارَ عِبادِهِ المؤمنينَ، فلمْ يَجعلْ لهم الجَزاءَ على طاعَتِهم في دَارٍ فَانِيَةٍ، مُنْقَضِيَةٍ، مُنْصَرِمَةٍ، لأنَّ كُلَّ ما يَفْنَى وإنْ طَالَتْ مُدّتُهُ كَلَا شَيءٍ، بل أعْطَاهُمُ الخُلودَ في النّعيمِ، والبَقاءَ الدّائمَ في الْمُلْكِ الْمُقِيمِ. يقولُ سبحانَه: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الأعلى 16، 17. أبْقَى لِكَوْنِها دَارَ خُلْدٍ وبَقاءٍ وصَفاءٍ، والدنيا دارُ فَناءٍ.

– يقولُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) أيْ: ثَوابُ اللهِ في الدارِ الآخرةِ خَيْرٌ مِنَ الدنيا وأبْقَى، فإنَّ الدنيا دَنِيّةٌ فانِيَةٌ، والآخِرَةَ شَرِيفَةٌ باقِيَةٌ، فكيفَ يُؤْثِرُ عاقِلٌ ما يَفْنَى على ما يَبْقَى، ويَهْتَمُّ بما يَزُولُ عنه قريباً، ويَتركُ الاهتمامَ بِدَارِ البَقاءِ والخُلدِ؟!

– رُوِيَ عنِ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ ومالكِ بنِ دِينارٍ: "لو كانتِ الدنيا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى والآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى، لَاخْتَارَ العَاقِلُ الذي يَبْقَى على الذي يَفْنَى، فكيفَ والآخرةُ مِنْ ذَهَبٍ يَبقَى، والدنيا مِنْ خَزَفٍ يَفْنَى".

44) مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلاً.

– ثمرةُ العملِ العِبادَةُ، مِنْ صلاةٍ وذكرٍ وصيامٍ وقِيامٍ ونحوِ ذلكَ، تَتمثّلُ في حُضُورِ القلبِ وسَرَيانِ الخشيةِ إلى النّفْسِ، والشُّعُورِ بِلَذّةِ الإقبالِ إلى اللهِ، ومُتْعَةِ الدُّخُولِ في مُناجَاتِه. فالثَّمَرَةُ هنا هي لَذِيذُ الطاعةِ، وحَلاوةُ المُناجاةِ، وأُنْسُ القلبِ، وفَرَحُ الرُّوحِ. ويُشِيرُ إلى ذلكَ قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ". صحيح النسائي.

يقولُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ في الفتحِ: ومَنْ كانتْ قُرّةُ عينِه في شيءٍ فإنَّه يَوَدُّ أنْ لا يُفارِقَه، ولا يَخرجَ منه، لأنَّ فيهِ نَعيمه، وبه تَطِيبُ حَياتُه، وإنّما يَحْصُلُ ذلكَ لِلْعابِدِ بالْمُصابَرةِ على النَّصَبِ.

– ودليلُ وجُودِ هذه الثّمَرةِ، النّشاطُ في النُّهوضِ إليها، والاغْتِباطُ بها، والْمُداوَمَةُ عليها، وزيادةُ الوقتِ فيها، وهي علامةُ حُلُولِ الهِدايةِ في القلبِ.

– والتّعبيرُ هنا بالثّمَرةِ، وليسَ بالأجْرِ الْمُدَّخَرِ والْمُؤَجَّلِ إلى يومِ القيامةِ، فالثّمَرةُ مِنْ شأنِها أنْ تَظهَرَ في حياةِ العبدِ نَتيجةً لأعمالِه الصّالِحَةِ، وهي مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ صلاحِ تلكَ الأعمالِ، وقد ظَهَرَتْ بِنَتائِجِها وآثارِهَا.

– والمعنى الذي تَدُورُ عليه هذه الحكمةُ: هو أنّ العملَ الصالحَ الذي يَتقرّبُ به العبدُ إلى اللهِ عزّ وجلّ، قد يكونُ مَقْبُولاً عندَه، وقد لا يكونُ مَقبولاً، وقد قال اللهُ تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ)، وقال سبحانَه عنْ أقوامٍ عَمِلُوا الصالحاتِ بِحَسْبِ الظّاهِرِ: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا).

ولذا فقد كانَ مِنَ شأنِ الصالحينَ مِنْ عِبادِ اللهِ، إذا وُفّقُوا لطاعةٍ تَقَرّبُوا بها إلى اللهِ؛ أنْ يَتَقلّبُوا في هَمٍّ وَاصِبٍ، مِنِ احتمالِ أنْ تكونَ طاعاتُهم مَردُودةً عليهم، وأنْ يَتطلّعُوا إلى القَرائِنِ التي تُطَمْئِنُهُم إلى قَبُولِ اللهِ لهَا.

– فابنُ عطاءِ اللهِ يُلفِتُ النَّظرَ في ذلكَ إلى قَرِينةٍ إنْ وُجِدَتْ، دَلَّتْ على قَبُولِ اللهِ لهَا، وهي أنْ يَجِدَ العبدُ ثَمَرَةَ طاعتِه عاجلاً أيْ في الحياةِ الدنيا، بل رُبّما أثناءَ تلبُّسِه بتلكَ الطاعةِ.

– فوُجدانُ الحلاوةِ واللّذَةِ في الطاعةِ علامةٌ على وُجُودِ القَبُولِ المُقتَضِي لِوُجُودِ الرِّضا والجَزاءِ، ولذلكَ قال الحسنُ رحمه الله: "تَفَقَّدُوا الحَلاوَةَ في ثَلاثٍ، فإنْ وَجَدْتُموها فأبْشِرُوا، وامْضُوا لِقَصْدِكُم، وإنْ لم تَجِدُوها فاعْلَمُوا أنَّ البَابَ مُغلَقٌ: عندَ تِلاوَةِ القُرآنِ، وعندَ الذِّكْرِ، وعندَ السُّجُودِ".

– وقد تكونُ الثَّمَرةُ مَعْنىً آخَرَ وهو وُجُودُ الحياةِ الطَّيِّبَةِ، وسُقوطُ الخوفِ بالنّظَرِ إلى الحَقّ دونَ سِواهُ، ووُجُودُ الكِفايَةِ والرِّضَى والقَناعَةِ، ومثلُ هذهِ المعاني القَلْبِيّةِ.

– وفي فائدةِ ظُهورِ هذه الثَّمَرةِ: تَنْفِيسُ القلبِ، وتَروِيحُ النَّفْسِ بوُجُودِ التّبشِيرِ، حتى يَذْهَبَ القَلَقُ عنِ الخَائِفِ، ويَتأَكَّدَ الظَّنُّ الحَسَنُ عندَ الرَّاجِي.

وكذلكَ وُجُودُ التّنْشيطِ للعملِ، لاسْتِشعارِ النّفْسِ أنّها قادرةٌ على أنْ تَرْقَى لِأَعْظَمَ مِنْ ذلكَ، وأيضاً تُفِيدُ تَعْرِيفَ مِنَّتِهِ سبحانَه وتعالى باسْتِشعارِ قُرْبِهِ وكَرامَتِهِ.

45) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ، فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ.

– إذا أردتَ أنْ تَعرفَ قدْرَكَ ومَنزِلتَكَ عندَ اللهِ، فانْظُرْ على أَيِّ حَالٍ أقامَكَ.
وهذا المعنى جاءَ مُوافِقاً لحديثِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمْ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ؛ فَلَيَنْظُرْ مَا للهِ عِنْدَهُ". صحيح الجامع. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ بِلَفْظِ: "مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْينْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللهِ عِنْدَهُ فإِنَّ اللهَ يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ".
– فإنْ أقامَكَ في الطاعةِ، بأنْ يُعِينَكَ عليها بوجُودِ الثَّمَراتِ، فقدِ اعْتَنى بوُجُودِكَ، وإنْ أقامَكَ في غيرِ ذلكَ فقدْ أهْمَلَكَ.
– فالمَنازلُ على قَدْرِ مَراتِبِ النّازِلِ، فإنْ وَجّهَكَ للدنيا فقدْ أهَانَكَ، وإنْ شَغَلَكَ بالخَلْقِ فقدْ صَرَفَكَ، وإنْ وَفّقَكَ لِلْعَملِ فقدْ أعانَكَ، وإنْ فَتَحَ لكَ في العِلْمِ فقدْ أرَادَكَ، وإنْ فَتَحَ لكَ باباً إلى مُناجاتِهِ فقدْ قَرّبَكَ، وإنْ واجَهَكَ بالبلاءِ فقدْ هَذّبَكَ، وإنْ صَرَفكَ عنِ الأغْراضِ فقدْ أدَّبَكَ، وإنْ رَضِيتَ بهِ ورَضِيتَ عنهُ فقدْ فَتَحَ لكَ بابَ الرِّضَى منهُ، وهو أعْظَمُ الأبْوابِ وأتَمُّهَا وأكْمَلُهَا.
– واللهُ عزّ وجلّ يُنْزِلُ العبدَ منهُ حَيْثُ أنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَمَنْزِلَةُ اللهِ عِنْدَ العَبْدِ في قلبِه، على قَدْرِ مَعْرفَتِه إيّاهُ، وَعِلْمِه بِهِ، وهَيْبَتِه وإجْلالِه وتَعظِيمِه، وَالْحَيَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ، والوَجَلِ عِنْدَ ذِكْرِه، وإقامَةِ الْحُرْمَةِ لأمرِه وَنَهْيِه، وَقَبُولِ مِنّتِه، ورُؤيةِ تَدْبيرِه، وَالْوُقُوفِ عِنْد أَحْكَامِه بِطِيبِ نفْسٍ وَتَسْلِيمٍ لَهُ، وَلُزُومِ ذكرِه، وَحُسْنِ الظَّنِّ به فِي كُلِّ مَا نَابَهُ.

– قال الفضيلُ رحمه الله: "إنّما يُطِيعُ العبدُ ربَّهُ على قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ منهُ".

– وقال ابنُ القيّمِ في كتابِ الفوائد: "مَنْ أرَادَ مِنَ العُمَّالِ أنْ يَعْرِفَ قَدْرَهُ عِندَ السُّلطانِ فَلْيَنْظُرْ ماذا يُوَلِّيهِ مِنَ العَمَلِ، وبِأَيِّ شُغْلٍ يُشْغِلُه".

– أمّا إنْ نَظَرْتَ إلى نَفْسِكَ، فَرأيْتَها مَحْجُوبةً عنْ شَمْسِ الهِدايةِ، غارِقةً في الظُّلُماتِ، تَسْتَثْقِلُ الطاعةَ والتّذكرةَ، تَتقَلّبُ في الدنيا وزِينَتِها وشَهواتِها، ونَظَرْتَ إلى سُلُوكِكَ فرَأيْتَ نَفْسَكَ في أوْدِيَةِ المعاصِي والآثامِ، شارِداً عنْ ساحةِ العباداتِ والطاعاتِ، لا تَأْلَفُها ولا تَرْكَنُ إليها، فاعْلَمْ إذنْ أنّ هذا هو عُنوانُ مَنزلتِكَ عندَ اللهِ، وإنْ طالَ بكَ الوضعُ على هذهِ الحالِ فإنّما هو نَذِيرُ شَقاءٍ دائمٍ لا مَرَدَّ لهُ ولا رُجُوعَ عنه.

فإنْ كانتْ نَفْسُكَ عَزِيزةً عليكَ، فَتَدارَكْ شأْنَكَ، وادْخُلْ على اللهِ مِنْ بابِ الفَاقَةِ والذُّلِّ، واشْكُ إليهِ حالَكَ، واعْتَذِرْ إليهِ بِعَجْزِكَ، واطْلُبْ عَوْنَهُ وهِدايَتَه، فإنْ صَدَقْتَ في رُجُوعِكَ فَحاشاهُ سبحانَه وتعالى أنْ يَطْرُدَكَ عنْ أبوابِ رحمتِه الْمُفَتَّحَةِ أمامَ سائِرِ العِبادِ، وعِندئذٍ يَسْتَجِيبُ دُعاءَكَ ويَقْبَلُ رَجاءَكَ ويَتُوبُ عليكَ.

46) مَتى رزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنى بِهِ عَنْهَا، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً.

– وهذه مِنْ أكْبَرِ العَلامَاتِ على رِفْعَةِ القَدْرِ عندَ اللهِ.

– والغِنَى بهِ تعالى عنِ الطّاعةِ: هو أنْ تَعْمَلَ للهِ، لا لِشيءٍ، ولا تَرى لِنَفْسِكَ نِسْبَةً في نَفْيِ شَيءٍ أو وُجُودِ شَيءٍ.

– وأسْبَغَ وأكْمَلَ عليكَ نِعَمَهُ ظاهِرَةً بوُجُودِ الْمَنافِعِ لكَ وهي امْتِثالُ أمْرِه، وباطِنَةً بِرَفْعِ مَنْزِلَتِكَ بِالإعْرَاضِ عنْ ما سِوَاهُ.

– رُوِيَ عنْ عليٍّ رضي الله عنه أنّه قال: "مَنْ أرَادَ الغِنَى بِغَيْرِ مَالٍ، والعِزَّ بِغَيْرِ عَشِيرَةٍ، فَلْيَنْتَقِلْ مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إلى عِزِّ الطّاعَةِ".

– فإذا وُفّقَ العبدُ لأَدَاءِ الطاعةِ الْمُوافِقَةِ لِلْكِتابِ والسُّنّةِ، فالْمَطْلُوبُ منهُ عندئذٍ أنْ لا يُعلّقَ آمَالَهُ إلّا بِمَغْفِرَةِ اللهِ وعَفْوِهِ وَجُودِهِ وفَضْلِهِ وكَرَمِهِ.

– قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ). المؤمنون 60.

أيْ إنّهم يُؤَدُّونَ ما افْتَرَضَهُ اللهُ عليهِم مِنَ الطّاعاتِ وأعْمَالِ البِرّ، وهم خائِفُونَ وَجِلُونَ أنْ لا يَتَقَبّلَ اللهُ منهم، وأنّ ذلكَ لا يُنْجِيهِم مِنْ عذَابِ اللهِ.

قال الحسنُ: "عَمِلُوا لِلّهِ بالطّاعاتِ، واجْتَهَدُوا فيها، وخافُوا أنْ تُرَدَّ عليهِم".

فلم يُقِيمُوا لِطاعاتِهِم وَزْناً ولم يُعلّقُوا بها لأنْفُسِهِم آمالاً.

– فالمسلمُ لا يَتَحرّرُ مِنْ رِبْقَةِ التّقصِيرِ في حَقِّ مولاهُ، مهما أطاعَ اللّهَ فيما أمَرَ، ومهما ابْتَعَدَ عمّا نَهى وحَذّرَ، بلْ إنَّهُ في قُرُباتِه التي يُؤَدِّيها يَزدادُ وُقُوعاً تَحْتَ أعْباءِ الْمِنَنِ الإلهيةِ، إذْ وَفّقَهُ اللّهُ إليها وأقْدَرَه على أدَائِها، وشَرَحَ صَدْرَه للثّباتِ عليها.

– إذنْ فالمطلوبُ مِنَ العبدِ أنْ يَنْهَضَ بأدَاءِ الطاعاتِ، ثمّ أنْ يُوجّهَ آمَالَهُ إلى رحمةِ اللهِ ومغفرتِه وعَفْوِه، دونَ أنْ يُقِيمَ لطاعاتِه وَزْناً.

– وقد مرَّ معنا حديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أحَدًا عَمَلُهُ قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ منه برَحْمَةٍ".

– وقد قالَ أحَدُ العُلَمَاءِ: "إذا سَمِعْتَ نِداءَ اللهِ يأمُرُكَ أو يَنْهاكَ، فاعْلَمْ بأنّكَ مَوْجُودٌ ومُكَلّفٌ، وبادِرْ إلى تَنفيذِ ما قد أمرَكَ به ونَهاكَ عنه، فإذا نَفَّذْتَ وأطَعْتَ، فاعْلَمْ بأنّكَ لا شَيءَ، وأنَّ اللّهَ هو المُتَفَضِّلُ بذلكَ عليكَ، وهو الخالقُ لِفعلِكَ".

– أسْبَغَ عليكَ نِعَمَهُ الظاهِرَةَ، لأنّهُ وَفَّقَكَ لِطَاعاتِه، والامْتِثالِ لِشَرعِه وأحْكَامِه، وأسبغَ عليك نِعَمَهُ الباطِنَةَ، لأنّهُ أغْناكَ بهِ عنها، أيْ أغْناكَ بالاعْتِمادِ على صَفْحِهِ عنْ تَقْصِيرِكَ، ومَغْفِرَتِه لِأَخْطائِكَ، وبِأَمَلِكَ في وَاسِعِ رَحمتِه عنِ الاعْتِمادِ على ما قدْ تَفَضّلَ بهِ عليكَ مِنَ التّوْفِيقِ لِطاعاتِهِ.

47) خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ.

– أي خيرُ شيءٍ تطلبُه مِنَ اللهِ تعالى ما هو طالبُه منكَ من الاستقامةِ على سَبيلِ العُبوديّةِ له، فإنّ هذا خيرٌ لك مِنْ طَلبِكَ لحظُوظِكَ ومُراداتِكَ وما ترغبُ بهِ نفسُك، ولأنّه لم يَطلبْهُ منكَ إلّا لأنّه أنفعُ الأشياءِ لكَ.

– والذي هو طالبُه منكَ ثلاثٌ:

أوّلُها: تَخْلِيَةُ قَلبِكَ عمّنْ سِواهُ حتى لا يطّلعَ على حُبِّ شيءٍ فيه دونَه.

والثاني: تَحْلِيَةُ جوارحِكَ بالتقوى حتى لا يَراكَ حيثُ نَهاكَ ولا يفْقِدَكَ حيثُ أمَرَكَ.

والثالثُ: تَزيينُ أوقاتِكَ بالعُبودية، بحيثُ تَسْتَغْنِي به في مُعاملتِه ومَحبّتِه عن كلِّ عِوَضٍ وغَرَضٍ مع المُلازَمَةِ والدَّوامِ.

– فما يَطلبُهُ منك: الطاعةُ والغِنى به عنها، وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: الصّدقُ في العبوديةِ والقيامُ بحقِّ الربوبيةِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: امتثالُ أَمْرِهِ والاستسلامُ لِقَهرِهِ.

– رُوِيَ من دعاءِ أبي القاسمِ الجُنيدِ رحمه الله: "اللهمَّ إنِّي أسألُكَ منكَ ما هو لكَ، وأستعيذُ بكَ مِنْ كلِّ أمرٍ يُسخِطُكَ، اللهمّ لا تُشغِلْني بشُغْلِ مَنْ شَغَلَهُ عنكَ ما أرَادَهُ منكَ إلّا أن يكونَ لكَ".

– ومن دعائِه أيضاً رحمه الله: "اللهمَّ وكُلُّ سُؤالٍ سَأَلْتُكَ فعنْ أمْرِكَ لي بالسُؤالِ، فاجعلْ سُؤالي إليكَ سُؤالَ محابِّكَ، ولا تجعلْني مِمَّنْ يَتعمّدُ بِسُؤالِه مواضِعَ الحُظوظِ، بل يَسألُ القيامَ بواجبِ حقِّكَ".

– ولا يَتنافَى هذا مع سُؤالِ اللهِ حَوائجَ الدنيا والآخرَةِ كلِّها، فالكلامُ هنا عنِ الخَيريّةِ في الطّلبِ لا على مَنْعِ الطّلَبِ، وقد رُوِيَ عن بعضِ السّلفِ أنّه كانَ يَسْتَحِي أن يَسأَلَ اللهَ شيئاً من مَصالحِ الدنيا، وهذا من اتّباعِ الخيريّةِ في الطّلبِ والزُّهدِ في حَوائجِ الدنيا. ولكن لا يُعَدُّ سُؤالُ اللهِ الحوائِجَ المُباحةَ كلَّها نقصاً ولا مخالفةً ولا سُوءَ أَدَبٍ مع اللهِ.

وقد جاءَ في الحديثِ القُدُسيّ مِنْ قولِ اللهِ تباركَ وتعالَى: "يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ". صحيح مسلم.

– يقولُ ابنُ رَجَبٍ في (جامع العلوم والحكم): وفي الحديثِ دَليلٌ على أنّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يَسأَلَهُ العبادُ جَميعَ مَصالحِ دِينهِم ودُنياهُم مِنَ الطّعامِ والشّرابِ والكِسوةِ وغيرِ ذلك، كما يَسألُونَه الهدايةَ والمغفرةَ، وفي الحديثِ: "لِيَسْأَلْ أحدُكُم ربَّهُ حاجَتَهُ كلَّها حتى شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ"، وكانَ بعضُ السّلَفِ يَسألُ اللهَ في صَلاتِهِ كلَّ حوائِجِه حتى مِلْحَ عَجِينِه وعَلَفَ شاتِه، وفي الإسرائيلياتِ: أنّ مُوسَى عليه الصلاةُ والسّلامُ قالَ: يا رَبِّ، إنّهُ لَيَعْرِضُ لِي الحاجةُ مِنَ الدنيا فَأَسْتَحِي أنْ أَسأَلَكَ. قالَ: "سَلْنِي حتى مِلْحَ عَجِينِكَ وعَلَفَ حِمارِكَ". فإنَّ كلَّ ما يحتاجُ العبدُ إليه إذا سَأَلَهُ مِنَ اللهِ فقد أَظْهَرَ حاجَتَه فيه وافْتِقارَهُ إلى اللهِ، وذاك يُحِبُّهُ اللهُ.

- وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: "سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيءٍ حَتَّى الشِّسْعَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِن لَمْ يُيَسِّرهُ لَمْ يَتيَسَّرْ".

- قال عُروةُ بنُ الزُّبيرِ رضي الله عنه: "إِنِّي أَسْأَلُ اللهَ في صَلَاتِي، حتّى أَسْأَلُهُ المِلْحَ إلى أَهْلِي".

- وإن كانَ الأَوْلَى بالمؤمنِ ألّا يَحْرِصَ على مَتاعِ الدنيا الزّائِلِ، وأن يكونَ هَمُّه ما عندَ اللهِ مِنْ نَعيمِ الجنّةِ، وإنْ سَألَ شيئاً مِنْ غِنَى الدنيا ونَعيمِها فَيجبُ أن يُقَيّدَه بالنّعيمِ النّافِعِ الذي لا يُطْغِي ولا يُنْسِي حُقوقَ الآخرَةِ، وانظرْ أخي حالَ مَنْ قَصَّ اللهُ علينا شَأْنَه في القرآنِ الكريمِ، يقولُ تعالَى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). التحريم 11.

- وأنْ يَعْلَمَ العَبْدُ أنَّ اللهَ تعالَى لا يَختارُ لِعَبْدِه المؤمنِ إلّا الخيرَ؛ وهكذا يَنْبَغِي أن يكونَ مُرادُه مِنَ الدعاءِ بشيءٍ مِنَ الدنيا: أنْ يُقَدِّرَ اللهُ تعالَى له الخيرَ حيثُ كانَ، وأن يَرزُقَهُ الرِّضا بما قَضَى له وقَدَّرَ؛ سَواءٌ أكانَ الخيرُ في قضاءِ حاجتِه وتَعجيلِها، أو في حَبْسِها عنه، وادِّخارِها له عندَه سبحانَه.

48) الحُزْنُ عَلَى فُقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْها مِنْ عَلَامَاتِ الاغْتِرَارِ.

– الحُزنُ وانقباضُ القلبِ لفقدِ مقصودٍ ما، إنْ أفادَ عملاً صحيحاً ونهوضاً لاستدراكِ الفوتِ كان حسناً جميلاً، وإلّا كانَ صاحبُه مُغْتَرّاً بنفسِه في مَحبّةِ الطاعةِ، لأنّ كلَّ راجٍ طالبٌ، وكلَّ خائفٍ هاربٌ.

فمَنْ لم يقْطَعْ بحُزنِه شيئاً فليس حُزنُه بمُعتَبرٍ. فليسَ المرادُ حُزنَ القلبِ وتوهّجَ اللُّبِّ، وإنّما المرادُ اتّباعُ الأمرِ والاستسلامُ للقهْرِ.

– فالحُزنُ الكاذبُ الذي يكون معه البكاءُ الذي كما قيل: "كم مِنْ عَيْنٍ جاريةٍ وقلبٍ قاسٍ"، وهو مع هذا الحزنِ آمِنٌ مِنْ مَكرِ اللهِ الخَفِيّ، حيثُ مَنَعَهُ ما يَنفعُه، وأعطاهُ ما يَغترُّ به من الحزنِ والبكاءِ.

أمَّا الحزنُ الصّادقُ الذي يَصدرُ من قلبٍ وَجِلٍ فهو الحزنُ الذي يَبعثُ على النُّهوضِ إلى الطاعاتِ على كلِّ حالٍ.

وقيل: الحزنُ إذا فُقِدَ من القلبِ خَرِبَ، ومَنْ لم يَذُقْ طعمَ الحزنِ لم يذُقْ لذّةَ العبادةِ.

– يقول أبو سُليمانَ الدّارانيُّ رحمه الله: "ليسَ البُكاءُ بتعصيرِ العُيونِ، إنّما البكاءُ أنْ تَتْرُكَ الأمرَ الذي تَبكِي عليه".

– قال بعضُ السلفِ: "إِنِّي أدخلُ الصّلاةَ فأَحْمِلُ هَمَّ خُروجِي منها، ويَضِيقُ صَدْرِي إذا عَرَفْتُ أَنِّي خارجٌ منها".

ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "جُعِلَتْ قُرّةُ عَينِي في الصّلاةِ".

فمَنْ كانتْ قُرّةُ عينِه في شيءٍ؛ فإنّه يَوَدُّ أنْ لَا يُفارِقَه، ولا يَخْرُجَ منه؛ فإنّ قُرّةَ عَيْنِ العبدِ: نَعِيمُه، وطِيبُ حياتِه به.

وقال بعضُ السّلفِ: "إنِّي لَأَفْرَحُ بِاللّيلِ حينَ يُقْبِلُ، لِمَا يلَذُّ به عَيْشِي، وتَقَرُّ به عَيْنِي، مِنْ مُناجاةِ مَنْ أُحِبُّ، وخَلْوَتِي بِخدمَتِه، والتَّذَلُّلِ بينَ يديه. وأَغْتَمُّ لِلْفَجْرِ إذا طَلَعَ، لِمَا أَشْتَغِلُ به بِالنّهارِ عن ذلك".

– يقولُ ابنُ القيّمِ رحمه الله: "ولا يزالُ السّالِكُ عُرضَةً للآفاتِ، والفُتورِ والانتكاسِ، حتى يَصِلَ إلى هذه الحالَةِ، فحينئذٍ يَصيرُ نَعيمُه في سَيْرِه، ولَذّتُه في اجتهادِه، وعذابُه في فُتورِه ووقُوفِه، فتَرى أشدَّ الأشياءِ عليهِ، ضَياعَ شيءٍ من وقتِه، ووقوفَه عن سَيْرِه، ولا سَبِيلَ إلى هذا؛ إلّا بالحُبِّ الْمُزعِجِ".

– إنَّ حُزنَ المسلمِ وتَألُّمَه على فَواتِ طاعةِ اللهِ عليه، دَليلٌ على أنّ قلبَه حَيٌّ، وحياةُ هذا القلبِ، مع مُجاهدَةِ النّفْسِ، والاستعانةِ باللهِ عزّ وجلّ، سَتَجْعَلُه يَحرِصُ في قَادِمِ أيّامِه على عَدمِ فَواتِ الطّاعاتِ عليه، ومَنْ صَدَقَ أعانَه اللهُ.

– وبمقدارِ قُوّةِ الإيمانِ يَشتدُّ حُزنُ الإنسانِ على فَواتِ الطّاعةِ، وضَعِيفُ الإيمانِ تَفُوتُ طاعَتُه ولا يَتأَثّرُ، (تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ). التوبة 92.

49) الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ.

– وفي هذا المعنى ما رُواهُ أبو يَعْلَى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيّ ﷺ قَالَ: "الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ". رواه التِرْمِذيُّ وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ.

– ورُوِيَ عن الحسنِ البصريِّ رحمه الله أنه قال: "ليسَ الإيمانُ بالتَّمَنِّي، ولا بِالتَّحَلِّي، ولكنْ مَا وَقَرَ في القلبِ، وصَدَّقَهُ العَمَلُ، وَإِنَّ قَوْمَاً خَرَجُوا من الدُّنْيَا وَلَا عَمَلَ لَهُم؛ وَقَالُوا: نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ؛ وَكَذَبُوا، لَو أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا العَمَلَ".

وقال أيضاً رحمه الله: "يا عبادَ اللهِ؛ اتَّقُوا هذِه الأَمَانِيَ فَإِنَّها أَوْدِيَةُ النَّوْكَى (العجزة والحمقى) يَحُلُّونَ فِيها، فواللهِ ما آتَى اللهُ عَبْداً بأَمَانِيِّهِ خيراً في الدنيا والآخرةِ".

– يقولُ أحمدُ زروق رحمه الله: والأمنيةُ موتٌ، إذ هي تُوجبُ تعطيلَ الحياةِ والبعدَ من حصولِ الأغراضِ، وقد رأيتُ ليلةً سيدي أبا عبدِ اللهِ القُوريَّ رحمهُ اللهُ في الْمَنامِ وأنا أَقْرَأُ عليهِ هذه الحِكْمةَ، فكُلَّما قُلْتُ: أُمنيةٌ، قال: أو مَنِيَّةٌ، فلمّا انتبهتُ تأمَّلْتُ كلَامَه فإذا هو عَيْنُ الحقِّ، وأنّ الأُمْنيةَ لِصاحِبِها مَنِيَّةٌ لأنَّها تَقْطَعُه عن فوائدِ الحياةِ.

– قال ابنُ عَجِيبةَ: فَمَنْ رَجَا أنْ يُدْرِكَ النّعِيمَ الحِسّيَ كالقُصُورِ والحُورِ فعليهِ بالجِدِّ والطاعةِ والمسارعةِ إلى نوافلِ الخيراتِ، وإلّا كانَ رجاؤُهُ حُمْقاً وغُروراً، وقد قال معروفٌ الكَرْخِيُّ رحمه الله: "طلبُ الجنّةِ بلا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ، وارْتِجَاءُ المغفرةِ بلا سَبَبٍ نَوعٌ مِنَ الغُرُورِ، وارتجاءُ رحمةِ مَنْ لا يُطاعُ حُمْقٌ وجَهْلٌ".

– فالفرقُ بين الرّجاءِ والأُمنيةِ وجودُ العملِ في المطموعِ فيه وفَقْدُه، فالرجاءُ طمعٌ يصحبُه عملٌ في المطموعِ فيه لتحصيلِه، والأُمنيةُ طمعٌ تَجَرّدَ عنِ العملِ في أسبابِ التحصيلِ.

– وكتبَ أبو عُميرٍ المنصوريُّ إلى بعضِ إخوانِه: "أمّا بعدُ، فإنّكَ أصبحْتَ تأْمَلُ طُولَ عُمُرِكَ، وتتمنّى على اللهِ الأماني بسُوءِ فِعلِكَ، وإنّما تَضرِبُ حَديداً بارِداً".

– فالرجاءُ مِنْ مَقاماتِ اليَقِينِ، وهو يَبعثُ على الاجتهادِ في الأعمالِ، لأنّ مَنْ رجَا شيئاً طلَبَهُ، ومَنْ خافَ مِنْ شيءٍ هَرَبَ منه، وأمّا الرجاءُ الكاذبُ الذي يُفَتِّرُ صاحبَه عن العملِ، ويُجَرِّئُهُ على المعاصِي والذنوبِ فليس هذا بِرَجاءٍ، ولكنَّهُ أُمنيةٌ، واغترارٌ باللهِ تعالَى.

50) مَطْلَبُ العَارِفِينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّةِ، وَالقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

– لَمّا حضَّ على طَلَبِ خيرِ المطالبِ في الحكمةِ التي قالَ فيها: "خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ"، عَيَّنَ هنا خيرَ المطالبِ: الصّدقُ في العبوديةِ، والقيامُ بحقوقِ الرّبوبيّةِ. وفي هذا غايةُ ما يُطْلَبُ وأعظمُ ما يُقْصدُ.

– إنّ توحيدَ الرُّبوبيةِ هو اعترافٌ بسيادةِ اللهِ على الكونِ والخلقِ أجمعينَ، اعترافاً يَتضمّنُ الرّضَى بهِ ربّاً وسيّداً، والإيمانُ بما له تعالى مِنْ صفاتِ الجمالِ والجلالِ. فربُوبيّتُه سبحانَه إنّما تُعرفُ مِنْ خِلالِ صِفاتِه تعالى؛ ولذلكَ فقد سمّى عزّ وجلّ نفسَه بأسمائِه الحُسنى، وطلبَ مِنّا إحصاءَها والدعاءَ بها؛ أيْ أنْ نُوَحّدَهُ في إلهيتِهِ تعالى بها، وذلك بابُ العبوديّةِ. ومِنْ هنا كانَ توحيدُ الألوهيةِ مَوصُولاً بتوحيدِ الرّبوبيّةِ.

– يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: "كمالُ المخلوقِ في تَحقيقِه عُبوديّتَه للهِ، وكُلّما ازْدادَ العبدُ تَحقِيقاً للعُبوديةِ ازْدادَ كمالُه، وعَلَتْ دَرَجتُه".

– ولأجلِ هذا كانَ مَطلبُ العارفِينَ إنّما هو التّحَقُّقُ بالعبوديةِ لمولَاهُم بالتّحَرُّرِ مِنْ رِقِّ هَواهُم، والقيامُ بوظائِفِ الرُّبُوبيةِ بالأدَبِ والتّعظيمِ والإجْلَالِ لمولَاهُم، وهما مُتلازِمانِ؛ فما تَحقّقَ الصّدقُ في العُبوديّةِ إلّا حَصلَ القيامُ بوظائفِ الرُّبوبيّةِ، فإنَّ النّفْسَ إذا ماتَتَ بِتَرْكِ حُظُوظِها حَيِيَتِ الرُّوحُ، وإذا حَيِيَتِ الرُّوحُ عَرفَتْ،

وإذا عَرفَتْ أَذْعَنَتْ وخَضَعَتْ لِهَيْبَةِ الجلالِ، وهذا هو القِيامُ بحقوقِ الربوبيةِ، وهو مُراد العارفينَ ومَقصودُ السّائِرينَ ومَحَطُّ نَظَرِ القاصِدِينَ والطّالِبِينَ.

– إنَّ كُلَّ مُسلمٍ صادقٍ في إسلامِه، لابُدَّ أن يكونَ مُوقِناً بكونِه عبدًا للهِ. إذْ لا يَتأتَّى له أن يَعبدَ اللهَ بتنفيذِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيه، إلّا بعدَ أن يَعلمَ أنّه عبدٌ للهِ عزّ وجلَ، أي إنَّ أداءَ المسلمِ للفرائضِ التي كلّفَهُ اللهُ بها في مثلِ قولِه عزّ وجلّ: {وما أُمروا إلاَّ لِيعبدُوا اللَّه مُخلصينَ لهُ الدين حُنفاء}، فَرْعٌ عن يَقِينِه أنّه عَبدٌ للهِ عزّ وجلّ، فهذا جامِعٌ مُشتَرَكٌ بين المسلمينَ كلِّهم ما دامُوا صادقينَ في إسلامِهِم.

– ثمّ إنّهم يّتفاوتُونَ في مَدى سُلطانِ هذه العبوديةِ عليهِم، وفي مَدى قِيامِهِم بِحُقوقِها، حَسَبَ ما يَتفاوتُونَ به، مِنْ شُهودِهم للهِ، ومن مَدى حُضورِ صِفاتِ اللهِ تعالَى في أفكارِهِم ومَدى تَجَلّياتِها على قلوبِهم، فأقلُّ هذه المراتبِ ألَّا يُشركَ المسلمُ بعبادةِ ربِّه أحداً، بأنْ يَتنزّهَ عنِ الشّرْكِ الظاهرِ المتمثِّلِ في اتّخاذِ شَريكٍ أو شركاءَ مع اللهِ، وبأن يَتنزّهَ عنِ الشركِ الباطنِ بأن يَتجنّبَ الرّياءَ ويجعلَ عملَه خالصاً للهِ، وأعْلَى هذه المراتبِ ألَّا يَقْصِدَ المسلمُ من عِباداتِه إلّا أداءَ حَقِّ العبوديةِ للهِ في عُنُقِه، دونَ أن يَطمعَ في أجرٍ ما عليها، إذِ الأجيرُ إنّما يَستحْسِنُ أجرَه على العملِ، فلولا الارتباطُ بالأجرِ لَمَا وجَدَ الأجيرُ ما يَدعُوه إلى النّهوضِ بعملٍ ما لإنسانٍ مثلِه ليسَ له أيُّ سُلطانٍ ذاتِيّ عليه، والعملُ الذي يُؤدِّيه العبدُ للرّبِّ أبْعَدُ ما يكونُ عن الدخولِ في هذا النّوعِ المألوفِ من أعرافِ الاستئجارِ، وقوانينِها بين الناسِ بعضِهم مع بعضٍ.

إذِ العبدُ مملوكٌ للهِ عزّ وجلّ، ومملوكيتُه له تَستدعِي أن يكونَ قائماً بأمرِهِ خاضعاً لحُكْمِه، وليس للمملوكِ أن يُطالبَ مالِكَه على خَدماتِه له بأيِّ أجرٍ ممّا من شأنِ الناسِ أن يَتعاقَدُوا فيما بينهم عليه. ورَحِمَ اللهُ مَنْ قالَ: "العبدُ وما مَلَكَتْ يَداهُ مُلْكٌ لِسَيِّدِه".

– فهذا هو مرادُ ابنِ عطاءِ اللهِ بِصدقِ العبوديةِ. فالذي يُطِيعُ اللهَ بِدَافِعَيْنِ اثنينِ: أداءِ حَقِّ الربوبيةِ، والوصولِ إلى المبتغياتِ والحُظوظِ النّفْسِيّةِ، لا تَخلُو عبادَتُه من شائِبَةِ شِرْكٍ، ومِنْ ثَمَّ فهو لم يَرْتَقِ بعدُ إلى المقامِ الذي يُعَبّرُ عنه قولُ اللهِ تعالى: {وما أُمرواُ إلاَّ ليعبدوا اللهَ مُخلصينَ له الدِّين} البينة 5، وقولُه تعالى: {ولَا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً} الكهف 26.

– ولا يُوهِمَنّكَ هذا، أنَّ مُقتضَى عبوديةِ الإنسانِ للهِ أنْ لا يَطلبَ منه جَنّةً ولا يَستعِيذَ به من نَارٍ، فإنَّ العبدَ فَقِيرٌ دائماً إلى مولاه، ومِنْ ثَمَّ فشأْنُه الطّلبُ والاستجداءُ، لا سِيَّمَا عندما يَعلمُ الكثيرَ من كَرمِ مولاهُ وجُودِه وواسِعِ مَنِّهِ وفَضْلِه.

– ولكنَّ العبدَ إذْ يَطلبُ ويَستجدِي، إنّما يَجعلُ مِنْ فاقتِه فقط شَفيعاً بين يدي استجدائِه، وهو مهما سَعَى في خِدمةِ مولاهُ وإنجازِ أوامرِه، لا يَرى أنّه أدَّى شيئاً مِنْ حُقوقِه المترتّبةِ عليه، فكيف يُطالبُه بالأجرِ على ما هو حَقٌّ لمولاهُ وليس حقّاً له؟

فهو إذْ يَطلبُ، إنّما يَطلبُ منه استجداءً، واسترحاماً بين يدي فاقتِه وحاجتِه، لا أجراً على حقٍّ ثَبَتَ له، تعالَى اللهُ عن ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً.

وقُصارَى ما تَطمحُ إليه أنظارُ العارفينَ وهِمَمُهُم، أنْ يُقْدِرَهُمُ اللهُ على مُمارسةِ عُبوديتِهِم لِذَاتِه العَلِيَّةِ بصدقٍ، خالصةً من شوائبِ الشركِ بأنواعِه كلِّها، ما خَفِيَ منها وما ظَهَرَ.

51) رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، ورُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ.

– وذلك بأنْ يَطوِي لكَ فيما يُعطيكَ ما يكونُ سببَ صرْفِكَ عن بابِه وإبعادِكَ عن جَنابِه، ويَطوِي لكَ فيما يمنعُكَ ما يفتحُ لكَ وُجوُدَ بابِه، فظاهرُ العطاءِ والمنعِ لا يُقْضَى بحقيقتِه.

– قال الله تعالى: (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا) الفجر 15، 16، 17. أيْ: ليسَ الأمرُ كما يقولُ الإنسانُ، بلْ قد يكونُ العطاءُ والإكرامُ إهانةً، وبالعكسِ.

– فوجبَ أنْ يكونَ الحذرُ في العطاءِ كالحذرِ في المنعِ، والبسطُ في المنعِ كالبسطِ في العطاءِ، والتوجّهُ له فيهما وبهما على حَدِّ السّواءِ، لاحتمالِ أن يكونَ ما ظهرَ مِنَ الفِعلِ غيرَ مفيدٍ لحقيقةِ المقصودِ، وقد يكونُ المرادُ منه ما ظهرَ فيه.

– فالمنعُ في العطاءِ بأنْ يكونَ صارفاً عن اللهِ تعالى ومُشغِلاً عنه، كما قيل: "كلُّ ما شَغَلَكَ عنِ اللهِ تعالى مِنْ أهلٍ ومالٍ ووَلَدٍ فهو عليكَ مَشؤومٌ".

– فَمَنْعُ اللهِ تعالى عبدَه من نَيْلِ شَهواتِه ولَذّاتِه، والحصولِ على شيءٍ من عاداتِه ورَغَباتِه عَطاءٌ جَزيلٌ منه سبحانه، لأنّه أبقاهُ معه، واقتطعَهُ عن حظوظِهِ وأغراضِه، وجَرّدَهُ منها، وعكسُ هذا هو المنعُ على التّحقيقِ، وإنْ كانَ عطاءً في الظاهرِ.

– فربّما أعطاكَ اللهُ سبحانه ما تَمِيلُ إليهِ نفسُكَ فمنَعكَ التوفيقَ والطاعةَ والإقبالَ عليه، وربّما منعكَ مِمَا تميلُ إليه نفسُكَ فأعطاكَ التوفيقَ والرِّضا والقَبُولَ.

– والغالبُ على النفسِ أن تَنبَسِطَ بالعطاءِ، وتَنقبِضَ بالمنعِ، لأنّ في العطاءِ مُتعتَها وشَهوَتَها، فلا جَرَمَ أنّها تَنبسِطُ بذلك، وفي المنعِ قَطْعَ مَوادِّها وتَرْكَ حُظوظِها، ولا شكَّ أنّها تَنقبِضُ بذلكَ، وذلكَ لِجَهْلِهَا بِرَبِّها، وعَدَمِ فَهْمِها، فلو فَهِمَتْ عنِ اللهِ، لَعَلِمَتْ أنّ المنعَ عينُ العطاءِ، والعطاءَ عينُ المنعِ.

– ثمَّ أنّ اللهَ سبحانه ربّما أعطاكَ عِزَّ الدنيا، ومنعَكَ عِزَّ الآخِرَةِ، وربّما منعَكَ عِزَّ الدنيا وأعطاكَ عِزَّ الآخِرَةِ، وربّما أعطاكَ التّعَزُّزَ بالخلقِ، ومنعَكَ من التّعَزُّزِ بالحقِّ، وربّما منعَكَ مِنّ التّعزُّزِ بالخلقِ، وأعطاكَ التّعزّزَ بالْمَلِكِ الحقّ. وما أَصْدَقَ قولَ اللهِ تعالى: (وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) البقرة 216.

فلا تأْمَنَنَّ عندَ إعطائِه مِنْ مَنْعِه، ولا تيأَسَنَّ عندَ مَنعِه مِنْ إعطائِه، ولا تَغْفَلَنَّ عَنِ اسْتدْراجِه، ولا تَقْطَعَنَّ رَجاءَكَ عنْ إِفْضالِه.

52) مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ هُوَ عَيْنُ الْعَطَاءِ.

- هذا الذي يَذْكُرُه ابنُ عطاءِ اللهِ هنا، مِثالٌ مِنَ الأمثلةِ على ما ذَكَرَهُ في الحِكْمَةِ السّابقةِ: "رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، ورُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ".

- يقول ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في كتابِ (التّنوير في إسقاطِ التّدبير): "مَنْ مُنِعَ وعَلِمَ أنَّ المنعَ إنّما هو إشفاقٌ عليهِ فهذا المنعُ في حَقّه عَطاءٌ".

- ويقول زرّوقُ الفاسيُّ رحمه الله: "فَتْحُ بابِ الفهمِ في المنعِ بثلاثةِ وجوهٍ: أحدُها: أن تَرَى ذلك (أي المنع) رحمةً بكَ مِنْ جهةِ ما يَلحقُه (أي العطاء) من الحقوقِ والكُلَفِ. الثاني: أن تَراهُ لُطْفاً بكَ مِنْ جهةِ ما يَتبعُه مِنَ الأنكادِ والكَدَرِ. الثالثُ: أن تُحقّقَ ذلك بوُجودِكَ بتحقُّقِكَ بِكَرمِه سبحانه وأنّه غَنِيٌّ عن عَذابِكَ وإعْدَامِكَ، فلم يمنعْكَ مِنْ بُخْلٍ ولا عُدْمٍ -حاشاهُ سبحانه- ولكنْ لِمَا عَلِمَ مِنْ مَصلحتِكَ، فَتَطِيبُ نَفسُكَ بذلك".

- ويقول: "وذلك أنّ العطاءَ فائدتَه تَبريدُ حُرقةِ الطّلبِ، أوِ الالْتِذاذُ بحُصولِ المطْلَبِ، وهما عند الفهمِ حاصلانِ بالرِّضى عن اللهِ مَرّةً، وبالاستسلامِ له أخرى، وبالرُّجوعِ إليه تارةً".

- ووجوهُ الفهمِ تتعدّدُ بحسَبِ الوقائعِ والفُتوحِ والبصائرِ والأصولِ المرجوعِ إليها، وأصلُها كلُّها العلمُ بكرمِه تعالى وغِناهُ ووُجُودِ حِكْمَتِه.

– وقد أشارَ إلى هذا المعنى أبو حَبِيبٍ البدويُّ في قِصّتِه مع سفيانِ الثوريّ رحمهما الله، قال سفيانُ: أتيتُ أبا حَبيبٍ البدويَّ أُسلِّمُ عليه، ولم أكُنْ رأيتُه، فقال لي: أنتَ سفيانُ الثوريُّ الذي يُقالُ؟ قلتُ: نعم، نسألُ اللهَ عزّ وجلّ برَكةَ ما يُقالُ، فقالَ لي: يا سُفيانُ، ما رأينا خيراً قطُّ إلّا مِنْ ربِّنا، فما لنا نكرهُ لِقاءَ مَنْ لم نرَ خيراً قطُّ إلّا منه؟ قلتُ: أجل. ثم قال: يا سفيانُ، منْعُ اللهِ إيّاكَ عطاءٌ منه لك، وذلكَ أنّه لم يمنعْكَ مِنْ بُخلٍ ولا عُدْمٍ، وإنّما منْعُه نظرٌ منه واختيارٌ، يا سفيانُ، إنّ فيكَ لَأُنْساً ومعكَ شُغُلاً، قال: ثم أقبلَ على غُنَيْمَتِه وترَكَنِي.

– ومتى فَتَحَ لكَ مولاكَ بابَ الفهمِ عنه في المنعِ، بأنْ فَهِمْتَ أنّه بمنْعِه أشهدَكَ قهرَه، وعرفْتَ حِكمَتَه فيه، عادَ المنعُ وصارَ عينَ العطاءِ، كما في قول ابنِ عطاءِ اللهِ في حكمةٍ لاحقةٍ: "متى أعطاكَ أشهَدَكَ بِرَّهُ، ومتى منعكَ أشهدَكَ قَهْرَهُ".

– فاللهُ سبحانه لا يمنعُ إلّا لحِكَمٍ لا تُحصى وفوائدَ لا تُقصى، وقد يكونُ المنعُ في حقِّكَ خيراً مِنْ إعطائِكَ، إذ بإعطائِه ربّما عنه ألْهَاكَ، وبِمَنْعِه إليه أَدْنَاكَ، فالفهمُ في هذا المقامِ من أَجَلِّ النِّعَمِ وأعْظَمِ المِنَنِ.

– فربّما دَبَّرْنَا أمراً ظَنَنّا أنّه لنا فكانَ علينا، وربّما أَتَتِ الفَوائدُ مِنْ وجُوهِ الشّدائدِ، والشّدائدُ من وجُوهِ الفوائِدِ، وربّما كَمَنَتِ المِنَنُ في المِحَنِ، والمِحَنُ في المِنَنِ، وربّما انْتَفَعْنا على أيدي الأعداءِ، وأُوذِينا على أيدي الأحِبّاءِ، وربّما تأتي المَسارُّ مِنْ حيثُ المَضارُّ، وقد تأتي المَضارُّ من حيثُ المَسارُّ.

- يقولُ بعضُهم: "اللهمَّ إنّا قد عَجِزْنَا عنْ دَفْعِ الضُّرِّ عن أَنْفُسِنا مِنْ حيثُ نَعْلَمُ بما نَعْلَمُ، فكيفَ لا نَعْجِزُ عن ذلك مِنْ حيثُ لا نَعْلَمُ بما لَا نَعْلَمُ؟".

- ومثالُ ذلك -وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى-: كَصَبِيٍّ رَأى طَعاماً حَسَناً أو حَلْوَى تَشتَهِيها نَفْسُه، وفيه سَمٌّ، وأَبُوهُ عَالِمٌ بِما فيه، فكُلّما أَرادَ الصّبِيُّ تناوُلَه رَدَّهُ أَبُوهُ، فالصَّبِيُّ يَبْكِي عليه لِعَدَمِ عِلْمِهِ، وأبُوهُ يَرُدُّهُ بِالقَهْرِ لوُجُودِ عِلْمِه، فلو عَقِلَ الصَّبيُّ ما فيه ما مَدَّ يَدَهُ إليهِ، ولَعَلِمَ نُصْحَ أَبيهِ وشِدَّةَ رَأْفَتِه بِه.

فالعبدُ يَرغَبُ فِي مَطالِبِ الدنيا وشَهَواتِهَا مِنْ مَلَذّاتٍ وسُلْطَةٍ ومَكانَةٍ وجاهٍ وأموالٍ ومَتاعٍ وغيرِ ذلك، ممّا قد عَلِمَ اللهُ ضَرَرَهُ له، فَيَمْنَعُه الحقُّ سبحانَه رَحمةً به وشَفَقَةً عليه واعْتِناءً به، فإذا فَهِمَ سَلّمَ الأمرَ إلى مولاهُ، ولم يَتّهِمْهُ فيما أبْرَمَهُ وقَضَاهُ، وإذا لم يَفهمْ ذلك تَحَسَّرَ وربّما سَخِطَ، وقد يَنْكِشُفُ سِرُّ ذلك له بعدَ زَمَنٍ، ولكنْ قد يكونُ فَاتَ أَجْرُ الصّبرِ عندَ الصّدمَةِ الأُولَى.

53) الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا.

- الأكوانُ: عبارةٌ عن كُلِّ مَوجُودٍ سِوى اللهِ سبحانه، وهي بِظاهِرِها فَوائِدُ ومَحاسِنُ ومَلاذٌّ ومَنافِعُ يَغْتَرُّ بها الجاهِلُ فَيَعْتَدُّ بها في أُمُورِه، ويَستنِدُ إليها في أحْوَالِه، وبباطِنِها ضَرَرٌ مَحْضٌ ونَقْصٌ صِرْفٌ وأَمْرٌ لا حَقِيقَةَ له، بل إنّما هي كما قِيلَ:

عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مُسْحَةٌ مِنْ مَلَاحَةٍ *** وَتَحْتَ الثِّيَابِ الْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِياً

فهي عِبرةٌ لِأُولي الأبْصَارِ، وتَذكِرَةٌ لِذَوِي النُّهَى والاعْتِبارِ، إذ يَرَوْنَ بها غِنَى مَولاهُم، وافْتِقارَ كُلِّ شيءٍ إليه، ونَقْصَ كلِّ شيءٍ دُونَه، فلا يُعَوِّلُونَ إلّا عليهِ، ولا يَلْتَفِتُونَ إلّا إليهِ، لِسُقُوطِ كلِّ شيءٍ مِنْ أَيْدِيهِم عندَ النَّظَرِ لِحَقِيقَتِه.

- قِيلَ لأبي عبدِ اللهِ بنِ شاطِرٍ: صِفْ لنا الدنيا، فقالَ: (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا). النور 39.

وكانَ السّلَفُ رضي الله عنهم إذا أَقْبَلَتْ قالوا: "ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ".

- وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: "يا ضَحَّاكُ ما طَعَامُكَ؟ قالَ: يا رَسُولَ اللهِ، اللَّحْمُ واللَّبَنُ. قالَ: ثُمَّ يَصِيرُ إلى مَاذَا؟ قالَ: إلى ما قَدْ عَلِمْتَ، قالَ: فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ ما يَخْرُجُ مِنْ بَنِي آدمَ مَثَلاً لِلدُّنيا".

رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب.

– فقد جعلَ اللهُ سبحانَه هذه الأكوانَ، وهي الدنيا وما اشْتَمَلَتْ عليه، ظاهِرَهَا فِتْنَةً وباطِنَهَا عِبرةً، فمَنْ وَقَفَ مع ظاهِرِهَا كانَ مَغرُوراً، ومَنْ نفَذَ إلى باطنِها كان عندَ اللهِ مَبروراً، فأهلُ الغفلةِ وقفوا مع مُتعةِ عاجلِها وبَهجةِ ظاهرِها، فغرّتْهُم بزُخرُفِها، وخَدَعَتْهُم بِغُرُورِها حتى أَخَذَتْهُم بغتةً، وأهلُ اليَقَظَةِ والحَزْمِ نَفَذُوا إلى باطِنِها فَعَرفُوا سُرعةَ ذَهَابِها وقِلّةَ بَقائِها، فاشْتَغَلُوا بِجَمْعِ الزّادِ، وتَأَهَّبُوا لِيَوْمِ الْمَعَادِ.

– خُلاصَةُ معنى الحِكْمَةِ: أنَّ الأكوانَ والمُكَوَّناتِ التي للنّفْسِ فيها حَظٌّ من مَتاعِ الدنيا وزَهرتِها ظاهِرُها غِرَّةٌ، أي سببٌ في الاغترارِ بها لحُسنِها وبَهجتِها، وباطنُها عِبرةٌ، أي سببٌ في الاعتبارِ بها، والانْكِفاءِ عنها لِقُبْحِها وخِسَّتِها والنّظَرِ إلى عاقِبَتِها وهي الفَناءُ، فهي حَسَنَةُ الظّاهِرِ، قَبِيحَةُ الباطِنِ، فمَنْ نَظَرَ إلى ظاهِرِها وَجَدَها حُلْوَةً نَضِرَةً، فَيَغْتَرُّ بها ويَمِيلُ إليها، ومَنْ نَظَرَ إلى باطِنِها وَجَدَها جِيفَةً قَذِرَةً، فَيَعْتَبِرُ بها، ويَنْكُفُ عنها، فالنّفْسُ تَنْظُرُ إلى زِينَتِها الظّاهِرَةِ، فَتَغْتَرُّ بها وتُهْلِكُ صاحِبَها، والقَلْبُ يَنظرُ إلى قَبائِحِها البَاطِنةِ، فَيَعْتَبِرُ بها ويَسْلَمُ مِنْ شَرّها.

54) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَى.

– يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في بعضِ كُتُبِه: "مَنْ طَلَبَ الْعِزَّ مِنَ النَّاسِ ولا يَطْلُبُهُ مِنَ اللهِ، فقدْ أَخْطَأَ الطّريقَ، ومَنْ أخطأَ الطّريقَ لم يَزِدْهُ سَيْرُهُ إلّا بُعْداً، فهذا هو التَّائِهُ حَقّاً".

– ويقولُ رحمهُ اللهُ في كتابِه (التنوير في إسقاطِ التدبير): "فإنِ اعْتَزَزْتَ باللهِ دَامَ عِزُّكَ، وإنِ اعتزَزْتَ بغيرِه فلا بَقاءَ لِعِزِّكَ، إذْ لا بَقاءَ لِمَا أنْتَ بهِ مُتَعَزِّزٌ".

وأَنْشَدَ بعضُهم:

لِيَكُنْ بِرَبِّكَ عِزُّكَ يَسْتَقِرُّ ويَثْبُتُ *** فإنِ اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

– قال بعضُ الصّالحينَ: يُقالُ لِمَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ وفَقَدَهُ أو اسْتَنَدَ إلى غيرِهِ فَعَدِمَهُ: (وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا، إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا). طه 97، 98.

– وكلُّ عِزٍّ في الدنيا وبالدنيا فَانٍ لِفَنائِها، وكذا التّعزُّزُ بالخلقِ فَانٍ بِفنائِهم، فظاهِرُهُ غِرّةٌ مِنْ حيثُ الالتذاذُ به والانتفاعُ، وباطِنُه عِبرةٌ مِنْ حيثُ الزّوالُ عنهُ والاندفاعُ.

– فإنِ اعتزَزْتَ بغيرِ اللهِ مِنْ مالٍ أو جاهٍ أو نحوهما بأنْ رَكَنْتَ إليه وجَعلْتَه مُعْتَمَدَكَ، وغَفَلْتَ عنْ مَولاكَ، فلا بَقاءَ لِعِزِّكَ، إذا لا بَقاءَ لِمَنْ أنت بهِ تَعْتَزُّ.

– قالَ تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فاطر 10.

– يقولُ الطبريُّ رحمهُ اللهُ في تفسيرِ هذه الآيةِ: أَوْلَى الأَقْوالِ بالصّوابِ عِندِي قَوْلُ مَنْ قالَ: مَنْ كانَ يُريدُ العِزّةَ فباللهِ فَلْيَتَعَزّزْ، فَلِلَّهِ العِزّةُ جَميعًا.

– ويقولُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: مَنْ كانَ يُحِبُّ أنْ يكونَ عَزيزاً في الدنيا والآخرةِ، فَلْيَلْزَمْ طاعةَ اللهِ، فإنّهُ يَحصُلُ له مَقْصُودُه؛ لأنّ اللهَ مَالِكُ الدنيا والآخرةِ، وله العِزّةُ جَميعُها، كما قالَ تعالى: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا). النساء 139.

– ويقولُ القرطبيُّ رحمه الله: فمَنْ كانَ يُريدُ العِزّةَ لِيَنالَ الفوزَ الأكبَرَ، ويَدْخُلَ دارَ العِزّةِ –ولله العزّةُ– فَلْيَقْصُدْ بِالعِزّةِ اللهَ سبحانَه والاعْتِزازَ به، فإنّه مَنِ اعْتَزَّ بِالعبدِ أذَلّهُ اللهُ، ومَنِ اعْتَزَّ باللهِ أعَزّهُ اللهُ.

55) الْعَطَاءُ مِنَ الْخلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ.

– لأنَّ العطاءَ مِنَ الخَلْقِ يُوجِبُ الإقْبالَ والسُّكونَ إليهم، والمنعُ مِنَ اللهِ يُوجِبُ الإعْراضَ عَمَّنْ سِوَاهُ سبحانَه، قالَ تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ). النحل 53.

ولا أَعْظَمَ نِعْمَةً مِمَّا رَدَّكَ إلى مَوْلَاكَ وقَطَعَكَ عَمّا سِواهُ.

– فَعَطِيَّةُ الخَلْقِ لَكَ حِرمانٌ على التّحقيقِ، لِمَا فيها مِنْ رُؤيَتِكَ لِغَيرِ اللهِ، ووُقُوفِكَ مع حُظُوظِكَ وشَهَواتِكَ، ومَنْعُ اللهِ لَكَ إحْسانٌ، لأنَّه أَلْزَمَكَ الوُقُوفَ بِبابِهِ، وعَافَاكَ مِنْ وُجُودِ حِجابِهِ.

– وإنّما كانَ العَطاءُ مِنَ الخلقِ حِرماناً لِثَلاثةِ أَوْجُهٍ:

أحدُها: أنّه يُوجِبُ المحبّةَ لهم، إذْ جُبِلتِ القلوبُ على حُبِّ من أحسنَ إليها، وقد يكونُ ذلك نَقصٌ لكَوْنِها في غيرِ اللهِ. وقد رُوِيَ في الأَثَرِ: "اللهمَّ لا تَجْعَلْ لِمُنافِقٍ عَلَيَّ يَداً فَتُحِبُّهُ نَفْسِي".

الثاني: أنّه يُوجِبُ الدُّخُولَ في رِقِّهِم، لِوُجُودِ الْمِنَّةِ منهم، وذلكَ إِخْلالٌ بِحُرِّيّةِ العبدِ. رُوِيَ عن عليٍّ رضى الله عنه أنّه قالَ: "لا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ مُنْعِماً، وَعُدَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ مَغْرَماً".

الثالثُ: أنّه قد يُوجِبُ الذُّلَّ لهم والانْكِسارَ إليهم. قالَ بعضُهم: "الصَّبرُ على العَدَمِ أَيْسَرُ مِنْ تَحَمُّلِ المِنَنِ".

- وإنّما كانَ المنعُ مِنَ اللهِ إِحْساناً لِوُجُوهٍ ثَلاثةٍ:

أحدُها: أنّه يَجْمَعُكَ عليهِ بالضّرَاعَةِ إليه، والدَّوامِ بينَ يَدَيْهِ.

وقد قِيلَ: "النِّعْمَةُ ما أَسْلَاكَ عَنْ دُنْيَاكَ، وأَدْنَاكَ مِنْ مَوْلَاكَ".

الثاني: أنّ مَنْعَهُ إيّاكَ ليسَ مِنْ بُخْلٍ ولا عُدْمٍ، وإنّما هو رَحْمَةٌ بِكَ، فهو إِحْسانٌ إليكَ بِصَرْفِ العالِمِ سُبحانَه بِمَصالحِكَ عَمّا تُرِيدُهُ إلى ما هو الأَصْلَحُ في حَقِّكَ.

الثالثُ: أنّ مَنْعَهُ إيّاكَ يُعَرِّفُكَ بِجَلالِهِ مِنْ طَرِيقِ القَهْرِ، فَيَرُدُّكَ إليهِ بوُجُوهٍ مِنَ الرِّضَى والشُّكرِ وأنواعِ الخَيْرِ والبِرّ.

ورَحِمَ اللهُ القَائِلَ:

فَلَا أَلْبَسُ النَّعْمَى وغَيْرُكَ مُلْبِسِي *** وَلَا أَقْبَلُ الدُّنْيَا وغَيْرُكَ وَاهِبِي

56) جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً.

– جَلَّ وَتَعالَى وَتَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ وتَعَاظَمَ رَبُّنا سُبحانَه أنْ يُعامِلَهُ العَبْدُ بِالعَمَلِ النّاجِزِ الذي لا تَأْخِيرَ فيه، فَيُجازِيَهُ بالجَزاءِ الْمُتَأَخِّرِ الْمُؤَجَّلِ، لِمَا هو عليهِ سُبحانَه مِنْ صِفاتِ الكَمالِ ونُعُوتِ الفَضْلِ والكَرمِ والجَلالِ، ولأنَّ مُجازاةَ الحَقِّ سُبحانَه لِعَبْدِه كُلَّها مُعَجَّلَةٌ، أو في حُكْمِ الْمُعَجّلِ، لأنَّ كلَّ العَطايَا منه وإليه، وقد أَعْطَى في العَمَلِ أُمُوراً، مِنها:

1– التّوفِيقَ، وهو تَوجُّهُ الإعانَةِ مِنَ اللهِ لعبدِه على ما يُرِيدُه منه، وهو أعظَمُ جَزاءٍ للعبدِ على عَملِه قبلَ عَملِه، وقد ذكَرَهُ ابنُ عطاءِ اللهِ في الحِكْمَةِ التي بعدَها بقولِه: "كَفَى مِنْ جَزائِهِ إيّاكَ على الطاعةِ أنْ رَضِيَكَ لها أَهْلاً".

2– والجزاءَ في حَالِ العَمَلِ بالفَتْحِ والتّمْكِينِ، والرُّسُوخِ في اليَقِينِ، ووجُودِ حَلاوَةِ ولَذَّةِ العبادةِ والطاعةِ، وهي لَذَّةٌ حِسّيةٌ وُجدانِيّةٌ، ونَبَّهَ عليها ابنُ عطاءِ اللهِ في الحكمةِ التي تَلِيها: "كَفَى العامِلِينَ جَزاءً ما هو فاتِحُهُ على قُلوبِهم في طاعَتِهِ".

3– والجزاءَ حَالَ العَمَلِ وبعدَه مُماسّاً له أو مُرَتَّباً عليه، وهو ثَمَرتُه، وهو الأُنْسُ باللهِ، وذكَرَهُ ابنُ عطاءِ اللهِ في التي تَلِيها: "وما هو مُورِدُهُ عَلَيْهِم مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ".

4- وقد يكونُ ممّا عَجَّلَهُ اللهُ سُبحانَه لعبدِهِ مِنَ الجَزاءِ: ما يَدْفَعُ عنه مِنَ الْمَضارِّ، ويَجْلِبُ له مِنَ الْمَنافِعِ والْمَسَارِّ، قالَ تعالى: (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) الأعراف 196، وقالَ تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

الطلاق 2، 3.

وقد أَتْبَعَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ هذهِ الحِكْمَةَ بِمَا يُفَسِّرُ بَعْضَ جَزاءِ اللهِ لِعَبْدِهِ على عَمَلِهِ:

57) كَفى مِنْ جَزائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً.

- أيْ كَفَى مِنْ مُجازاتِه سبحانَه لكَ على الطّاعَةِ أنْ رَضِيَكَ أيُّها العبدُ الضّعِيفُ أهْلاً لها، فإنّ خِدْمَةَ مَلِكِ الْمُلُوكِ مِمّا تَتَطاوَلُ إليها الأعْنَاقُ، فَكَوْنُهُ رَضِيَكَ لها مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ التي امْتَنَّ بها عليكَ الكَرِيمُ الْمَنَّانُ.

- وذلكَ لأنّكَ مِنْ حيثُ أنتَ لا يَلِيقُ بكَ إلّا النَّقْصُ والتَّقْصِيرُ، ووُجُودُ الطّاعَةِ مِنْكَ عَيْنُ كَمَالِكَ الذي لولا تَوفِيقُهُ تعالى لكَ ما وَصَلْتَه، قالَ تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). النور 21.

- ولأنَّ الْمَلِكَ لا يَدْعُو لِخِدْمَتِه إلّا مَنْ يُرِيدُ أنْ يُكْرِمَه، ولا يُدْخِلُ لِحَضْرَتِه إلّا مَنْ يُرِيدُ أنْ يُعَظِّمَه، ولا يُنسَبُ له إلّا أَهْلُ الفَضْلِ والكَرامَةِ.

58) كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤانَسَتِهِ.

- يَعني مِنْ حَلاوَةِ الطّاعاتِ ولَذاذَةِ المُنَاجَاةِ.

قالَ بَعْضُهم: "التَّمَلُّقُ لِلْحَبيبِ والْمُناجاةُ لِلْقَريبِ في الدنيا ليسَ مِنَ الدنيا، بل هو مِنَ الْجَنَّةِ، أُظْهِرَ لِأَهْلِ اللهِ في الدنيا لا يَعْرِفُهُ إلّا هُمْ، ولا يَجِدُهُ سِواهُمْ، رَوْحاً لِقُلوبِهم".

وقالَ آخرُ: "ليسَ في الدنيا وَقْتٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ أهْلِ الجنّةِ إلّا ما يَجِدُهُ أهْلُ التّمَلُّقِ في قُلوبِهم باللَّيلِ مِنْ حَلاوَةِ الْمُناجاةِ".

- "كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ في طَاعَتِهِ"، يعني في حالِ التّلبُّسِ بالطاعةِ من المَواهِبِ الإلهيةِ والخِلَعِ الرّبانيّةِ التي تُنْسِي كلَّ نِعْمَةٍ وبَلِيَّةٍ.

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَأُصِيبَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَافِلاً، وَجَاءَ زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِباً، فَحَلَفَ أَنْ لاَ يَنْتَهِيَ حَتَّى يُهرِيقَ دَماً فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْزِلاً فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ». فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالاَ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَكُونُوا بِفَمِ الشِّعْبِ». قَالَ كَانُوا نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنَ الْوَادِي فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلاَنِ إِلَى فَمِ

الشِّعْبِ، قَالَ الأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟ قَالَ: اكْفِنِي أَوَّلَهُ. فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِماً، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِماً، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُوتِيتَ. فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذِرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ قَالَ: سَبْحَانَ اللَّهِ أَلاَ أَهْبَبْتَنِي. قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ عَلَيَّ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْلاَ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْراً أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِحِفْظِهِ لَقَطْعُ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا.

أبو داود، وحسّنه الألباني.

- "وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤانَسَتِهِ". يعني حالَ العَملِ وبعدَهُ، وذلك من وجُوهٍ:

أحدها: الأُنسُ بالطاعةِ مِنْ حيثُ إنّها طاعةٌ وقُرْبةٌ، وما يَعْرِضُ فيها ويَعْقُبُها من الحلاوةِ.

الثاني: الأُنسُ بما يُرجَى مِنْ ثَوابِ اللهِ، وما يُسْتَشْعَرُ مِنْ نَفَحاتِ قُرْبِه، مُصاحِباً لذلك أو مُعْتَقِباً له، فقد قِيلَ: "انْتِظارُ الفائِدَةِ خَيْرٌ مِنْ تَحْصِيلِها، وسُرورُ الأَوْبَةِ على قَدْرِ الانتظارِ في الغَيْبةِ".

الثالثُ: الأُنسُ به تعالى دُونَ ما سِواهُ، وبِساطُ الأُنسِ بالذِّكرِ، لأنّه يَجُرُّ للأُنسِ بالمذكورِ، ومَنْ أَنِسَ به استوحشَ مِنْ سِواهُ، فنَسِيَ كلَّ شيءٍ في جنبِ ما يَجِدُهُ مِنْ نَفَحاتِ قُرْبِه.

قال أبو تُرابٍ النُّخْشَبِيُّ رحمه الله: "إذا صَدَقَ العبدُ في العَملِ وَجَدَ حلاوَتَه قبلَ أنْ يَعملَه، وإذا أخْلَصَ فيه وَجَدَ حلاوَتَه وقْتَ مُباشَرَتِه".

59) مَتى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتى مَنعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ.

– متى أَعْطاكَ أشْهدَكَ بِرَّهُ وخَيرَه وإفضالَه وإكرامَه وإحسانَه، ومتى مَنعَكَ أَشْهدَكَ أنَّه قاهِرٌ لكَ، وذلك مُضَمَّنٌ بتعريفِ جلالِه وعظمتِه وكبريائِه.

– فالعَطاءُ والمنعُ إنّما هما لفائِدَتَيْ التعريفِ بالجلالِ والجَمالِ بوجهٍ لا يُمكنُ دفعُه، ولا يتهيّأُ صَرفُه، فاعْتبِرْهُما مِنْ حيثُ هُما لِذلكَ، لا مِنْ حيثُ أنتَ، تكُنْ في الكُلِّ بِه ولَهُ، مِنْ غيرِ اختيارٍ عليه.

– فَهُوَ في كُلِّ ذَلِكَ مُتعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ. أما التعرُّفُ ففي كلِّ وجهٍ بما يَقتضِيه، وهو الجلالُ في قهرِه، والجمالُ في بِرِّهِ، فإذا عرفْتَهُ بالجلالِ كنتَ له، وإنْ عرفْتَهُ بالجمالِ كنتَ به، وإن عرفْتَه بالكمالِ فَنَيْتَ عنْ كلِّ شيءٍ سِواهُ، وكلُّ ذلك لُطْفٌ منه سبحانَه؛ إذ عرّفَكَ بوُجُودِه، وأنارَ باطِنَكَ بشُهودِه، هذا مع ما يصحبُكَ مِنَ اللُّطْفِ الجَليِّ في شواهدِ الجمالِ، وما يُواجُهُكَ مِنَ اللُّطفِ الخَفِيِّ عندَ شُهودِ الجلالِ، فكنْ حَسَنَ الظَّنِّ به في جميعِ الأحوالِ، ومُتوجِّهاً له في جميعِ الآمالِ.

– فمتى أعْطاكَ ما تُريدُ أشهدَكَ صِفاتَه التي تَقتضِي البِرَّ: مِنَ الجودِ والكرمِ واللُّطفِ والعطفِ ونحوِ ذلك. ومتى منعَكَ أشهدَكَ صفاتَه التي تقتضي القهرَ: كالكِبرياءِ والعزّةِ والاستغناءِ.

فهو في كلا الحالتينِ مُتعرِّفٌ إليك، يُرِيدُ منكَ أن تَعرِفَه بأوصافِه الجَماليةِ والجَلاليّةِ، ومُقبِلٌ بلُطفِه عليكَ، لأنّ مُشاهدَتَكَ لصفاتِ بِرِّهِ وقهرِهِ لُطفٌ عظيمٌ منه سبحانَه بك، ونعمةٌ منه عليك، فإنّه لا سبيلَ إلى معرفتِه إلّا بتعرُّفِه لعبادِه، ولا يكونُ ذلك إلّا بمُقْتَضى صفاتِه، سواءٌ كان ذلك مُوافقاً لِطَبعِهِم؛ وهو الإعْطاءُ، أو مُخالفاً له؛ وهو المنعُ.

– فمَنْ كانَ عارفاً بربِّه لم يُفرِّقْ بين المنعِ والعطاءِ، لأنّ كلّاً منهما له طريقٌ تُوصِلُه إلى معرفةِ مولاهُ، وهذا من جملةِ فَتْحِ بابِ الفهمِ في المنعِ كما مرَّ.

– من أسمائِه تعالى "اللطيفُ والرحيمُ" فهو تعالى لطيفٌ بعبادِه رحيمٌ بخلقِه في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حالٍ، سواءٌ أعطاهم أو مَنعهم، فإنْ أعطاهم أشهدَهم بِرَّهُ وإحسانَه، فعَرفُوا أنّه بارٌّ بعبادِه لطيفٌ بخلقِه، رحيمٌ كريمٌ جوادٌ محسنٌ، فتَعْظُمُ مَحبتُّهم فيه، ويَكثُرُ شَوقُهم واشتياقُهم إليه، ويَكثُر شُكرُهم، فيَزْدادُ نَعيمُهم، وفي هذا ما لا مَزيدَ عليه من البِرِّ والإحسانِ والجودِ والامتنانِ.

– وإنْ مَنَعَهُم أشْهدَهم قَهْرَه وكِبرياءَه فَعلِمُوا أنّه تعالى قهّارٌ كبيرٌ عظيمٌ جليلٌ، فخافُوا مِنْ سَطوتِه، وذابُوا مِنْ خَشْيَتِه، وخَضعوا تحتَ قهرِه، فَدامَتْ عبادتُهم، وقَلّتْ ذنوبُهم، ومُحِيَتْ مَساوِيهم، واضْمَحلّتْ خَطيئتُهم، فَوَرَدُوا يومَ القيامةِ خِفافاً مُطَهَّرِينَ فَرِحِينَ مُبْهَجِينَ، إذ لا يَجمعُ اللهُ على عبدِه خَوْفَيْنِ ولا أَمْنَيْنِ، فمَنْ خافَه في الدنيا أَمَّنَه يومَ القيامةِ كما في الحديثِ.

- وممّا كتبَه جلالُ الدينِ الرُّوميُّ:

" لُطفُكَ جَمِيلٌ وقَهْرُكَ جَمِيلٌ ... أَنَا أَعْشَقُ لُطْفَكَ وقَهْرَكَ. أَلَيْسَ من الغَريبِ عِشْقُ هَذَيْنِ النّقِيضَيْنِ في آنٍ واحدٍ؟ ولكنّ هذه الغَرابةَ هي في الظّاهرِ فقط، ذلكَ لأنّكَ جَميلٌ، ولا يَصدُرُ مِنَ الجميلِ سِوى الجَمالِ. فَتَصْنِيفُ ما يأتي منكَ بأنّ هذا خيرٌ وذاكَ شرٌّ ليسَ إلّا حَوَلاً في العَيْنَيْنِ".

- ومما نُسِبَ ليونُسَ إِمْرِة:

"يا كثيرَ اللُّطفِ جَميلَ القهرِ.. لُطفكَ جَميلٌ وقهرُكَ جَميلٌ.. لو حَصلَ مِنْ جَلالِكَ جَفاءٌ.. أو مِنْ جَمالِكَ وَفاءٌ.. كِلاهُما للرُّوحِ صَفاءٌ.. لُطفُكَ جميلٌ وقهرُكَ جميلٌ".

60) إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللهِ فِيهِ.

– وهذه الحكمةُ تَتِمّةٌ لِمَا قبلَها، وتَتِمّةٌ للحديثِ عنِ العطاءِ والمنعِ.

– وذلكَ لأنّكَ لو فَهِمْتَ عنه سبحانَه ما أَرَادَ بمنعِكَ مِنَ الفوائدِ الدينيّة والدنيويّة، والمِنَحِ الحاليّةِ والمَآلِيَّةِ، كنتَ تَنْسَى ما أنتَ فيه مِنَ الألَمِ بوجُودِ الفَرَحِ بِمِنّتِه، والاستبشارِ بوجُودِ فضلِه ورحمتِه، ولكنْ لا يَفهمُ العطاءَ في المنعِ إلّا من اختارَه اللهُ لهذا الفهمِ وهذه المِنَّةِ.

– وفي الحديثِ قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ بِخَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، تُنْزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ". أحمد والنسائي، وصححه الألباني.

– ولأنّ الفهمَ عنِ اللهِ يَقتضِي وُجودَ المعرفةِ به، ولا تكونُ المعرفةُ كاملةً حتى يكونَ صاحبُها يَعرفُه في الجلالِ والجمالِ، والقبضِ والبسطِ، وأمّا إنْ كان لا يَعرفُه إلّا في الجمالِ، فهو يُشبُه من قال الله فيهم: (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ). التوبة 58.

– وقِيلَ لبعضِهم: "ما الزّهدُ عندَكم؟ قال: إذا وَجَدْنا شَكرْنا، وإذا فَقَدْنا صَبرْنا". فقال: "هذه حالةُ الكِلابِ عندنا بِبَلْخَ"، فقال: "وما الزّهدُ عندكم أنتم؟" قال: "إذا فَقدْنا شَكرْنا، وإذا وَجدْنا آثَرْنا". فقد عدَّ الفَقْدَ نِعمةً، والفاقَةَ غِنىً.

- ومِنْ جملةِ الفهمِ في المنعِ، أنْ تَفهمَ أنّه يُريدُ بذلكَ المنعِ أنْ يُوقِفَكَ ببابِه، ويُعَلِّقَكَ به، ويُصَيِّرَكَ من جملةِ أحْبابِه، ومِنْ جملتِه أنْ تَفهمَ أنّ الدنيا فانِيَةٌ، ولذّاتَها مُنقضِيَةٌ، فتَفْرَحُ بما ادَّخَرَ لكَ في الآخرةِ، فإذا فَتَحَ اللهُ على قلبِكَ بابَ الفهمِ والتلذُّذِ بالمنعِ يَعُودُ المنعُ عَيْنَ العَطاءِ.

- ومن وُجوهِ الفهمِ في المنعِ، أنْ يَعلمَ أنّ الذي قَدَّرَ البَلاءَ أو المنعَ وأنّ المُبْتَلِيَ والمانِعَ هو اللهُ الذي عَوّدَك على العَطايا والإحسانِ وحُسْنِ الاختيارِ، وقد بَيَّنَ ابنُ عطاءِ اللهِ هذا المعنى في حِكْمَةٍ مِنَ الحِكَمِ اللّاحِقَةِ بقولِه: "لِيُخَفِّفْ أَلَمَ البَلَاءِ عَنْكَ، عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ المُبْتَلِي لَكَ، فَالَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الأقْدارُ، هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيَارِ".

- ومن وُجوهِ الفهمِ في المنعِ أيضاً، أنْ يَعلمَ أنّ لُطْفَ اللهِ داخِلٌ في قَدَرِه مَنْعاً وعَطاءً، وقد أشارَ ابنُ عطاءِ اللهِ إلى هذا المعنى في حِكمَةٍ مِنَ الحِكَمَ اللاحِقَةِ بقولِه: "مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ".

61) رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ القَبُولِ، وَقَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَاً فِي الوُصُولِ.

– وهذه أيضاً تَتِمَّةٌ لِمَعْنَى المنعِ في العَطاءِ، والعطاءِ في المنعِ، ووَجْهٌ من وُجُوهِهَا: وهو اقْتِرَانُ الطّاعةِ بما يُوجِبُ رَدَّها، ومُقارَنَةُ الذَّنْبِ لِمَا يُوجِبُ القَبُولَ.

– يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في مَوضعٍ مِنْ بعضِ كُتُبِه: "ربّما قَضَى عليكَ بالذّنبِ ليُخْرِجَ منكَ الكِبْرَ والعُجْبَ، يُصَلِّي الرّجُلُ رَكْعَتيْنِ فيَعْتِمَدُ عليهِما ويَركَنُ إليهِما ويُعْجَبُ بهِما، فهذه حَسَنَةٌ أَحَاطَتْ بها سَيِّئاتٌ، وآخَرُ يَفعلُ المعصِيَةَ فتُكْسِبُه الذِّلَّةَ والانْكِسارَ ويُدِيمُ الْمَسْكَنَةَ والافْتِقارَ، فهذه سَيِّئةٌ أحاطَتْ بها حَسَناتٌ".

– ويقولُ أيضاً: "إنْ فَعَلْتَ ذَنباً أَعْقَبْتَهُ بالتّوبةِ والنّدمِ والانكسارِ والإنابةِ كانَ ذلكَ سببَ وُصْلَتِكَ به، وإنْ فَعَلْتَ طاعةً فأعْقَبْتَها بالعُجْبِ والكِبْرِ كانَ ذلك سَبَبَ القَطِيعَةِ عنه".

– إذاً ربّما فَتَحَ لكَ بابَ الطاعةِ عِلماً وعَملاً وحالاً، وما فَتَحَ لكَ باب القَبُولِ الذي هو الذُّلُّ والانكسارُ واللَّجأُ والافتقارُ، وقَضىَ عليكَ بالذّنبِ في الظّاهِرِ صَغِيراً كانَ أو كبيراً فكانَ سَبباً في الوُصولِ بما يَترتّبُ عليه من الأفعالِ الحَميدةِ، لا مِنْ ذاتِه. لأنّ كلَّ واحدٍ مُعتبَرٌ بما يُرادُ له، لا مِنْ حيثُ ذاتُه.

– قالَ تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

آل عمران 135.

– وقال سبحانه: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا). الفرقان 70.

– وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لهمْ".

– وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الجُوعُ، ورُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ".

صحيح ابن ماجة للألباني.

– ورُوِيَ عنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أنّه قالَ: "كُونُوا لِقُبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ هَمًّا مِنْكُمْ بِالْعَمَلِ، أَلَمْ تَسْمَعُوا اللَّهَ يَقُولُ: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}".

– ويقولُ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: "إنَّ الذّنبَ قدْ يكونُ أنفعَ للعبدِ إذا اقْتَرَنَتْ به التوبةُ مِنْ كثيرٍ مِنَ الطاعاتِ، وهذا معنى قولِ بعضِ السلفِ: قدْ يعملُ العبدُ الذنبَ فيَدخُلُ به الجنّةَ، ويعملُ الطاعةَ فيَدْخُلُ بها النّارَ، قالوا: وكيفَ ذلكَ؟ قالَ: يعملُ الذنبَ فلا يَزالُ نُصْبَ عينيهِ، إنْ قامَ وإنْ قَعَدَ وإنْ مَشَى ذَكَرَ ذنْبَهُ، فيُحْدِثُ له انْكِساراً، وتَوبَةً، واستغفاراً، ونَدَماً، فيكونُ ذلك سببَ نجاتِه. ويعملُ الحسنةَ، فلا تزالُ نُصْبَ عينيهِ؛ إنْ قامَ وإنْ قَعَدَ وإنْ مَشَى، كُلَّما ذَكَرَها أوْرَثَتْهُ عُجْباً وكِبْراً ومِنَّةً، فتكونُ سَبَبَ هَلاكِهِ". (مدارج السالكين).

62) مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَت ذُلّاً وَافْتِقَاراً خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْبَاراً.

– وهذا بيانٌ لِسَبَبِ الوُصولِ في المعصيةِ، ومانعِ القَبولِ في الطاعةِ، في الْحِكْمَةِ السّابِقَةِ.

– والمقارنةُ هنا ليستْ بمُطلَقِ المعصيةِ والطاعةِ، وإنّما هي بين مَعصيةٍ ساقَتْ صَاحِبَها إلى التَّذَلُّلِ والانكسارِ للهِ عزّ وجلّ، وطاعةٍ أورثَتْ صاحِبَها التَّباهِيَ والاستكبارَ.

– فالمقارنةُ على وَجْهِ الحَقِيقةِ في هذه الحكمةِ إنّما هي بينَ معصيةٍ ومعصيةٍ، بينَ معصيةٍ ساقَتْ صاحِبَها إلى مِحْرابِ العُبوديةِ للهِ، وزَجَّتْ به في نِيرانِ النّدَمِ، ومعصيةٍ تَمثَّلَتْ في إعجابٍ بالطاعةِ وزَهْوٍ بالنّفْسِ واستكبارٍ على الآخَرِينَ.

– إذْ مَعْصِيَةٌ أورثَتْ ذُلّاً وافتقاراً فأخْرَجَتِ العبدَ عن نَفْسِه، ورَدّتْهُ إلى ربِّهِ، خيرٌ مِنْ طاعةٍ أورثَتْ عِزّاً واستكباراً، فأخْرَجَتِ العبدَ مِنَ العُبوديةِ إلى ادّعاءِ أوصافِ الربوبيةِ.

ذلك لأنّ الافتقارَ شاهِدُ العبوديةِ، والاستكبارَ مُنازَعَةٌ ومُعانَدَةٌ للربوبيةِ.

– وفي الحديثِ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ، لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ العُجْبُ العُجْبُ". صحيح الجامع للألباني.

- قال الشيخُ أبو مَدينَ رحمهُ اللهُ: "انكِسارُ العاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ المُطِيعِ".

- وقالَ بعضُهم: "إنَّ أَنِينَ العاصِي أَلَماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ أحَبُّ إلى اللهِ مِنْ تَسبِيحِ المُرائِي المُعْجَبِ بِتَسْبِيحِهِ".

- يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ رحمهُ اللهُ: "يَرتَكِبُ العَبدُ الذَّنبَ فَيُورِثُهُ كَسْرَةً فِي النَّفْسِ، وَانكِسَارًا فِي البَّاطِنِ، وَإِخْبَاتًا إِلَى اللهِ، وَتَوبَةً وَاستِغفَارًا، وَعَودَةً وَأَوْبَةً إِلَى جَنَبَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ رَبِّ العَالمِينَ، فَيَكتُبُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَه بِذَلِكَ الرِّضوَانَ، وَيأَتِي العَبدُ بِالحَسَنَةِ فَتُورِثُهُ عِزًّا وَاستِكبَارًا، فَمَا يَزَالُ مُنتَفِخًا، وَمَا يَزَالُ مُستَكبِرًا مُدِلًا عَلَى اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ بِحَسَنَتِهِ، حَتَّى يُبغِضَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَيُقصِيَهِ وَيُبعِدَهُ عَن جَنَّتِهِ".

- ويقولُ أيضاً: " فإذا أرادَ اللهُ بعبدِه خَيْراً فَتَحَ له باباً مِنْ أبوابِ التّوبةِ والنّدَمِ والانْكِسارِ والذُّلِّ والافتقارِ، والاسْتِغاثَةِ بهِ وصِدْقِ اللَّجَإِ إليهِ، ودَوامِ التّضَرُّعِ والدُّعاءِ والتّقرُّبِ إليهِ بما أمْكَنَ مِنَ الحَسَناتِ، ما تكونُ تِلْكَ السّيِّئَةُ بهِ سَبَبَ رحْمَتِهِ حتّى يقولَ عدوُّ اللهِ: يا لَيْتَنِي تَركتُهُ ولم أُوقِعْهُ".

- والأصلُ أنّ الطاعةَ خيرٌ؛ بما فيها من الافتقارِ، والمعصيةَ شرٌّ؛ بما فيها من العُتوِّ والاستكبارِ.

– والمعصيةُ من حيثُ ذاتُها لا خيرَ فيها، كما أنّ الطاعةَ من حيثُ ذاتُها لا شرَّ فيها، وإنّما يَنقلبُ الكلُّ بما يَعرِضُ له مِنْ عَوارِضَ مُقابله. فالخيرُ في الطاعةِ بالذّاتِ، والشرُّ فيها بالعرَضِ، والشرُّ في المعصيةِ بالذّاتِ، والخيرُ فيها بالعرَضِ، والخيرُ في الطاعةِ من حيثُ إنّها عبوديةٌ له، وخضوعٌ بين يديهِ، ورجوعٌ إليهِ، وطلبٌ لِمَا عندَه، وشرُّ المعصيةِ في ضدِّ ذلك، فإذا أوجبَتِ الطاعةُ ما هو في المعصيةِ بالذاتِ كانت شرّاً، وإذا أوجبتِ المعصيةُ ما هو في الطاعةِ بالذَاتِ كانتْ خيراً.

– يقول الحارثُ المُحاسبيُّ رحمه الله: "إنّما مُرادُ اللهِ عزّ وجلّ مِنْ عبادِه قلوبُهم، فتكونُ جَوارِحُهم تَبَعاً لقلوبِهم، فإذا تَكبّرَ العالِمُ والعابدُ وأَنِفَ، وتَواضعَ الجاهلُ أو العاصِي وذَلَّ هَيْبَةً للهِ عزّ وجلّ وفَرَقاً منه فهو أَطْوَعُ للهِ عزّ وجلّ من العابدِ والعالِمِ بقلبِه".

– واعْلَمْ أنّ مِنْ آثارِ العُجْبِ أنَّه يَدعُو إلى الكِبْرِ؛ لأنَّه أَحَدُ أسبابِه.

قالَ ابنُ الجوزِيِّ رحمهُ اللهُ: "اِعْلَمْ أَنَّ من أَسبابِ الْكِبْرِ العُجْبَ، فَإِنَّ مَنْ أُعْجِبَ بِشَيْءٍ تَكبَّرَ به".

وقال المحاسبيُّ رحمهُ اللهُ: "إنَّ أَوَّلَ بُدُوِّ الكِبْرِ العُجْبُ، فمِنَ العُجْبِ يكونُ أكثرُ الكِبْرِ، ولا يكادُ المُعْجَبُ أنْ يَنجُوَ مِنَ الكِبْرِ".

– والعُجْبُ يَدعُو إلى إِهْمالِ الذنوبِ ونِسيانِها، فلا يُحدِثُ العبدُ بعدَ ذلك توبةً، والعُجبُ أيضاً يَجعلُ العبدَ يَستَعْظِمُ أعمالَه، وطاعاتِه، ويَمُنُّ على اللهِ بِفِعْلِها، ويدعو العبدَ إلى الاغترارِ بنفسِه وبرأيِه، ويأْمَنُ مَكْرَ اللهِ وعذابَه، ويَظُنُّ أنّه عندَ اللهِ بمكانٍ.

– ويُحبِطُ العملَ، ويُفسِدُه، ويَذْهَبُ بِه، يقول ابنُ القيِّم رحمه الله: "لا شيءَ أَفْسَدَ للأعمالِ مِنْ العُجْبِ ورُؤيةِ النّفْسِ".

– وكذلك يَدعُو العبدَ إلى المَنِّ بما يُقدِّمُ مِنْ مَعروفٍ، وإلى تَعظيمِ ما يُسْدِي مِنْ خَيرٍ.

قال المُحاسبيُّ رحمهُ اللهُ: ويُخرِجُهُ الْمَنُّ بِمعرُوفِه وصَدَقَتِه، لأنَّه عَظُمَ عندَه ما تَصدّقَ بهِ، أو تَفضّلَ بِه، ويَنْسَى مِنّةَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه، وأنَّه مُضَيّعٌ لِشُكْرِهِ على ذلك، فَمَنَّ بِمَا اصْطَنَعَ مِنْ مَعرُوفِه فَحَبِطَ أجْرُه، كما قال الله عزَّ وجلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ). البقرة 264.

63) مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ مِنْهُ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ.

– ما أَطْلَقَ اللهُ لِسانَ عبدِه بالطلبِ والدعاءِ إلّا وقدْ رجّاهُ بالإِجابةِ فيما طَلَبَ على حَسَبِ ما يُريدُ، ولقد قِيلَ: "أنَّ مَنْ يُكْثِرُ قَرْعَ البابِ يُوشَكُ أنْ يُفْتَحَ لَهُ". وقِيل أيضاً: "مَنْ أدْمَنَ الدعاءَ ولَازَمَ قَرْعَ البابِ فُتِحَ لَهُ".

– يقولُ ابنُ القيّمِ رحمه الله تعالى: "وَمِنْ أَنْفَعِ الأَدْوِيَةِ: الإِلحاحُ في الدعاءِ".

– يريدُ أنْ يُعطِيَكَ ما يُريدُ أنْ يُعطِيَكَ، سواءٌ كانَ عينَ مَطلوبِكَ أو غيرَهُ، فالطلبُ مَقرونٌ بالعطاءِ، والعطاءُ غيرُ مُعيّنٍ في عِلْمِ العَبْدِ، لكنْ في عِلْمِه تعالى، كما مرَّ في قولِ ابنِ عطاءِ اللهِ: "فَهْوَ ضَمِنَ لكَ الإجابَةَ فيما يَختارُ لكَ، لا فيما تَختارُ لنفسِكَ، وفي الوقتِ الذي يُريدُ، لا في الوقتِ الذي تُريدُ".

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ *** مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا

– وفي الحديثِ أنّ النبيَّ ﷺ قال: "إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِيي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا أَوْ قالَ خَائِبَتَيْنِ". الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

– فالكريمُ سبحانَه إذا سُئِلَ أَعطى أفضلَ ما يَعلَمُهُ للسّائلِ على قَدْرِ مَنزلتِه منه.

– قال بعضُهم: "وكيفَ لا يُجِيبُه وهو يُحِبُّ صَوْتَهُ، ولولا ذاكَ ما مَنَحَهُ الدعاءَ".

– وكما أنَّ إطلاقَ اللسانِ بالدعاءِ من أعظمِ المِنَنِ التي يَمُنُّ اللهُ بها على عبدِه، فإنَّ فُقدانَ هذه العبادةِ، من أعظمِ الحرمانِ والخُسرانِ.

يقولُ أبو حازمٍ الأعرجُ رحمهُ الله: "لَأَنَا مِنْ أنْ أُمْنَعَ مِنَ الدُّعاءِ أَخْوَفُ مِنِّي أنْ أُمْنَعَ الإجابَةَ".

ورُوِيَ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنّه قال: "إِنِّي لا أَحْمِلُ هَمَّ الإجابةِ، ولكنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدعاءِ، فإذا أُلْهِمْتُ الدعاءَ عَلِمْتُ أنَّ الإجابةَ مَعَهُ".

64) لِيُخَفِّفْ أَلَمَ البَلَاءِ عَنْكَ، عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْتَلِي لَكَ، فَالَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدَارُ هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيَارِ.

– يعني أَنَّ عِلْمَكَ أيُّها العبدُ بأنّه سبحانَه هو المُبْتَلِي لكَ، يُخَفِّفُ أَلَمَ البلاءِ عنكَ، فإنّ الذي واجَهَتْكَ منه الأقدارُ، أيْ الأمورُ المقدّرَةُ عليكَ مِنْ أنواعِ البلاءِ، هو الذي عوّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ، أيْ اختيارُ الأمرِ الحَسَنِ الذي يُلائمُكَ، فاتّهِمْ نَفْسَكَ إذا ظَنَّتْ خِلافَ ذلك، وسَلِّمْ الأمرَ تَسْلَمْ، فإنّ مولاكَ الحكيمَ بمصالِحِكَ مِنكَ أعلمُ. قال تعالى: (وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

– وهو الحكيمُ سبحانَه لا يَبْتَلِي إلّا لِحِكَمٍ، وفعلُ ذي الحِكَمِ لا يَثْقُلُ على ذوي الفَهْمِ.

– وهو ربُّكَ الجليلُ، وأنتَ عبدُه، والعبدُ لا يَأْلَمُ بما يَتَصرّفُ فيه ربُّه الجليلُ، وهو حَبيبُكَ وأنتَ مُحِبُّه، والمُحِبُّ الصّادِقُ لا يَأْلَمُ بما يَجِيئُه من الحبيبِ، بل يَفرحُ بذلك؛ حيثُ رآهُ أهلاً لأنْ يمتحِنَه ببلائِه، وكَفاكَ مِنْ حَبيبِكَ بأنْ يَعلمَ أنّكَ تُحِبُّه.

يقولُ قائلُهم:

إِنْ كُنْتُ لِلسُّقْمِ أَهْلاً *** فَأَنْتَ لِلشُّكْرِ أَهْلا

عَذِّبْ فَلَمْ تُبْقِ قَلْباً *** يَقُولُ لِلسُّقْمِ مَهْلا

– ومنهُ ما رُوِيَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه؛ لَمَّا أُصِيبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي طَاعُونِ عَمَوَاسَ اسْتَخْلَفَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ وَاشْتَدَّ الْوَجَعُ فَقَالَ النَّاسُ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: ادْعُ اللَّهَ يَرْفَعْ عَنَّا هَذَا الرِّجْزَ. قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِرِجْزٍ، وَلَكِنَّهُ دَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم، وَمَوْتُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَشَهَادَةٌ يَخْتَصُّ اللَّهُ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ. اللَّهُمَّ أَدِّ آلَ مُعَاذٍ نَصِيبَهُمُ الأَوْفَى مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ. فَطُعِنَ ابْنَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدَانِكُمَا؟ قَالا: يَا أَبَانَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَقَالَ: وَأَنَا سَتَجِدَانِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. ثُمَّ طُعِنَتِ امْرَأَتَاهُ فَهَلَكَتَا، وَطُعِنَ هُوَ فِي إِبْهَامِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا بِفِيهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّهَا صَغِيرَةٌ فَبَارِكْ فِيهَا فَإِنَّكَ تُبَارِكُ فِي الصَّغِيرِ، حَتَّى ماتَ رضي الله عنه.

– وعَنِ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ الزُّبَيْدِيِّ قَالَ: إِنِّي لَجَالِسٌ عِنْدَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَهُوَ يَمُوتُ فَهُوَ يُغْمَى مَرَّةً وَيُفِيقُ مَرَّةً. فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ إِفَاقَتِهِ: اخْنُقْ خَنِقَكَ فَوَعِزَّتِكَ إِنِّي لأُحِبُّكَ.

– ثمّ البلاءُ مَظْهَرُ قهرِهِ، يَرُدُّ به عبيدَه إلى بابِه، ويُريهِم سَطوةَ جَلالِه، ويُظهِرُ لهم كونَهم مَقهورينَ مَغلوبينَ ليس لهم من الأمرِ شيءٌ، ويَردَعُهم به عنِ الذنوبِ، ويُطهِّرُهم به عنِ أقذارِ الأوزارِ، ويَرفعُ به درجتَهم في دارِ القرارِ. وقد تكونُ العَطايا من البلايا، فإذا ابتلاكَ فَارْجُ حُسْنَ اختيارِ مولاكَ، ولا تَقْنَطْ مِنْ فضلِه.

– فإذا أصابتكَ أيُّها العبدُ مُصيبةٌ أو نَزلَتْ بكَ بَلِيّةٌ فاذكرْ من أنزلَ ذلك عليكَ، وما هو مُتّصِفٌ به من الرحمةِ والرأفةِ بك، والمحبةِ والعطفِ عليكَ، لعلّكَ تَفهمُ ما في طَيِّ ذلك مِنَ النِّعَمِ، وما يَعقُبُه سَوابغُ الفضلِ والكرمِ، ولو لم يكنْ إلّا تَطهيرُكَ من الذنوبِ، وتَمحيصُكَ من العيوبِ، وتَقريبُكَ من عَلّامِ الغُيوبِ لَكَفَى، فهل تَعوّدْتَ منه إلّا الإحسانَ؟ وهل رَأيتَ منه إلّا غايةَ الامتنانِ، فالذي وَاجَهَتْكَ منه الأقدارُ هو الذي عَوّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ، فالذي وَاجَهَتْكَ منه أحكامُ قهْرِهِ هو الذي عَوّدَكَ تَمامَ إحسانِه وبِرِّهِ، فالذي وَاجَهَتْكَ منه ظواهِرُ المِحَنِ هو الذي أَسْبَغَ عليكَ بَواطِنَ المِنَنِ، فالذي وَاجَهَتْكَ منه الرَّزايا هو الذي أَتْحَفَكَ بأنواعِ الكراماتِ والهدايا.

وللهِ درُّ القائلِ:

تَلَذُّ لِيَ الآلَامُ إِذْ أَنْتَ مُسْقِمِي *** وَإِنْ تَمْتَحِنِّي فَهْيَ عِنْدِي صَنَائِعُ

تَحَكَّمْ بِمَا تَهْوَاهُ فِيَّ فَإِنَّنِي *** فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ المَحَبَّةِ طَائِعُ

وقالَ آخَرُ:

وَخَفَّفَ عَنِّي مَا أُلَاقِي مِنَ العَنَا *** بِأَنَّكَ أَنْتَ المُبْتَلِي والمُقَدِّرُ

وَمَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى اللهُ مَعْزِلٌ *** ولَيْسَ لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَتَخَيَّرُ

– ويُخفِّفُ عنكَ ألَمَ البلاءِ عِلمُكَ أنّه سبحانَه المُبتلِي، وذلك مِنْ وُجُوهٍ، منها:

1- لأنّه جَميلٌ، والجَمِيلُ لا يَفعلُ إلّا جَمِيلاً، وهذا نَتيجةُ حُسْنِ الظّنّ بهِ لأجلِ وصْفِه.

2- ولأنّه كَريمٌ، والكريمُ لا يأتي بِمُؤلِمٍ إلّا لِمَنفعةٍ أَعْظَمَ.

3- ولأنَّه رحيمٌ، والرحيمُ لا يَقْصِدُ ألَمَ عبدِه إلّا لِمَصلحةٍ لَه.

4- ولأنّه قاهرٌ، والقاهرُ لا يُمكنُ الاعتراضُ على فِعْلِه، ولا يَسَعُ إلّا التّسليمُ له.

5- ولِرَجاءِ ثَوابِه فيما وَجَّهَ لأنّه قد وَعَدَ به لِمَنْ صَبَرَ ورَضِيَ.

6- واستئناساً بِوَعْدِه في تَكْفِيرِ الخَطايا كما جاءَ عنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

7- ومحبةً له، إذْ كلُّ ما يَفعلُ المَحْبُوبُ مَحْبُوبٌ.

8- ورِضىً عنه، لأنّ فيه رِضاهُ.

9- ورُجوعاً لِعِلْمِهِ، إذْ هو العالِمُ بما كَوَّنَ.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ). الأنبياء 23.

وكلٌّ بِتَدْبِيرِه وإرَادَتِه وعِلْمِه وقُدْرَتِه.

65) مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ.

- كُلُّ بَلِيَّةٍ إنّما هي مَحفوفةٌ بالأَلْطافِ، ولكنْ نَقصُ البَصِيرةِ مانِعٌ مِنْ إدراكِ الحَقِيقةِ.

- وقد قِيلَ في معنى اسمِ اللهِ اللَّطِيفِ: الذي يُوصِلُ إلى عِبادِهِ مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه مِنْ طُرُقٍ لا يَشْعُرُونَ بِهَا.

قال الخَطّابيُّ رحمه الله: "اللطيفُ هو البَرُّ بعبادِه، الذي يَلْطُفُ بهم مِنْ حيثُ لا يَعلمُونَ، ويُسَبِّبُ لهم مَصالِحَهُم مِنْ حيثُ لا يَحتَسِبُونَ".

- ومِمّا نُسِبَ لِعَلِيّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه:

وَكَمْ للهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ *** يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ

وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ *** فَفَرَّجَ كُرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ

وَكَمْ أَمْرٍ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحاً *** وَتَأْتِيكَ الْمَسَرَّةُ بِالعَشِيِّ

- ومِنْ لُطفِه سبحانَه بعبدِه، أنْ يُكرِمَه بأنْ يُوجِدَ في قلبِه حَلاوةَ رَوْحِ الرجاءِ، وانتظارِ الفَرجِ وكَشْفِ الضُّرِّ؛ فَيَخِفَّ أَلَمُهُ وتَنْشَطَ نَفْسُه.

قال ابنُ القيِّمِ رحمهُ الله: "فإنَّ انتظارَهُ ومُطالَعَتَه وتَرقُّبَه يُخَفِّفُ حَمْلَ المَشَقّةِ، لا سِيَّمَا عندَ قُوّةِ الرجاءِ أوِ القَطْعِ بالفَرجِ؛ فإنّه يَجِدُ في حَشْوِ البَلاءِ مِنْ رَوْحِ الفَرجِ ونَسِيمِه وراحَتِه ما هو مِنْ خَفِيِّ الأَلْطافِ، وما هو فَرَجٌ مُعَجّلٌ، وبه وبغيرِه يُعرَفُ مَعْنَى اسْمِهِ اللطيفِ".

- وهذا المعنى يَتَجلّى واضحاً في قِصّةِ يُوسُفَ عليه السلامُ؛ فقد لَطَفَ اللهُ به مِنْ حِينَ أُلْقِيَ في الجُبِّ، مُرُورًا بالفِتْنَةِ والسِّجْنِ، حتى مَكَّنَ اللهُ له في الأرضِ، ولهذا قالَ مُعترِفًا بذلك اللُّطْفِ الإلهيّ: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ). يوسف 100.

يقول ابنُ القيمِ رحمه الله: "فكانَ ظاهِرُ ما امتُحِنَ به يُوسفُ مِنْ مُفارقةِ أبيه، وإلقائِه في السجنِ، وبَيْعِهِ رَقيقًا، ثمّ مُراودَةِ التي هو في بيتِها عنْ نفسِه، وكذِبِها عليه، وسِجْنِه، مِحَناً ومَصائِبَ، وباطِنَها نِعَمًا وفَتْحًا، جعَلَها اللهُ سَبَباً لِسَعادَتِه في الدنيا والآخِرَةِ".

- يقولُ الشيخُ السعديُّ رحمه الله في تفسيره: "{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} يُوصِلُ بِرَّهُ وإحسانَه إلى العبدِ مِنْ حيثُ لا يَشعُرُ، ويُوصِلُه إلى الْمَنازِلِ الرّفِيعةِ مِنْ أمُورٍ يَكرهُهَا، {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} الذي يَعلَمُ ظواهِرَ الأمورِ وبواطِنَها، وسَرائِرَ العبادِ وضمائِرَهم، {الْحَكِيمُ} في وَضْعِه الأشياءَ مَواضِعَها، وسَوْقِهِ الأمورَ إلى أوقاتِها الْمُقدّرَةِ لها".

- واعلمْ أنّ اللُّطْفَ هو المُرادُ وهو الأصلُ في أقدارِ اللهِ عزّ وجلّ التي قد تَتمثّلُ بأنواعٍ مِنَ الشدائدِ والابتلاءاتِ، أيْ أنّ الشّدائدَ التي قد يَبْتلي اللهُ بها عبادَه، خَدَمٌ وأدواتٌ لألْطافِه، وليستْ هي المُرادةُ لذاتِها، فما يَبْتَلِي اللهُ عبدَه بِفَقْرٍ بعد غِنىً، أو بِمَرَضٍ بعدَ عافيةٍ، أو بِشدّةٍ بعدَ رَخاءٍ، إلّا لأنَّ في ذلك عِلاجاً لآفَةٍ انْتَابَتْهُ أو لِسُوءٍ حَلَّ به.

66) لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الْهَوَى عَلَيْكَ.

- أي لا يُخافُ عليكَ أيُّها العبدُ أنْ تَشتبِهَ الطرقُ الموصلةُ إلى اللهِ تعالى عليكَ، لأنّه سبحانه بَيَّنَها بالكتابِ والسنةِ، وإنّما يُخافُ عليكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوى، حتى يَعْمِيَكَ عن رُؤيَتِها.

وقد قالَ بعضُ الصّالحينَ: "الطَّرِيقُ وَاضِحٌ، والحَقُّ لائِحٌ، والدّاعِي قد أسْمَعَ، فما التَّحَيُّرُ بعدَ هذا إلّا مِنَ العَمَى".

وأنشدَ بعضُهم:

وآفَةُ العَقْلِ الهَوى فَمَنْ عَلَا *** عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجا

- ورُوِيَ أنّ رابِعَةَ سَمِعَتْ أحَدَهُم يقولُ: مَنْ أدْمَنَ قَرْعَ البابِ يُوشَكُ أنْ يُفْتَحَ له، فقالتْ له: "البابُ مَفتوحٌ وأنتَ تَفِرُّ منه، كيفَ تَصِلُ إلى مَقْصَدٍ أخْطَأْتَ الطّريقَ إليه في أَوَّلِ قَدَمٍ".

- كذلك لا يَلْتَبِسُ عليكَ الطريقُ فلا تَدرِي أَتَسْلُكُ طريقَ الشُّكرِ اعتباراً بِلُطْفِهِ، أو طَريقَ الصَّبرِ اعتباراً بالبَلِيَّةِ، فكلٌّ منهما على حَدِّ الأدَبِ وقد اتّحَدا في القصدِ وهو العبوديةُ، بِخِلافِ غَلَبَةِ الهوَى وحُبِّ النَّفْسِ المُؤَدّي إلى الخُروجِ عنِ الحَقّ بوُجُودِ السُّخْطِ والضَّجَرِ.

رُوِيَ عن عُمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنّه قال: "الصَّبْرُ والشُّكْرُ مَطِيَّتانِ، ما بالَيْتُ أيُّهما أرْكَبُ".

– فلا يُخافُ عليكَ أيّها العبدُ أن تلتبِسَ الطرقُ الموصلةُ إلى اللهِ عليكَ، لأنّها في غايَةِ الوُضُوحِ، وإنّما يُخافُ عليكَ مِنْ غَلَبَةِ الهوَى فيَصُمُّكَ ويَعْمِيكَ.

– قال عليٌّ رضي الله عنه: "إنَّ أخوفَ ما أتَخوّفُ عليكم اثنتانِ: طُولُ الأمَلِ، واتِّباعُ الهوَى، فأمّا طولُ الأملِ فيُنسِي الآخِرَةَ، وأمّا اتِّباعُ الهوَى فَيَصُدُّ عنْ الحقِّ".

– وقال قتادةُ رضي الله عنه: "إنَّ الرَّجُلَ إذا كانَ كلّما هَوَي شيئاً رَكِبَهُ، وكلّما اشْتَهى شيئاً أَتاهُ، لا يَحْجِزُهُ مِنْ ذلكَ وَرَعٌ ولا تَقْوى؛ فقدِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ".

– وقال عبدُ اللهِ بنُ عونٍ البَصْريُّ: "إذا غَلَبَ الهوَى على القلبِ، اسْتَحْسَنَ الرجلُ ما كانَ يَسْتَقْبِحُهُ".

قالَ تعالى وهو أصْدَقُ القائِلينَ: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}. الجاثية 23.

67) لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ.

– أيْ إذا دَعَوْتَ ربَّكَ، وطَلَبْتَ منه شيئاً مِنَ الأشياءِ، ولم تَظْهَرْ لك الإجابةُ، فلا تُطالِبْه، أي لا تَعترضْ عليه، وتُسِئْ الظّنَّ به بسببِ تأخُّرِ مَطلبِكَ؛ أي ما طلبْتَه منه، فإنّه لا يُسْألُ عمّا يَفعلُ، ولكنْ طالِبْ نفسَكَ، واعْتَرِضْ عليها، بسببِ تأخّرِ أدَبِكَ، فلو تَقدّمَ الأدَبُ لَمَا تأخّرَ المَطلَبُ، ومِنْ أدَبِكَ في الطَّلبِ عدمُ طَلَبِ الإجابةِ، فإنّ الطّالبَ إنّما يَقصِدُ بدُعائِه إظهارَ العبوديةِ فقط، ومِنَ الأدبِ عدمُ رُؤيةِ الاستحقاقِ لِمَا تَطلبُ، فإنّ رؤيةَ الاستحقاقِ تُوجبُ إِدْلالَكَ (اجْتِراءَكَ) عليه، والواجبُ إنما هو إذْلالُكَ بين يديه.

– ومِنْ حُسْنِ الأدَبِ أيضاً اكتفاؤكَ بِعِلْمِه ورِضاكَ بِحُكمِه، واعْتِمادُكَ على ما اخْتارَهُ لكَ دونَ ما اخْتَرْتَه لنفسِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ، فقدْ ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يُريدُ لا فيما تُريدُ، وفي الوقتِ الذي يُريدُ لا في الوقتِ الذي تُريدُ.

– قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه رحمهُ اللهُ: قَرَأْتُ في بعضِ الكُتُبِ: "يا ابنَ آدمَ أَطِعْنِي فيما أَمَرْتُكَ ولا تُعَلِّمْنِي بما يُصْلِحُكَ، إنِّي عَالِمٌ بِخَلْقِي، إنّما أُكْرِمُ مَنْ أكْرَمَني وأُهِينُ مَنْ هانَ عليهِ أمْرِي، ولستُ بِناظِرٍ في حَقِّ عبدِي حتى يَنْظُرَ عبدِي في حَقِّي".

- لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ.

لأنّ الأدَبَ حَقُّ اللهِ منكَ، والمَطْلَبَ حَظُّكَ منه، ولَأَنْ تكونَ بِحَقِّهِ أَوْلَى مِنْ أنْ تكونَ بِحَظِّكَ.

ولأنَّ ما تَطلُبُهُ مِنْ حظِّكَ إنّما تَصِلُهُ بأدَبِكَ إذا أُرْجِعْتَ إلى سَببِكَ، "وإنّما حُرِمُوا الوُصُولَ بِتَضْيِيعِهُمُ الأُصُولَ".

ولأنّ في التزامِ الأَدَبِ تَعظِيماً للربوبيةِ، وفي المُطالَبَةِ بالمَطلَبِ خُروجاً عن حَدِّ العبوديةِ، والعبوديةُ مُوافَقَةُ المُرادِ بامْتِثَالِ أمْرِهِ والاسْتِسْلامِ لِقَهْرِهِ.

68) مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ.

– أي متى زَيّنَ ظاهِرَكَ بالتّقوَى، وهي امْتِثالُ المَأْمُوراتِ واجْتِنابُ المَنْهِيّاتِ، وباطِنَكَ بالاستسلامِ، أي بالانقِيَادِ لِقَهْرِهِ مع الرِّضا والصّبْرِ على المُصِيباتِ، فقد أعْظَمَ المِنّةَ والنِّعْمَةَ عليكَ، فإنّه لا دَرَجَةَ أعْلَى مِنَ التَّقلُّبِ في عُبودِيّةِ الظّاهِرِ والباطِنِ.

– مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ كما يُحِبُّ ويَرضَى، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ حيثُ لا تَجِدُ حَرَجاً في صَدْرِكَ ممّا يَفْعَلُ وتُسَلِّمُ لأمْرِهِ تَسليماً، ويَنشرحُ قلبُكَ لذلكَ إكراماً له وتَعظيماً، فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ؛ إذْ أَعْلَى المِنَنِ بأنْ تكونَ الظّواهِرُ بطاعَتِه مَعمُورةً، وتكونَ البواطِنُ بالانقيادِ والإذْعانِ مع كَمالِ التّعظِيمِ لِمَشِيئَتِه مَغمُورةً.

مَنْ أَعْطاهُ اللهُ ذلك فَلْيَحْمَدْهُ على ما حَباهُ، ومَنْ بَلاهُ بغيرِ ذلك فَلْيَبْكِ على خَطايَاهُ.

– يقولُ سبحانَه وتعالَى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). النساء 65.

- يقولُ السّعديُّ رحمه الله: " ثمّ لا يَكْفِي هذا التّحْكِيمُ حتى يَنتَفِيَ الحَرَجُ مِنْ قُلوبِهِم والضّيقُ، وكونُهُم يُحَكّمُونَه على وجْهِ الإغْماضِ، ثمّ لا يَكْفِي ذلك حتى يُسَلّمُوا لِحُكْمِه تَسلِيمًا بانْشِراحِ صَدْرٍ، وطَمَأْنِينَةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظّاهِرِ والباطِنِ. فالتَّحْكِيمُ في مَقامِ الإسلامِ، وانتفاءُ الحَرَجِ في مَقامِ الإيمانِ، والتّسلِيمُ في مَقامِ الإحسانِ. فمَنْ اسْتَكْمَلَ هذه المَراتِبَ وكَمَّلَها، فقدِ اسْتَكْمَلَ مَراتِبَ الدِّينِ كُلِّها".

- مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ. أعظمَ المِنّةَ عليكَ بأنْ حَلَّاكَ بِمَعرِفَتِه المُوجِبَةِ لِشُهُودِ حَقِّه عليكَ وتَصرِيفِه لكَ، وكذلك أَرَاحَ ظاهِرَكَ مِنْ مُخالَفَةِ أمْرِه ونَهْيِه، وباطِنَكَ مِنَ الاعْتِراضِ عليه والالْتِفاتِ إلى غيرِه، وأقامَكَ في العُبوديةِ له التي هي أعْظَمُ أوصافِ مَنِ انتَسَبَ إليه.

69) الغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ نَظَرَ فِي مَاذَا يَفْعَلُ، وَالعَاقِلُ نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ.

– الغافِلُ: هو الذَّاهِلُ عَنِ المَقْصُودِ، والعاقِلُ: هو المُدْرِكُ لِلْمُرادِ.

– صَفاءُ الأَسْرارِ على حَسَبِ السّلامةِ مِنَ الأكْدارِ، والسلامةُ مِنَ الأكْدارِ في تَرْكِ التَّدْبيرِ والاخْتِيارِ، فلذلك قالَ: الغافِلُ إذا أصْبَحَ نَظَرَ في ماذا يَفعلُ، فكُلَّما فَاتَهُ مَقْصَدٌ ازْدَادَ قَلبُهُ كَدَراً، والعاقِلُ نَظَرَ ماذا يَفعلُ اللهُ به، فكُلّما فَاتَهُ مَقْصَدٌ اعْتَبَرَ وقامَ بِحَقِّ اللهِ في كلِّ أمْرٍ ظَهَرَ.

– الغافِلُ عنِ اللهِ تعالى إذا أصبحَ فأَوَّلُ خاطِرٍ يَرِدُ عليه نِسبَةُ الفِعْلِ إلى نَفْسِه، فيقولُ: ما أفعلُ اليومَ؟ فهو جَدِيرٌ بأنْ يَكِلَهُ اللهُ تعالى إلى نفسِه، وأمّا العاقلُ فأوّلُ خاطِرٍ يَرِدُ عليه نِسبَةُ الفِعْلِ إلى اللهِ تعالى، فيقولُ: ماذا يَفعلُ اللهُ بي؟ وذلك لِدَوامِ يَقَظَتِه، فهو جَدِيرٌ بأنْ يُوَفِّقَهُ اللهُ لِأَحْسَنِ الأعمالِ، ويُرشِدَهُ لِأَصْلَحِ الأحْوالِ.

– فأوّلُ خاطِرٍ يَرِدُ على العبدِ هو مِيزانُ تَوحِيدِه، ولذا قالَ بعضُهم: "مَنِ اهْتَدَى إلى الحَقِّ لم يَهْتَدِ إلى نَفْسِه، ومَنِ اهتَدَى إلى نَفْسِه لم يَهْتَدِ إلى اللهِ".

فانْظُرْ إذا اسْتَقْبَلَكَ شُغْلٌ، فإنْ عادَ قَلبُكَ في أوّلِ وَهْلَةٍ إلى حَوْلِكَ وقُوَّتِكَ، فأنتَ المُنقَطِعُ عَنِ اللهِ، وإنْ عادَ قلبُكَ إلى اللهِ سبحانَه، فأنتَ الوَاصِلُ إليهِ.

– ولِسانُ حَالِ المُؤمِنِ في هذا المَقامِ: "اللهمَّ إنِّي أَصْبَحْتُ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً ولا نَفْعاً، ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً، ولا أَسْتَطِيعُ أنْ آخُذَ إلّا ما أَعْطَيْتَنِي،

ولا أَتَّقِي إلّا ما وَقَيْتَني، اللهمّ وَفِّقْني لِمَا تُحِبُّه وتَرضاهُ مِنَ القَوْلِ والعَمَلِ في طاعَتِكَ، إنّكَ ذو الفَضْلِ العظيم".

– اِسْتَرَاحَ العُقَلاءُ مِنْ تَعَبِ التّدْبيرِ لِتَفْوِيضِهِمُ الأَمْرَ إلى العَلِيمِ القَدِيرِ، وتَعَذَّبَ الغُفَلاءُ بأنواعِ عَذابِ التّدبيرِ لِجَهْلِهِم بِرَبِّ أمْرِهِم.

– يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في كتابِه (تاج العروس): "مِنْ عَلاماتِ الغَفْلَةِ وصِغَرِ العُقولِ أنْ تَعُولَ هَمّاً هل يَقعُ أم لا، وتَترُكَ أن تَعُولَ ما لا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ، فتُصبِحُ تقولُ: كيف يكونُ الشيءُ غداً؟ وكيف يكونُ هذهِ السَّنة؟ وألْطافُ اللهِ تعالى تأتي مِنْ حيثُ لا تَعلمُ، والشّكُّ في الرّزقِ شَكٌّ في الرّازِقِ، وما سَرَقَ السّارِقُ وغَصَبَ الغاصِبُ في شيءٍ إلّا رِزْقَهُ، فما دُمْتَ حَيّاً لا يَنقُصُ مِنْ رِزْقِكَ شيءٌ، كَفَى بكَ جَهْلاً أن تَعُولَ الهَمَّ الصّغِيرَ وتَتْرُكَ الهَمَّ الكبيرَ، عُلْ هَمّاً هلْ تَموتُ مُسلِماً أو كافِراً، عُلْ هَمّاً هل أنتَ شَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، عُلْ هَمَّ النّارِ الموصُوفَةِ بالأبَدِيّةِ التي لا انْقِضاءَ لها، عُلْ هَمَّ أخْذِكَ الكتابَ باليَمِينِ أو بالشِّمالِ، هذا الهَمُّ الذي يُعالُ".

– قال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ رحمهُ اللهُ: "الرِّضَى بابُ اللهِ الأعْظَمُ، ومُسْتَراحُ العابِدِينَ، وجَنّةُ الدّنيا". وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ: "أصْبَحْتُ وما لِيَ سُرُورٌ إلّا في مَواقِعِ القَدَرِ". وقال الشيخُ أبو مَدينَ رحمهُ اللهُ: "اِحْرِصْ على أنّكَ تُصبِحُ وتُمسِي مُفَوّضاً ومُسْتَسْلِماً لَعَلّهُ يَنْظُرُ إليكَ فَيَرْحَمُكَ".

70) لِيَكُنْ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ، لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ.

- إقامةُ الصلاةِ تكونُ بِثلاثَةِ أُمُورٍ:

1- المُحافَظَةِ عليها بالوقتِ وأَوّلِهِ والجَماعَةِ.

2- حِفْظِ شُروطِها مِنْ غيرِ إخلالٍ ولا تَرَخُّصٍ ولا تَشدِيدٍ.

3- المُحافَظَةِ عليها بِحُدُودِها الظّاهِرَةِ ومَنْدُوباتِها التّابِعَةِ، وأسْرارِها الباطِنَةِ كالطُّمَأْنِينَةِ والتَّدَبُّرِ والخُشُوعِ.

فالمُقِيمُ مَنْ حَفِظَ حُدُودَها، وغَيَّبَ شُهُودَها، وعَلِمَ مَقْصُودَها.

- فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ، بل المُقيمُ واحِدٌ مِنْ أُلُوفٍ، قال أبو بكرٍ المعافريُّ رحمهُ اللهُ: "ولقد رَأَيْتُ مِمَّنْ يُحافِظُ عليها آلافاً لا أُحْصِيها، فأمّا مَنْ يَحفَظُها فما أَعُدُّ منهم خَمسةً".

- يَقولُ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم: "إنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ ما يُكْتُبُ لَهُ مِنْها إلَّا عُشرُها، تُسعُها، ثُمنُها، سُبعُها، سُدُسُها، خُمسُها، رُبعُها، ثُلثُها نِصْفُها".
أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان وغيرهم.

أي: لا يَكونُ له مِن أجْرِها إلَّا قَدْرُ ما عَقِلَ مِنْها، وقدْرُ ما خَشَعَ فيها، وما أَدَّى مِنْ شُروطِها وأركانِها، فرُبَّما يَكونُ له أيُّ جزءٍ مِن هذه الأجزاءِ، وهذا الاختِلافُ يَدُلُّ على اختِلافِ أجْرِ المُصلِّين. وفي الحديثِ: الحَثُّ على الخُشُوعِ في الصَّلاةِ والزَّجْرُ عَنِ الانْشِغالِ فيها بغيرِ اللهِ.

وقال الغزاليُّ رحمهُ اللهُ في الإحياء: "وقال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: أَجْمَعَتِ العُلَماءُ على أنّهُ "ليسَ للعبدِ مِنْ صَلاتِهِ إلّا ما عَقِلَ مِنها" فَجَعَلَهُ إجماعاً، وما نُقِلَ من هذا الجِنْسِ عنِ الفُقهاءِ المُتَوَرِّعِينَ وعن عُلَماءِ الآخِرَةِ أَكثَرُ من أنْ يُحْصَى".

- "أنّهُ ليسَ للعبدِ مِنْ صَلاتِهِ إلّا ما عَقِلَ مِنها"، اخْتُلِفَ في رَفْعِهِ، وقِيلَ أنّه مِنْ قَوْلِ ابنِ عبّاسٍ، وقِيلَ مِنْ قولِ عَمّارِ بنِ ياسِر، وقِيلَ مِنْ قولِ الثَّوْرِيّ.

- وفي البخاريِّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَرَدَّ وقالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صَلَّى، ثُمَّ جاءَ، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا، فَقالَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، فَقالَ: إذَا قُمْتَ إلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وافْعَلْ ذلكَ في صَلَاتِكَ كُلِّهَا. لم يُعْطِ لكلِّ رُكنٍ حَقَّه مِنَ السَّكينةِ والطُّمأنينةِ وحُسنِ القِراءةِ والذِّكرِ، فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإعادتِها ثَلاثَ مرَّاتٍ.

إذاً فليستِ العِبرةُ بالأداءِ بِقَدْرِ ما هي العِبرةُ بإقامةِ الصلاةِ، ولذلك فإنَّ اللَّهَ لم يَأمُرْ بمجرّدِ الصلاةِ، وإنّما أَمَرَ بإقامتِها.

- وقيل: الخُشوعُ في الصلاة خُشوعُ خَوْفٍ وانْكِسارٍ وإذْلالٍ، وخُشُوعُ تَعظِيمٍ وهَيْبَةٍ وإجْلالٍ، وخُشوعُ فَرَحٍ وسُرُورٍ وإقْبالٍ.

71) الصَّلاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ، وَاسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ الْغُيُوبِ.

– بَدَأَ بِتعدادِ فَوائِدِ الصلاةِ، فمَنْ وَجدَها أو شيئاً منها دَلَّ على وُجُودِ إقامَتِه لها، وإلّا فَليَبْكِ على نفسِه.

– طُهرةٌ للقلوبِ من أدْناسِ الذنوبِ الماضيةِ بالتكفيرِ والغُفرانِ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ) هود 114، ومِنِ الذنوبِ المُتَوقَّعَةِ: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ). العنكبوت 45.

– رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟" قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ، قال: "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا".

– وَاسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ الْغُيُوبِ، بما فيها مِنَ التَّعَرُّضِ لِنَفَحاتِ الرّحمةِ ونَسَماتِ القُرْبِ، إذْ "أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ"، فهو مَحَلُّ الوُصْلَةِ بالمَحْبُوبِ، وفَتْحُ بابِ الغُيُوبِ بما يُلْقِي الحَقُّ لِقَلْبِ عَبْدِه مِنَ الفَهْمِ عنه والكَرامَةِ منه.

72) الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ، ومَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ؛ تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الأَسْرَارِ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوَارِ.

- الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ، ناجَاهُ: أي سارَّهُ بما في قلبِهِ مِنْ أسْرارٍ أوْ مَشاعِرَ، فهو يُوَجِّهُ كَلاَمَهُ إِلَى اللهِ لإِظْهَارِ خُشُوعِهِ وَعِبَادَتِهِ، ويُناجِيه بالتلاوةِ والذكرِ والتعظيمِ والدعاءِ والطَلَبِ. يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنَّ أحَدَكُمْ إذا قامَ يُصلِّي إنّما يُناجِي رَبَّه، فَلْيَنْظُرْ كيفَ يُناجِيه؟". صححه الألباني في صحيح الجامع.

- وفي مُسلمٍ يقولُ رَسولُ اللهِ ﷺ: "قالَ اللَّهُ تَعالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}، قالَ اللَّهُ تَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قالَ اللَّهُ تَعالَى: أثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي، فإذا قالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ".

- ومَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ، مُصافاةُ العبدِ لربِّه بالانقطاعِ عمّا سِواهُ، ومُصافاةُ الرَّبِّ لعبدِه بإكرامِ مَثواهُ، حتّى يكونَ حالُ هذا العبدِ صَفاءً في صَفاءٍ، لاقْتِطاعِهِ عَنِ الكُلِّ بمولاهُ في صَلاتِه، وشاهِدُ ذلك بِنَبْذِ الدنيا وكلِّ شيءٍ خَلْفَ ظَهرِهِ بِرَفْعِ

يَدَيْهِ، وإسْقاطِ كلِّ شيءٍ سِوى مولاهُ بِتَكْبِيرِه، إذ مُرادُه بِلَفْظِ التّكبِيرِ أنّ كلَّ شيءٍ دُونَ اللهِ مُحْتَقَرٌ، وهذه صَلاةُ مَنْ غابَ عنِ الكلِّ ومع مولاهُ حَضَرَ.

– تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الأَسْرَارِ، أيْ مجالاتُها التي تَتردّدُ فيها، والأسرارُ هنا: عبارةٌ عنِ الدّقائقِ والحقائقِ والرقائقِ واللطائِفِ المفهومةِ من معاني الصلاةِ وألوانِ أفعالِها وأقوالِها، إذ لكلِّ لونٍ منها ذَوقٌ وفتحٌ يليقُ بها، فللتّلاوةِ وجهٌ، وللأذكارِ فتحٌ، وللدعاءِ فتحٌ، ولكلِّ شيءٍ منها وجهٌ.

كما أشارَ إليه الترمذيُّ الحكيمُ بقوله: "دعا اللهُ تعالى المُوحّدِينَ إلى هذه الصَّلَواتِ الخَمْسِ رحمةً منه عليهِم، وهَيّأَ لهم فيها أَلْوانَ الضِّيافاتِ لِيَنالَ العبدُ مِنْ كلِّ فِعْلٍ وقَوْلٍ شيئاً مِنْ عَطاياهُ، فالأفعالُ كالأطعمةِ، والأقوالُ كالأشربةِ، وهي عُرْسُ المُوَحّدِينَ، هَيّأَها رَبُّ العالمينَ لأهلِ رحمتِه كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ حتى لا يَبقى عليهم دَنَسُ الأغيارِ".

– وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوَارِ، وهي الظِّلالُ الواقِعَةُ في الصَّدرِ مِنْ مَعاني أذكارِها وتِلاوتِها، وفُهومِ حَركاتِها ودَعَواتِها، إلى غيرِ ذلك ممّا يُوجِبُ أَثَراً في النَّفْسِ، وسَمْتاً في الظّاهِرِ، كما قالَ تعالى: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ). الفتح 29.

– تُشْرِقُ فيها شَوارِقُ الأنْوَارِ، مِنْ شُموسِ المَعارِفِ لِلْعارِفِينَ، وأقْمارِ العِلْمِ للعالِمِينَ، ونُجومِ الفُهومِ للمُتَوَجِّهِينَ، فَيَطِيبُ العَارِفُ بَبَهْجَتِه، ويَنشرِحُ العَالِمُ برِفْعَتِه، ويَطْرَبُ المُتَوَجِّهُ لِنَشْوَتِه، والكُلُّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وكُلُّ نُورٍ لا يُوقَدُ مِنْ سِراجِ المِشْكاةِ المُحَمَّدِيّةِ فهو عَيْنُ الظُّلْمَةِ.

73) عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا، وَعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا.

– عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدادَها، إذ جَعَلَ الخَمْسِينَ خَمْسَةً، وَعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا، إذ جَعَلَ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثالِها ويَزيدُ، فهي لنا خَمْسُونَ وعلينا خَمْسَةٌ.

– ففي حديثِ الإسراءِ الطَّوِيلِ كما في البُخَارِيّ، قالَ النّبيُّ ﷺ: "يا رَبِّ إنَّ أُمَّتي ضُعَفَاءُ أجْسَادُهُمْ وقُلُوبُهُمْ وأَسْمَاعُهُمْ وأَبْصارُهُمْ وأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا، فَقالَ الجَبَّارُ: يا مُحَمَّدُ، قالَ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، قالَ: إنَّه لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، كما فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ في أُمِّ الكِتَابِ، قالَ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ بعَشْرِ أمْثَالِهَا، فَهي خَمْسُونَ في أُمِّ الكِتَابِ، وهي خَمْسٌ عَلَيْكَ".

– وفي النسائيّ بِلَفْظِ: "فَنُودِيَ: أنْ قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وخَفَّفْتُ عَنْ عِبادِي، وأُجْزِي بِالحَسَنَةِ عَشْرَ أمْثَالِهَا".

– يقولُ سبحانَه وتعالَى: (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). الأنعام 160.

– وفي صحيحِ مُسلمٍ، مِنْ حديثِ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قالَ: قال النّبيُّ ﷺ: يقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ منه ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منه بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شيئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً".

– وإنّما ذَكَرَ الصّلاةَ دونَ غيرِها، لأنّها أعظمُ العباداتِ قَدْراً، وأجَلُّهَا عندَ اللهِ تعالَى خَطَراً، ولأنَّها جامِعَةٌ لجَمِيعِ أنواعِ العباداتِ، فالتَّكَلُّمُ عليها تَكَلُّمٌ على مَجمُوعِ العِباداتِ بِطَرِيقِ الاخْتِصارِ والاكْتِفاءِ.

– رُوِيَ أنّ الجُنيدَ رآه بعضُهم في المَنامِ، وقِيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقالَ: "طاحَتْ تِلْكَ الإشَارَاتُ، وفَنِيَتْ تلكَ العِباراتُ، وأُبِيدَتْ تلكَ الرُّسُومُ، وغَابَتْ تلكَ العُلُومُ، وما نَفَعَنا إلّا رُكَيْعَاتٌ كُنّا نرْكَعُهَا في السَّحَرِ".

74) مَتَى طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وِجْدَانُ السَّلَامَةِ.

– أيْ متى طَلَبْتَ أيُّها العبدُ مِنْ مولاكَ عِوَضاً، أي ثَواباً على عَمَلٍ عَمِلْتَه كما هو شَأْنُ التُّجارِ، طُولِبْتَ منه بوُجُودِ الصِّدقِ، أي الإخلاصِ فيه مِنْ شُهُودِ الأغْيارِ، فإنّ الجَزاءَ إنّما يكونُ على كَامِلٍ ولا كَمالَ عندكَ إذْ ذَاكَ، فإنّكَ عَمِلْتَ لِحَظِّ نفسِكَ لا لِوَجْهِ مولاكَ، فَصِرْتَ كَأجِيرِ السُّوءِ إنْ لم يَأْخُذْ الأُجْرَةَ لم يَعْمَلْ.

– ويَكْفِي الْمُرِيبَ، أي الْمُرْتابَ في كَوْنِ مولاهُ يُعطِيه الأجْرَ وإنْ لم يَقْصِدْهُ بِعَمَلِه؛ وِجْدانُ السّلامةِ مِنَ العِقابِ، أي يَكْفِيه أنّ اللهَ لم يُعاقِبْهُ على هذا القَصْدِ القَبِيحِ، ومَنْ لم يَأْتِ بالخِدمةِ بآدابِها يَسْتَأْهِلُ أنْ يُعاقَبَ عليها.

– متى صَدَرَ منكَ عملٌ مِنْ أعمالِ البِرِّ وطَلَبْتَ الحَقَّ سُبحانَه أن يُجازِيَكَ عليه، طَلَبَكَ الحقُّ تعالى بوُجُودِ الصّدقِ فيه، وهو سِرُّ الإخلاصِ ولُبُّهُ، الذي هو التَّبَرّي مِنَ الحَوْلِ والقُوّةِ، وانْعِزالُ النفسِ عن رُؤيَةِ العَملِ لها بالكُلّيَّةِ بعدَ تَحقِيقِ الحُضورِ، والسّلامَةِ مِنَ الوَساوُسِ والخَواطِرِ والهَواجِسِ، حتى تكونَ صَلاتُكَ وعَبادَتُكَ باللهِ وللهِ غائِباً فيها عمّا سِواهُ، قد مَلأَتْ قَلْبَكَ عَظَمَةُ اللهِ فغِبْتَ في اللهِ باللهِ، فإنْ تَحقّقَتْ فيكَ هذه الأمُورُ صَحَّ لكَ أن تَطْلُبَ ما رَتّبَ الحَقُّ سبحانَه على العَملِ من أنواعِ الجَزاءِ والأجُورِ، وإنْ لم تَتحَقّقْ من نفسِكَ هذه الأمُورُ فاعْلَمْ أنّ عَملَكَ مَدخُولٌ، فاسْتَحِي مِنَ اللهِ أنْ تطلُبَ الجزاءَ على عَملٍ

مَدخولٍ، فيكْفِيكَ مِنَ الجزاءِ وحُصولِ المَطلَبِ السّلامةُ مِنَ الهَلاكِ والعَطَبِ، ويكفِيكَ مِنْ طَلَبِ حُسْنِ نَوالِهِ السّلامةُ مِنْ عِقابِه ونَكالِه، يَكفِي الْمُريبَ الْمُتّهَمَ؛ وُجْدانُ السّلامةِ مِنَ العُقوبةِ فيما اتُّهِمَ فيه، فمَنْ كانَ عندَ المَلِكِ مُتّهَماً وهو مَحبُوسٌ لِلعُقوبةِ على ما اتُّهِمَ فيه، ثم قيلَ له: إنّ المَلِكَ يَمنَحُكَ ويُعطِيكَ كذا وكذا، فيقولُ لهم: يَكفِينِي في العَطاءِ وُجْدانُ السّلامَةِ مِنْ عُقوبَتِه.

- قالَ الواسِطيُّ رحمهُ اللهُ: "العِبادَةُ إلى طَلَبِ العَفْوِ عنها أَقْرَبُ منها إلى طَلَبِ الأَعْواضِ".

- وقالَ خَيْرٌ النَّسَّاجُ رحمهُ اللهُ: "مِيراثُ أعْمَالِكَ ما يَلِيقُ بِأَفْعالِكَ، فَاطْلُبْ مِيراثَ فَضْلِه فإنّه أتَمُّ وأَحْسَنُ". (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ). يونس 58.

ومعنى كَلامِهِ رحمهُ اللهُ: أنّ جَزاءَ أعْمَالِكَ ما يَلِيقُ بأفْعالِكَ النّاقِصَةِ، وجَزاءُ النّاقِصِ ناقِصٌ، فاطْلُبْ منه ثَمَرَةَ فَضْلِه فإنّه كامِلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فهو أَتَمُّ وأَكْمَلُ.

- فوُجُودُ الصِّدقِ يَقْضِي بِرُؤيةِ التّوفِيقِ من الحَقّ سبحانَه، وذلك يَنْفِي شُهُودَ الاسْتِحْقاقِ عنِ الأعْواضِ، فلا يَبْقَى لِطَلَبِها مَحَلٌّ، فَطَلَبُها إذاً مُنافٍ له، وغَايَةُ مَطْلَبِ العاقِلِ وجْدَانُ السَّلامةِ، لا وُجُودُ الغَنِيمَةِ.

75) لَا تَطْلُبْ عِوَضاً عَنْ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً، يَكْفِي مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً.

– يعني لستَ له فاعِلاً على الحَقِيقَةِ وإنْ جَرَتْ صُورتُهُ على بَدَنِكَ، فإنّ الفاعِلَ له على الحَقِيقةِ مَنْ تَوَجَّهْتَ إليه، إذْ وَفّقَكَ إليهِ، ولولا تَوفِيقُهُ سبحانَه لكَ ما كُنتَ عامِلاً، ولولا قُدرَتُهُ وإرادَتُهُ ما كنتَ مَوجُوداً، وقد قالَ بعضُهم: "لا تَنْظُرْ لِعَمَلِكَ وإنْ صَحَّ، أُنْظُرْ لِمَنْ وَفّقَكَ إليهِ".

وهذه مِنْ حقائِقِ الصِّدقِ، إذ هي الغَيْبَةُ عنِ العَمَلِ بِشُهُودِ الحَقِّ، وذلك بِرُؤيَةِ فاعِلِيَّتِه مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

– وبِحَسَبِ هذا فِصُدْقُكَ في العَمَلِ بأنْ لا تَطْلُبَ العِوَضَ عليه، لأنّكَ تَطْلُبُ العِوَضَ على فِعْلِ غَيرِكَ، وذلكَ قَبِيحٌ مَردُودٌ في الجُملةِ وعلى التّفصِيلِ، وبالجُملةِ فلا عِوَضَ إلّا بعدَ صِدْقٍ، ولا صِدْقَ إلّا بِتَرْكِ طَلَبِ العِوَضِ، فَلَزِمَ الثّاني لِلُزُومِ الأوّلِ.

– وقد أخرجَ البخاريُّ ومُسلمٌ تَرْدِيدَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ لِرَجَزِ عامِرِ بنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه في غَزوةِ الأحْزابِ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا *** وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا *** وثَبِّتِ الأَقْدامَ إنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا *** وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

– وإذا كانتْ أعمالُكَ مَحَلَّ كُلِّ عَيْبٍ، ومَعْدِنَ كلِّ آفَةٍ ورِيبَةٍ، فلا تَتَعَدَّ فيه طَلَبَ القَبُولِ إنْ كنتَ عاقِلاً، وهو ما أشارَ إليه بقولِه: يَكْفِي مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً.

أشارَ بما ذُكِرَ لأنَّ الأعمالَ كلَّها مَدخُولَةٌ مَعْلُولَةٌ، وأنّها إلى العُقوبَةِ من حيثُ عِلَلُها أقْرَبُ منها إلى المَثُوبَةِ، وبِحَسَبِ ذلك فالجَزاءُ عليها يَكفِي منه وُجُودُ قَبُولِها.

ولذلكَ قِيلَ: "تَوْبَةُ الْمَعْصِيَةِ وَاحِدَةٌ، وتَوْبَةُ الطّاعَةِ أَلْفُ تَوبَةٍ".

وقِيلَ أيضاً: "الطّاعَاتُ إلى طَلَبِ الصّفْحِ عَنْ تَقْصِيرِها أَقْرَبُ منها إلى طَلَبِ الأعْوَاضِ عليها".

– ولذلكَ أُمِرَ بالاسْتِغْفارِ إِثْرَها، (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الذاريات 18، (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) آل عمران 17، وكانَ صلى الله عليه وسلم إذا انْصَرَفَ مِنَ الصّلاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثاً (صحيح مسلم) تَعلِيماً لِأُمَّتِه، وقِياماً بِرَسْمِ عُبودِيّتِه.

– وبالجُملةِ فالأَمْرُ عائِدٌ منهُ إليهِ، فلا يَنبغِي أنْ تُوقَفَ الآمَالُ إلّا عليهِ، فَوَجَبَ الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى بالافْتِقارِ الْمَحْضِ فيما عندَهُ، دُونَ وَسِيلَةٍ ولا سَبَبٍ، لأنَّ الأعمالَ كلَّها مَدخُولةٌ، ومع انْدِخَالِهَا فهي مِنَّةٌ وإفْضَالٌ، فلا اسْتِحْقَاقَ بها على كُلِّ حالٍ.

76) إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ، خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ.

– إذا أرادَ ذو الفَضْلِ العَظِيمِ أنْ يُظهِرَ فَضْلَه وإحْسانَه عليكَ خلَقَ العَمَلَ الصّالِحَ فيكَ وأجْرَاهُ عليكَ، ونَسَبَهُ إليكَ وأثَابَكَ عليه، وقال: هذا عَمَلُكَ أُجازِيكَ عليهِ مِنْ فَضْلي، وأطْلَقَ أَلْسِنَةَ العَبِيدِ بأنْ قالوا أنّكَ مُطِيعٌ ومُتَّقٍ ومُجتهِدٌ وعَامِلٌ... ما أجْوَدَ الكَرِيمَ سُبحانَه، يَنْسِبُ ما لَهُ إلى غيرِه، فالكُلُّ منه وإليه.

– فإذا شَهِدَ العبدُ هذا الفضلَ العظيمَ، واستولَى عليه الخَجَلُ والحَياءُ من سَيّدِه الكريمِ؛ لم يَنْسِبْ لِنَفْسِه شيئاً مِنْ مَحامِدِ الصِّفاتِ ومَحاسِنِ الأعْمالِ لا حَقِيقَةً ولا أَدَباً، إذْ لا أَهْلِيّةَ فيه لذلك، وأمّا مَذامُّ الصِّفاتِ والأعمالِ ومَساوِيها فَمُقتَضَى الأَدَبِ أنّه يُضِيفُ ذلكَ إلى نَفْسِه، وأنْ يَعتَرِفَ به أنّه مِنْ ظُلْمِه وجَهْلِه.

– يقولُ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ: "إذا عَمِلَ العبدُ حَسَنَةً، وقالَ: يا رَبِّ، أنتَ بِفَضْلِكَ اسْتَعْمَلْتَ، وأنتَ أَعَنْتَ، وأنتَ سَهَّلْتَ، شَكَرَ اللهُ تعالى له ذلكَ، وقالَ له: يا عبدِي، بل أنتَ أَطَعْتَ، وأنتَ تَقَرَّبْتَ. وإذا نَظَرَ إلى نَفْسِه، وقال: أنا عَمِلْتُ، وأنا أَطَعْتُ، وأنا تَقَرّبْتُ، أَعْرَضَ الله تعالى عنه، وقال: يا عبدِي، أنا وَفَّقْتُ، وأنا أَعَنْتُ، وأنا سَهّلْتُ. وإذا عَمِلَ سَيّئةً، وقال: يا ربِّ، أنتَ قَدَّرْتَ، وأنتَ قَضَيْتَ، وأنتَ حَكَمْتَ، غَضِبَ المولى عليه، وقال له: يا عبدِي، بَلْ أنتَ أَسَأْتَ، وأنتَ جَهِلْتَ، وأنتَ عَصَيْتَ. وإذا قال: يا ربِّ، أنا ظَلَمْتُ،

وأنا أَسَأْتُ، وأنا جَهِلْتُ، أَقْبَلَ المولى عليه، وقال: يا عبدِي، أنا قَضَيْتُ، وأنا قَدّرْتُ، وقد غَفَرْتُ وحَلُمْتُ وسَتَرْتُ".

– وعَنْ عَلِيّ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: "وَاللَّهِ يَا ابْنَ آدَمَ، لَتُطِيعَنَّ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ اللَّهُ، وَوَاللَّهِ لَا تُطِيعُهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ يَمُنُّ عَلَيْكَ بِطَاعَتِهِ".

– عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: إِنِّي لَأَجِدُ فِيمَا أَقْرَأُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي التَّوْرَاةِ: "إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَالِقُ الْخَلْقِ، خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَخَلَقْتُ مَنْ يَكُونُ الْخَيْرُ عَلَى يَدَيْهِ، فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُ الْخَيْرَ أَنْ يَكُونَ عَلَى يَدَيْهِ، وَإِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، خَالِقُ الْخَلْقِ، خَلَقْتُ الشَّرَّ وَخَلَقْتُ مَنْ يَكُونُ الشَّرُّ عَلَى يَدَيْهِ، فَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُ الشَّرَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى يَدَيْهِ".

– وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}، وَأَنَا قَدَّرْتُهَا عَلَيْكَ.

– وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: "وَاللَّهِ مَا قَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَلَا كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَلَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّونَ، وَلَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَلَا كَمَا قَالَ أَهْلُ النَّارِ، وَلَا كَمَا قَالَ أَخُوهُمْ إِبْلِيسُ". قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}، وَقَالَ شُعَيْبٌ: {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا}، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}، وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا}، وَقَالَ أَخُوهُمْ إِبْلِيسُ: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي}.

– عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "لَوْ كَانَ الْخَيْرُ فِي كَفِّ أَحَدِنَا مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُفْرِغَهُ فِي قَلْبِهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُفْرِغُهُ فِي قَلْبِهِ".

– وفي مسلمٍ عن عليٍّ رضي الله عنه، عن رَسولِ اللهِ ﷺ، أنَّهُ كانَ إذَا قَامَ إلى الصَّلَاةِ، قالَ: "وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفًا، وَما أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، إنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ له، وَبِذلكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بذَنْبِي، فَاغْفِرْ لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأخْلَاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ ليسَ إلَيْكَ، أَنَا بكَ وإلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إلَيْكَ".

– الإقرارُ بأنَّ كلَّ خيرٍ واصلٍ إلى العبادِ ومَرْجُوٍّ وُصُوله، فهو في يَدَيْهِ تعالَى، والشَّرُّ ليسَ إليكَ، أي: لا يُنْسَبُ الشَّرُّ إليكَ، وفيه: الإرشادُ إلى الأدَبِ في الثَّناءِ على اللهِ تعالى ومَدْحِه، بأنْ يُضافَ إليه مَحاسِنُ الأمُورِ دونَ مَساوِئِها على جِهَةِ الأدَبِ.

يقولُ عزّ وجلّ مُخبراً عَنِ النّفَرِ مِنَ الجِنّ: (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) الجن 10. يقولُ السّعديُّ رحمهُ اللهُ في تَفْسِيرِها: أي: لا بُدَّ مِنْ هذا أو هذا، لأنّهم رَأَوْا الأمرَ تَغَيَّرَ عليهم تَغَيُّراً أنْكَرُوه، فَعَرَفُوا بِفِطْنَتِهم أنّ هذا الأمرَ يُرِيدُه اللهُ، ويُحْدِثُه في الأرضِ، وفي هذا بيانٌ لِأَدَبِهم، إذْ أضافُوا الخيرَ إلى اللهِ تعالى، والشرُّ حَذَفُوا فَاعِلَه تَأَدُّباً مع اللهِ.

يقولُ الشيخُ زرّوقٌ رحمهُ اللهُ: "وَالْخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ ليسَ إِلَيْكَ"، يعني أنَّ كلَّ كَمالٍ فهو لا يَلِيقُ بَغَيْرِكَ، وكلَّ نَقْصٍ فإنّما هو لِغَيْرِكَ، وأنّ كلَّ شيءٍ خَلْقاً واخْتِرَاعاً إنّما هو منكَ".

وجِمَاعُ الأمرِ أنّكَ من حيثُ أنتَ لا يَلِيقُ بِكَ إلّا النّقْصُ، ومِنْ حيثُ إفْضَالُهُ أهْلٌ لكلِّ خَيْرٍ وكَمالٍ.

77) لَا نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ.

– أيْ لا نهايةَ لِمَا تُذَمُّ به أيها العبدُ مِنَ القبائحِ إنْ أَرْجَعكَ مولاكَ إلى نفسِكَ، وخلَّى بينكَ وبينَها، فإنَّ النفسَ أمّارةٌ بالسُّوءِ، وذلكَ مِنْ عَلاماتِ الطّردِ والإبْعادِ، ولا تَفرُغُ، أيْ لا تَنتهِي مَدائِحُكَ، أيْ مَحاسِنُكَ التي تُمدَحُ بها، إنْ أظْهَرَ جُودَه عليك، ونَصَرَكَ على نفسِكَ، فتكونَ مِمَّنْ رَحِمَهُ واجْتَباهُ، ووفّقَهُ لِمَا يُحبُّه ويَرضاهُ.

– ولو رَأَيْتَ انْغِمَاسَكَ في مَذامِّكَ لَمُتَّ مِنْ كَمَدِكَ، ولو شَاهَدْتَ انْخِرَامَكَ في ذلكَ لَمَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنْ خَجَلِكَ، ولو عَرَفْتَ قَدْرَكَ بالنِّسْبَةِ إلى جُودِه عليكَ لَطِرْتَ مِنْ فَرَحِكَ.

– الذي يَقْتَضِيهِ وَصْفُكَ مِنْ حيثُ أنتَ وُجُودَ النَّقْصِ، لانْفِرادِه تعالى بالكَمالِ، كما تَقتضِي أوصافُه وُجُودَ الكَمالِ المُطلَقِ الذي يَقضِي لغيرِه بجميعِ النَّقْصِ، فما ظَهَرَ مِنْ كَمالٍ عليكَ فمِنْ نِسْبَةِ وُجُودِه –من حيثُ هو– بِجُودِه، وما ظَهَرَ عليكَ مِنْ نَقْصٍ فمِنْ نِسْبَةِ وُجُودِكَ من حيثُ أنتَ، كما أشارتِ الآيةُ الكريمةُ في قولِه تعالى: (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) النساء 79. أي: مِنْ نِسْبَتِهَا، وإلّا فَكُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

– يقولُ البغويُّ في تفسيره: قولُه عزّ وجلّ: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ) خَيْرٍ ونِعْمَةٍ (فَمِنَ اللَّهِ) (وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ) بَلِيَّةٍ أو أَمْرٍ تَكْرَهُهُ، (فَمِن نَّفْسِكَ) أي: بِذُنُوبِكَ.

فإنْ قِيلَ كيفَ وَجْهُ الجَمْعِ في قولِه تعالى: (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ)، بينَ قولِه: (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ)، وبين قولِه: (فَمِن نَّفْسِكَ) قيل: قولُه: (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ)، أي: الخَصْبُ والجَدْبُ والنَّصرُ والهَزِيمةُ، كلُّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، وقولُه: (فَمِن نَّفْسِكَ) أي: ما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ مِنَ اللهِ فَبِذَنْبِ نَفْسِكَ عُقُوبةً لكَ، كما قال الله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ).

يَدُلُّ عليهِ ما رَوَى مُجاهدٌ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أنّهُ قرأَ (وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) وأنا كَتَبْتُهَا عليكَ.

– قالَ خيرٌ النَسّاجُ رحمه الله: "مِيراثُ أعْمَالِكَ ما يَلِيقُ بِأَفْعَالِكَ، فَاطْلُبْ مِيراثَ فَضْلِهِ وكَرَمِهِ فَهْوَ أَوْلَى بِكَ". وقالَ بعضُ الصّالِحِينَ: "ما هُناكَ إلّا فَضْلُهُ، ولا نَعِيشُ إلّا في سِتْرِهِ، ولو كُشِفَ الغِطَاءُ لَكُشِفَ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ".

– ومِمّا رُوِيَ مِنْ دُعاءِ النَّبيِّ ﷺ: "وأَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إلى ضَيْعَةٍ وعَوْرَةٍ وذَنْبٍ وخَطِيئَةٍ، وإِنّي إِنْ أَثِقُ إِلّا بِرَحْمَتِكَ، فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلّا أَنْتَ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ".

78) كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً.

– في الحَديثِ القُدسِيِّ، يقولُ النبيُّ ﷺ: قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: "الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ". (صحيح أبي داود).

– أيْ كُنْ أيّها العبدُ مُتعلِّقاً بأوصافِ رُبُوبِيّتِه تعالَى مِنْ غِنىً وعِزٍّ وقُوّةٍ وعِلْمٍ وقُدْرَةٍ ونحوِ ذلك، بأنْ تُشاهِدَ أنَّ هذه الأوصافَ إنّما هي لِمَولاكَ فقط.

ولا تَشْهَدْ هذا المَشْهَدَ إلّا إذا تَحقَّقْتَ بأوصافِ عُبوديّتِكَ مِنَ الفَقْرِ والذُّلِّ والعَجْزِ والجَهْلِ والضَّعْفِ ونحوِ ذلك، فإذا تَحقّقْتَ بما هو لكَ، وتَعلّقَتْ آمالُكَ بما هو له، أمَدّكَ بأوْصَافِه، فتكونُ غَنِيّاً باللهِ، عَزِيزاً باللهِ، قَادِراً باللهِ، عَالِماً باللهِ، قَوِيّاً باللهِ... إلى غيرِ ذلكَ.

كما يقولُ ابنُ عَطاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ في حِكْمَةٍ لاحِقَةٍ: "تَحقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ".

– لأنّكَ بِتَحقُّقِكَ بأوصَافِكَ تُكْسَى حُلَّةً مِنْ أوْصَافِه، فتكونُ غَنِيّاً في فَقْرِكَ، فَقِيراً في غِنَاكَ، عَزِيزاً في ذُلِّكَ، ذَلِيلاً في عِزِّكَ، قَوِيّاً في ضَعْفِكَ، ضَعِيفاً في قُوَّتِكَ، قَادِراً في عَجْزِكَ، عَاجِزاً في قُدْرَتِكَ، فكلّما ازْدَدْتَ تَحقُّقاً بأوصافِكَ ازْدَدْتَ تَعَلُّقاً بأوْصَافِه.

– وكَيْفِيّةُ التّعَلُّقِ بأوصافِ الحَقِّ سبحانَه: هو أنْ تَلْتَجِئَ في أمُورِكَ إليه، وتَعتِمَدَ في حَوائِجِكَ عليه، وتَرفُضَ كلَّ ما سِواهُ، ولا تَرى في الوُجُودِ إلّا إيّاهُ، فإذا نَظَرْتَ إلى عِزّهِ وكِبْرِيَائِهِ وعَظَمَتِهِ تَعَزَّزْتَ بهِ ولم تَتَعَزَّزْ بغيرِه، وصَغُرَ في عَيْنِكَ دُونَه كلُّ شيءٍ، وإذا نَظَرْتَ إلى وَصْفِهِ تعالَى بِالغِنَى تَعَلّقْتَ بِغِنَاهُ، واسْتَغْنَيْتَ عَمّا سِواهُ، ولم تَفْتَقِرْ إلى شيءٍ، واسْتَغْنَيْتَ به عنْ كلِّ شيءٍ، وإذا نَظَرْتَ إلى وَصْفِهِ تعالَى بِالقُدْرَةِ والقُوَّةِ لم تَلْتَجِئ في حَالِ عَجْزِكَ وضَعْفِكَ إلّا إلى قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ، واسْتَضْعَفْتَ كلَّ شيءٍ... وهكذا في جَمِيعِ صِفاتِ اللهِ سبحانَه.

– فالتَّعَلُّقُ بِأَوْصَافِهِ هو النَّظَرُ إليها، والاعْتِمادُ عليها، والتّوجُّهُ إليه بها عَمَلاً وتَوَسُّلاً، والتَّحَقُّقُ بأوصافِكَ هو الوُقُوفُ معها، والفِرَارُ منها إلى مولاها، والعَمَلُ بالضِّدِّ في مُقْتَضاها.

– قال الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ: "تَصْحِيحُ العُبوديّةِ بِمُلازَمَةِ الفَقْرِ والعَجْزِ والضّعْفِ والذُّلِّ للهِ تعالى، وأَضْدَادُها أَوْصَافُ الرُّبوبيّةِ، فَمَا لَكَ وَلَها؟ فَلازِمْ أَوْصَافَكَ، وتَعَلَّقْ بأوصافِ رَبِّكَ، وقُلْ مِنْ بِساطِ الفقرِ الحَقيقيِّ: يا غَنِيُّ مَنْ لِلْفَقِيرِ غيرُكَ، ومِنْ بساطِ الضّعفِ الحَقيقيِّ: يا قَوِيُّ مَنْ للضّعِيفِ غيرُكَ، ومِنْ بساطِ العَجزِ الحَقِيقيِّ: يا قَادِرُ مَنْ لِلْعاجزِ غيرُكَ، ومِنْ بِساطِ الذُّلِّ الحقيقيِّ: يا عَزِيزُ مَنْ لِلذَّلِيلِ غيرُكَ، تَجِدِ الإجَابَةَ كَأَنَّهَا طَوْعُ يَدِكَ".

79) مَنعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

- هذه الحِكْمَةُ تَتِمَّةٌ للحِكْمَةِ التي قبلَها، وتأْكِيداً لِلتّحذِيرِ مِنْ ادِّعاءِ وَصْفٍ مِنْ أَوْصافِهِ سبحانَه. فالمَطلُوبُ مِنَ العبدِ أنْ يَتَعَلَّقَ بأوصافِ الرُّبوبيّةِ لِيَسْتَكْمِلَ بها نَقْصَهُ -كما ذُكِرَ في الحِكْمَةِ السّابِقَةِ-، لا أنْ يَدّعِيَهَا لِنَفْسِه مُتَجاهِلاً بها نَقْصَهُ.

- إذا كانَ سُبحانَه مَنعَكَ أنْ تَدَّعِيَ ما ليسَ لكَ ممّا للمَخْلُوقِينَ، مِنْ أَمْوالٍ وعُلُومٍ وأَعْمالٍ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِىَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ مَعاذَ اللهِ أن يكونَ ذلكَ، فاعْرِفْ قَدْرَكَ، ولا تَتَعَدَّ طَوْرَكَ.

- فإذا ادَّعَيْتَ أنّكَ غَنِيٌّ أو عَزِيزٌ أو قَوِيٌّ أو عَظِيمٌ أو عَالِمٌ دونَ نِسبةِ هذه الصِّفاتِ في اللهِ وباللهِ كانَ في ذلك نَوْعٌ مِنْ مُشارَكَةِ الْمَرْبُوبِ للرَّبِّ سبحانَه، واللهُ لا يَرضَى بِمُشاركةِ غيرِه له فيما اخْتُصَّ بهِ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيّةِ.

- فلا تَنْسَ وأنتَ تَتَمَتّعُ بالعِزّةِ أنّكَ إنّما تَتمَتّعُ بالعِزّةِ التي مَنَحَكَ اللهُ إيّاها، ولا تَنْسَ وأنتَ تَتمتّعُ بالقُوّةِ والقُدْرَةِ أنّكَ إنّما تَتمتّعُ مِنْ ذلك بِقُوّةِ اللهِ وقُدْرَتِه، ولا تَنْسَ وأنتَ تَتمتّعُ بالغِنَى أنّكَ فَقِيرٌ مَنَحَكَ اللهُ شيئاً مِنْ رِفْدِهِ وغِنَاهُ... إنّكَ إنْ فَعَلْتَ ذلك غَنِيتَ دائماً باللهِ، وتَقَلّبْتَ مِنْ حياتِكَ في عِزّةٍ رَبّانيةٍ لا تُفارِقُكَ، وتَحَصّنْتَ مِنْ حِمايَةِ اللهِ بقُوّةٍ لا تُقْهَرُ.

80) مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرارِ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ وَالافْتِقَارِ.

– أيْ ما طَلَبَ لكَ أَيُّها العبدُ الحَوَائِجَ مِنَ اللهِ تعالَى شيءٌ مِثْلُ الاضْطِرَارِ إليهِ، إذْ بهِ تَقَعُ الإجابَةُ، لقولِه سبحانَه: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) النمل 62.

أو يكونُ المعنى: أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلُوبٍ يَطلُبُه العبدُ الاضطرارُ، وهو أنْ لا يَتَوَهَّمَ مِنْ نَفْسِه حَوْلاً ولا قُوّةً، ولا يَرَى لِنَفْسِه سَبَباً مِنَ الأسبابِ يَعتمدُ عليه أو يَستندُ إليه، بل يكونُ بمنزلةِ الغَرِيقِ في البحرِ، أو التّائِهِ في التَّيْهِ القَفْرِ، لا يَرَى لِغِيَاثِهِ إلّا مولاهُ، ولا يَرْجُو لِنَجاتِهِ مِنْ هَلَكَتِهِ أَحَداً سِواهُ.

– والذِّلَّةُ والافْتِقارُ أَمْرانِ مُوجِبانِ لإسْراعِ مَواهِبِ الحَقِّ تعالى إلى العبدِ المُتّصِفِ بهما، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِه تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) آل عمران 123، فَذِلَّتُهُم أَوْجَبَتْ عِزَّتَهُم ونُصْرَتَهُم.

– ولا أَسْرَعَ بالمواهِبِ الإلهيّةِ لكَ مثلُ الذِّلَّةِ والافْتِقارِ إلى ذِي الاخْتِيارِ، فإنَّ الكَرِيمَ إذا رَأَى عبدَه الضّعيفَ مُتّصِفاً بِذِلَّتِه وفاقَتِه وحاجَتِه، طارِحاً نَفْسَه عَنِ المِقْدَارِ والاعْتِبارِ أَحَبَّهُ وأَقْبَلَ عليهِ بِمَواهِبِه، وأَعْطاهُ ما لم يكنْ في خَيالِه.

فَاتّصِفْ بِذِلَّتِكَ كَيْ تَفُوزَ بِهِبَةِ رَبِّكَ، ومَوَاهِبُ القَهَّارِ إِنَّما تُنْثَرُ على ذَوِي الافْتِقَارِ.

– وأَنْشَدَ بعضُهم:

أَدَبُ الْعَبِيدِ تَذَلُّلٌ *** والْعَبْدُ لَا يَدَعُ الْأَدَبْ

فَإِذَا تَكَامَلَ ذُلُّهُ *** نَالَ الْمَوَدَّةَ وَاقْتَرَبْ

وقالَ آخَرُ:

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى *** حَلَلْتُ مَحِلَّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ

وَأَغْضَيْتُ الْجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا *** وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

– إذاً لا شيءَ في طَلَبِ الحَوائِجِ مِنَ اللهِ أَنْفَعُ مِنَ الاضْطِرارِ، والاضْطرارُ: هو تَأَكُّدُ الاحْتِيَاجِ واشْتِدَادُه، بمعنى أنّه وسيلةٌ إلى اللهِ تعالى في طَلَبِ الحَوائِجِ، لأنّه الاحتياجُ الذي لا تَبقَى معه بَقِيّةٌ لِصَاحِبِه غيرَ مولاهُ، فلا يكونُ بينه وبينَ اللهِ حِجابٌ.

– قال بعضُهم: "المُضطرُّ هو الذي يَقِفُ بينَ يَدَيْ مَولاهُ فَيَرفَعُ إليهِ يَدَيْهِ في المَسْأَلَةِ فلا يَرَى بينَه وبينَ اللهِ حَسَنَةً يَستَحِقُّ بها شيئاً، فيقولُ: هَبْ لي يا مَوْلَايْ بِلَا شَيْءٍ".

– فأمّا الذِّلَّةُ والافتقارُ فهما مِنْ لَوَازِمِ الاضْطِرارِ، فما اضْطَرَّ عَبْدٌ إلّا اسْتَشْعَرَ وُجُودَ افْتِقَارِهِ، ولا اسْتَشْعَرَ فَقْرَهُ إلّا لَزِمَهُ الذُّلُّ، والذُّلُّ ضَامِنُ النُّصْرَةِ: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ). آل عمران 123.

81) لَوْ أَنَّكَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ، لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَغَطَّى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

لأنَّ مَساوِيَكَ – التي هي عُيُوبُكَ – ودَعاوِيَكَ لا تَنْفَكُّ عنكَ، بل هي ذَاتِيّةٌ لكَ، فلا غِنىً لكَ في كَمالِكَ عَنْ إفْضَالِ مولاكَ، والتّوَجُّهِ لَهُ بِفَقْرِكَ مِنْ كلِّ شيءٍ حتى مِنْ فَقْرِك، بأنْ تَرَى أنّكَ غيرُ مُتَحَقِّقٍ فيه، لاسْتِغْراقِكَ به.

قالَ أبو يزيدَ رحمه الله: "قِيلَ لي: خَزائِنُنا مَمْلُوءَةٌ بِالخِدْمَةِ، فإنْ أَرَدْتَنا فَعَلَيْكَ بالذِّلَّةِ والافْتِقَارِ".

وقِيلَ لِبَعضِ المَشايخِ: "بِماذَا تَلْقَى رَبَّكَ؟ فقالَ: بِفَقْرِي، وهل يُلْقَى الغَنِيُّ إلّا بالفَقْرِ؟".

– إذاً لو أنّكَ لا تَصِلُ إلى اللهِ تعالى أيّها العبدُ إلّا بعدَ فَناءِ مَساوِيكَ وعُيوبِكَ، ومَحْوِ دَعاوِيكَ التي تَدَّعِيها مِنْ نسبةِ الأعمالِ إلى نفسِكَ، لم تصِلْ إليه أبداً، لأنّ المساوِيَ والدّعاوِيَ طَبعُكَ.

– وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَغَطَّى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فعِزّةُ جلالِه تَقتضِي أنْ لا يُوصَلَ إليه بِسِوَاهُ، إذْ لا وُصُولَ إليه إلّا به، ولا قُرْبَ له إلّا منه، ولا كَمالَ إلّا عنه، لِثُبوتِ نَقْصِ كلِّ شيءٍ دُونَه، وعَدَمِيّةِ كلِّ شيءٍ لِوُجودِه.

– فإذا أرادَ اتِّصالَ عبدِه بالعِلْمِ بِه؛ سَتَرَ وصفَه النّاقِصَ الدَّنِيَّ بوصفِه تعالى الكامِلِ العَزيزِ، فيُظْهِرُ عليه مِنَ الغِنَى به ما يَغِيبُ فيه وجُودُ فَقْرِه، ومِنَ العِزِّ به ما يَفْنَى فيه وُجُودُ ذُلِّه، ومِنَ القُدرةِ به ما لا تَبقَى لِعَجْزِه معه نسبةٌ، ومِنَ القُوّةِ به ما يَذهَبُ بوجُودِ ضَعْفِه، حتّى لو قَابَلَ الوُجودَ كلَّه لَتلاشَى فِي هِمّتِه، وذَهَبَتْ حَرَكَاتُه عندَ مُقابَلَتِه.

وفِي معنى ذلك قِيلَ:

لا يُبْعِدَنَّكَ عَتْبُنَا عَنْ بابِنَا *** فالعَهْدُ بَاقٍ والوِدَادُ مُصَانُ

وبِلُطْفِنَا وبِحُسْنِنَا وبِجاهِنَا *** شَاعَ الحَدِيثُ وسَارَتِ الرُّكْبَانُ

فإنْ ذَلَلْتَ لِعِزِّنَا ولِجاهِنَا *** ذَلَّتْ لِعِزَّتِكَ المُلُوكُ وهَانُوا

– عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فقد آذَنْتُهُ بالْحرْبِ، وَمَا تَقَرّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، ومَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ". أخرجه البخاري.

– فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ. بما منه إليكَ مِنْ إحسانٍ وإفضالٍ، وظُهورِ آثارِ الجَلالِ والجَمالِ، لا بما منكَ إليه مِنْ عِبادَاتٍ وأعمالٍ، إذْ لا يَصِحُّ خُروجُكَ مِنْ نفسِكَ بنفسِكَ.

بِلَا عَمَلٍ مِنِّي إِلَيْهِ اكْتَسَبْتُهُ *** سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لَا بِشَيءٍ يُعَلَّلُ

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)، (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا)، (فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ)، (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)، (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

(النور 10، النور 21، البقرة 64، النساء 83، النور 20).

82) لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ.

- لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ، بلْ ولا لِلوُجُودِ، ومَنْ أنتَ حتى تُوَفَّقَ لِصُورةِ الطّاعة؟ وإذا وُفِّقْتَ فأيُّ قَدْرٍ لأعمالِكَ المَدخُولةِ وصفاتِكَ المَعْلُولةِ حتى تُقَابِلَ بها فضلَه وكرمَه؟ قال الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ رحمه الله: "إذا طالَبَهم بالإخلاصِ تلاشَتْ أعمالُهم، وإذا تلاشَتْ أعمالُهم زادَ فَقْرُهم وفاقَتُهم فتَبَرّؤوا مِنْ كلِّ شيءٍ منهم ولهم".

- لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ، ولَكَانَ مَصْحُوباً بالرّدِّ والعُقوبةِ، لِمَا هو مُشتملٌ عليه مِنَ المَساوِي والدَّعاوِي التي لا يَصِحُّ معها الوُصولُ، ولا يمكنُ نَفْيُها إلّا بفضلِ اللهِ ومِنّتِه، فجميلُ سِتْرِهِ هو المُوصلُ إليها أولاً، وجميلُ سِترِه هو المُوجبُ لِقَبُولِها آخِراً، وجميلُ سِترِه هو القاضي بالإثابةِ عليها في الدّارِ الآخرةِ، فما هناكَ إلّا فَضْلُه، ولا نَعِيشُ إلّا في سِترِه في الدنيا والآخرةِ.

- لولا سِتْرُه تعالى الجَميلُ لم يكنْ عَمَلٌ من الأعمالِ أهلاً للقبولِ، لِفَقْدِ شَرطِه مِنَ الإخلاصِ، فإنّ العبدَ مُبتلىً بِنَظَرِهِ إلى نفسِه، وفَرَحِه بِعَمَلِه مِنْ حيثُ نِسبتُه إليه، وشُهودُ حَولِه وقُوّتِه عليه، وهذا ممّا يَقْدَحُ في الإخلاصِ، فيَنبغِي للعبدِ أنْ يَعْتَمِدَ على فضلِ اللهِ وكرمِه، لا على اجتهادِه وعَمَلِه.

- الكَريمُ سبحانَه لِجَميلِ كَرمِه، وعَظيمِ سِترِه، يَستُرُ عَيْبَ المَعِيبِ ويَتَلقّاهُ بالقَبولِ، ويَجزي عليه بأعْظَمِ الْمَأْمُولِ. فما أَجْمَلَ هذا الجَمِيلَ، يَقْبَلُ مِنْ عَبيدِه بِضاعَتَهم المُزْجاةَ، ويَجْعَلُها سَبباً لِلْفَوزِ والنَّجاةِ.

83) أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ.

– أي أنتَ أيُّها العبدُ إلى حِلْمِهِ تعالَى في حالِ عَمَلِكَ بِطاعَتِه، أحْوَجُ منكَ إلى حِلْمِه في حالِ تَلبُّسِكَ بِمَعْصِيَتِه، لأنَّ طاعَتَك ربّما تكونُ مَصحُوبةً بِنَظَرِكَ إلى نفسِكَ واستعظامِ عَمَلِكَ، وذلك يُوجبُ الخِسّةَ وسُقوطَ المَنْزِلَةِ عندَ ربِّكَ، وأمّا مَعْصِيَتُكَ فقد تكونُ مَصحُوبةً باضْطِرارٍ وافْتِقارٍ، مَقْرُونةً بذِلّةٍ واحْتِقارٍ، وذلك يُوجبُ الشّرَفَ والرِّفْعَةَ عندَه سبحانه، وفي هذا زِيادَةُ تَحذِيرٍ مِنْ رُؤيةِ استحقاقِ الوُصولِ بالأعمالِ، فإنّه جَهْلٌ مُركَّبٌ لا يَسْلَمُ منه إلّا كُمَّلُ الرجالِ.

– أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ، لِمَا يَقترِنُ بكلِّ واحدٍ مِنَ الفِعلَيْنِ مِنْ نَقِيضِ مَقْصُودِه، لأنّكَ في الطّاعةِ مَصْحُوبٌ بالعِلَلِ والدَّعاوَى والآفاتِ؛ مِنَ الرّياءِ والعُجْبِ والنَّظَرِ إلى نفسِكَ وعَدَمِ التّحَفُّظِ وقِلّةِ الاحترامِ مع الغفلةِ عن ذلك كلِّه، وأقلُّ أحوالِكَ غفلتُكَ عن اتّهامِ نفسِكَ في أعمالِك، وفي المعصيةِ مَصحُوبٌ بالافتقارِ والاضْطِرارِ مَقرونٌ بالذِّلّةِ والاحْتِقارِ.

– وإلّا فالمَعْصِيَةُ لا تكونُ كَمالاً، والطّاعَةُ لا تكونُ نَقْصاً، لكنْ يَقترِنُ بكلِّ واحدةٍ منهما ما يُخرِجُها عن حُكْمِ صُورتِها لا لِذاتِها.

فَيَقترِنُ بالطاعةِ ما يَقضِي بِطَلَبِ السِّتْرِ فيها، منها:

1- إساءةُ الأدَبِ بالتّقصيرِ والدَّعاوَى والإعجابِ.

2- الاعتمادُ عليها والاستنادُ إليها في حُصولِ المقصودِ منها.

3- التَّكبُّرُ بِسَببِها واحتقارُ مَنْ لم يَفعلْها.

ويَقْتَرِنُ بالمَعَصِيَةِ ما يُخرِجُها عن صُورتِها كَمِثْلِ:

1- الانكسارِ والذِّلّةِ الموجِبَيْنِ للنُّصرةِ.

2- عَدَمِ الثِّقَةِ بالنّفسِ وتَرْكِ الوُثوقِ بها، وهو أَساسُ الخيرِ.

3- الرُّجُوعِ إلى اللهِ بلا عِلَّةٍ ولا سَبَبٍ مِنَ النّفسِ، وهو مِفتاحُ كلِّ خيرٍ.

84) السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وسَتْرٌ فِيهَا، فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِيهَا خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ، والْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ.

– السَّترُ عنِ المعصيةِ أنْ يجعلَ بينكَ وبينَها وِقايَةً حتى لا تَعرِفَ طريقَها، ولا تَهتدِي لِسبَبِها، ولا تَجِدَ لإيقاعِها وَجْهاً، بل تكونُ مَحفُوظاً منها بكلِّ حالٍ ومن كلِّ وجهٍ، وهذه كَرامةٌ مِنَ الحقِّ لِمَنْ أرادَ تَطهِيرَهُ مِنَ القَبائِحِ وانْتِفاءَ الرَّذائِلِ عنه.

– والسّترُ فيها هو أنْ تَقَعَ مِنكَ وأنتَ عالِمٌ بها مُصِرٌّ عليها أو غيرُ مُصِرٍّ، ثمّ لا يَفْضَحُكَ الحقُّ سبحانَه بينَ عِبادِهِ، ولا يُظهِرُ ما أنتَ عليه، سَواءٌ أبْدَى لهم ضِدَّهُ أو غيرَ ذلك.

– وهذه رحمةٌ منه سبحانَه شامِلةٌ لِعُمومِ الخَلْقِ، حتّى إنّ العبدَ لَيُعاقَبُ بذنبِه مِنْ جِهَةٍ لا تُشْعِرُ بأنَّ العُقوبةَ عليه؛ إبقاءً للسَّترِ، وتَنبِيهاً للعبدِ، وإقامةً للحُجّةِ عليه، وإكْراماً له إنْ تَنَبَّهَ، واسْتِدْراجاً له إنْ لم يَتَنَبَّهْ، إذْ (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ). الشورى 30.

لكنْ ما يَجْرِي بِسَبَبِ ذَنْبٍ غالباً إنّما يكونُ مُسَامِتاً (مُقابِلاً ومُوَازِياً) له في الصُّورةِ لِيَتِمَّ التَّنْبِيهُ وقِيامُ الحُجّةِ.

– فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِيهَا خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ، فهم لا يَفِرُّونَ مِنَ المعصيةِ ابتداءً، ولا يُرِيدُونَ الفَضِيحَةَ آخِراً وانتهاءً، ولذلك

صَحَّ منهمُ الرِّياءُ والتَّصنُّعُ تَسَتُّراً وتَجمُّلاً، وذلك مِنْ قُصورِ هِمَمِهِم ونَقْصِ إيمانِهم، وإذا وَجَدُوها دُونَ فَضِيحَةٍ لم يَرجِعُوا عنها.

– ثُمَّ إنْ كانَ طَلَبُهُم للسَّترِ مِنَ اللهِ فقد رَجَعُوا إليه بما لا يَرْضاهُ لهم مِنْ مُرادِهم، فكانَ رجُوعُهُم حُجّةً عليهم لا لهم، إلّا أن يكونَ فِرارُهم مِنْ ذلك شَفَقَةً على عبادِ اللهِ مِنَ الوَقِيعةِ فيهِم والاقْتِداءِ بهم ونحوِ ذلك، فقد يُرْجَى لهم، لا سِيَّما إنِ اقْتَرَنَ ذلك بالتّوبةِ والإنابةِ.

– والْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ، فهُم يَفِرُّونَ منها ابتداءً، وإنْ طَلَبُوا سَتْرَها انتهاءً فلا يَضُرُّهم ذلك، وذلك مِنْ تَعْظِيمِهم لِمَولاهُم وتَحقُّقِ إيمانِهم، ثمّ هم فيه على مَراتِبِهم، فمِنْهُم مَنْ يَطلُبُ ذلك لِخَوفِ العَذابِ، ومنهم مَنْ يَطلبُه لِخَوفِ الحِجابِ، ومنهم من يَطلبُه خوفاً مِنْ فَواتِ الثَّوابِ، ومنهم مَنْ يَطلبُه إشْفاقاً مِنَ الطّرْدِ عن البابِ، ومنهم مَنْ يَطلبُه اتِّقاءً للطّردِ والإبعادِ عنِ الجَنابِ، إلى غيرِ ذلك، وكلُّ ذلك راجعٌ لِمَا ذُكِرَ مِنَ السُّقوطِ مِنْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ على وجهِ الاعتناءِ والرحمةِ، لأنَّ ذلك يَقتَضِي فَوْتَ كلِّ خيرٍ وحُصولَ كلِّ شرٍّ، وأكْمَلُهُم مَنْ يَطلبُ ذلك حَياءً وهَيْبَةً وإجْلَالاً وتَعْظِيماً، حتى لو غُفِرَ ذَنْبُه لَمَا سَقَطَ خَجَلُهُ.

– وقد يكونُ مِنَ الخَواصِّ مَنْ يطلُبُ السَّترَ فيما وَقَعَ منها لوَجْهِهِ، والسّترَ عمّا لم يَقَعْ لِوَجْهِهِ، أي طَلَبُ السَّترِ في المَعْصِيَةِ إذا حَصَلَتْ، وعنها إذا لم تَحْصُلْ، لا يُريدونَ الفَضِيحَةَ مع الخَلْقِ في الوَاقِعِ، ولا مع الحَقِّ بما لم يَقَعْ، فلهم نَصِيبٌ

مِنَ الكُلِّ بحَسَبِ ما لهم فيه. كأن يقولَ مثلاً: "لا تَفْضَحْنِي بَيْنَ خَلْقِكَ، ولا بَيْنَ يَدَيْكَ". لأَنَّ السَّترَ مَطلُوبٌ في الجانِبَيْنِ.

– فمَرتَبةُ الخَواصِّ تَقتضِي الخَجْلَةَ مِنَ الوُقُوعِ – ولو وَقَعَتِ الْمَغْفِرَةُ – لِتَعْظِيمِ حُرْمَةِ الرُّبوبيةِ، وإلى هذا أشارَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِه: "يَا لَيْتَني شَجَرَةٌ تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤْكَلُ"، وقولِه: "لَيْتَنِي كُنْتُ خَضِرَةً تأْكُلُنِي الدَّوَابُّ". وعمرُ رضي الله عنه بقوله: "يَا لَيْتَنِي مِثْلُ هَذِهِ التِّبْنَةِ، لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا، لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا". وابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه بقوله: "وَدِدْتُ أَنِّي إِذَا أَنَا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ". ويقولُ الفُضَيْلُ رحمه الله: "وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ، وإنْ غَفَرْتَ".

– ومَرتَبةُ العَوامِّ تَقضِي بِعَدَمِ الاحْتِشامِ، فهم يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ ولا يَسْتَخفُونَ مِنَ اللهِ، فإنْ كانَ ذلكَ مع جُرْأَةٍ وقِلَّةِ احْتِرامٍ كانَ أعْظَمَ، وإنْ كانَ مع انكسارٍ وذلّةٍ كانَ أيسرَ، والكلُّ نقصٌ لِمَا فيه مِنَ الالتفاتِ لغيرِ الحَقّ، وإن كانوا مُتعَلّقِينَ به في طَلَبِ السَّترِ فذلك لا مِنْ حيثُ يَرضَى، بل مِنْ حيثُ هَواهُم، فهم مَحْجُوبُونَ عنه في عَيْنِ تَعلُّقِهِم به، ولذلك كانَتْ مَعاصِي التَّستُّرِ جارِيَةً عليهِم، مِنَ الرّياءِ والتَّصَنُّعِ والسُّمْعَةِ ونحوِ ذلك.

– ومِنْ دعاءِ الشيخِ أبي الحسنِ رحمهُ اللهُ: "اللهمَّ إنّا نسأَلُكَ التَّوْبَةَ ودَوامَهَا، ونَعُوذُ بكَ مِنَ المَعْصِيَةِ وأسْبابِها، وذَكِّرْنا بالخَوْفِ منكَ قَبْلَ هُجُومِ خَطَراتِها، واحْمِلْنَا على النَّجاةِ منها ومِنَ التَّفكُّرِ في طَرائِقِها، وامْحُ مِنْ قُلُوبنا حَلاوَةَ ما اجْتَنَيْناهُ منها، واسْتَبْدِلْها بالكَراهَةِ لها والطَّعْمِ لِمَا هو بِضِدِّها".

85) مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ.

– أيْ مَنْ أكْرَمَكَ مِنَ العِبادِ بِعَطاءٍ أو مَحبَّةٍ، فإنّما أكْرَمَ فيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ تعالى، فإنّه لولا جَميلُ سَتْرِهِ ما نَظرُوا بِعيْنِ الرِّضا إليكَ، بل لو نَظرُوا إلى ما فيكَ مِنَ العُيُوبِ لاسْتَقْذَرُوكَ ونَفرُوا منكَ وطَرَحُوكَ.

ورحم الله القائلَ: (القحطانيُّ في نُونيّتِه)

والله لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لأَبَى السَّلاَمَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

وَلأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ

لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي ... وَحَلِمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي

فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا ... بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي

وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ ... مَا لِي بِشُكْرِ أَقَلِّهِنَّ يَدَانِ

– فلا تَبْعَثْكَ رُؤيَةُ إكْرامِ الخَلْقِ لكَ لِجَهْلِهِم بِعَيْبِكَ على حَمدِهِم على ذلك دُونَ حَمْدِ رَبِّكَ، فتَضَعُ الحَمْدَ في غيرِ مَوضِعِه، فإنَّ الحمدَ لا يَنبغِي أنْ يكونَ على الحقيقةِ إلّا لِمَنْ سَتَرَكَ، وليسَ لِمَنْ أكرمَكَ وشكَرَكَ، وإنّما تَحْمَدُه مِنْ حيثُ إجراءُ الخيرِ على يَدَيْهِ فقط، لا مِنْ حيثُ إنّه المُكرِمُ حَقِيقةً، إذْ ليسَ ذلك إلّا اللهُ، يقولُ سبحانَه: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ). النحل 53.

– فالخَلْقُ كلُّهم إنّما يَتعامَلُونَ بينَهُم بِسَترِ مَولاهُم، ولو خَلا عبدٌ مِنْ سَترِهِ لأَبْغَضَهُ أَحَبُّ النّاسِ إليه، ولآذَاهُ أَشْفَقُ الخَلْقِ عليه، ولأَهْلَكَهُ أَرْأَفُ الخَلْقِ به.

ولله درُّ القائلِ:

يَظُنُّونَ بِي خَيْراً ومَا بِيَ مِنْ خَيْرٍ ... وَلَكِنَّنِي عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي

سَتَرْتَ عُيُوبِي كُلَّهَا عَنْ عُيُونِهِمْ ... وأَلْبَسْتَنِي ثَوْباً جَمِيلاً مِنَ السَّتْرِ

فَصَارُوا يُحِبُّونِي ومَا أَنَا بِالّذِي ... يُحَبُّ ولَكِنْ شَبَّهُونِي بِالْغَيْرِ

فَلا تَفْضَحْنِي فِي القِيَامَةِ بَيْنَهُمْ ... وَكُنْ لِيَ يا مَوْلايَ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

– وإنّما يُشْكَرُ الخَلْقُ لوجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: مُقابَلَةً لِلْمَجازِ بالْمَجازِ، فكما لهم مَجازُ الإكرامِ يكونُ مَجازُ الشُّكرِ.

الثاني: قِياماً بِرَسْمِ العُبودِيّةِ لأنّنا أُمِرْنا أنْ نَشْكَرَ النّاسَ على صُنْعِ الْمَعْرُوفِ، قالَ صلى الله عليه وسلم: "لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ". صحيح أبي داود.

وإنَّما الحَثُّ على شُكْرِ النَّاسِ ليس لِكوْنِ النِّعمَةِ صَدَرَتْ منهم، بل لكونِها جرَتْ على أيْدِيهِم، والمُنعِمُ على الحقيقَةِ هو اللهُ، فإذا شكَرْتَ عبدًا لكونِه أَحْسَنَ إليكَ في الدُّنيا، فإنَّ شُكْرَه لكوْنِ الشَّارِعِ أمَرَ بذلك، لا لاعتِقادِ أنَّه فاعِلُ ذلك.

الثالث: أنّ الحَقَّ تعالى جعلَهُم آلَةَ خيرٍ بِما أظهَرَ على أيديهِم، فأُكرِمُوا مِنْ حيثُ إكرامُ الحقِّ لهم، فإكرامُهُم إنّما هو حَمْدٌ له بكلِّ حالٍ.

86) مَا صَحِبَكَ إِلَّا مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ.

– يعني بصَحِبَكَ: قَبِلَكَ على ما أنتَ عليه، دُونَ أنْ يُشَوِّشَ عليكَ، وإلّا فالصُّحْبَةُ الْمُعتادةُ لا تَصِحُّ في حقِّه تعالى، بل لا يَصِحُّ إطلاقُ الصّاحِبِ عليه في بابِ التّعبُّدِ، إلّا حيثُ وَردَ إطلاقُه وهو قولُهُ صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ أنتَ الصّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأَهْلِ". صحيح مسلم.

وفي جوازِ إطلاقِه في الوَعْظِ والتَّذْكِيرِ ونحوِه اخْتِلافٌ، أجازَهُ بعضُ العُلَماءِ ومَنَعَهُ البعضُ.

– والمَقْصُودُ أنَّ العالِمَ بعُيُوبِكَ على التَّفْصِيلِ هو مَوْلاكَ، ثمَّ مع ذلك يَرْفُقُ بكَ ولا يَدَعُكَ لغيرِه، بلْ تَعصِي فيَسْتُرُ، وتُذنِبُ فيَحْلُمُ ويَغفِرُ، لا يَقْطَعُ عنكَ مَوادَّ إحسانِه، ولا يَرفعُ عنكَ مَعُوناتِ امْتِنَانِه.

– فالخلقُ كلُّهم لا يَعلمُونَ كلَّ عُيوبِكَ حتى يَصحبُوكَ عليها، وإنْ علِمُوا فلا يَثْبُتونَ عندَ ظُهورِها، وإنْ عَزَمُوا على ذلكَ فليسَ في مَقدُورِهِمُ الاصْطِبارُ عليه، وإنْ صَبرُوا فلا بُدَّ مِنْ تأثُّرٍ يَلْحَقُهُم مِنْ ذلك، وإنّما الصَّاحِبُ الذي لا يَقْلِيكَ بِجَفاءٍ، ولا يَترُكُكَ بِعَيْبٍ مولاكَ سبحانَه.

– وقد قِيلَ في قولِه تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) التوبة 111. إنّ مِنْ حِكمةِ التعبيرِ بالاشتراءِ أشياءَ:

منها: أنَّ المُشْتَرِيَ إذا كانَ عالِماً بالعَيْبِ لا يَصِحُّ منه وُجُودُ الرَّدِّ، وهو سبحانه عالِمٌ بعبادِه، فكأنَّه قَبِلَهُم على ما هم عليه.

ومنها أيضاً: المَبِيعُ يَتَعَيَّنُ تَسْلِيمُهُ لِمُشْتَرِيهِ دُونَ مُنازَعَةٍ، ففي ذلك تَنْبِيهٌ على إِسْقاطِ التَّدْبِيرِ مع الحَقِّ.

87) خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لَا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ.

– الحَقُّ سبحانَه مع كَوْنِهِ عالِماً بِعَيْبِكَ هو غَنِيٌّ عنكَ، ومع ذلك هو مُعْتَنٍ بوُجُودِكَ، فاكْتَفِ بهِ دُونَ غيرِه.

– خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لَا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ، وليسَ ذلكَ إلّا مولاكَ، لأنَّ الذي يَصْحَبُكَ لا يَخْلُو مِنْ ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ ذلكَ لِفِعْلِكَ معه، وذلك مُعامَلةٌ مع نَفْسِه لِنَفْسِه.

الثاني: أن يكونَ ذلك لِمَا أنتَ عليه مِنَ الوَصْفِ الجَمِيلِ، فمُعامَلَتُه معكَ لِلَوْعَةِ قَلْبِه وحُبِّهِ لكَ.

الثالثُ: أنْ يَصْحَبَكَ لِذاتِكَ، وذلك لِعِلَّةِ اسْتِحْسَانِه لكَ، إذ لو لم يكنْ ذلك ما آثَرَكَ على غيرِكَ، فهو مَعْلُولٌ بإِجابَةِ دَاعِي نَفْسِهِ في شَأْنِكَ.

– والصُّحبةُ بمعنى المُلازَمَةِ على أنواعٍ:

منها: صُحبةُ من يَصْحَبُك لِمَا يَعودُ منكَ إليه، ولا خيرَ فيها، لِتَوَقُّفِها على غَرَضٍ هو عَيْنُ الْمَقْصُودِ.

ومنها: صُحبةُ مَنْ تَصحبُه لِمَا يَعودُ منه إليكَ، وليس ذلكَ إلّا إلى مولاكَ، لأنّه غَنِيٌّ عنكَ، وأنتَ فقيرٌ إليه.

ومنها: صُحبةُ مَنْ يَصحبُكَ لا لِمَا يَعودُ منكَ ولا لِمَا يَعودُ إليكَ، بل يَنْظُرُ فيكَ نِسْبَةَ الحَقِّ، وهم الذين تَخَلَّقُوا بالرَّحمةِ الإلهيةِ، وهذه في الحَقِيقةِ هي عائِدَةٌ بالنَّفْعِ إليكَ، إذ يُبَصِّرُونَكَ بِعُيُوبِكَ، ويَدُلُّونَكَ على رَبِّكَ، ويَعتبرُونكَ مِنْ حيثُ عِلمُهُ فيكَ.

– والرَّبُّ تعالَى غَنِيٌّ عنكَ بِكُلِّ حَالٍ، ولا تَطْرَأُ عليهِ العَوَارِضُ سُبحانَه، فلا يُعامِلُكَ لِعِلَّةٍ، ولا يَطلُبُكَ لِمَنْفَعَةٍ، إذْ لا يَزِيدُ في عِزِّهِ إقْبالُ مَنْ أَقْبَلَ عليه، ولا يُنْقِصُ مِنْ عِزِّهِ إدْبارُ مَنْ أَدْبَرَ عنه، فاتَّخِذْهُ صاحِباً، وجَنِّبِ الخَلَقَ جانِباً، وثِقْ بِه وكيلاً، تَنَلْ منه فَضلاً جَزِيلاً وعَطاءً جَمِيلاً.

88) لَوْ أَشْرَقَ نُورُ الْيَقِينِ فِي قَلْبِكَ لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا وقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَنَاءِ عَلَيْهَا.

- المَقصُودُ أنَّ إشراقَ نُورِ اليَقِينِ يَكشِفُ الأمُورَ على حَقائِقِهَا، وهو المُعتقَدُ فيها أَوّلاً، فيُبْدِي مِنَ الدنيا فَناءَهَا ومَساوِيهَا، ومِنَ الآخِرَةِ قُرْبَهَا ومَعانِيَها، حتّى كَأَنَّ الآخِرَةَ لم تَزَلْ، وكأنَّ الدنيا لم تَكُنْ.

- قالَ تعالَى: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). لقمان 4، 5.

- يقولُ السعديُّ رحمهُ اللهُ في تَفسِيرِهِ: "واليَقِينُ هو العِلْمُ التَّامُّ الذي ليسَ فيه أَدْنَى شَكٍّ، المُوجِبُ للعَمَلِ".

- يقولُ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: "وقالَ بَعْضُهُم (أيْ في تَعرِيفِ اليَقِينِ): ظُهورُ الشيءِ لِلْقَلْبِ بِحَيْثُ يَصِيرُ نِسْبَتُه إليه كَنِسْبَةِ المَرْئِيِّ إلى العَيْنِ فلا يَبقَى معه شَكٌّ ولا رَيْبٌ أصلاً، وهذا نِهايَةُ الإيمانِ وهو مَقامُ الإحسانِ". (مَدارجُ السّالِكِينَ).

- يقولُ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ: "ما طُلِبَتِ الْجَنّةُ إلّا باليَقِينِ، ولا هُرِبَ مِنَ النّارِ إلّا باليَقِينِ، ولا صُبِرَ على الحَقّ إلّا باليَقِينِ".

- ويقولُ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: "لو أنَّ اليَقِينَ وَقَعَ في القَلْبِ كمَا يَنبَغِي؛ لَطارَتِ القُلُوبُ اشْتِياقًا إلى الجَنّةِ وخَوْفًا مِنَ النّارِ".

– واليَقِينُ على ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ، ذَكَرَها أبو بكرٍ الوَرّاقُ رحمهُ اللهُ: يَقِينُ خَبَرٍ، ويَقِينُ دَلَالَةٍ، ويَقِينُ مُشَاهَدَةٍ.

قال ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ:

يُرِيدُ بِيَقِينِ الخَبَرِ: سُكُونُ القَلْبِ إلى خَبَرِ الْمُخْبِرِ، وتَوَثُّقُهُ به.

وبِيَقِينِ الدَّلَالَةِ: ما هو فَوْقَهُ، وهو أنْ يُقِيمَ له –معَ وُثُوقِهِ بِصِدْقِهِ– الأَدِلّةَ الدّالَّةَ على ما أَخْبَرَ به، وهذا كَعَامَّةِ أَخْبَارِ الإيمانِ والتَّوْحِيدِ والقُرآنِ، فإنَّه سبحانَه مع كَوْنِه أَصْدَقُ الصّادِقِينَ، يُقِيمُ لِعِبَادِهِ الأَدِلّةَ والأَمْثَالَ والبَراهِينَ على صِدْقِ أَخْبَارِهِ، فيَحْصُلُ لهمُ اليَقِينُ مِنَ الوَجْهَينِ: مِنْ جِهَةِ الخَبَرِ، ومِنْ جِهَةِ الدّلِيلِ، فَيَرتَفِعُونَ مِنْ ذلكَ إلى الدّرَجَةِ الثّالِثَةِ.

وهي يَقِينُ الْمُكاشَفَةِ: بحيثُ يَصِيرُ الْمُخْبَرُ به لِقُلُوبِهِم، كالمَرْئِيّ لِعُيُونِهِم؛ فنِسْبَةُ الإيمانِ بالغَيْبِ حِينَئِذٍ إلى القَلْبِ: كَنِسْبَةِ الْمَرْئِيّ إلى العَيْنِ، وهذا أَعْلَى أنْوَاعِ الْمُكاشَفَةِ، وهي التي أَشَارَ إليها عَامِرُ بنُ عَبْدِ قَيْسٍ في قَوْلِه: "لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً". (مدارجُ السّالِكِينَ)

– فَنُورُ اليَقِينِ تَتَرَاءَى به حَقَائِقُ الأمُورِ على ما هي عليه، فَيَحِقُّ به الحَقُّ ويَبطُلُ به الباطِلُ، والآخِرَةُ حَقٌّ، والدنيا باطِلٌ، فإذا أَشْرَقَ اليَقِينُ في قَلْبِ العَبْدِ أَبْصَرَ به الآخِرَةَ التي كانَتْ غائِبَةً عنه حَاضِرَةً لديه، حتّى كأنّها لم تَزَلْ، فكانَتْ أَقْرَبَ إليه مِنْ أنْ يَرْحَلَ إليها، فَحَقَّ بذلكَ حَقُّهَا عندَهُ، وأَبْصَرَ الدنيا الحَاضِرَةَ لديه قَدِ انْكَسَفَ نُورُهَا وأَسْرَعَ إِلَيْهَا الفَنَاءُ والذَّهَابُ، فغَابَتْ عَنْ نَظَرِهِ بعدَ أنْ كانَتْ

حاضِرَةً فَظَهَرَ له بُطْلَانُهَا حتّى كأَنَّهَا لم تكُنْ، فَيُوجِبُ له هذا النَّظَرُ اليَقِينِيُّ الزّهَادَةَ في الدنيا والتَّجَافِي عَنِ زَهرَتِهَا، والإِقْبَالَ على الآخِرَةِ، والتَّهَيُّؤَ لِنُزُولِ حَضْرَتِهَا.

– وإنّما تَرَى الآخِرَةَ أَقْرَبَ مِنْ أنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا لِأَنّهَا آتِيَةٌ قَطْعاً، لَازِمَةُ الوُجُودِ، فكأنّهَا مَوْجُودَةٌ في الحَالِ، إذْ كُلُّ آتٍ قَطْعاً كَالْمَوْجُودِ في الحَالِ.

– قالَ أحمدُ بنُ عاصِمٍ الأنْطاكِيُّ رحمهُ اللهُ: "اليَقِينُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ في قَلْبِ العَبْدِ حتّى يُشَاهِدَ به أمُورَ آخِرَتِهِ، ويَخْرِقَ به كُلَّ حِجَابٍ بينه وبينها حتّى يُطالِعَ الآخِرَةَ كالمُشاهِدِ لها".

– ومَحاسِنُ الدنيا، ما هي عليه مِنَ البَهْجَةِ والْمَنْفَعَةِ، وذلك كلَّ يَوْمٍ في نَقْصٍ ظاهِرٍ كَسْفَتُهُ عليها.

(والكَسْفَةُ التَّغَيُّرُ، والكِسْفَةُ القِطْعَةُ التي تُغَطِّي الشيءَ، والفَنَاءُ الذَّهَابُ والزَّوَالُ).

– قالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ: "ما أَيْقَنَ عَبْدٌ بِالجنّةِ حَقَّ يَقِينِهَا، إلّا خَشَعَ وَوَجِلَ وذَلَّ واسْتَقامَ واقْتَصَرَ حتّى يَأتِيَهُ المَوتُ".

– يقولُ أنَسُ بنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: لَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بنُ مِلْحَانَ –وكانَ خَالَهُ– يَومَ بئْرِ مَعُونَةَ، قالَ: بالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ علَى وجْهِهِ ورَأْسِهِ، ثُمَّ قالَ: "فُزْتُ ورَبِّ الكَعْبَةِ". (البخاري).

– وَشَأْنُ عَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ وَإِخْبَارُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَهُ جَبَّارُ بْنُ سُلْمَى الْكِلَابِيُّ قَالَ: وَلَمَّا طَعَنَهُ بِالرُّمْحِ قَالَ: "فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"، ثُمَّ سَأَلَ جَبَّارٌ بَعْدَ ذَلِكَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ فُزْتُ، قَالُوا: يَعْنِي بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ: صَدَقَ وَاللَّهِ، ثُمَّ أَسْلَمَ جَبَّارٌ بَعْدَ ذَلِكَ لِذَلِكَ. وَفِي مَغَازِي مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُوجَدْ جَسَدُ عَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ يَرَوْنَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَارَتْهُ.

– يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ عن قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، غِبْتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ما أَصْنَعُ، فَلَمَّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ وانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، قالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أَعْتَذِرُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ –يَعْنِي أَصْحَابَهُ– وأَبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ –يَعْنِي المُشْرِكِينَ–، ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، فَقالَ: يا سَعْدُ بنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ ورَبِّ النَّضْرِ، إنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِن دُونِ أُحُدٍ.

قالَ سَعْدٌ: فَما اسْتَطَعْتُ يا رَسولَ اللَّهِ ما صَنَعَ، قالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا به بِضْعًا وثَمَانِينَ ضَرْبَةً بالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً برُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بسَهْمٍ، ووَجَدْنَاهُ قدْ قُتِلَ وقدْ مَثَّلَ به الْمُشْرِكُونَ، فَما عَرَفَهُ أَحَدٌ إلَّا أُخْتُهُ ببَنَانِهِ". (البخاري)

– يقولُ ابنُ عبّادٍ رحمهُ اللهُ: "فَلِلَّهِ دَرُّهُم، لقد حَازُوا مَرْتَبَةً شَرِيفَةً ومَنْزِلَةً عالِيَةً مُنِيفَةً، وَتَبّاً لِأَمْثَالِنَا، الذين عَمِيَتْ أبْصَارُهُم، وأَظْلَمَتْ سَرائِرُهُم، فَحُجِبَتْ عَنّا شُمُوسُ الْمَعارِفِ، وأُوقِعْنَا في أَوْدِيَةِ الْمَهالِكِ والْمَتالِفِ، واغْتَرَرْنَا بهذهِ الدَّارِ

الغَرَّارَةِ، الفَتَّانَةِ السَّحَّارَةِ، فَتَشَبَّثَتْ مَخالِبُنَا بِشِبَاكِهَا، وارْتَبَكْنَا في مَصَايِدِهَا وأَشْرَاكِهَا، مِنْ غيرِ شُعورٍ مِنّا بِحَالِهَا، وتَزْوِيرِ مَحالِّهَا، فكُنّا في قَصْدِنا إليها وتَعْوِيلِنا عليها بِمَنْزِلَةِ ظَمْآنٍ لَاحَ له سَرابٌ حَسِبَهُ ماءً؛ فلمّا جاءَهُ لم يَجِدْ فيه هَناءً ولا غِنَاءً، ثم مع هذا كُلِّهِ يَنتسِبُ إلى الدِّينِ، ويَدَّعِي كَمالَ الْمَعْرِفَةِ واليَقِينِ، والدُّخُولَ في بِحَارِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتّقِينَ، مع أَنَّ أَحَدَنَا لو خُيِّرَ بينَ حُلُولِ الحِينِ، أو البَقَاءِ في الدنيا مُعَلَّقاً بِأَشْفَارِ العَيْنِ، لَاخْتَارَ البَقاءَ فيها على هذه الحَالِ، مع كَوْنِهِ لا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ في طاعَةٍ بِازْدِيادٍ، ولا عَنْ مَعْصِيَةٍ بِانْتِقَالٍ، وهذه كُلُّهَا أَخْلاقٌ يَهُودِيّةٌ، لا تَلِيقُ بِمَنْ يَنْتَسِبُ إلى هذه الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِراً عَنْ حَالِ اليَهُودِ، وكاشِفاً لِأَسْرَارِهِمْ، وهَاتِكاً لِأَسْتَارِهِم: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ج يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) البقرة 96. فَلَوْ لم يَنْهَ العَاقِلَ عَنْ مَحبَّتِه البَقَاءَ في هذهِ الدَّارِ، ويَأْمُرُه بإِيثارِ دَارِ القَرارِ إلّا تَشَبُّهُهُ باليَهُودِ النّاقِضِينَ لِلْعُهودِ، الْمُتَهاوِنِينَ بأَوَامِرِ الْمَعْبُودِ، لَكَانَ ذلكَ أَبْلَغَ نَاهٍ وآمِرٍ، فَضْلاً عَمّا وَرَدَ في ذلكَ مِنْ مَوَاعِظَ وَزَوَاجِرَ، نَزَعَ اللهُ عَنْ قُلُوبِنَا حِجَابَ الغَفْلَةِ والغُرُورِ، وحَمانَا عَنْ مُشابَهَةِ كُلِّ ظَلُومٍ وكَفُورٍ، وحَبَّبَ إلينا لِقَاءَهُ، ورَزَقَنَا ما رَزَقَ أولياءَهُ وأَصْفِياءَهُ وأَحِبّاءَهُ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

89) النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا.

- يَعْنِي أنَّ النّاسَ إنّما يَمدَحُونَكَ أيُّها العَبْدُ لِمَا يظُنُّونَه فيكَ مِنَ الأوْصَافِ الحَمِيدَةِ، فكُنْ أنتَ ذامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعلَمُهُ منها مِنَ العُيوبِ والقَبائِحِ العَدِيدَةِ، ولا تَغْتَرَّ على كلِّ حَالٍ مِنَ الأحْوَالِ بِمَدْحِ الْمَادِحِ، فإنّه السُّمُّ القَتّالُ، لأنَّ مَنْ فَرِحَ بِمدْحِ نفسِه أَوْقَعَها في الغُرورِ، وساقَ إليها ما لا يُطاقُ مِنْ أنواعِ الشُّرورِ.

- وقد رُوِيَ عن أَبِي بَكْرٍ الصّديقِ رضى الله عنه أنّه كَانَ إِذَا مُدِحَ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهمّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لا يَعْلَمُونَ، وَلا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ".

- مَدْحُ النّاسِ العَبْدَ على حَسَبِ ظَنِّهِم فيه مِنَ الخيرِ والصّلاحِ الذي اقْتَضاهُ ظاهِرُ حَالِه لا يَرفعُ ما هو عليه مِنَ النّقْصِ في جميعِ أحْوَالِه، فَوَجَبَ أنْ لا يَقِفَ مع مَدْحِهِم ولا يَلْتَفِتَ إليه، بل يَذُمُّ نفسَه بما يَعلَمُه منها. وذلكَ على وُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أَحَدُهَا: أنْ يَنْظُرَ لِمَا جُبِلَتْ عليه مِنَ النّقْصِ والإساءَةِ فلا يَراها أَهْلاً لِمَا ذُكِرَتْ به، وأنَّ ذلك مِنْ فَضْلِه تعالَى ومِنّتِهِ، إذْ لَا يَليقُ به مِنْ حَيْثُ ذَاتُه، وذلكَ رَأْسُ الذَّمِّ لها.

الثّانِي: أنْ يَنظُرَ لِمَا تَضَمّنَهُ ما مُدِحَتْ به من التّقصِيرِ والإساءَةِ فيُذَكِّرُها به، كالرِّياءِ في العَمَلِ والتّزْيِينِ ونَحْوِه.

الثّالِثُ: أنْ يُثْبِتَ لها ما جَهِلَتْهُ أو غَفِلَتْ عنه مِنْ سَيّئاتٍ أُخَرَ بِأَعْمالٍ خَفِيَّةٍ، إذْ لِكُلِّ إِنْسانٍ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلِه، والإنسانُ على نَفْسِه بَصِيرَةٌ.

هذا كلُّه إنْ كانَ ما مُدِحَ به مَوْجُوداً فيه، وإلّا فيَذُمُّها بالتّقصِيرِ والنّقصِ عمّا ذُكِرَتْ به إنْ لم يَثْبُتْ لها، والمُتَشبّعُ بما لم يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ.

– قالَ بَعْضُهُم: "مَنْ فَرِحَ بِمدْحِ نَفْسِه فقدْ أَمْكَنَ الشّيطانَ أنْ يَدْخُلَ في بَطْنِهِ".

– وقالَ آخَرُ: "إذا قِيلَ لكَ نِعْمَ الرَّجُلُ أنتَ، فَكَانَ أَحَبَّ إليكَ مِنْ أنْ يُقالَ بِئْسَ الرَّجُلُ أنتَ، فَأَنْتَ وَاللهِ بِئْسَ الرَّجُلُ".

– قالَ الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمهُ اللهُ: "وإنّما كَرِهُوا الْمَدْحَ خِيفَةَ أنْ يَفْرَحُوا بِمَدْحِ الخَلْقِ وهُمْ مَمْقُوتُونَ عندَ الخَالِقِ، فكانَ اشْتِغالُ قُلوبِهِم بِحَالِهم عندَ اللهِ يُبَغِّضُ إليهِم مَدْحَ الخَلائِقِ، لأنَّ الْمَمْدُوحَ هو المُقَرّبُ عندَ اللهِ تعالى، والْمَذْمُومَ على الحَقِيقَةِ هو المُبْعَدُ عن اللهِ تعالى المُلْقَى في النّارِ مع الأشْرَارِ، فهذا الْمَمْدُوحُ إنْ كانَ عندَ اللهِ تعالى مِنْ أَهْلِ النّارِ فما أَعْظَمَ جَهْلَهُ إِذَا فَرِحَ بِمَدْحِ غَيْرِه، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنّةِ فلا يَنبَغِي أنْ يَفْرَحَ إلّا بِفَضْلِ اللهِ تعالى وثَنائِه عليه، إذْ ليسَ أَمْرُهُ بِيَدِ الخَلْقِ، ومهما عَلِمَ أنّ الأرزاقَ والآجالَ بيدِ اللهِ تعالى قَلَّ الْتِفَاتُه إلى مَدْحِ الخَلْقِ وذَمِّهِم، وسَقَطَ مِنْ قَلْبِه حُبُّ الْمَدْحِ، واشْتَغَلَ بما يَهَمُّه مِنْ أَمْرِ دِينِهِ".

– ويُؤخَذُ مِنْ قَوْلِه "فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا"، أنّه ليسَ مأمُوراً بِتَكْذِيبِ الناسِ ولا بالسّعْيِ لِتَبْدِيلِ ظَنِّهِم فيه، وإنّما هو مأمُورٌ بِعَدَمِ الاغْتِرَارِ وتَقْدِيمِ عِلْمِه على ظَنِّهِم، نَعَمْ؛ إِنْ كانَ الْمَادِحُ كاذِباً في مَدْحِهِ بارْتِكَابِ المُبالَغَةِ والغُلُوِّ تَأَكَّدَ تَكْذِيبُه وزَجْرُه، وعليه يُحْمَلُ قَوْلُه صلى الله عليه وسلم: "إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرابَ" (صحيح ابن حبان)، فَمَدْحُهُ حِينَئِذٍ مَنْهِيٌّ عنه.

وكذا لو كانَ مَدْحُه يُورِثُ عندَ المَمْدُوحِ عِزَّةً ويُغلِطُه في نفسِه، وعليه يُحْمَلَ الحديثُ: "أَثْنَى رَجُلٌ على رَجُلٍ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ، فَقالَ: ويْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، مِرَارًا، ثُمَّ قالَ: مَن كانَ مِنكُم مَادِحًا أخَاهُ لا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أحْسِبُ فُلَانًا، واللَّهُ حَسِيبُهُ، ولَا أُزَكِّي علَى اللَّهِ أحَدًا، أحْسِبُهُ كَذَا وكَذَا، إنْ كانَ يَعْلَمُ ذلكَ منه". (صحيح البخاري).

وحديثُ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم: "إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ". (رواه الإمام أحمد وابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة).

قال المناويُّ: "وفيه ذَبْحٌ للمَمْدُوحِ فإنَّه يَغُرُّهُ بأحْوَالِه، ويُغْرِيهِ بالعُجْبِ والكِبْرِ، ويَرَى نَفْسَه أهلاً لِلْمِدْحَةِ سِيَّما إذا كانَ مِنْ أبناءِ الدنيا أصحابِ النُّفوسِ وعَبيدِ الهوَى".

90) الْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ اسْتَحْيَى مِنَ اللهِ تَعَالَى أنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

– المؤمنُ الحَقِيقيُّ إِذَا مُدِحَ اسْتَحْيَى مِنَ اللهِ تَعَالَى أنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ، أي: لا يَرى ذلك الوَصْفَ الذي مُدِحَ عليه مِنْ نفسِه، وإنّما يَراهُ مِنَّةً مِنَ اللهِ عليه، فلا يَشهَدُ مِنْ نفسِه صِفَةً مَحْمُودَةً يَسْتَحِقُّ أنْ يُثنَى بها عليه، وإنّما يَشْهَدُ ذلك مِنْ رَبِّه، فإذا أَثْنَى عليه الناسُ، وذَكَرُوا محاسِنَه اسْتَحْيَى مِنَ اللهِ اسْتِحْيَاءَ تَعْظِيمٍ وإِجْلَالٍ أنْ يُثْنَى عليه بِصِفَةٍ لَيْسَتْ فيه، فَيَزْدَادُ بذلك مَقْتاً لنفسِه، واسْتِحْقاراً لها، ونُفُوراً منها، وتَقْوَى عندَه رُؤيَةُ إِحْسَانِ اللهِ إليه، وشُهودُ فضلِه في إظْهَارِ المَحَاسِنِ عليه، وهذا هو الشُّكرُ الذي به يَنالُ الْمَزِيدَ مع سَلامَتِه مِنَ السُّكُونِ إلى ثَنَاءِ العَبِيدِ.

– ومِثَالُ ما تَقَدَّمَ: مِثَالُ سُلْطانٍ أَعْطَى بَعْضَ خُدَّامِهِ العُقَلاءِ بَعْضَ مَالِهِ لِيُعْطِيَهُ بَعْضَ الفُقَرَاءِ، فأَعْطَى فَقِيراً، ثمّ حَضَرَ الفَقِيرُ عِنْدَ السُّلْطانِ، وعندَه خادِمُهُ الذي أَعْطاهُ مَالَهُ، فَشَرَعَ الفَقِيرُ يَمدَحُ الخَادِمَ ويُثنِي عليه بما أَعْطاهُ، فَصَارَ الخَادِمُ العَاقِلُ يَسْتَحْيِي مِنَ السُّلْطانِ بِأَنْ يُحْمَدَ بما ليسَ منه، لِعِلْمِهِ أنَّ الإِعْطاءَ مِنَ السُّلْطانِ، لَا مِنْهُ، فَتَأَمَّلْ.

– المؤمنُ الكَامِلُ يَسْتَحِيي مِنْ رَبِّه أنْ يُنسَبَ إليه شيءٌ لا وُجُودَ له منه بوجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنْ يَكُونَ ما أُثْنِيَ عليه به مَعْدُوماً منه، فَيَكُونُ حَيَاؤُهُ منه لِعَدَمِ الوَصْفِ فيه.

الثَّانِي: أنْ يُوجَدَ فيه ما أُثْنِيَ به عليه، لكنْ يَرَى نَقْصَه فيه وتَقْصِيرَه في حَقِّه، فلا يَراهُ بها.

الثَّالثُ: أنْ يُوجَدَ منه كَامِلاً، ولكنْ يَشْهَدُ سَابِقَ تَوْفِيقِ اللهِ لَهُ، فَيَسْتَحِيي مِنْ ظُهُورِ نِسْبَتِه فيه.

فالحَيَاءُ الأَوَّلُ يُثِيرُ التَّشْمِيرَ، والثَّانِي يُوجِبُ التَّحقِيقَ والتوقِيرَ، والثَّالثُ يُوجِبُ البَراءَةَ مِنَ النّفْسِ لِشُهُودِ التَّقْدِيرِ والإخْلَاصِ بِنَفْيِ التَّدْبِيرِ.

– لَمّا أُثْنِيَ على الإمامِ أبي حَنيفةَ رحمهُ اللهُ بِقِيامِ اللَّيْلِ كُلِّه تَحَمَّلَ مَشَقَّتَهُ فَلَمْ يَتْرُكْهُ حتَّى لَقِيَ اللهَ، فِرَاراً مِنْ أنْ يَكُونَ مِنَ الذينَ يُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بما لم يَفْعَلُوا.

– المؤمنُ الحَقِيقيُّ هو الذي يَرَى الفَضْلَ في كُلِّ مَكْرُمَةٍ يَتَّصِفُ بها أو طَاعَةٍ يَتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ، عَائِداً إلى مَنْ هو مَصْدَرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وإلى مَنْ بِيَدِهِ كُلُّ مَكْرُمَةٍ وتَوْفِيقٍ، أَلَا وهو اللهُ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ جَلَّ جَلالُهُ، ولا يَنسِبُ مِنْ ذلك كُلِّه إلى نفسِه إلّا الشُّعورَ بِثِقَلِ المِنَّةِ الإلهيةِ عليه.

وفي الحديثِ عن النّبِيّ صلى الله عليه وسلم: "المُتَشبِّعُ بما لم يُعْطَ، كَلابِسِ ثَوبَيْ زُورٍ". (البخاري ومسلم).

91) أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ فِيهِ.

– يَقِينُ ما عِنْدَهُ هو ما عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِه وعُيُوبِه، وسُوءِ حَالِه، ودُخُولِ عِلَلِهِ في أَعْمالِه وأَحْوَالِه، وانْتِفَاءِ الكَمالِ عنه إلّا بِمِنَّةِ اللهِ وإفْضَالِه، وكذا يَقِينُ ما عنده عَجْزُهُ ونَقْصُهُ وتَقْصِيرُهُ وإسَاءَتُهُ.

– وظَنُّ ما عندَ النّاسِ هو ما ظَهَرَ عليه مِنْ خَالِصِ أعْمَالِه وصَلَاحِ أحْوَالِه، ووُجُودِ إِخْلَاصِه في أعْمَالِه، وظَنُّ ما عندَ النّاسِ أنَّ كَوْنَ ذلكَ منه حَقِيقَةً.

والخُروجُ عن ذلك كُلِّه إنّما هو بالثّنَاءِ على اللهِ لِأَجْلِ سِتْرِه كما أَشَارَ ابنُ عطاءِ اللهِ إلى ذلكَ في الحِكْمَةِ التي بَعْدَها.

– وإنّما كانَ أَجْهَلَ النّاسِ لِوُجُوهٍ، منها:

اتِّباعُ الباطِلِ بِتَرْكِ المُحقَّقِ، وتَقْدِيمُ الظَّنِّ على اليَقِينِ، بِتَقْدِيمِ ما عِنْدَ غَيْرِه على ما يَعْلَمُه مِنْ نَفْسِه، وكذلكَ تَعْرِيضُ النَّفْسِ لِلْهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ.

فَقَدْ قِيلَ: "مَنْ مَدَحَ إِنْسَاناً بما لَيْسَ فيهِ فَقَدْ بَالَغَ في هِجَائِهِ".

وقالَ الحَارِثُ المُحاسبيُّ رحمهُ اللهُ: "الرّاضِي بالمَدْحِ بالباطِلِ كَمَنْ يُهْزَأُ بهِ ويُقَالُ له: إنَّ العَذِرَةَ التي تَخرُجُ مِنْ جَوْفِكَ لها رَائِحَةُ الْمِسْكِ، وهو يَفْرَحُ بذلك ويَرْضَى بالسُّخْرِيَةِ بهِ".

– أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ حيثُ يَتيقّنُ أنّه ليس فيه ما مُدِحَ به، لِظَنّ مَا عِنْدَ النَّاسِ فِيهِ.

فيا أيُّها الْمِسْكِينُ لا تَتْرُكْ يَقِينَكَ لِظَنّ ما عندَ غيرِكَ كما يَفْعَلُه أهلُ الغِرَّةِ، ولا تُطاوِعْ نفسَكَ في اغْتِرَارِها، مِثَالُ هذا: مِثَالُ الذي يُصَدّقُ مَنْ يَقُولُ له: إنّكَ غَنِيٌّ، وعندكَ أُلُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْمَالِ، فَيَرَى نَفْسَه غَنِيّاً بِمُجَرَّدِ قَوْلِه، وليسَ عندَه شيءٌ، بل هو مِنْ أَفْقَرِ الفُقَرَاءِ، وهذا التّصْدِيقُ غَايَةُ ما يُتَصَوَّرُ في أهلِ الجُنُونِ.

– ومِثَالُهُ أيضاً: الجَاهِلُ بِعِلْمٍ مِنَ العُلُومِ كالطِّبِّ والرّياضِيّاتِ مَثلاً، لا يَتَحَوَّلُ إلى عَالِمٍ بها، لِمُجَرَّدِ وَهْمٍ سَرَى إلى بعضِ مَنْ رَآهُ فأَثْنَى عليه بمَعْرِفَتِه لها وتَضَلُّعِه فيها، ولو أنّ هذا الجاهِلَ سَمِعَ ثَناءَ هذا المُتَوَهِّمِ، فَصَدَّقَهُ وأَيْقَنَ في نَفْسِه أنَّه خَبِيرٌ بهذا العِلْمِ، ذَاهِلاً عَنْ جَهالَتِه التي يَتَيَقَّنُها مِنْ نَفْسِه، فلا رَيْبَ أنَّه مِنَ الحُمْقِ أو السَّذَاجَةِ بِمَكَانٍ.

فانْظُرْ كم هو جَهُولٌ ذاكَ الذي يُذهِلُهُ الْمَدِيحُ البَاطِلُ عَنْ عُيُوبِه ونَقائِصِه فَيُصَدّقُ وَهْمَ الجاهِلِينَ بِهِ، ويُنْكِرُ عِلْمَهُ اليَقِينِيَّ بِوَاقِعِ حَالِه.

92) إِذَا أُطْلِقَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ وَلَسْتَ لَهُ بِأَهْلٍ، فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

– هذه الحِكْمَةُ يُرشِدُ فيها لِوَجْهِ العَمَلِ فيما سَبَقَ مِنَ الكلامِ على مَدْحِ الناسِ وثَنائِهِم في الحِكَمِ الثّلاثِ السَّابِقَةِ، فقالَ: إِذَا أُطْلِقَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ للثّناءِ عليكَ وهذا حالُكَ في كُلِّ وَقْتٍ، فَأَثْنِ عَلَيْهِ سُبحانَه بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ الفَضْلِ والكَرَمِ الذي أَوْجَبَ لكَ السَّتْرَ حتّى أُثْنِيَ عليكَ، ولم يُسَلِّطْ أَحَداً بالذَّمِّ عليكَ، وإنْ سَلَّطَ بَعْضَهُم عليكَ فالحَمْدُ لهُ إذْ لم يُوجِّهْ جَمِيعَهُم بِالذَّمِّ إليكَ.

– فإذا أُطْلِقَ الثَّناءُ عليكَ عُمُوماً أو خُصُوصاً بأَمْرٍ عَامٍّ أو خَاصٍّ، ولم تَرَ نَفْسَكَ أهلاً لهُ مِنُ حيْثُ نقصُكَ وقُصورُكَ فارْجِعْ لِمَوْلَاكَ بالثَّناءِ عليه إذْ أَظْهَرَ عليكَ ما لستَ بأهْلٍ له مِنْ حيثُ ذَاتُكَ، ذَاكِراً نِعْمَتَه فيما وَاجَهَكَ به مِنْ ذلك؛ إذْ سَتَرَ القَبِيحَ وأَظْهَرَ الجَمِيلَ ولم يُؤاخِذْ بالجَرِيرَةِ.

يُعَبِّر عَنْ هذا الْمَعْنَى ما سَطَّرَه الإمامُ القَحْطانيُّ في نُونِيَّتِه:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي *** لَأَبَى السَّلاَمَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي
وَلَأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي *** وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ
لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي *** وَحَلِمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي
فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا *** بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي
وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ *** مَا لِي بِشُكْرِ أَقَلِّهِنَّ يَدَانِ

ويقولُ أَبُو العَتاهِيَةِ:

يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْراً وَإِنِّي *** لَشَرُّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

أُجَنُّ بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا جُنُوناً *** وَأُفْنِي الْعُمرَ فِيهَا بِالتَّمَنِّي

وَبَيْنَ يَدَيَّ مُحْتَبَسٌ طَوِيلٌ ***كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ لَهُ كَأَنِّي

وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ الزُّهْدَ فِيهَا *** قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ

– الحقُّ سُبحانَه لم يُطْلِقْ أَلْسِنَةَ الناسِ بالثَّناءِ عليكَ، على الرَّغْمِ مِنْ أنّكَ لستَ أهْلاً لذلك، إلّا لأنّه عزّ وجلّ أحَبَّ أنْ يَستُرَ قَبائِحَكَ ويُخْفِيهَا عنهم، وأنْ يَنشُرَ فيهم ما قدْ يَتَصَوَّرُونَه مَزايا لكَ، وهذا مِنْ مُقْتَضَى صِفَاتِ لُطْفِهِ وصَفْحِهِ وكَرَمِه، إذَنْ فَالْفَضْلُ ليسَ للنّاسِ الذينَ خَفِيَتْ عنهم قَبائِحُكَ وعُيوبُكَ، فَأَثْنَوْا عليكَ بما رَأَوْه أو حَسِبُوه فيكَ من المَزَايا والمَكْرُماتِ، وإنّما الفَضْلُ كُلُّه لِمَنْ سَتَرَ عن الناسِ قَبائِحَكَ وعُيوبَكَ وهي كَثِيرةٌ، وأبرزَ لهم في مَكانِهَا مَزاياكَ، وهي –إنْ صَدَقَتْ– قَلِيلَةٌ.

– إذَنْ فَلْتُغَيِّبْكَ هذه الحَقِيقَةُ عَنِ الناسِ الذينَ يَمْدَحُونَكَ ويُثْنُونَ عليكَ، ولْتَشْهَدْ بَدَلاً عنهم مَوْلاكَ الذي تَفَضَّلَ عليكَ، فَأَخْفَى عَنِ الناسِ مَعايِبَكَ وأَطْلَقَ أَلْسِنَتَهُم بالثَّناءِ عليكَ، وهذا مَعنىً مِنْ مَعاني ثَنائِهِ جَلَّ جَلَالُه عليكَ.

وعندئذٍ لا بُدَّ أنْ يَنْطَلِقَ لِسانُكَ بالثَّناءِ على اللهِ بما هو أَهْلٌ له، إذْ سَتَرَ قَبائِحَكَ ثم أَثْنَى عليكَ بما لَسْتَ أهْلاً له.

نَماذِجُ مِن اتِّهَامِ السَّلَفِ لِأَنْفُسِهِم، ومَقْتِهِم لها:

- هذا عُمَرُ رضي الله عنه يقولُ لحذيفةَ: "هلْ أنَا مِنُهُم؟ -يَعْنِي مِنَ الْمُنافِقِينَ- أَوَ سَمَّانِي لكَ رَسُولُ اللهِ؟".

- وقالَ حُذَيْفَةُ: "لَوْ جاءَنِي رَجُلٌ فقالَ لي: وَاللهِ الذي لَا إِلَه إِلّا هو يا حُذَيفةُ ما عَملُكَ عَمَلُ مَنْ يُؤمِنُ بيومِ الحِسابِ، لَقُلْتُ له: يا هذا لَا تُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ فَإِنَّكَ لَا تَحْنَثُ".

- وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: "لو عَلِمْتُمْ ما أُغلِقَ عليه بَابِي، ما تَبِعَنِي منكم رَجُلانِ".

- وكان سالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ في الحجِّ فَزاحَمَ رَجُلاً فقالَ له الرَّجُلُ: يا مُرَائِي، فقال: "ما عَرَفَنِي إلّا أنتَ".

- كانَ عبدُ الرحمنِ بنُ هُرْمُز الأَعْرَجُ كثيراً ما يُعاتِبُ نفسَه ويُوَبِّخُها ويقولُ لها: "إنَّ المُنادِي يُنَادِي يومَ القيامةِ: يا أَهْلَ خَطِيئَةِ كذا قُومُوا، فَتَقُومُ يا أَعْرَجُ معهم، ثم يُنادِي: يا أهلَ خطيئةِ كذا قوموا، فتقومُ يا أعرجُ معهم، ثم ينادي يا أهلَ خطيئةِ كذا قوموا، فتقومُ يا أعرجُ معهم، فأراكَ يا أعرجُ تقومُ مع كلِّ طائفةٍ".

- وقالَ شُعَيْبُ بنُ حَرْبٍ: بينا أنا أَطُوفُ بالبيتِ إذا رَجُلٌ يَشُدُّ ثَوْبِي مِنْ خَلْفِي فَالْتَفَتُّ فإذا بِفُضَيلِ بنِ عِياضٍ، فقال: "لو شَفَعَ فِيَّ وفيكَ أهلُ السّماءِ كُنّا أَهْلاً ألّا يُشْفَعَ فينا".

- وعن يُونُسَ بنِ عُبَيْدٍ قال: "إنِّي لَأَعُدُّ مائةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصالِ البِرِّ، ما فِيَّ منها خَصلةٌ واحدةٌ".

- كانَ محمدُ بنُ واسِعٍ يقولُ: "لو كان يُوجَدُ للذنُوبِ رِيحٌ، ما قَدِرْتُم أنْ تَدْنُوا مِنّي مِنْ نَتَنِ رِيحِي". وكانَ يقولُ: "إنّما هو عَفْوُ اللهِ أوِ النّارُ".

- وقالَ محمدُ بنُ أسلَمَ الطُّوسِيُّ: "قد سِرْتُ في الأرضِ ودُرْتُ فيها، فبِالّذِي لا إله إلّا هو ما رَأَيْتُ نَفْساً تُصَلِّي إلى القِبْلَةِ شَرّاً عِندِي مِنْ نَفْسِي".

- وكانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ يَبكِي حتى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ ويقولُ: "أَدْرَكْنَا أقواماً كُنّا في جَنْبِهِم لُصُوصاً".

- وكانَ الحسنُ البَصْرِيُّ رحمهُ اللهُ تعالى كثيراً ما يُعاتِبُ نفسَه ويُوَبِّخُها بقولِه: "تَتَكَلَّمِينَ بِكَلامِ الصّالحِينَ القَانِتِينَ العابِدِينَ، وتَفْعَلِينَ فِعْلَ الفاسِقِينَ الْمُرائِينَ، واللهِ ما هذه صِفاتُ الْمُخْلِصِينَ".

- عن سَهْلِ بنِ أَسْلَمَ قالَ: كانَ بَكْرُ بنُ عبدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ إذا رَأَى شَيْخاً قالَ: "هذا خَيْرٌ مِنِّي، عَبَدَ اللهَ قَبْلِي، وإذا رَأَى شابّاً قالَ: هذا خَيْرٌ مِنِّي ارْتَكَبْتُ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ ممّا ارْتَكَبَ".

- قالَ إبراهيمُ النّخَعِيُّ: "لقدْ تَكَلَّمْتُ، ولو وَجَدْتُ بُدّاً ما تَكَلَّمْتُ، وإنَّ زَماناً أَكُونُ فِيهِ فَقِيهَ الكُوفَةِ لَزَمانُ سُوءٍ".

- وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ: "إذا ذُكِرَ الصّالحونَ فَأُفٍّ لي وتُفّ".

- كانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فيقولُ: "كيفَ تَرى حالَ مَنْ كَثُرَتْ ذُنوبُه، وضَعُفَ عَمَلُه، وفَنِيَ عُمُرُه، ولم يَتَزَوّدْ لِمَعَادِه، ولم يَتأَهَّبْ للموتِ، ولم يَتزَيَّنْ للآخرةِ، وتَزيَّنَ للدنيا، هِيهِ، وقَعَدَ يُحَدِّثُ -يعني نفسَه-، واجْتَمَعُوا حولَكَ يَكْتُبُونَ عنكَ، بَخٍ فقد تَفَرَّغْتَ للحديثِ. ثم قالَ: هَاهْ، وتَنَفَّسَ طَوِيلاً، وَيْحَكَ أنتَ تُحسِنُ تُحَدِّثُ؟ أو أنتَ أهلٌ أنْ يُحْمَلَ عنكَ؟ اِسْتَحِي يا أحمقُ بينَ الحُمْقَانِ، لولا قِلّةُ حَيائِكَ وصَفاقَةُ وَجْهِكَ ما جَلَسْتَ تُحَدِّثُ وأنتَ أنتَ، أمَا تَعرِفُ نَفْسَكَ؟ أمَا تَذكُرُ ما كُنتَ؟ وكيفَ كنتَ؟ أمَا لو عَرَفُوكَ ما جَلَسُوا إليكَ ولا كَتَبُوا عنكَ، ولا سَمِعُوا منكَ شيئاً أبداً".

- وأخَذَ الفضيلُ بنُ عياضٍ بِيَدِ سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ خارجَ الحَرَمِ وقالَ له: "إنْ كُنْتَ تَظُنُّ أنّه قد صَلَّى إلى هذه القِبْلَةِ مَنْ هو شَرٌّ مِنّي ومنكَ فَبِئْسَ ما تَظُنُّ".

- قال خَلَفُ بنُ تَميمٍ: سَمِعْتُ سُفيانَ الثوريَّ بمكةَ وقدْ كَثُرَ الناسُ عليه يقولُ: "ضَاعَتِ الأُمّةُ حِينَ احْتِيجَ إلى مِثْلِي".

93) مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

- يعني أنّكَ إنْ كنتَ تَفْرَحُ بالعَطاءِ والإقْبالِ مِنْ حيثُ إنّهُ عَطاءٌ وإقْبالٌ، بحيثُ لا تَتوقَّفُ في قَبُولِه، ولا تَستَنِدُ في الانْبِسَاطِ به إلى أَصْلٍ، وتَنْقَبِضُ لِلْمَنْعِ كذلكَ، فأَنتَ طُفَيْلِيٌّ على ما تَدّعِيه مِنْ مَراتِبِ القَوْمِ، والطُّفَيْلِيُّ هو الدَّخِيلُ على أهْلِ الصَّنِيعِ دونَ أنْ تكونَ له نِسْبَةٌ منهم.

أو يكونُ المعنى: أَنَّكَ طِفْلٌ، تَفْرَحُ بما يُلائِمُ ظاهِرَهُ، وتحزنُ بفقدِه.

- فهذهِ عَلَامَةٌ يَعْرِفُ بها العَبْدُ حالَه في العَطاءِ والْمَنْعِ والْمَدْحِ والذَّمِّ، فإذا كانَ يَقْبَلُ ذلك ويَرُدُّه مِنْ حيثُ الطَّبْعُ والعَادَةُ، ومِنْ حيثُ هو إقْبالٌ وإدْبارٌ فذلك دَلِيلُ نَقْصِهِ إذْ هُوَ كالطِّفْلِ في إقْبالِه وإدْبارِهِ لا يَشْعُرُ بما وَرَاءَ العَطاءِ والْمَنْعِ، ولا يَفْرَحُ ولَا يَحزنُ إلّا لهما.

- وعَلَامَةُ صِدْقِه في ذلكَ وجُودُ العَدْلِ في الرِّضَا والغَضَبِ فلا يَتَجاوزُ الحَدَّ في مَدْحِ مُحْسِنٍ وإكْرَامِه، ولا في ذَمِّ مُسِيءٍ وإهْمَالِه.

وقدْ قالَ أبو عُثمانَ الحيريُّ رحمهُ اللهُ: "لا يَكْمُلُ الرَّجُلُ حتّى يَسْتَوِي قَلْبُهُ في أَرْبَعَةِ أَشْياءَ: في الْمَنْعِ، والعَطاءِ، والعِزِّ، والذُّلِّ".

– فمتى كُنْتَ أيُّها العَبْدُ تَجِدُ مِنْ نَفْسِكَ أنّكَ إذا أُعطِيتَ شيئاً مُراداً لكَ بَسَطَكَ العَطاءُ، وإذا مُنِعْتَ منه قَبَضَكَ الْمَنْعُ، فاسْتَدِلَّ بذلك على تَطَفُّلِكَ على أهْلِ اللهِ وادِّعاءِ ما لهم مِنَ الْمَقاماتِ ولستَ منهم، فتكونُ كالطُّفَيْليِّ الذي يَدْخُلُ مع الأَضْيافِ في ضِيَافَتِهم ولا يَسْتَحِقُّ الدُّخُولَ معهم، واسْتَدِلَّ بذلك أيضاً على عَدَمِ صِدْقِكَ في عُبودِيَّتِكَ، فإنَّ البَسْطَ عندَ العَطاءِ والقَبْضَ عندَ الْمَنْعِ مِنْ عَلاماتِ بَقاءِ الحَظِّ للنَّفْسِ والعَمَلِ على نَيْلِهِ، وهو مُناقِضٌ للعُبوديّةِ عندَ العارِفِينَ، فإنَّ العارِفَ يَستَوِي عندَه كُلُّ ما فَعَلَهُ سَيِّدُهُ ساءَهُ أَمْ سَرَّهُ.

– والطُّفَيْلِيُّ هو الذي يأتِي الوَلَائِمَ والضِّيافَاتِ فَيَدْخُلُ معَ أهْلِهَا مِنْ غَيرِ دَعْوَةٍ، وهو مَنْسُوبٌ إلى رَجُلٍ مِنْ أهلِ الكُوفَةِ مِنْ بَنِي عَبدِ اللهِ بنِ غَطفانَ، عُرِفَ بِشَرَهِهِ، وكانَ يَأْتِي الأَعْراسَ والوَلَائِمَ ونَحوَها، ولا يَقْعُدُ عَنْ وَلِيمَةٍ ولا يَتَخَلَّفُ عَنْ عُرْسٍ، ويُقالُ له: طُفَيْلُ الأعْراسِ أو العَرائِسِ، فَنُسِبَ إليهِ كُلُّ مَنْ يَفعَلُ فِعْلَه، أو ما يُشْبِهُهُ كالدُّخُولِ في قَوْمٍ وهو ليسَ منهم.

فهُنا التَّشْبِيهُ به مَنْ دَخَلَ مع القَوْمِ ولَم يَتَحَقَّقْ بما هم عليه مِنَ اليَقِينِ والرِّضَى والْمَقاماتِ واسْتِوَاءِ الأَحْوَالِ. فإذا كانَ العَبْدُ يَتَضَعْضَعُ عندَ الجَلالِ، ويَنْهَزِمُ عندَ حَمْلَةِ الأَبْطالِ، فاعْلَمْ أنّه ضَعِيفُ الحَالِ، مُتَطَفِّلٌ على مَقاماتِ الرِّجالِ.

– قال ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في التّنْوِير: وقَدِ ابْتَلَى اللهُ بِحِكْمَتِه ووُجُودِ مِنَّتِه الفُقَراءَ الذينَ ليسُوا بِصادِقِينَ، بإظْهَارِ ما كَتَمُوا مِنَ الرّغْبَةِ، وأسَرُّوا مِنَ الشّهْوَةِ، فابْتَذَلُوا أنْفُسَهم لأَبْناءِ الدنيا مُباسِطِينَ لهم، مُلائِمِينَ لهم، مُوافِقِينَ لهم على مَلذُوذاتِهِم، مَدْفُوعِينَ على أبْوَابِهِم، فترَى الوَاحِدَ منهم يتزَيّنُ كما تَتزيّنُ العَرُوسُ، مُعْتَنُونَ بإصْلَاحِ ظَواهِرِهِم، غَافِلُونَ عَنْ إصْلاحِ سَرائِرِهِم، ولقدْ وَسَمَهُمُ الحَقُّ بِسِمَةٍ كَشَفَ بها عَوَارَهُم وأظْهَرَ أَخْبارَهُم، فَبَعْدَ أنْ كانَتْ نِسْبَتُه أنْ لَوْ صَدَقَ مع اللهِ أنْ يُقالَ فيه عَبْدُ الكَبِيرِ، فَخَرَجَ مِنْ هذه النِّسْبَةِ لِعَدَمِ صِدْقِه فَصَارَ يُقالُ له شَيْخُ الأمِيرِ، أُولئكَ الكاذِبُونَ على اللهِ، الصّادُّونَ العِبادَ عَنْ صُحْبَةِ أوْلِيَاءِ اللهِ، لأنَّ ما يَشْهَدُه العُمُومُ منهم يَسْحَبُونَه على كلّ مُنْتَسِبٍ لهم، صادِقٍ وغيرِ صادِقٍ، فهم حُجُبُ أهْلِ التَّحْقِيقِ، وسُحُبُ شُموسِ أهْلِ التّوْفِيقِ، ضَرَبُوا طُبُولَهُم، ونَشَرُوا أعْلَامَهُم، ولَبِسُوا دُرُوعَهُم، فإذا وقَعَتِ الحَمْلَةُ وَلَّوْا على أعْقابِهِم ناكِصِينَ، ألْسِنَتُهُم مُنْطَلِقَةٌ بالدَّعْوَى، وقُلُوبُهُم خاوِيَةٌ مِنَ التَّقْوَى، ألَمْ يَسمعُوا قولَه تعالى: (لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ)، أتُرى إذا سأَلَ الصادقينَ عن صِدقِهم، أيُترَكُ المُدّعينَ مِنْ غيرِ سُؤَالٍ؟ ألَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَه سُبحانَه: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ). فهم في الظّاهِرِ في زِيّ الصّادِقِينَ، وعَمَلُهُم عَمَلُ المُعْرِضِينَ، كما قالَ القَائِلُ:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ *** وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

94) إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبَباً يُؤْيِسُكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ.

– الاسْتَقامَةُ على العُبودِيّةِ لا يُناقِضُهَا فِعْلُ الذَّنْبِ على سَبِيلِ الفَلْتَةِ والـهَفْوَةِ إذا جَرَى القَدَرُ عليه بذلك، وإنّما يُناقِضُها الإصْرارُ عليه، فإذا وَقَعَ مِنَ العَبْدِ ذَنْبٌ فَينبَغِي له أن يُبادِرَ إلى التّوبةِ منه، ولا يَيْأَسْ بِسَبَبِ وُقُوعِه فيه مِنَ الاسْتِقامَةِ مع رَبِّه ويَرى أنّه طَرَدَهُ وأَبْعَدَهُ؛ رُؤيَةً تُوجِبُ له القُنُوطَ مِنْ رَحمةِ اللهِ تعالى واليَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ تعالى، لأنّه قد يَكُونُ ذلك الذّنْبُ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عليه وقد وَقَعَ ذلك وفَرُغَ منه.

– فَلَا يَكُنْ الذَّنْبُ سَبَباً يُؤْيِسُكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، بلِ اجْعَلْهُ مِفْتاحَ الرُّجُوعِ إليه، بالتّوبةِ والإنابَةِ رَجاءً في اللهِ وخَوْفاً منه، لأنَّ اليَأْسَ مِنْ رَحمةِ اللهِ كوُجُودِ الاغْتِرَارِ باللهِ، ولا يُعَظِّمُ الشّيطانُ عندَكَ الأمْرَ بما عَسَى أنْ يَكُونَ تَقَدَّمَ لك مِنْ كَسْرِ التّوبةِ، ولا بما تَعْلَمُه مِنْ نَفْسِكَ مِنْ قِلَّةِ الوَقارِ والخَشْيَةِ، ولا بما تَراهُ مِنْ عِظَمِ الذّنْبِ وكِبَرِ السّيِّئَةِ، فإنّ اللهَ لا يَتعاظَمُهُ ذَنْبٌ يَغفِرُه.

– قالَ الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمهُ اللهُ: "وكما اتّخَذْتَ الذّنْبَ والعَوْدَ إليه حِرْفَةً، فَاتّخِذِ التّوبَةَ والعَوْدَ إليها حِرْفَةً، فما أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ ولو عَادَ إلى الذّنْبِ في اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرّةً، ولا يَخْدَعَنَّكَ الشّيطانُ بقولِه: أيُّ فائِدَةٍ لِتَوْبَةٍ تَصْحَبُهَا عَوْدَةٌ؟

فإنّكَ بينَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، إمّا أنْ تَثْبُتَ على تَوْبَتِكَ أو تَعُودَ إلى الذّنْبِ فَتَكُونُ قدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُكَ الماضِيةُ وليس عليك إلّا هذا الذي أحْدثْتَهُ".

- ويَنْبَغِي أنْ يَكُونَ الذّنْبُ حامِلاً لكَ على التَّوبَةِ لِثَلاثَةِ وُجُوهٍ:

أَحَدُها: اسْتِدْراكاً لِلْفَائِتِ بوُجُودِ التّوْبَةِ والإنابَةِ.

الثّاني: حَيَاءً مِنَ الحَقّ في التَّخَلُّفِ عَنْ صِدْقِ الإِجَابَةِ.

الثّالِثُ: مُبادَرَةً لِلرُّجْعَى قَبْلَ هُجُومِ الْمَوْتِ وحُصُولِ الفَوْتِ.

- فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ، وذلك بأنْ يَصْرِفَكَ الحَقُّ عنه أوْ يَصْرِفَه عنكَ بأَحَدِ وُجُوهٍ ثَلاثَةٍ:

أحَدُها: أنْ تَسْتَقِيمَ على التّوْبَةِ، وتُوَفَّقَ للثَّباتِ فلا تَعْصِي، ولا تُراجِعُ الذّنْبَ أبداً لوُجُودِ صِدْقِكَ، وتلكَ تَوْبَتُهُ عليكَ، لأنّ تَوْبَةَ الحَقّ عليكَ عَطِيَّةٌ منه لكَ، وتَوْبَتَكَ لِلْحَقّ تَعرُّضٌ لِنَفَحاتِ رَحْمَتِه بِالعَمَلِ بالْمُوافَقَةِ، وإنَّمَا على العَبْدِ ما في قُدْرَتِه، وليسَ عليه ما لا يَمْلِكُهُ.

قالَ أبو سليمانُ الدّارانيُّ: "مَنْ صَدَقَ في تَرْكِ شَهْوَةٍ ذَهَبَ اللهُ بها مِنْ قَلْبِه، واللهُ تعالَى أَكْرَمُ مِنْ أنْ يُعَذِّبَ قَلْباً بِشَهْوَةٍ تُرِكَتْ له".

الثّاني: أنْ تُعاجِلَكَ المَنِيَّةُ قبلَ العَوْدِ إلى غيرِهِ، أو يَعُوقُكَ عائِقٌ يَمنَعُكَ مِنْ ذلك، أو تَصْرِفُكَ الْمَوانِعُ عن فِعلِه، فتكونُ مَحْفُوظاً بوجُودِ العائِقِ أو الْمَانِعِ، إذْ مِنَ العِصْمَةِ أنْ لا تَجِدَ ومِنَ العِصْمَةِ أنْ لَا تَقْدِرَ.

الثّالثُ: أنْ يَرُدَّكَ عن ذلكَ وُجُودُ الحَياءِ في العَوْدَةِ، وإنْ كَانَ خِلَافَ شَرْطِ التّوْبَةِ، فَتَرْكُ الذُّنُوبِ خَيْرٌ في الجُمْلَةِ.

قال سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: "تَرْكُ الذُّنُوبِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ".

– قالَ تعالَى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، وقالَ سُبحانَه: (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ)، وقالَ عزَّ وجلَّ: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ). وقالَ سُبحانَه: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). ويَقُولُ جَلَّ جَلَالُه: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ).

(آل عمران 135، الحجر 56، يوسف 87، الزمر 53، البقرة 222).

– وقالَ صلى الله عليه وسلم: " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ".

(الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم وصححه)

– وقالَ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا". رواه مسلم.

95) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

- أيْ إذا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ اللهُ لكَ بَابَ الرَّجاءِ حتى تَرجُوهُ، فاسْتَحْضِرْ بِقَلْبِكَ ما هو وَاصِلٌ منه تعالى إليكَ مِنَ الفَضْلِ والكَرمِ والإحْسَانِ المُتَواتِرِ المُتَواصِلِ الذي لا تُحْصَى أنْوَاعُه فَضْلاً عَنْ أَفْرادِه. قالَ تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا). النحل 18.

- وإذا أرَدْتَ أنْ يَفتَحَ لكَ بَابَ الخَوفِ فاشْهَدْ واسْتَحْضِرْ ما هو وَاصِلٌ منكَ إليهِ مِنْ عَظِيمِ الْمُخالَفَاتِ وارْتِكَابِ السَّيِّئاتِ، لأنّكَ إنْ كُنْتَ ناظِراً بِعَيْنِ الحَقِيقَةِ لم تَرَ منكَ إلّا نَقْصاً وعَيْباً، فإذا غَلَبَ عليكَ هذا الحَالُ، اشْتَدَّ بكَ الحُزْنُ، وبادَرْتَ بِصَالِحِ الأعْمَالِ، فالرَّجاءُ والخَوْفُ حَالَانِ نَاشِئَانِ عنْ هاتَيْنِ المُشاهَدَتَيْنِ، فاعْمَلْ بهما أيُّها العَبْدُ لِتَشْرَبَ بالكَأْسَيْنِ.

- والرّجاءُ هو الطَّمَعُ فيما عندَ اللهِ بِشَرْطِ العَمَلِ في سَبَبِ الوُصُولِ إليه، والْخَوْفُ والحُزْنُ هو تَقَبُّضُ أوِ انْزِعَاجُ السَّرِيرَةِ لِمَا عُمِلَ مِنَ الجَرِيرَةِ.

- فإذا نَظَرْتَ إلى إحْسَانِه إليكَ ازْدَدْتَ رَجاءً فيما عندَه، وإنْ نَظَرْتَ إلى إساءَتِكَ معه ازْدَدْتَ حُزْناً على ما أنتَ عليه مِنْ قُبْحِ الحَالِ وسَيِّءِ الخِلالِ، فَتَزْدَادُ فَقْراً إليهِ بالثَّانِي، كما تَزْدَادُ فَرَحاً بهِ في الأُولَى.

– إذا أَرَدْتَ أنْ يَنْفَتِحَ لكَ بابُ الرّجاءِ في اللهِ الذي عَطاياهُ بِمُقْتَضَى جُودِهِ وفَضْلِه، لَا لِعِلَّةٍ أُخرَى، فَاشْهَدْ ما مِنهُ إليكَ، فَانْظُرْ كيفَ كَساكَ كِسْوَةَ الوُجُودِ بعدَ أنْ لم تَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً، وأَعْطَاكَ ما لا يُمْكُنُ أنْ يَكُونَ مَحْصُوراً، وَأَوْلاكَ في الدنيا ما يُوجِبُ لكَ فَرْحَةً وسُرُوراً، وأَعَدَّ لكَ في الآخِرَةِ ما لا يَنْقَطِعُ زَمَناً ودُهُوراً، فمَنْ كانَ كذلكَ فكيفَ لا تَرْجُو فَضْلَهُ؟ وكيفَ تُعْرِضُ عنهُ إلى غَيْرِه؟

– فاللهُ عزَّ وجلَّ ذُو كَرمٍ وفَضْلٍ ورَحْمَةٍ، ومَنِ اتَّصَفَ بالكَرمِ والفَضْلِ والرّحْمَةِ لا يَصِحُّ اليَأْسُ مِنْ فَضْلِهِ والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِهِ فإنّهُ لا يَيْأَسُ أَحَدٌ مِنْ ذِي كَرمٍ أَصْلاً.

– وكانَ أَبو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ يَقُولُ: "لَئِنْ طَالَبْتَنِي بِذُنُوبِي لَأُطَالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ، وَلَئِنْ طَالَبْتَنِي بِتَوْبَتِي لَأُطَالِبَنَّكَ بِسَخَائِكَ، وَلَئِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ لَأُخْبِرَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَنِّي أُحِبُّكَ".

– وإذا أَرَدْتَ أنْ يَنْفَتِحَ لكَ بابُ الخَوْفِ مِنْ سَطْوَةِ القَهَّارِ فاشْهَدْ ما مِنكَ إليه، خَلَقَكَ لِعِبَادَتِه فتَرَكْتَها، ووَضَعَ فيكَ قَابِلِيَّةَ التَّرَقِّي إليه فبِجَهْلِكَ ضَيّعْتَها، وأمَرَكَ بطاعَتِه فوَدَّعْتَها، ونَهاكَ عنْ مَعْصِيَتِه فارْتَكَبْتَها، وأمَرَكَ أنْ تَقْرُبَ إليه فَهَرَبْتَ منه، وطَلَبَ منكَ أنْ تَجْعَلَ قَلْبَكَ خالِصاً فَسَوَّدْتَه بأَكْدارِ الأَوْزَارِ والأغْيَارِ، وقَابَلْتَ إحْسَانَه بكُفْرانِكَ، وإنْعامَه بآثامِكَ، وإقْبَالَه بإعْراضِكَ، أُفٍّ لكَ فما أَقْبَحَ شَأْنَكَ، فكيفَ لا تَخَافُ يا مَنْ هذا صُنْعُكَ؟

– قالَ عمرُ رضي الله عنه وهو يَمُوتُ بعدما طُعِنَ: "وَيْلِي وَوَيْلُ أُمِّي إنْ لمْ يَغْفِرْ لِي رَبِّي".

– يقولُ مُوسى بنُ مَسعودٍ رحمهُ اللهُ: "كُنّا إذا جَلَسْنَا إلى الثَّوريِّ كأنَّ النَّارَ قدْ أحاطَتْ بِنا لِمَا نَرَى مِنْ خَوْفِهِ وعَجْزِهِ".

– ورُوِيَ أنّ الفضيلَ بنَ عياضٍ رَأى أهلَ المَوْقِفِ وهم يَبْكُونَ فَبكَى رحمهُ اللهُ إلى قُبَيْلِ الغُرُوبِ وهو قابِضٌ بِيَدِهِ على لِحْيَتِه، ثم قالَ: "وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ وإنْ عَفَوْتَ، وَاخَجَلِي مِنكَ حتّى وإنْ غَفَرْتَ لي، حتّى وإنْ تُبْتَ عَلَيَّ".

– والمؤمنُ يَمْتَلِئُ قَلْبُهُ حُبّاً لِخَالِقِهِ، ورَغْبَةً فيما عِنْدَهُ، وخَوْفاً مِنْ غَضَبِهِ وأَلِيمِ عِقَابِهِ، فهو بينَ الخَوْفِ والرَّجاءِ، لا يَظَلُّ في خَوْفٍ دَائِمٍ، ولا في رَجاءٍ أبداً، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ). الأنبياء 90.

– دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على شَابٍّ وهو في الْمَوْتِ فقالَ: كيفَ تَجِدُكَ؟ قالَ: أَرْجُو اللهَ وأَخَافُ ذُنُوبِي. فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يَجْتَمِعانِ في قَلْبِ عَبْدٍ في مِثْلِ هذا الْمَوْطِنِ إلَّا أَعْطاهُ اللهُ ما يَرْجُوهُ وأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ".

(رواه الترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح).

96) رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ ماَ لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ، {لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً}.

– القَبْضُ مِنْ بِسَاطِ الحُزْنِ، والبَسْطُ مِنْ بِسَاطِ الرَّجاءِ، ولِكُلِّ واحِدٍ منهما فائِدَةٌ لا تَصِحُّ مِنَ الآخَرِ، وكُلُّ فائِدَةٍ كَمالٌ في بابِهَا، فالرَّجاءُ زِمامٌ يَقُودُ، والخَوْفُ سَوْطٌ يَسُوقُ.

يقولُ أبو حَفْصٍ الحَدَّادُ: "الخَوْفُ سَوْطُ اللهِ، بهِ يُقَوِّمُ الشَّارِدِينَ مِنْ عِبَادِهِ".

– فرُبَّمَا كانَ السَّوْقُ أَنْفَعُ مِنَ الْقَوْدِ وبالْعَكْسِ، فما تَيَسَّرَ منهما فاعْتَبِرْهُ بِمَقْصَدِهِ وهو الخُروجُ عنكَ لِمَنْ أنتَ له.

– وشَبَّهَ القَبْضُ باللَّيلِ لأنّه مَحَلُّ السُّكُونِ، وتَنَزُّلُ السَّكِينَةِ، وإمْكَانُ التّعبُّدِ بإفْرَادِ الوَجْهِ لِلْحقِّ.

– وشَبَّهَ البَسْطُ بالنَّهارِ لأنّه مَحَلُّ الحَرَكَةِ، وتَنَزُّلُ الأَحْوالِ، مع أنَّ اسْتَفَادَتَه مِنْ شَمْسِ المَعْرِفَةِ بِجَمَالِ الحقِّ والنّظَرِ إليه.

– ونَزَعَ بالآيةِ الواقِعَةِ في الآباءِ والأبْناءِ إِشَارَةً، لأنَّ البَسْطَ أَبٌ إذْ هو مِنْ سَبَبِ الإِيجَادِ، وهو الكَرَمُ والرَّحْمَةُ، والقَبْضُ ابْنٌ لأنَّه نَتِيجَةُ عَمَلِ العَبْدِ النَّاشِئِ عَنْ سَبَبِه.

– ومَوْقِعُ ما نَزَعَ به هنا في الآباءِ والأبناءِ عندَ ذِكْرِ التَّوْرِيثِ، فلا يُعْدَلُ بهِ إلى غيرِهِ إلّا على سَبِيلِ الإِشَارَةِ، وهو مَقْصُودُه رحمهُ اللهُ، ووَجْهُ الْمُناسَبَةِ أنّ التَّفَضُّلَ هو أَصْلُ وجُودِكَ، ومنه يَتَوَجَّهُ لكَ البَسْطُ، فهو لكَ كَالأَبِ، وإسَاءَتَكَ هي أَصْلُ قَبْضِكَ، وهي نَتِيجَةُ عَمَلِكَ، فَتَنزَّلَتْ مَنْزِلَةَ الابْنِ، فالتّقْدِيرُ: أبُو البَسْطِ وابْنُ القَبْضِ لا تَدْرُونَ أَيُّهم أَقْرَبُ لكم نَفْعاً، فلا تُؤْثِرُوا واحِداً منهم على الآخَرِ في مَحَلِّهِ.

– والعَارِفُونَ يُؤْثِرُونَ القَبْضَ ويَجْعَلُونَه الأَقْرَبَ لوُجُودِ الوَفائِدِ، إذْ هو وَطَنُ العَبْدِ، والحَالُ الذي يَرُدُّه لِرَبّه بِنَفْسِ وُرُودِه، كما يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في لَطائِفِ المِنَنِ: القَبْضُ أَقْرَبُ إلى وُجُودِ السَّلامَةِ لأنّه وَطَنُ العَبْدِ، إذْ هو في أَسْرِ قَبْضَةِ اللهِ وإحاطَةِ الحَقّ المُحِيطَةِ به، ومِنْ أينَ يَكُونُ لِلْعَبْدِ البَسْطُ وهذا شَأْنُه؟".

– وكذلكَ يُؤْثِرُونَه على البَسْطِ لِمَا فيه مِنْ غِيابِ حَظِّ النَّفْسِ، ووُجُودِ قُدْرَتِهم على الوَفاءِ بآدَابِه دونَ البَسْطِ، وقدْ يَنْفَتِحُ لهم مِنْ أَبْوَابِ الْمَعارِفِ ما لا يَنْفَتِحُ لهم في البَسْطِ.

فَكَمْ رَاجٍ أدَّاهُ رَجاؤُهُ إلى الاغْتِرَارِ، وكَمْ خائِفٍ وَصَّلَهُ خَوْفُهُ إلى العَزِيزِ الغَفَّارِ.

– والأَصْلُ النَّفْعُ في كِلَيْهِما، ولا تَدْرِي أَيُّهُمَا أَقْرَبُ لِنَفْعِكَ، وقدْ قِيلَ: "الرَّجاءُ زِمامٌ والخَوْفُ سَوْطٌ يَسُوقُ اللهُ بهما القُلُوبَ إذا شَرَدَتْ عنه".

فَقُمْ بِكُلِّ واحِدٍ منهما في مَحَلِّه، واقْبَلْ ما واجَهَكَ منهما، وسَلِّمْ لِلْحَقِّ القَادِرِ الْمُخْتَارِ الذي اخْتَارَ لكَ.

– فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أنْ يَعْرِفَ نِعْمَةَ اللهِ تعالى عليه في لَيْلِ القَبْضِ كما يَعْرِفُهَا في إِشْراقِ نَهارِ البَسْطِ لِمَا يَعْلَمُ أنَّ في اللَّيْلِ مِنَ الْمَنافِعِ ما ليسَ في النَّهارِ، فَلْيَكِلْ عِلْمَ ذلك إلى رَبِّه، ولْيُحْسِنْ ظَنَّهُ به، فإنّه لا يَدْرِي أيُّهما أَقْرَبُ إليه نَفْعاً.

– وكذلك لأنَّ في القَبْضِ يَتَجَلَّى الحَقُّ على القَلْبِ في رِدَاءِ الكِبْرِيَاءِ وخُلْعَةِ العَظَمَةِ، فَيَحْصُلُ بذلكَ في القَلْبِ أَنْوارٌ تُوجِبُ الخَوْفَ والهَيْبَةَ والحَذَرَ مِنْ ذِي القَهْرِ، وتَكْسِرُ أَنَانِيَّةَ النُّفُوسِ الأَمَّارَةِ، وتَقْطَعُ أُنُوفَ الأَنَفَةِ، وتُظْهِرُ لِلْعَبْدِ هَوانَ ذِي العُبوديّةِ وعَظَمَةَ ذِي الرُّبوبِيَّةِ.

وفي البَسْطِ يَتَجَلَّى عليه في كِسْوَةِ الكَرِمِ والجُودِ والحِلْمِ والرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ، ويَحْصُلُ بذلكَ فيه أَنْوارٌ تُوجِبُ الرَّجاءَ والطَّمَعَ في العَطاءِ والفَرْحَةَ الشَّدِيدَةَ، ورُبَّما يُخْرِجُ ذلكَ صاحِبَهُ إلى القُصُورِ في حَقِّ الشَّكُورِ، وقَلْعِ خُلَعِ الآدابِ مع رَبِّ الأَرْبَابِ، وذلكَ غيرُ مَحْمُودٍ عندَ ذَوِي الأَلْبَابِ.

(وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). البقرة 216.

97) حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلَاجُهُ.

- المَعْصِيَةُ عَيْنُ الحَظِّ، سَواءٌ فِعْلُهَا أوِ الاطِّلَاعُ عليها:

أمّا فِعْلُهَا فهو واضِحٌ جَلِيٌّ بالتَّلَذُّذُ بها، فإنّ التَّلَبُّسَ بها ما هو إلّا لِأَجْلِ حَظِّ النَّفْسِ واللّذَاذَةِ بما تَشْتَهِيهِ وتَهواهُ نَفْسُه منها.

وأمّا عَيْنُ الحَظِّ بالاطِّلَاعِ عليها، لأنّ الاطِّلَاعَ عليها يَقْضِي بوجُودِ تَزكِيَةٍ للنَّفْسِ إنْ لم يَكُنْ يَفْعَلُهَا، واسْتِشْعارِ فَضْلِ النّفْسِ بالسَّلامَةِ منها، واسْتِشْعارِ سُلْطَتِهِ على مَنِ اطّلَعَ عليه بِعِلْمه بِعَيْبِه، وذلكَ حَظٌّ بوُجُودِ التّعَزُّزِ عليه، والتّمَكُّنِ منه، ووجُودِ الالْتِذَاذِ بالاخْتِصاصِ بالاطِّلَاعِ على ما لم يَطّلِعْ عليه الغَيرُ في حَقِّه.

- وأمّا الطَّاعَةُ كانَ الحَظُّ فيها خَفِيّاً لأنّ صُورَتَها تَقْتَضِي نَفْيَ الحَظِّ، فقدْ تَرَى أنَّ حَظَّ الطّاعَةِ التَّقرُّبُ إلى اللهِ تعالى، وفي الباطِنِ حَظُّهَا إقْبالُ النّاسِ عليكَ واشْتِهَارُكَ بينهم بالصّلَاحِ، ومَنْ حاسَبَ نَفْسَه وراقَبَ خاطِرَه قدْ يَتَبَيّنُ له بَعْضاً مِنْ ذلكَ.

- ولأنّ الطّاعَةَ سَبَبُ العِزِّ والشّرَفِ والكَرامَةِ عندَ اللهِ وعندَ خَلْقِهِ، والخَلْقُ إذا رَأَوْا كَثِيرَ الطّاعَةِ الْمُقْبِلَ على فِعْلِ الخَيْراتِ أقْبَلُوا إليهِ وعَظَّمُوهُ وشَرَّفُوهُ وخَدَمُوهُ،

وهذه الأمُورُ تُناسِبُ النَّفْسَ، فَتَجْتَهِدُ في الطّاعَةِ لِأَجْلِهَا، لا لِلتَّقَرُّبِ إلى مَوْلَاها، وكم في ذلكَ مِنَ الخُسْرَانِ.

– فحَظُّ الطّاعَةِ باطِنٌ خَفِيٌّ، فإنْ فَعَلَهَا قُرْبَةً ربّما احْتَوَتْ على رِياءٍ أَوْ تَصَنُّعٍ أو تَزَيُّنٍ، أو قَصْدِ غَرَضٍ أو عِوَضٍ أو تَعْظِيمِ حَالٍ.

– ومُدَاوَاةُ ما يَخْفَى صَعْبٌ عِلَاجُهُ، وما كانَ كذلكَ وَجَبَ التَّحَفُّظُ منه قَبْلَ الوُقُوعِ فيه خَوْفَ التَّوَرُّطِ، وبعدَ الوُقُوعِ بالتَّنَصُّلِ والرُّجُوعِ.

فَكُنْ في الطّاعَةِ أشَدَّ منكَ اتِّهَاماً لِنَفْسِكَ في المَعْصِيَةِ.

98) رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إِلَيْكَ.

– مِنْ وُجُوهِ العِلَلِ الدّاخِلَةِ على العَمَلِ بِوَجْهٍ خَفِيٍّ الرّياءُ الخَفِيُّ.

والرّياءُ هو اعتبارُ الخَلْقِ في القَصْدِ لِمُعَامَلَةِ الحَقِّ، سَواءٌ ظَهَرَ لهم ذلك أو لم يَظْهَرْ، وله دَرَجاتٌ ثَلاثٌ:

أوّلُها: أنْ يَقْصِدَ بِعَمَلِهِ الخَلْقَ، ولولا هُمْ لم يَعْمَلْ، وهذا بِاسْمِ الشِّرْكِ أَحَقُّ مِنِ اسْمِ الرِّياءِ. قالَ تَعالَى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). الكهف 110. وقالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَروِيهِ عَنْ رَبِّه: قالَ اللّهُ تبارَكَ وتَعالَى: "أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ". رواه مسلم.

الثّانِي: أنْ يُرِيدَ وَجْهَ اللهِ بِعَمَلِه، لكنْ يُرِيدُ ظُهورَهُ في الخَلْقِ، ويَعْمَلُ في ذلك بِالتَّعَرُّضِ لِمَواضِعِ رُؤيَتِهِم، وهذا هو الرِّياءُ حَقِيقَةً. قالَ أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رَضي اللهُ عنه: خَرَجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ ونحنُ نتذاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجّالَ فقالَ: "ألَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هو أَخْوَفُ عليكم عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجّالِ؟ قالَ: قُلْنَا بَلَى. فقالَ: "الشِّرْكُ الخَفِيُّ، أنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ". رواه أحمد وابن ماجه، وحسّنه الألباني.

الثّالِثُ: أنْ يَفِرَّ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ، لكنّهُ يُحِبُّ شُعُورَ الخَلْقِ بِرُتْبَتِه، وهذا هو الرِّياءُ الخَفِيُّ. عن أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ رَضي اللّهُ عنه قالَ: خَطَبَنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم ذَاتَ يَوْمٍ فقالَ: "يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا هذا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ". (رواه أحمد، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب).

– ومِنْ ذلك أيضاً أنْ تَعْمَلَ في السِّرِّ لِتُكْرَمَ في العَلَانِيَةِ مِنْ حيثُ ما يَسْرِي لِلْقُلُوبِ مِنْ ذلك، لأنّ الرِّياءَ راجِعٌ لِرُؤيَةِ العَامِلِ لِلْخَلْقِ، لا لِرُؤيَتِهِم إِيَّاهُ، فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ لِلْخَلْقِ في عَمَلِه فهو مُراءٍ ولو كانَ في جَوْفِ بَيْتٍ، بل في صَخْرَةٍ مُطْبِقَةٍ في قَعْرِ البَحْرِ، ومَنْ لم يُداخِلْهُ نَظَرٌ إليهم في أَعْمالِه بِكُلِّ حَالٍ فهو مُخلِصٌ ولو كانَ في وَسَطِ أهلِ الأرضِ بأجمعِهِم.

– يقولُ بعضُهم: "يا مُرَائِي، قَلْبُ مَنْ تُرَائِيهِ بِيَدِ مَنْ تَعْصِيهِ".

– وقد رُوِيَ عن عليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنّه قالَ: "إنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ لِلْقُرّاءِ يَوْمَ القِيامَةِ: أَلَمْ تَكُونُوا يُرَخَّصُ لكم في السِّعْرِ؟ أَلَمْ تَكُونوا تُبَادَرُونَ بالسَّلامِ؟ ألم تَكُنْ تُقْضَى لكمُ الحَوَائِجُ؟ لا أَجْرَ لكم قَدِ اسْتَوْفَيْتُمْ أُجُورَكُم".

– وقال عبدُ اللهِ بنُ المباركِ: رَوَى وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ أنّ رَجُلاً مِنَ العُبّادِ قالَ لأصحابِه: إنّما فارَقْنا الأموالَ والأولادَ مَخافَةَ الطُّغْيانِ، فَنَخافُ أنْ يكونَ قد دَخَلَ علينا في أمْرِنَا هذا مِنَ الطُّغْيانِ أَكْثَرُ مِمّا دَخَلَ على أهلِ الأموالِ في

أموالِهم، إنّ أحَدَنا إذا لُقِيَ أحَبَّ أنْ يُعَظّمَ لِمَكَانِ دِينِه، وإنْ سَأَلَ حاجَةً أحَبَّ أنْ تُقْضَى له لِمَكَانِ دِينِه وإنْ اشْتَرى شيئاً أحَبَّ أنْ يُرَخَّصَ عليه لِمَكَانِ دِينِه.

- ورُوِيَ عنِ الفُضيلِ بنِ عياضٍ رحمهُ اللهُ أنّه قالَ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنظُرَ إلى مُراءٍ فَلْيَنْظُرْ إلَيَّ".

- وسَمِعَ مالكُ بنُ دِينارٍ رحمهُ اللهُ امْرَأَةً تقولُ له: يا مُرَائِي. فقالَ لها: "يا هذه وَجَدْتِ اسْمِي الذي أَضَلَّهُ أهلُ البَصْرَةِ".

- ودَخَلَ رَجُلٌ على داودَ الطّائِيِّ رحمهُ اللهُ، فقالَ: ما حاجَتُكَ؟ قالَ زِيارَتُكَ. فقالَ: أمّا أنتَ فقد عَمِلْتَ خيراً حِينَ زُرْتَ، ولكنِ انْظُرْ ماذا يَنزِلُ بي أنا إذا قِيلَ لي: مَنْ أنتَ فَتُزَارُ؟ أَمِنَ الزُّهّادِ أنتَ؟ لا واللهِ. أَمِنَ العُبّادِ أنتَ؟ لا واللهِ. أَمِنَ الصّالِحِينَ أنتَ؟ لا واللهِ. ثمّ أَقْبَلَ يُوَبّخُ نَفْسَه ويقولُ: كُنْتُ في الشَّبِيبَةِ فَاسِقاً فَلَمّا كَبُرْتُ صِرْتُ مُرائِياً، واللهِ لَلْمُرائِي شَرٌّ مِنَ الفاسِقِ.

- قال يوسفُ بنُ الحسينِ الرّازِيُّ رحمهُ اللهُ: "أَعَزُّ شيءٍ في الدنيا الإخْلَاصُ، وكَمْ أَجْتَهِدُ في إِسْقاطِ الرِّياءِ عَنْ قَلْبِي فَكَأَنّهُ يَنْبُتُ فيهِ على لَوْنٍ آخَرَ".

99) اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

– الصِّدْقُ في العُبُودِيّةِ: العَمَلُ على أَحْكامِهَا، ومنها الاكْتِفاءُ بِرُؤْيَةِ الحَقِّ وعِلْمِه دُونَ سِواهُ، فلِهذا كانَ التّشَوُّفُ لِعِلْمِ الخَلْقِ بِحَالِكَ مُفَوِّتاً لها.

– والخُصُوصِيّةُ ما أُفرِدْتَ به مِنْ عِلْمٍ أو عَمَلٍ أو حَالٍ أو غَيرِه.

– فتَطَلُّعُكَ أيُّها العَبْدُ ومَيْلُكَ إلى أنْ يَعلَمَ الخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ التي خَصّكَ اللهُ بها مِنَ الأعمالِ الصّالحةِ دَلِيلٌ على عَدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيّتِكَ، لأنَّ صِدْقَ العُبوديةِ طَرْحُ الأَغْيارِ اكْتِفَاءً بِعِلْمِ العَزيزِ الغَفّارِ.

– لأنّكَ لو كُنْتَ سَالِماً في أَصْلِ القَصْدِ ما تَشَوَّفْتَ للغَيْرِ في الفَرْعِ، ولكَانَ الاكْتِفَاءُ بِعِلْمِ الحَقِّ أشْهَى مِنْ كُلِّ شيءٍ.

– قال الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القُرَشِيُّ رحمهُ اللهُ: "كُلُّ مَنْ لم يَقْنَعْ في أَفْعَالِه وأقْوالِه بِسَمْعِ اللهِ ونَظَرِهِ دَخَلَ عليه الرِّياءُ لا مَحَالَةَ".

– وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ: "ما صَدَقَ اللهَ منْ أحَبَّ الشُّهْرَةَ".

– وقالَ بِشرُ بنُ الحارثِ الحافِيُّ رحمهُ اللهُ: "ما أَعْرِفُ رَجُلاً أحَبَّ أنْ يُعرَفَ إلّا ذَهَبَ دِينُهُ وافْتَضَحَ".

- وقالَ أيّوبُ السَّخْتِيانِيُّ رحمهُ اللهُ: "ما صَدَقَ اللهَ عَبْدٌ إِلَّا سَرَّهُ أنْ لَا يُشْعَرَ بِمَكَانِه منه".

- وقالَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ: "مَنْ أحَبَّ أنْ يَطَّلِعَ النّاسُ على ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ تَعالَى فهو غَافِلٌ".

- يقولُ الشيخُ زرُّوقٌ رحمهُ اللهُ مُقَيِّداً ما أُطْلِقَ في الحِكْمَةِ: وإنّما كانَ هذا التَّشَوُّفُ مُخِلّاً بالعُبوديةِ إذا خَلَا مِنْ وُجُوهٍ ثَلاثَةٍ:

أحَدُها: الاسْتِظْهَارُ بِالمِنَّةِ والتَّحَدُّثُ بالنِّعْمَةِ، (وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ). الضحى 11.

الثّاني: إِثَارَةُ وَجْهٍ مِنَ الاقْتِدَاءِ، ومِنه: (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ). يس 26، 27.

الثّالثُ: تَنْشِيطُ النُّفُوسِ لِلْعَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِه، كإِظْهَارِ صَدَقَةِ الزكاةِ، لا سِيَّمَا عندَ الحَاجَةِ إليها.

ولا تَصِحُّ هذه كُلُّهَا إِلَّا مع شُهُودِ المِنَّةِ للهِ تعالَى، حتّى إذا أَرَادَتِ النَّفْسُ الدَّعْوَى وجَدَتْ ما بِيَدِهَا ليسَ لها.

100) غَيِّبْ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ وُجُودِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ.

– لا تَنْظُرْ لِنَظَرِ الخَلْقِ إِلَيْكَ وانْظُرْ لِنَظَرِ اللهِ إليكَ، فإنّه يَراكَ في كُلِّ حالٍ، ويَطّلِعُ على خَفِيِّ الخَفِيِّ مِنْ حالِكَ، والخَلْقُ لا يَعْلَمُونَ منكَ إلّا الظّاهِرَ.

– إذا أَرَدْتَ السّلامَةَ والصِّدْقَ غَيِّبْ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، إذ لا يَملِكُونَ ضَرّاً ولا نَفْعاً، بِنَظَرِ اللهِ إليكَ إذْ هو الْمَالِكُ لهم ولكَ، وَغِبْ عَنْ وُجُودِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بالإسْعَافِ والاحْتِرَامِ، بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ بالإفْضَالِ والإنْعَامِ، هذا إنْ رَجَعْتَ إليه، وإلّا فَبِضِدِّه.

– إذا أَرَدْتَ أنْ تَكُونَ صادِقاً في العُبودِيةِ، فَغَيِّبْ نَظَرَ الخَلْقِ إليكَ، بأنْ لا يكونَ لكَ شُعُورٌ بِنَظَرِهم إليكَ، اكْتِفَاءً منكَ بِنَظَرِ اللهِ إليكَ وإقْبَالِه عليكَ، فإنّ نَظَرَ الخَلْقِ أَمْرٌ وَهْمِيٌّ باطِلٌ، ونَظَرَ اللهِ وإقْبَالَه بُغْيَةُ كُلِّ عاقِلٍ، حيثُ إنّهم لا يَملِكونَ ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا خَفْضاً ولا رَفْعاً.

وأمّا إذا اغْتَرَرْتَ بإقْبَالِهِم عليكَ، فإنّه يُوجِبُ لكَ التّصَنُّعَ والتَزَيُّنَ لهم ومُداهَنَتَهُم ومُعاشَرَتَهُم بالنِّفَاقِ ونحوِ ذلك، وهذا عَذابٌ أَلِيمٌ اسْتَعْجَلَه في دُنياهُ إذْ يَفُوتُه بذلك رَاحَةُ قَلْبِه وطِيبُ عَيْشِهِ، ويَسْلُبُه أَثْوَابَ الغِنَى والعِزَةِ، ويُلْبِسُه لِبَاسَ الطَّمَعِ والذِّلَّةِ فَتَرْدَى هِمَّتُه وتَقِلُّ قِيمَتُه.

– وذلك بأنْ تَرَى أنَّ نَظرَهُ إليكَ خَيْرٌ في الحَالِ وأنْفَعُ في المَآلِ، ونَظَرَ غيرِه لا عِبْرَةَ به، لأنّه سبحانه المَالِكُ لِكُلِّ شيءٍ مِنْ وُجُودِكَ، وغيرُه لا يَملِكُ لكَ ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً، فإذا نَظَرَ لكَ بعَيْنِ الرحمةِ والكَرمِ والإفْضَالِ كُنْتَ مَحْمُولاً في الوُجُودِ على كاهِلِ الإكْرَامِ ولم يَضُرَّكَ نَظَرُهُم بنَقِيضِهَا، وإنْ نَظَرَ إليكَ بالنِّقْمَةِ لم يَنْفَعْكَ نَظَرُهُم بالرَّحمةِ.

يقولُ سبحانه وتعالُى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). يونس 107.

– ونَظَرُهُ إليكَ مُرَتَّبٌ بِحَسَبِ حِكْمَتِه على نَظَرِكَ إليه بالعَمَلِ بِطَاعَتِه وعَدَمِ اعْتِبَارِ غيرِه فيها، وإعْرَاضُه عنكَ بِحَسَبِ إعْراضِكَ عنه، وذلك بإقْبَالِكَ على الخَلْقِ والاعْتِبَارِ بهم.

ولذلك قالَ بعضُ المَشايخِ: "عِوَضَ ما تَقُولُ: سَخِّرْ لي خَلْقَكَ، قُلْ: يا رَبِّ كُنْ لي، أَتَرَاهُ يَكُونُ لَكَ ويَفُوتُكَ شيءٌ مِنَ الخَيْرِ؟".

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ *** وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ *** وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ *** وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ
فَيَا لَيْتَ شُرْبِي مِنْ وِدَادِكَ صَافِياً *** وَشُرْبِيَ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ سَرَابُ

– وَغِبْ عَنْ وُجُودِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ. الغَيْبَةُ بإقْبَالِه عليكَ عنْ إقْبالِهِم: هو أنْ تَرَى أنَّهُم إنْ أقْبَلُوا عليكَ لا يُغْنِي عنكَ ذلك مِنَ اللهِ شيئاً، ولا يُفِيدُكَ قليلاً ولا كثيراً، وإنْ أدْبَرُوا عنكَ لا يَضُرُّكَ ذلكَ شيئاً، ولا يَقْدَحُ فِي وُجُودِكَ بِحَالٍ، وإنْ أقبَلَ المَوْلَى جَلَّتْ قُدْرَتُه عليكَ لا يَضُرُّكَ إِدْبَارُ غيرِه، وإنْ أعْرَضَ عنكَ لا يَنْفَعُكَ إقْبَالُ غيرِه، إذِ الكُلُّ دُونَه عَاجِزٌ حَقِيرٌ ذَلِيلٌ فَقِيرٌ.

– فِي الحديثِ قولُ النّبِيّ ﷺ: "اِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

– رُوِيَ عن وهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنَّه قالَ: "أَوْحَى اللهُ تَعالَى إلى دَاوُدَ عليهِ السَّلامُ، أمَا وعِزَّتِي وجَلَالِي لا يَنْتَصِرُ بِي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي دُونَ خَلْقِي –أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ نِيّتِهِ– فَتَكِيدُهُ السَّمَوَاتُ السَّبعُ ومَنْ فِيهِنَّ والأَرَضُونَ السَّبعُ ومَنْ فِيهِنَّ إلّا جَعَلْتُ له مِنْهُنَّ مَخرجاً، أمّا وعِزَّتِي وعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَخْلُوقٍ دُونِي –أَعْلَمُ ذلكَ مِنْ نِيّتِهِ– إلّا قَطَعْتُ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ مِنْ يَدِهِ وأَسَخْتُ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ ولَا أُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ".

- سُئِلَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمهُ اللهُ عَنْ عَلامَةِ الصِّدْقِ، فقالَ: "الصَّادِقُ هو الذي لا يُبَالِي لو خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ له مِنْ قُلُوبِ الخَلْقِ مِنْ أَجْلِ صَلَاحِ قَلْبِهِ، ولَا يُحِبُّ أنْ يَطّلِعَ النّاسُ على مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنْ حُسْنِ عَمَلِه، ولا يَكرَهُ أنْ يَطّلِعَ النّاسُ على السَّيِّئِ مِنْ عَمَلِه، فإنَّ كَرَاهَتَه لذلكَ دَلِيلٌ على أنَّه يُحِبُّ الزِّيادَةَ عندَهُم، وليسَ هذا مِنْ أَخْلَاقِ الصَّادِقِينَ".

- وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ: "أَيِسْتُ مِنْ نَفْعِ نَفْسِي لِنَفْسِي، فَكَيْفَ لَا أَيْأَسُ مِنْ نَفْعِ غَيْرِي لَهَا، ورَجَوْتُ اللهَ لِغَيْرِي، فَكَيْفَ لَا أَرْجُوهُ لِنَفْسِي".

101) لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّباً إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ، وَقِيَاماً بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

– لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّباً إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ فيما يُوَاجِهُكَ بِهِ مِنْ عَطائِه؛ إذْ تَرَى أنّهُ بِسَبَبِكَ فَتُقَصِّرُ في شُكرِه، ويُوجِبُ لكَ ذلكَ اليَأْسَ منه عندَ وجُودِ مَنْعِه اعْتِمَاداً على أعْمَالِكَ وسُكُوناً إلى أحْوَالِكَ، فَتَكُونُ مَحْجُوباً عنْ مَوْلَاكَ مُعْرِضاً عنه في حَالِ إِقْبَالِكَ عليه، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ إذْ هي مَقْصُودُ الحَقّ منكَ، وَقِيَاماً بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ إذْ هو المَقْصُودُ مِنْ وُجُودِ العُبوديةِ، وعَلامَةُ ذلكَ أنْ تَدْعُو وأنتَ مُفَوِّضٌ مُسْتَسْلِمٌ.

– قالَ الشيخُ عبدُ العزيزِ المَهْدَوِيُّ رحمهُ اللهُ: "مَنْ لم يَكُنْ في دُعَائِهِ تَارِكاً لاخْتِيَارِه، رَاضِياً باخْتِيَارِ الحَقّ تَعالَى له، فهو مُسْتَدْرَجٌ، وهو مِمَّنْ قِيلَ فيه: اقْضُوا حَاجَتَه فإنِّي أكْرَهُ أنْ أَسْمَعَ صَوْتَه. فإنْ كانَ مع اخْتِيَارِ الحَقّ تَعالَى لا مع اخْتِيَارِه لِنَفْسِه كانَ مُجاباً وإنْ لم يُعْطَ، والأعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا".

– وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ: "لا يَكُنْ هَمُّكَ في دُعَائِكَ الظَّفْرَ بِقَضَاءِ حَاجَتِكَ فَتَكُنْ مَحْجُوباً، ولْيَكُنْ هَمُّكَ مُنَاجاةَ مَوْلَاكَ".

– ومعنى كَوْنِه تَسَبُّباً إلى العَطاءِ: هو أنْ يُقْصَدَ لِتَحْصِيلِ ما رُتِّبَ عليه مِنَ الإجَابَةِ باعْتِقَادِ أنَّها في عَيْنِ الْمَقْصَدِ مِنْ غَيْرِ تَخَلُّفٍ، وذلك يُخِلُّ بِمَقْصُودِ الدُّعَاءِ الذي هو إِظْهَارُ الفَاقَةِ على نَعْتِ الاضْطِرَارِ، ويَقْضِي بِعَدَمِ الفَهْمِ عَنِ الحَقّ سُبحانَه في عَطَائِه أو مَنْعِه، فإذا أُعْطِيتَ قَلَّ شُكرُكَ لاعْتِقَادِ سَبَبِكَ، وإنْ مُنِعْتَ

فُقِدَ الرِّضَى منكَ وقَلَّ صَبْرُكَ؛ لاسْتِشْعَارِكَ وُجُودَ سَبَبِكَ، وذلكَ تَعَبٌ عاجِلٌ، وأمرٌ ليسَ تَحْتَهُ طائِلٌ، مع كَوْنِه مُفَوّتاً العُبوديّةَ للهِ سبحانَه.

– ولا بُدَّ مِنَ العِلْمِ أنَّ الدُّعَاءَ عُبُودِيَّةٌ اقْتَرَنَتْ بِسبَبِ الحَاجَةِ كَاقْتِرَانِ الصَّلاةِ بوَقْتِهَا، ورُتِّبَتْ عليها الإجابَةُ كما رُتِّبَ ثَوابُ الأعْمَالِ عليها، فالعَطاءُ مِنْ وَجْهِ الفَضْلِ، والعَمَلُ لِمَحْضِ العُبودِيّةِ، واقْتِرانُهُمَا لإظْهَارِ الحِكْمَةِ.

– قالَ بَعْضُهُم: "فائِدَةُ الدُّعَاءِ إظْهَارُ الفَاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وإلّا فالرَّبُّ يَفْعَلُ ما يَشاءُ".

– فإظْهَارُ العُبوديةِ هو حَقُّ الحَقِيقَةِ، والقِيَامُ بِحُقُوقِ الرّبوبيةِ هو حَقُّ الشَّرِيعَةِ، وهما مُتَلازِمانِ، فمَنْ أظْهَرَ العُبوديةَ فقد قامَ بِحَقِّ الرُّبوبيةِ، ومَنْ قامَ بِحَقِّ الرُّبوبيةِ فقد أَظْهَرَ العُبوديةَ.

– ومِنْ لَوازِمِ الطَّلَبِ لإظْهَارِ العُبوديةِ ثَلاثَةٌ:

أوَّلُها: الطَّلَبُ على نَعْتِ التَّفْوِيضِ في العَيْنِ والوَقْتِ.

الثّاني: التّوكُّلُ على الحَقِّ سُبحانَه في عَيْنِ المُرَادِ بأنْ لا تَيْأَسَ عندَ تَأَخُّرِ الإجابَةِ.

الثالثُ: تَلَقِّي الواقِعِ بالقَبُولِ، فَعِنْدَ المُخالَفَةِ بالرِّضَى والصَّبْرِ، وعندَ المُوافَقَةِ بالحَمْدِ والشُّكْرِ.

فيَقُومُ بِشُكْرِ العَطاءِ، ويُقابِلُ المَنْعَ بِالقَبُولِ دُونَ اعْتِرَاضٍ ولَا تَرَدُّدٍ، ويَنْبَنِي ذلكَ عَلَى التَّحَقُّقِ بِخَالِصِ التَّوْحِيدِ وعَقْدِ القَلْبِ بالامْتِثَالِ في كُلِّ وَجْهٍ، وكُلُّ مَنْ كانَ قَصْدُه الظَّفَرَ بِمَقْصُودِه فهو بَعِيدٌ، ومَنْ كانَ مَقْصُودُه بَثَّ شَكْوَى فَقْرِه لِمَولاهُ فهو في مَحَلِّ القُرْبِ، فإنْ أَضَافَ لذلكَ قَصْدَ المُنَاجَاةِ بِدُعَائِه فهو أَحْسَنُ.

- فاللهُ سُبحانَه أَمَرَ عِبَادَه بِالطَّلَبِ له والسُّؤَالِ منه لِيُظْهِرَ افْتِقَارَهم إليه ومُثُولَهُم بِالتَّضَرُّعِ والخُضُوعِ بينَ يَدَيْهِ، لِيَكُونَ ذلك إظْهَاراً لِعُبُودِيَّتِهِم وقِياماً بِحُقُوقِ رُبُوبِيّتِه، ومُقْتَضَى هذا أنْ لا يَنْقَطِعَ سُؤَالُ العَبْدِ ولا رَغْبَتُهُ وإنْ أَعْطَاهُ كُلَّ ما طَلَبَه، وأَنَالَهُ سُؤْلَهُ وأَرَبَه، ويَدُومُ على إظْهَارِ فَاقَتِهِ وفَقْرِه فَيَكُونُ عَبْدَ اللهِ في الأحْوَالِ كُلِّهَا، كما أنَّ رَبَّهُ وَاسِعُ الفَضْلِ في الأحْوَالِ كُلِّهَا.

- يقولُ الإمامُ أبو القاسمِ القُشيريُّ رحمهُ اللهُ: "شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَبتَهِلُ إلى اللهِ تَعالَى عندَ هُجُومِ البَلاءِ بِخُلُوصِ الدُّعَاءِ، وشِدَّةِ التَّضَرُّعِ والبُكَاءِ، فإذا زَالَتْ شِكايَتُه، ورُفِعَتْ عنه آفَتُه، ضَيَّعَ الوَفَاءَ، ونَسِيَ البَلاءَ، وقَابَلَ الرِّفْدَ بِنَقْضِ العَهْدِ، وأَبْدَلَ العَقْدَ بِرَفْضِ الوُدِّ، أُولئكَ الذين أَبْعَدَهُمُ اللهُ في سَابِقِ الحُكْمِ، وخَرَطَهُم في سِلْكِ أَهْلِ الرَّدِّ".

وقد قِيلَ: "بَلاءٌ يُلْجِئُكَ إلى الانْتِصَابِ بينَ يَدَيْ مَعْبُودِكَ، خَيْرٌ لكَ مِنْ عَطاءٍ يُنْسِيكَ إيَّاهُ ويُقْصِيكَ عنه".

102) كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَباً فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

– ذَكَرَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في هذه الحِكْمَةِ وفي الحِكَمِ الثلاثِ التي بعدها بُرهانَ ما أَشَارَ إليهِ مِنْ نَفْيِ السَّبَبِيّةِ، وعَلَّلَ كَوْنَ الطّلَبِ لا يَكونُ سَبَباً لِلْعَطاءِ.

– ويعني هنا أنَّ عَطاءَهُ سابِقٌ بالحُكْمِ في الأزَلِ، وطَلَبُكَ إنّما هو فِعْلٌ منكَ فيما لا يَزالُ، ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ المُتأَخِّرُ عِلَّةً في المُتَقَدِّمِ مِنْ حيثُ وجُودُهُ.

– وهل أعْطَاكَ وجُودَكَ بِطلَبِكَ؟ فكما أعْطاكَ وجُودَكَ بِفَضْلِه كذلكَ يُعْطِيكَ عَطاءَه بِجُودِه مِنْ غيرِ أنْ يكونَ طَلَبُكَ سَبَباً له، فالطَّلَبُ لإظْهَارِ الفَقْرِ والفَاقَةِ والعُبُودِيّةِ.

– فالعَطايَا سَوابِقُ أَزَلِيّةٌ، والدُّعاءُ امْتِثَالٌ لِلأَمْرِ.

– وقد قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "فُرِغَ إلى ابنِ آدمَ مِنْ أَرْبَعٍ: الخَلْقِ، والخُلُقِ، والرِّزقِ، والأَجَلِ". (صحيح الجامع).

– وفي الصَّحِيحَيْنِ، كانَ النبيُّ ﷺ في جَنَازَةٍ، فأخَذَ شيئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ به الأرْضَ، فَقالَ: "ما مِنكُم مِنْ أَحَدٍ إلَّا وقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، ومَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ". قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أفلا نَتَّكِلُ علَى كِتَابِنَا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ قالَ: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، أمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهْلِ السَّعَادَةِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ السَّعَادَةِ، وأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهْلِ الشَّقَاءِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَن أعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى} الآيَةَ".

– وإنّما وُضِعَتِ الأسْبَابُ لوُجُوهٍ ثلاثةٍ مِنَ الحِكْمَةِ:

أوّلُها: لِيَظهَرَ وَصْفُ حِكْمَتِهِ كما ظَهَرَ وَصْفُ قُدْرَتِه، فيُعرَفُ بهذا كما عُرِفَ بذاكَ.

الثاني: لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ بِظُهُورِ كُلٍّ بما أَظْهَرَ فيه مِنْ تَعَلُّقٍ بها أو انْتِفَاءٍ عنها أو كُلٍّ مِنْهُمَا.

الثالثُ: لِتَقْوَى عُبُوديّةُ المؤمنِ فَيَعْظُمُ ثَوابُهُ وتَظْهَرُ قُوَّةُ يَقِينِه؛ إذْ لا يَدْفَعُه السَّبَبُ عنِ الحَقِيقَةِ، ولا يَدْفَعُه وجُودُ الحَقِيقَةِ عَنِ الشَّرِيعَةِ.

– فإذا تَحَقَّقْتَ أنَّ وجُودَه سابِقٌ لوُجُودِكَ، ظَهَرَ لكَ أنَّ عَطاءَه لا يكونُ لاحِقاً لِطَلَبِكَ، فهذا لا يُتَصَوَّرُ بِوَجْهٍ ولا بِحَالٍ، لاسْتِحَالَةِ تَقَدُّمِ المُتَأَخِّرِ وتَأَخُّرِ المُتَقَدِّمِ بعدَ وُجُودِه.

– وقد سُئِلَ ذو النُّونِ المصريُّ رحمهُ اللهُ عَنِ التَّوحِيدِ فقالَ: "هو أَنْ تَعْلَمَ أنَّ قُدْرَةَ اللهِ في الأَشْيَاءِ بِلَا مِزَاجٍ، وَصُنْعَهُ للأشْيَاءِ بِلَا عِلَاجٍ، وعِلَّةَ كُلِّ شيءٍ صُنْعُهُ، ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ، وليسَ في السَّمَوَاتِ العُلَى ولا في الأَرَضِينَ السُّفلَى مُدَبِّرٌ غيرُ اللهِ، وكلَّ ما تَصَوَّرَ في وَهْمِكَ فاللهُ بِخِلَافِ ذلكَ".

103) جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ.

– وهذا دَلِيلٌ آخَرُ على ما ذَكَرَهُ وهو أنَّ حُصُولَ ما طَلَبَه الدَّاعِي حُكْمٌ مِنَ اللهِ تَعالَى فِي الأَزَلِ، فلا يكونُ سَبَبَهُ الدُّعاءُ والسُّؤَالُ، لأنَّ أَحْكَامَ اللهِ تعالَى تُجَلُّ عَنْ أنْ تُضَافَ إلى عِلَّةٍ أو سَبَبٍ.

– لأنَّ شَرْطَ العِلَّةِ أنْ تَكُونَ سَابِقَةً على المَعْلُولِ، وأنْ يكونَ وجُودُه مَوْقُوفاً عليها وُجُوباً، وذلك يَقْضِي بوُجُودِ العَجْزِ، وهو مُحَالٌ فِي أَفْعَالِ الحَقِّ سُبحانَه، "فَعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ" كما مَرَّ مِنْ كَلامِ ذِي النُّونِ رحمهُ اللهُ.

– أَسْعَدَ مَنْ شَاءَ بِلا وَسِيلَةٍ سَبَقَتْ، وأَبْعَدَ مَنْ شَاءَ بِلا جَرِيمَةٍ تَقَدَّمَتْ، (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ). الأنبياء 23.

– فالعِلَّةُ هي ما يَقْتَضِي وُجُودَ الشَّيْءِ أو نَفْيَهُ على سَبِيلِ الحَتْمِ، وهي مُنْدَفِعَةٌ فِي أَفْعَالِ الحَقِّ تَعالَى وأَحْكَامِهِ، لأنَّه الفَاعِلُ المُخْتَارُ الغَنِيُّ عَنِ العِلَّةِ فِي وَصْفِهِ أو فِعْلِهِ.

104) عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ؟

– وإذا كانتْ عِنايتُهُ فيكَ حتَّى أوْجَدَكَ وأنْعَمَ عليكَ لا لِشيءٍ منكَ، إذْ أنتَ مِنَ حيثُ ذاتُكَ لم تكنْ شيئاً، فكيفَ يكونُ طلبُكَ سَبباً في عَطائِهِ وفَضلِه؟ وأينَ كنتَ حينَ واجَهَتْكَ عنايتُهُ فأَبْدَلكَ بالعَدَمِ وُجُوداً، وقابَلَتْكَ رِعايتُهُ فلم يَزَلْ إحْسانُهُ عليكَ ممْدُوداً؟ قالَ الواسِطِيُّ رحمهُ اللهُ: "أقْسامٌ قُسِّمَتْ، ونُعُوتٌ أُجْرِيَتْ، فكيفَ تُستَجْلَبُ بِحَرَكاتٍ أو تُنَالُ بِسِعاياتٍ؟".

– اعْتِناؤُه بِوُجُودِكَ حتّى أخْرَجَكَ مِنَ العَدَمِ، وأمَدّكَ بالنِّعَمِ، لا لِعِلّةٍ مِنْ وُجُودِكَ سابِقةٍ؛ إذْ لم تكنْ شيئاً مَذكُوراً، ولا لِعِلّةٍ لاحِقَةٍ؛ لِثُبُوتِ غِناهُ عنكَ، وإنّما أَوْجَدَكَ رحمةً بكَ وعِنايةً بِشأنِكَ حتّى تَعرِفَه فتكونَ بهِ وإليهِ.

– وخَصّصَكَ بالكَرمِ إذْ قالَ: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)، ثمّ حَلّاكَ بالإسلامِ، وجَعلَكَ مِنْ أُمَّةِ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ، ليسَ ذلكَ لِعِلّةٍ مِنْ أعْمالِكَ ولا غيرِها، بل مِنْ عَمِيمِ فَضْلِه وعَظيمِ إحْسانِه.

– وتَكْمُلُ نِعْمَتُهُ عليكَ بإضْلالِ مَنْ أضَلَّهُ؛ إذ عِظَمُ المِنَّةِ على قَدْرِ الاخْتِصَاصِ بها، وعَذابُ أهْلِ الجَحِيمِ إنّما هو لِتَكْمِيلِ نَعيمِ أهْلِ النَّعِيمِ، إذِ اسْتِشْعارُ النَّقِيضِ يَعْظُمُ به الالْتِذَاذُ في المُناقِضِ المُلْتَذِّ به، وبالعَكسِ العَكسُ، نَسألُ اللهَ العافيةَ.

فَلَا عَمَلٌ مِنّي إِلَيْهِ اكْتَسَبْتُهُ *** سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لَا بِشَيْءٍ يُعَلَّلُ

105) لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاَصُ أَعْمَالٍ، وَلاَ وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ.

– وهذه الحِكْمَةُ يَذكُرُ فيها بُرهانَ ما سَبقَ في الحِكْمَةِ التي قَبْلَها.

– والأَزَلُ: القِدَمُ الذي لا مُفْتَتَحَ له. والإخْلَاصُ: تَفْرِيدُ الْمَعْبُودِ بالعِبادَةِ، وهو رُوحُ كُلِّ عَمَلٍ. والأعْمالُ هنا: الحَرَكاتُ الجِسْمانِيَّةُ المُوَافِقَةُ لِأَمْرِ اللهِ سُبحانَه. والأحْوَالُ: الحَركاتُ القَلْبِيَّةُ المُوَافِقَةُ لذلكَ أيضاً.

– ومَحْضُ الإفْضَالِ: أي خَالِصُهُ، يعني مِنَ العِلَلِ والشَّوائِبِ. والإفْضالُ: الإعْطَاءُ بلا عِلَّةٍ ولا سَبَبٍ. والنَّوَالُ: العَطاءُ، وعِظَمُهُ مِنْ وُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: كَوْنُهُ لا لِشيءٍ سابِقٍ ولا لِشيءٍ لاحِقٍ سِوَى ما هو مِثلُه في الحُكْمِ والإفادَةِ.

الثّاني: كَوْنُهُ لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، ولا يُحاطُ بهِ ولا يُسْتَقْصَى، مِنْ جِهَةِ العَدَدِ والإحْصاءِ.

الثالثُ: كَوْنُهُ في ذاتِهِ لو انْفَرَدَ في نَفْسِه لا يُطاقُ العِلْمُ بما فيه مِنَ الفَوائِدِ والحِكَمِ.

فللّهِ الحَمْدُ والمِنّةُ، وهو حَسبُنا ونِعمَ الوكيلُ.

- لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاَصُ أَعْمَالٍ، وَلاَ وُجُودُ أَحْوَالٍ، بل ولا وُجُودُ مَنْ وُجِدَتْ عنه، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الإِفْضَالِ الذي لا سببَ له ولا عِلّةَ، وَعَظِيمُ النَّوالِ الذي لا غَايَةَ لهُ ولا انْفِصالَ، (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا).

- قالَ الواسِطِيُّ رحمهُ اللهُ: "إنَّ اللهَ لا يُقَرِّبُ فَقِيراً لِأَجْلِ فَقْرِهِ، ولا يُبْعِدُ غَنِيّاً لِأَجْلِ غِنَاهُ، ولَيْسَ لِلأغْراضِ عِنْدَهُ خَطَرٌ حتّى يَصِلَ أو يَقْطَعَ بها، ولو بَذَلْتَ له الدنيا والآخِرَةَ ما أَوْصَلَكَ إليه بهما، ولو أخَذْتَهُما كُلَّهُمَا ما قَطَعَكَ بهما، قَرَّبَ مَنْ قَرَّبَ مِنْ غيرِ عِلّةٍ، وقَطَعَ مَنْ قَطَعَ مِنْ غيرِ عِلّةٍ، كما قالَ تعالَى: (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) النور 40".

- فالأعْمَالُ والأَحْوَالُ، لم يَكُونَا في مَحلِّ القِسْمَةِ الأزَلِيّةِ ولا في وَقْتِهَا، فلا يَصِحُّ أنْ يَكُونَ عِلّةٌ في شيءٍ بل عِلّةُ كُلِّ شيءٍ إحْسَانُه وكَرمُه، وكيفَ يَدخُلُ في أفْعَالِه العِلَلُ وهو الفَاعِلُ الْمُخْتارُ الغَنِيُّ عَنِ الكُلِّ، وإذا لم يكنْ أَزَلاً إلّا مَحْضُ الإفْضَالِ وهو العَطاءُ بِلا عِلّةٍ، وعَظِيمُ النَّوَالِ وهو التَّفَضُّلُ بلا سَبَبٍ، فلا يكونُ في الأَزَلِ ذلك.

- فعِنايَتُه سُبحانَه بكَ في الأَزَلِ -بمعنى تَعلُّقِ إرَادَتِهِ في الأَزَلِ بإعْطَائِكَ ما تَطْلُبُهُ- كانتْ لا لِشَيءٍ حَصَلَ منكَ يَقْتَضِي حُصُولَ تلكَ العِنايَةِ كالدُّعاءِ وغيرِه من القُرُباتِ، لأنّكَ لم تكنْ حينَ واجَهَتْكَ عنايَتُهُ وقابَلَتْكَ رِعايَتُهُ، ولم يكنْ في أَزَلِهِ إخْلاصُ أعْمالٍ بَدَنِيَّةٍ، ولا وُجُودَ أحْوالٍ قَلْبِيَّةٍ، بل لم يكنْ هناكَ

إلّا مَحْضُ وخالِصُ الإفْضَالِ وعَظِيمُ النَّوالِ والعَطاءِ مِنَ المُحْسِنِ المِفْضَالِ، فليسَ الدُّعاءُ سَبَباً مُؤَثِّراً في الْمَطْلُوبِ، والأعْمَالُ الصَّالِحَةُ ليستْ سَبَباً مُؤَثِّراً في عِنايَةِ اللهِ، وفي دُخُولِ الجَنَّةِ والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، وإنّما العِبْرَةُ بما سَبَقَتْ بِهِ إرَادَةُ عَلَّامِ الغُيُوبِ.

– لم يكنْ هناكَ في الأزَلِ إلّا مَحْضُ الإفْضَالِ مِنْ ذِي الجُودِ والجَمَالِ، وعَظِيمُ النَّوالِ مِنْ كَرِيمِ الأفْعَالِ، فَكُفَّ نَفْسَكَ يا أيُّها المِسْكِينُ مِنْ هذا الخَيالِ، واعْلَمْ أنّه لا يُوجَدُ شيءٌ إلَّا بِمُجَرَّدِ فَضْلِ ذِي الإِنْوالِ.

– فمِمَّا تَواتَرَتْ به الأَخْبَارُ والنُّقُولُ، ووَافَقَ الْمَنْقُولُ الْمَعْقُولَ، أنَّ ما شَاءَ اللهُ يَكُونُ وما لم يَشَأْ رَبُّنا لم يَكُنْ، ومَشِيئَتُهُ تَعالَى قَدِيمَةٌ لأنَّها عَيْنُ إرادَتِه، وإرَادَتُه على وَفْقِ عِلْمِه، وعِلْمُه قَدِيمٌ، فَكُلُّ ما يَبْرُزُ في عَالَمِ الشَّهادَةِ فإنَّما هو ما قَدَّرَهُ الحَقُّ في عَالَمِ الغَيْبِ: "رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ". قالَ تَعالَى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ). الحديد 22.

فلا سَعَادَةَ ولا شَقَاءَ إلَّا وقدْ سَبَقَ بِهما القَدَرُ والقَضَاءُ، ومَا مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ، إلَّا ولَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ، ومَنْ سَبَقَتْ لَهُ العِنَايَةُ يُسِّرَ لِمَا أُرِيدَ منه.

106) عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ، فَقَالَ: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الأَزَلِ، فَقَالَ: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}.

– اِعْلَمْ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ باخْتِصَاصِ البَعْضِ دُونَ البَعْضِ بِوَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ وبِحَالٍ دُونَ حَالٍ فَقَالَ: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}، فَقَطَعَ الأَطْمَاعَ عَنِ النَّيْلِ بالاكْتِسَابِ والتَّوَصُّلِ بالأَسْبَابِ.

– وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الأَزَلِ ووُقُوفاً معَ النَّفْسِ في بَطَالَتِها فَقَالَ: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}، فبَيَّنَ أنَّ الأعْمَالَ عَلَامَاتٌ، لا أَنَّها أَسْبَابٌ في تَحْصِيلِ الخَيْرَاتِ، فَلَيْسَ قَاعِدَةُ التَّحْقِيقِ إلَّا سَابِقَةَ التَّوفِيقِ، فَكُلُّ شَرِيعَةٍ حَقِيقَةٌ، ولا يَنْعَكِسُ، الشَّرِيعَةُ مُبَيِّنَةٌ، والحَقِيقَةُ مُعَيِّنَةٌ، والهِدَايَةُ والضَّلَالُ بِيَدِ اللهِ.

– ومُرادُه بِسِرِّ العِنَايَةِ: السِرُّ الذي مِنْ أجْلِه اخْتُصَّ بعضُ النّاسِ بِخَصَائِصَ دِينيّةٍ وغيرِها عنْ بعضٍ، وذلكَ بِحُكْمٍ مِنَ الحَقِّ سُبحانَه لا تدخُلُهُ عِلّةٌ ولا يُقالُ فيه: لِمَ؟ فلذلكَ قَطَعَ الأطْمَاعَ عن إدْرَاكِهِ بإحَالَتِهِ على مَشيئَتِهِ التي لا تُعَلَّلُ أحْكَامُهَا.

– لكنْ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ اقْتِرَانُ الأسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا مِنْ حيثُ إنّها مَظاهِرُ، وذلك مُقْتَضَى الآيةِ التي هي: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}، فجَعَلَ الإحْسانَ دَلِيلَ قُرْبِ الرّحْمَةِ السَّابِقَةِ، وجَعَلَ الأعْمَالَ عَلامَاتٍ.

– وفِي الحديثِ: "إنَّ اللهَ قَبَضَ قَبْضَةً فقَالَ: هَذِهِ إِلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِي، وَقَبَضَ قَبْضَةً فَقَالَ: هَذِهِ إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي". صحيح الجامع للألباني.

وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: عَلَى مَوَاقِعِ القَدَرِ". السلسلة الصحيحة للألباني.

وفِي الحَديثِ: ثُبُوتُ قَدَرِ اللهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ، وهو عِلْمُهُ بالأشْيَاءِ قَبْلَ كَونِها، وكِتابَتُه لها قَبْلَ بَرْئِها، وفيهِ: أنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، مِنْ سَعادَةٍ أو شَقَاوَةٍ.

– وقدْ بَيَّنَتْ رِوايةُ أبي دَاودَ مَعْنى مَواقِعِ القَدَرِ حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إذا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ استَعْمَلَهُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ".

– وقدْ نَقَلَ الإمامُ البُخاريُّ فِي كِتَابِهِ (خَلْقُ أَفْعَالِ العِبَادِ) عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قالَ: "كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى وَضْعَكَ يَدَكَ عَلَى خَدِّكَ".

- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى أبي بَكْرٍ رضي الله عنه فقالَ: أَرَأَيْتَ الزّنا بِقَدَرٍ؟ قالَ أبو بكرٍ: "نعم". قالَ: فإنَّ اللهَ قَدَّرَهُ عَلَيَّ ثمّ يُعَذِّبُنِي؟ -يُنْكُرُ ذَلِكَ- أيْ: إِذَا كانَ اللهُ تَعالَى هو الذي قَدّرَ عَلَيَّ الزِّنَا فَكَيْفَ يُعَذِّبُنِي، قالَ أبو بكرٍ: "نَعَمْ يا ابْنَ الخَنَا". أي: يا ابْنَ الفَواحِشِ (يَزْجُرُه). "أمَا وَاللهِ لَوْ كَانَ عِنْدِي إِنْسَانٌ أَمَرْتُهُ أَنْ يَجَأَ أَنْفَكَ". أي: أنْ يَقْطَعَ أَنْفَكَ.

- وعَنْ عَلِيّ بْنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه أنَّه ذُكِرَ عندَه القَدَرُ يوماً فَأَدْخَلَ أُصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةَ والوُسْطَى في فِيهِ فَرَقَمَ بِهِمَا عَلَى بَاطِنِ يَدِهِ، فقالَ: "أَشْهَدُ أَنَّ هَاتَيْنِ الرَّقْمَتَيْنِ كَانَتَا في أُمِّ الكِتَابِ". أي: أنَّ هذا قدْ عَلِمَهُ اللهُ تعالى أَزَلاً.

- يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمهُ اللهُ: وفي هذا الحديثِ ونحوِهِ: القَدَرُ السَّابِقُ، وهو أنَّ اللهَ سبحانَه عَلِمَ أَهْلَ الجَنّةِ مِنْ أهْلِ النّارِ مِنْ قبلِ أنْ يَعْمَلُوا الأَعْمالَ، وهذا حَقٌّ يَجِبُ الإيمانُ بهِ، بل قد نَصَّ الأئِمَّةُ؛ كَمَالِكٍ والشَّافِعِيّ وأحْمَدَ: أنَّ مَنْ جَحَدَ هذا فقدْ كَفَرَ، بل يَجِبُ الإيمانُ أنَّ اللهَ عَلِمَ ما سَيَكُونُ كُلّهُ قبلَ أنْ يَكُونَ، ويَجِبُ الإيمانُ بما أَخْبَرَ به مِنْ أنَّه كَتَبَ ذلك، وأخْبَرَ به قبلَ أنْ يكونَ، كما في صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيّ ﷺ أنَّه قالَ: "إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

– وفي البُخَارِيِّ وغيرِه عَنْ عِمْرانَ بن حُصَيْنٍ، عنِ النبيِّ ﷺ أنه قالَ: "كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، وفي لَفْظٍ: ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ".

– وفي البُخارِيّ عَنْ عَلِيّ بْنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه قالَ: "كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جَنَازَةٍ، فأخَذَ شيئًا فَجعَلَ يَنْكُتُ به الأرْضَ، فَقالَ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، ومَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ قالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَن أعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى}".

– فالحَقُّ سُبْحَانَهُ هَيَّأَ الخَيْرَ لأَصْحابِ السَّعادَةِ، وهَيَّأَ لهم أَسْبَابَهَا، وهَيَّأَ الشَّرَّ لأصْحابِ الشَّقاءِ، وهَيَّأَ لهم أسْبَابَهَا؛ وذلِكَ لأنَّ الخَيرَ والشَّرَّ أَوْضَحَهُ اللهُ للجَمِيعِ، فَكُلٌّ يَعْمَلُ على بَصِيرَةٍ، ويَخْتَارُ ما يُرِيدُ، فمَنِ اخْتارَ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَفَّقَهُ اللهُ لذلِكَ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ، وهو يَعْلَمُ أَزَلًا أنَّه مِنْ أَهْلِهَا، وكذلِكَ مَنِ اخْتارَ لِنَفْسِهِ عَمَلَ أهْلِ النَّارِ تَرَكَهُ اللهُ حتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ يَوْمَ القِيامَةِ، وهو سُبْحانَه يَعْلَمُ أَزَلًا أنَّه سَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ.

- يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيّةَ رحمهُ اللهُ: وذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَى يَعلَمُ الأمُورَ على ما هي عليه، وهو قد جَعَلَ لِلأَشْيَاءِ أَسْبَاباً تكونُ بها، فَيَعْلَمُ أَنَّها تكونُ بتلك الأسْبَابِ، كما يَعْلَمُ أنَّ هذا يُولَدُ له بأنْ يَطَأَ امْرَأَةً فَيُحْبِلُهَا، فلو قالَ هذا: إذا عَلِمَ اللهُ أنَّه يُولَدُ لي، فلا حَاجَةَ إلى الوَطْءِ كانَ أَحْمَقاً؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ بما يُقَدِّرُهُ مِنَ الوَطْءِ، وكذلك إذا عَلِمَ أنَّ هذا يُنْبِتُ له الزَّرْعَ بما يُسْقِيهِ مِنَ الماءِ ويُبْذِرُهُ مِنَ الحَبِّ، فلو قالَ: إذا عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ فلا حَاجَةَ إلى البَذْرِ، كانَ جاهِلاً ضالّاً؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ بذلك، وكذلك إذا عَلِمَ أنَّ هذا يَشْبَعُ بالأَكْلِ، وهذا يَرْوَى بالشُّرْبِ، وهذا يَمُوتُ بالقَتْلِ، فلا بُدَّ مِنَ الأسْبَابِ التي عَلِمَ اللهُ أنَّ هذه الأمُورَ تكونُ بِهَا.

وكذلك إذا عَلِمَ أنَّ هذا يكونُ سَعِيداً في الآخِرَةِ، وهذا شَقِيّاً في الآخِرَةِ، قُلْنَا ذلك؛ لأنَّهُ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الأشْقِيَاءِ، فاللهُ عَلِمَ أنَّه يَشْقَى بهذا العَمَلِ، فلو قِيلَ: هو شَقِيٌّ، وإنْ لم يَعْمَلْ كانَ بَاطِلاً؛ لأنَّ اللهَ لا يُدْخِلُ النّارَ أَحَداً إلّا بِذَنْبِه، كما قالَ تعالَى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}، فأقْسَمَ أنّه يَملَؤُها مِنْ إبْلِيسَ وأَتْباعِه، ومَنِ اتّبَعَ إبليسَ فقدْ عَصَى اللهَ تعالَى، ولا يُعاقِبُ اللهُ العبدَ على ما عَلِمَ أنّه يَعْمَلُهُ حتّى يَعْمَلُه.

وإذا قُدِّرَ للعبدِ خَيْراً يَنالُهُ بالدُّعاءِ؛ لم يَحْصُلْ بِدُونِ الدُّعاءِ، وما قَدَّرَهُ اللهُ وعَلِمَهُ مِنْ أَحْوَالِ العِبَادِ وعَواقِبِهِم فإنّما قَدَّرَهُ اللهُ بأسْبَابٍ فَيَسُوقُ المَقَادِيرَ إلى المَوَاقِيتِ، فليسَ في الدنيا والآخرةِ شيءٌ إلّا بِسَبَبٍ، واللهُ خالِقُ الأسْبَابِ

والْمُسَبَّبَاتِ. ولهذا قالَ بَعْضُهُم: الالْتِفَاتُ إلى الأَسْبَابِ شِرْكٌ في التَّوْحِيدِ، ومَحْوُ الأَسْبَابِ أنْ تَكُونَ أَسْبَاباً نَقْصٌ في العَقْلِ، والإعْرَاضُ عَنِ الأَسْبَابِ بالكُلِّيَّةِ قَدْحٌ في الشَّرْعِ، ومُجَرَّدُ الأَسْبَابِ لَا يُوجِبُ حُصُولَ الْمُسَبَّبِ... إلى آخرِ كَلامِهِ رحمهُ اللهُ.

– ويقولُ أيضاً: وفي هذا المَوْضِعِ ضَلَّ طائِفَتانِ مِنَ الناسِ: فَرِيقٌ آمَنُوا بالقَدَرِ، وظَنُّوا أنَّ ذلك كَافٍ في حُصُولِ المَقْصُودِ، فأعْرَضُوا عنِ الأسبابِ الشّرعيّةِ، والأعْمالِ الصّالحةِ، وهؤلاءِ يَؤُولُ بِهِمُ الأمرُ إلى أنْ يَكْفُروا بِكُتُبِ اللهِ ورُسُلِهِ ودِينِه. وفَرِيقٌ أخَذُوا يَطْلُبُونَ الجَزاءَ مِنَ اللهِ، كما يَطْلُبُهُ الأجِيرُ مِنَ الْمُسْتَأْجِرِ، مُتَّكِلِينَ على حَوْلِهم وقُوَّتِهم وعَمَلِهِم، وكما يَطْلُبُه الْمَمَالِيكُ، وهؤلاءِ جُهَّالٌ ضُلَّالٌ، فإنَّ اللهَ لم يَأمُرِ العِبادَ بما أَمَرَهُمْ به حاجَةً إليهِ، ولا نَهاهُم عَمَّا نَهاهُم عنه بُخْلاً به، ولكنْ أَمَرهُم بما فيه صَلاحُهُم، ونَهاهُم عَمَّا فيه فَسادُهُم، وهو سُبحانَه كما قالَ: "يا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي"، فالْمَلِكُ إذا أَمَرَ مَمْلُوكِيهِ بِأَمْرٍ أَمَرَهُم لحاجَتِه إليهم، وهُم فَعَلُوهُ بِقُوّتِهِمُ التي لم يَخْلُقْهَا لهم، فَيُطالِبُونَ بِجَزاءِ ذلك، واللهُ تعالى غَنِيٌّ عنِ العَالَمِينَ، فإنْ أَحْسَنُوا؛ أَحْسَنُوا لأنْفُسِهِم، وإنْ أَسَاؤُوا فَلَها، لهم ما كَسَبُوا وعليهم ما اكْتَسَبُوا {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}.

107) إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَيْسَتْ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ.

– إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، إِذْ لا يَخْرُجُ عَنِ الْقُدْرَةِ والإِرَادَةِ شيءٌ، وَلَيْسَتْ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ، إِذْ لَيْسَتْ مَعْلُولَةً بشيءٍ، وإلى هذا المعنى أشارَ بعضُ العُلَمَاءِ بِقَوْلِه: "أَسْمَاءُ الحَقِّ تعالَى لا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُشْتَقَّةً مِنْ شيءٍ؛ لأنَّ المُشْتَقَّ منه سَابِقٌ على المُشْتَقِّ، ولا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ شيءٌ سَابِقاً له تَعالَى بِوَجْهٍ ولا بِحَالٍ"، قالَ: "فلا يُقَالُ في اسْمِهِ (الرَّحْمَن) مَثلاً إِنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، بل يُقالُ: "فيه معنى مِنَ الرَّحْمَةِ، وكذا (السَّلَام) وغيرُه".

واسْتَنَدَ في ذلكَ لِقَوْلِه صلى الله عليه وسلم حَاكِياً عَنْ رَبِّه تَعالَى: " أنا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وشَقَقْتُ لها اسْماً مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ومَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ". صحيح أبي داود.

وبِقَوْلِ حَسّانَ رضي الله عنه:

شَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ كَيْ يُجِلَّهُ *** فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

– وأَمّا كَوْنُهَا مُسْتَنَدُ كُلِّ شيءٍ فلا وُجُودَ لشيءٍ دُونَهَا لِثُبُوتِ افْتِقَارِه، وأمّا عَدَمُ اسْتِنَادِهَا لشيءٍ فلأنَّ حُكْمَ الأزَلِ لا يَنْضَافُ إلى العِلَلِ، فقاعِدَةُ التَّحْقِيقِ لَيْسَ إِلَّا سَابِقَةُ التَّوْفِيقِ.

– والمعنى أنَّ أَدَبَ التَّوْحِيدِ أنْ يَعْتَقِدَ العَبْدُ أنَّ كُلَّ شيءٍ يَستَنِدُ إلى الْمَشِيئَةِ، فلا يَكُونُ شيءٌ إلّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تعالَى وإرَادَتِه أزَلاً، وليستْ تَسْتَنِدُ هِيَ إلى شيءٍ مِنَ المَوْجُودَاتِ لاسْتَحَالَةِ وُجُودِ النَّقْصِ فيما يَجِبُ له الكَمَالُ.

فإذا تَحَقَّقَ العبدُ بذلك تَعَلَّقَ بأحْكَامِ الأزَلِ، وطَرَحَ الأسْبَابَ والعِلَلِ، ولَزِمَ العُبُودِيَّةَ والافْتِقَارَ، وتَرَكَ التَّدْبِيرَ والاخْتِيَارَ.

108) رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَاداً عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ.

- رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأَدَبُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ والحَالاتِ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَاداً عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ، كَما أَنَّ حَالَهُم دَائِماً إِظْهَارُ الفَاقَةِ بينَ يديْهِ، ومَدُّ أَكُفِّ الضَّراعَةِ إليهِ، وإنّما هي أعْمَالٌ اقْتَضَتْها أحْوَالٌ بحيْثُ غَلَبَ التّوحِيدُ على القَلْبِ وانْتَشَرَ ذلك إلى الجَوارِحِ فانْقَطَعَتْ بالذِّكْرِ حتى لَزِمَ السُّكُونَ تحتَ جَرَيانِ الأحْكَامِ، إذْ لم يُفَوِّتْ وَجْهاً مِنَ العُبُودِيّةِ، ولا خَرَقَ حُرْمَةً للرُّبوبيّةِ، وإنّما الدُّعاءُ أدَبٌ إنْ وَجَدْتَ عِوَضَهُ مِثلَهُ في الرُّتْبَةِ تَعيَّنَ.

- وحَقِيقَةُ الأَدَبِ: حِفْظُ الحُرْمَةِ على بِسَاطِ الخِدْمَةِ، وذلك لا يَنْضَبِطُ بالفِعْلِ، بل قدْ يكونُ في وُجُودِ التَّرْكِ. وكما أنَّ الدُّعاءَ عُبُودِيّةٌ، قد يكونُ تَرْكُهُ عُبوديّةً، لكنْ في وُجُوهٍ مَخْصُوصَةٍ.

- و"رُبّمَا" حَرْفُ تَوَقُّعٍ وتَقْلِيلٍ، فهو لا يَقْضِي بِنَفْيِ مُقابِلِ ما وَقَعَ عليه، بل المُقابِلُ أَصْلٌ وغيرُه عَارِضٌ، فَافْهَمْ.

فَمَفْهُومُ "رُبَّما" إثْبَاتُ المُقابِلِ في الأَصْلِ، فتَقْدِيرُ الكَلامِ: "ورُبّما دَلَّهُمُ الأَدَبُ أيضاً على وُجُودِ الطَّلَبِ، وربُّما دَلَّهُم على تَرْكِ الجَمِيعِ وهو التَّعْرِيضُ"، فهي إذاً ثلاثةٌ: طَلَبٌ، وتَفْوِيضٌ، وتَعْرِيضٌ، تَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ الأَحْوَالِ والأَوْقَاتِ.

فقدْ صَرَّحَ نَبِيُّ اللهِ إبراهيمُ عليه السلامُ في قولِه: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)، وعَرَّضَ في قولِه: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)، وفَوَّضَ في قولِه: "حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي". أورَدَهُ البَغَوِيُّ في تَفسيرِهِ عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه، وهذا مُناسِبٌ لقولِ إبراهيمَ عليه السلامُ في دُعائِهِ: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ).

قالَ البَيْضاوِيُّ في تفسيرِهِ: "والمعنى: إنَّكَ أَعْلَمُ بأحْوَالِنا ومَصالِحِنا، وأَرْحَمُ مِنَّا بأنْفُسِنَا، فلا حَاجَةَ لنا إلى الطَّلَبِ، لكنَّنا نَدْعُوكَ إظْهَاراً لعُبُودِيَّتِكَ، وافْتِقَاراً إلى رَحْمَتِكَ، واسْتِجْلَاباً لِنَيْلِ ما عندكَ".

- ورُبَّ وَقْتٍ يكونُ الطَّلَبُ أَتَمَّ، وهو الوَقْتُ الذي يَغلِبُ فيه على العَبْدِ ثَلاثٌ:

الأوّلُ: تَشَوُّفُ النَّفْسِ لِلْحِكْمَةِ في ظُهُورِ الحُكْمِ.

الثّاني: انْبِسَاطُ النَّفْسِ بالرَّجَاءِ ونَشَاطُهَا لِلسُّؤَالِ.

الثَّالِثُ: مُراعَاةُ رَسْمِ الشَّرِيعَةِ في الطَّلَبِ أو الْمَطْلُوبِ لَهُ أو الْمَطْلُوبِ فِيهِ.

109) وُرُودُ الفَاقَاتِ أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ.

– الفَاقَةُ: شِدَّةُ الحَاجَةِ، والفَاقَاتُ هي كذلكَ البَلَايَا والـمِحَنِ، وهي للصَّالِحِينَ طُلَّابِ الآخِرَةِ بِسَاطُ القُرْبِ والفَوائِدِ، بمنزِلَةِ الأعْيَادِ لأهْلِ الدنيا؛ لأنَّهَا تَعُودُ عليهم بالأفْرَاحِ.

وخَيْرُ أَوْقَاتِ العَبْدِ الصّالِحِ وَقْتٌ يَشهَدُ فيهِ فَاقَتَهُ، ويُرَدُّ فيهِ إلى وُجُودِ زَلَّتِه، لأنَّ ذلك يَقْطَعُهُ عَنْ غَيْرِهِ ويَرُدُّهُ إليهِ، ولذلكَ هو رَأْسُ الفَوَائِدِ وأَعْيَادُ العُمُرِ عند أَهْلِ اللهِ تعالَى.

– ومِنَ الصّالِحِينَ مَنْ كانتْ مَسَرَّتُهُ وفَرَحُهُ بِفِقْدَانِ حُظُوظِه وأَمَانِيه وأغْرَاضِه، لأنَّ مَدَارَ أَمْرِهِم إنَّما هو على مُرَاعَاةِ قُلُوبِهِم وتَصْفِيَةِ سَرائِرِهِم مِنْ كُدُورَاتِ الأَغْيَارِ والآثَارِ، فَتَراهُم يُؤْثِرُونَ الفَقْرَ على الغِنَى، والشِّدَّةَ على الرَّخَاءِ، والـمَرَضَ على الصِّحَّةِ، إذْ يَحْصُلُ لهم بذلكَ رِقَّةً وحَلَاوَةً لا يَعْرِفُ قَدْرَهَا إلَّا هُمْ، لِأَنَّهَا مِنْ وُجُودِهِم لِقُرْبِ رَبِّهِم، ورُؤْيَتِهِم له في حَالِ فِقْدَانِ حَظِّهِم، وكُلَّما ازْدَادُوا فَاقَةً وبَلَاءً، زَادَهُم مَوْلَاهُم قُرْبَةً وَوَلَاءً.

– جاءَ في الحديثِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاَءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ". رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في (صحيح ابن ماجه).

– وعنْ زِيَادٍ مَوْلَى ابْنِ عَيَّاشٍ قالَ: حَدَّثَنِي مَنْ دَخَلَ على حُذَيْفَةَ في مَرَضِهِ الذي مَاتَ فيهِ فَقالَ: "لَوْلَا أَنِّي أَرَى أَنَّ هذا اليَوْمَ آخِرُ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيا، وأَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ الآخِرَةِ لم أَتَكَلَّمْ بهِ، اللهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ الفَقْرَ عَلَى الغِنَى، وأُحِبُّ الذِّلَّةَ عَلَى العزِّ، وأُحِبُّ المَوْتَ عَلَى الحَيَاةِ، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ".

– قال سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: "لَمْ يَفْقَهْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ البَلاءَ نِعْمَةً، والرَّخاءَ مُصِيبَةً".

– قال ابنُ القَيِّمِ رحمهُ اللهُ: قِيلَ: "إذا اسْتَكْمَلَ العَبْدُ حَقِيقَةَ اليَقِينِ صَارَ البَلَاءُ عِنْدَهُ نِعْمَةً، والمِحْنَةُ مِنْحَةً".

ويقولُ رحمهُ اللهُ: "الْمُبْتَلَى إذا قَوِيَتْ مُشاهَدَتُه لِلْمَثُوبَةِ سَكَنَ قلبُه واطْمَأَنَّ بمُشَاهَدَةِ العِوَضِ حتى يَسْتَلِذَّ بالبَلَاءِ ويَراهُ نِعْمَةً، ولا يُسْتَبْعَدُ هذا، فكَثِيرٌ مِنَ العُقَلاءِ إذا تَحَقّقَ نَفْعَ الدَّواءِ الكَرِيهِ فإنَّه يَكادُ يَلْتَذُّ به، ومُلاحَظَتُهُ لِنَفْعِهِ تُغْنِيهِ عَنْ تَأَلُّمِهِ بِمَذَاقِهِ".

– قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (التَّنْوِير): "وفي البَلَايَا والفَاقَاتِ مِنْ أَسْرَارِ الأَلْطَافِ مَا لَا يَفْهَمُهُ إلَّا أُولُوا البَصَائِرِ، ألم تَرَ أنَّ البَلايَا تُخْمِدُ النُّفُوسَ وتُذْهِلُهَا وتُدْهِشُهَا عَنْ طَلَبِ حُظُوظِهَا، ويَقَعُ مَعَ البَلايَا وُجْدَانُ الذِّلَّةِ، ومَعَ الذِّلَّةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)".

– وقال سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: "ما يَكْرَهُ العَبْدُ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ، لأنَّ ما يَكْرَهُهُ يُهَيِّجُهُ للدُّعاءِ، وما يُحِبُّهُ يُلْهِيهِ".

– وقالَ الفَضْلُ بنُ سَهلٍ رحمهُ اللهُ: "إنَّ في العِلَلِ لَنِعَماً لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أنْ يَجْهَلَهَا، فهي تَمْحِيصٌ للذُّنُوبِ، وتَعَرُّضٌ لِثَوَابِ الصَّبْرِ، وإيقَاظٌ مِنَ الغَفْلَةِ، وتَذْكِيرٌ بالنِّعْمَةِ في حَالِ الصِّحَّةِ، واسْتِدْعَاءٌ للتَّوْبَةِ، وحَضٌّ عَلَى الصَّدَقَةِ".

– قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ: "مُصِيبَةٌ تُقْبِلُ بِهَا عَلَى اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُنْسِيكَ ذِكْرَ اللهِ". وكانَ رحمهُ اللهُ يَعُدُّ سِجْنَهُ نِعْمَةً عليهِ تَسَبَّبَ فيها أَعْدَاؤُهُ.

– قالَ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: "وقالَ لي مَرَّةً –يعني شَيخ الإسلامِ–: "ما يَصْنَعُ أعْدَائِي بي؟ أنا جَنَّتِي وبُسْتَانِي في صَدْرِي، أَنَّ رُحْتُ فهي معي لا تُفارِقُني، إنَّ حَبْسِي خَلْوَةٌ، وقَتْلِي شَهَادَةٌ، وإخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِياحَةٌ".

وكان يقولُ في مَحْبَسِهِ في القَلْعَةِ: "لَوْ بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القَلْعَةِ ذَهَباً ما عَدَلَ عندِي شُكْرَ هذه النِّعْمَةِ"، أو قالَ: "ما جَزَيْتُهُم على ما تَسَبَّبُوا لي فيهِ مِنَ الخَيْرِ ونحوِ هذا".

وقال ابنُ القيمِ أيضاً: وعَلِمَ اللهُ ما رَأَيْتُ أحَدَاً أطْيَبَ عَيْشاً منهُ قَطُّ، مع كُلِّ ما كانَ فيه مِنْ ضِيقِ العَيْشِ، وخِلافِ الرَّفاهِيَةِ والنَّعِيمِ، بل ضِدَّها، ومع ما كانَ فيه مِنَ الحَبْسِ والتَّهْدِيدِ والإرْهَاقِ، وهو مع ذلك مِنْ أَطْيَبِ النّاسِ عَيْشاً،

وأشْرَحِهِم صَدْراً، وأقْوَاهُمْ قَلْباً، وأَسَرِّهِم نَفْساً، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ على وَجْهِهِ، وكُنّا إذا اشْتَدَّ بنا الخَوْفُ، وسَاءَتْ مِنّا الظُّنُونُ، وضَاقَتْ بنا الأَرْضُ، أَتَيْنَاهُ فما هو إلَّا أنْ نَرَاهُ ونَسْمَعَ كَلامَهُ فَيَذْهَبُ ذلك كُلُّه، ويَنْقَلِبُ انْشِرَاحاً وقُوّةً ويَقِيناً وطُمَأْنينَةً، فَسُبحانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وفَتَحَ لهم أَبْوَابَها في دَارِ العَمَلِ، فأَتاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا ونَسِيمِها وطِيبِهَا ما اسْتَفْرَغَ قُوَاهُم لِطَلَبِها والمُسَابَقَةِ إليها".

– ذكرَ ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه، قالَ: قالَ إبراهيمُ بنُ داودَ: "قالَ بعضُ الحُكَماءِ: إنَّ للهِ عِباداً يَستَقْبِلُونَ المَصائِبَ بِالبِشْرِ"، قالَ: "فقالَ: أُولئِكَ الذينَ صَفَتْ مِنَ الدنيا قُلُوبُهم"، ثم قالَ: قالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: وَجَدْتُ في زَبُورِ دَاودَ: يقولُ اللهُ تعالَى: "يا دَاودُ، هل تَدْرِي مَنْ أَسْرَعُ النّاسِ مَمَرّاً على الصِّرَاطِ؟ الذينَ يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي، وأَلْسِنَتُهُمْ رَطِبَةً مِنْ ذِكْرِي".

110) رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ.

– المَزِيدُ هُنَا: عِبَارَةٌ عَنْ زِيادَةِ الإيمَانِ والمَعْرِفَةِ بِوُجُودِ اليَقِينِ والطُمَأْنِينَةِ، وصَفَاءِ القَلْبِ، وطَهَارَةِ السَّرِيرَةِ. وفي قَوْلِه: "رُبَّمَا" إشْعَارٌ بإثْبَاتِ الحُكْمِ لِلْمُقَابِلِ تَقْرِيرهُ، ورُبَّمَا وَجَدْتَ في الصَّوْمِ والصَّلَاةِ ما لا تَجِدُهُ في الفَاقَاتِ، ورُبَّمَا وَجَدْتَ في كُلٍّ مِنْهُمَا ما تَجِدُهُ في الآخَرِ.

– وأمَّا المَزِيدُ في الفَاقَاتِ فَلِوُجُوهٍ منها: أنَّ الفَاقَاتِ مَحَلُّ الاقْتِطَاعِ عَنِ الخَلْقِ، وأنَّهَا مَحَلُّ التَّوَجُّهِ لِلْحَقّ بِقَطْعِ الرَّجَاءِ مِنْ غيرِه والاقْتِصَارِ على وُجُودِ ذِكْرِه، وأنَّهَا مَحَلُّ السَّلامَةِ مِنْ آفَاتِ الدَّعَاوَى والعُجْبِ ونَحْوِه.

– فالعُبوديّةُ في الفَاقَةِ أَظْهَرُ، والدَّعْوَى فيها أَبْعَدُ، والنَّفْسُ فيها أَقْرَبُ إلى الحَقّ، وأَبْعَدُ عَنِ التّكَبُّرِ، وهي كذلكَ مُبَايِنَةٌ لِلْهَوَى والشَّهْوَةِ على كُلِّ حَالٍ، وأمَّا الصَّوْمُ والصَّلاةُ تَعْرِضُ لَهُمَا عَوَارِضُ الدَّعَاوَى، ومُنَاقَضَةُ الشَّوَائِبِ مِنَ الرِّياءِ وغَيرِهِمَا، فإنَّ حَظَّ النَّفْسِ قدْ يَعْتَرِيهِمَا فَيَحْصُلُ فِيهِمَا إخْلَالٌ، فَهُمَا يَفتَقِرانِ إلى التَّخْلِيصِ والإخْلَاصِ، بِخِلَافِ الفَاقَةِ فإنَّهَا تَسْلُبُ العَبْدَ مِنْ هَوَاهُ، وتَرُدُّهُ لِمَوْلَاهُ، وتُشْغِلُهُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ بِمَا بِهِ تَوَلَّاهُ.

– قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (تاج العروسِ): "ما سَلَّطَ عليكَ الفاقَةَ إلَّا لِتَرْفَعَ حاجَتَكَ إليه، ولِتَنْجَمِعَ عليه". وقالَ أيضاً: "لَفَاقَةٌ تَجْمَعُكَ على اللهِ خَيْرٌ مِنْ غِنيً يَقْطَعُكَ عنه". وقالَ في (التَّنْوِير): "وُرُودُ الفاقَةِ سَبَبٌ لِلْمُناجاةِ، والمُناجاةُ شَرَفٌ عَظِيمٌ، ومَنْصِبٌ مِنَ الكَرامَةِ جَسِيمٌ".

111) تَحقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ، تَحقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ، تَحقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

– تَحَقُّقُكَ بأوْصَافِكَ هو أنْ تَكُونَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ فِي جَمِيعِ حَالَاتِكَ، حتّى لا تَتَصَرَّفَ إلَّا على حُكْمِ ما أَنْتَ بِهِ مُتَّصِفٌ مِنَ الفَقْرِ والذُّلِّ والضَّعْفِ والعَجْزِ، فيُمِدُّكَ تَعالَى بِالْغِنَى بهِ بَدَلاً مِنْ فَقْرِكَ فَتَكُونُ غَنِيّاً بِغِنَاهُ لا بشيءٍ مِنكَ، والعِزِّ بِهِ بَدَلاً مِنَ الذُّلِّ، فَتَصِيرُ عَزِيزاً بِهِ لا بشيءٍ منكَ، وبالقُوَّةِ به بَدَلاً مِنْ ضَعْفِكَ، فَتَكُونُ قَوِيّاً به لا بِوُجُودِ شيءٍ، وبالقُدْرَةِ بَدَلاً مِنَ العَجْزِ، فَتَكُونُ قادِراً به لا بِغَيْرِهِ، وبِحَسَبِ هذا فلَا طَاقَةَ لشيءٍ مِنَ الوُجُودِ عليكَ فِي جَمِيعِ أبْوابِكَ لاتِّصَالِهَا بِمَوْلَاكَ الذي لا تَصِحُّ مُقابَلَةُ أَفْضَالِهِ بِأَفْعَالِ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ.

– وذلكَ أنَّ إقْرَارَكَ بالعَجْزِ والفَقْرِ والذُّلِّ والضَّعْفِ يُرجِعُكَ إليه فَتَصْيرُ قَادِراً به، غَنِيّاً به، عَزِيزاً به، قَوِيّاً به، فَيَعُودُ فَقْرُكَ غِنىً، وعَجْزُكَ قُدْرَةً، وضَعْفُكَ قُوَّةً، وذُلُّكَ عِزّاً، لأنَّكَ فِي مَحَلِّ الاضْطِرَارِ وهو يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ، وفِي مَقَامِ الرِّضا والصَّبْرِ وهو مع الصّابِرِينَ.

– تَحقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ: تَحَقُّقُ العَبْدِ بِذِلَّتِهِ هو أنْ يَرَى نَفْسَه أَذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيلٍ، وأَحْقَرَ مِنْ كُلِّ حَقِيرٍ، ومِنْ لَازِمِ ذلكَ أنْ لَا تَتَعَزَّزَ فِي نَفْسِكَ، ولا تَتَرَفَّعَ على غَيْرِكَ، وعَلامَةُ ذلكَ أنْ لا تَنْتَصِرَ لِنَفْسِكَ لِحَقَارَتِهَا عندكَ، وأنْ تَنْتَصِرَ عليها لِسُقُوطِهَا مِنْ عَيْنِكَ، وأنْ تَسْتَسْلِمَ لِقَضَاءِ اللهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِكَ، فلا تَخْتَارُ عليه، ولا تُدَبِّرُ معه فِي شيءٍ مِنْ أمْرِكَ.

فإِذَا حَصَلْتَ على هذا كَانَتْ لكَ العِنايَةُ مِنَ الحَقِّ بانْتِصَارِهِ لكَ وتَدْبيرِه إيَّاكَ وإقامَةِ حُرْمَتِكَ وإنْ كُنْتَ في أَدْنَى مَراتِبِ الخُمُولِ بِظَاهِرِكَ.

ورَحِمَ اللهُ الخَوّاصَ حيثُ يقولُ:

صَبَرْتُ عَلَى بَعْضِ الأَذَى خَوْفَ كُلِّهِ *** وَدَافَعْتُ عَنْ نَفْسِي بِنَفْسِي فَعَزَّتِ

وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوهَ حَتَّى تَدَرَّبَتْ *** وَلَوْ جُرِّعَتْهُ جُمْلَةً لاشْمَأَزَّتِ

أَيَا رُبَّ عِزٍّ سَاقَ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً *** وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتِ

إذَا مَا مَدَدْتُ الكَفَّ أَلْتَمِسُ الغِنَى *** إلى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلَّتِ

سَأَصْبِرُ جُهْدِي إنَّ في الصَّبْرِ عِزَّةً *** وَأَرْضَى بِدُنْيَائِي وَإنْ هِيَ قَلَّتِ

– تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ، وتَحَقُّقُكَ بالعَجْزِ هو أنْ تَرى نَفْسَكَ لا تَقْدِرُ على جَلْبِ شيءٍ، قَلَّ أو جَلَّ، فَتَعُودُ لِمَوْلاكَ في كُلِّ شيءٍ بإسْقَاطِ التَّدْبيرِ ووُجُودِ التَّوَكُّلِ، إذ يَعْلَمُ أنَّه لا يَمْلِكُ لِنَفْسِه نَفْعاً ولا ضُرّاً ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً.

فإذا حَصَّلَ هذه المَرْتَبَةَ تَلاشَتْ في هِمَّتِه جَمِيعُ الكائِنَاتِ؛ إذْ يُلاقِيهَا بِرَبِّه لا بِنَفْسِه، وإلى هذا المعنى أشارَ أبو القاسِمِ القُشَيْرِيُّ بقولِه: "وأَكْبَرُ مِنْ ذلكَ هِمَّةُ العارِفِينَ، تَتَلاشَى فيها جَمِيعُ المَقْدُوراتِ، فَضْلاً عَنِ المَخْلُوقاتِ".

وكانَ بعضُ الصَّالِحِينَ يقولُ في دُعائِه: "اللهمَّ أنتَ العَالِمُ بِكُلِّ شيءٍ، وأنا الجَاهِلُ بِكُلِّ شيءٍ، وأنتَ القادِرُ على كُلِّ شيءٍ، وأنا الذي لا أَقْدِرُ على شيءٍ، فَوّضْتُ أَمْرِي إليكَ يا مَنْ لا يَتَعاظَمُهُ شيءٌ".

- تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وتَحَقُّقُكَ بِضَعْفِكَ هو أنْ تَرى نَفْسَكَ فِيمَا تَتَوَجَّهُ له لَا طاقَةَ لكَ عليه إلَّا به، فَتَلزَمُ الاسْتِعانَةَ به على جَمِيعِ أمْرِكَ، إذْ لَا حَوْلَ لكَ ولا قُوّةَ إلَّا باللهِ. وإمْدَادُكَ بِمَا مِنْهُ في ذلكَ، هو أَنْ لَا تَضْعُفَ عَنْ مُقابَلَةِ شيءٍ مِنَ الوُجُودِ، سَوَاءٌ تَهَيّأَ لكَ منه ما تُرِيدُ أو لا.

- وقَدْ يَكُونُ هذا التَّفْصِيلُ بِحَسَبِ الأحْوَالِ والوَقائِعِ، فَكُلُّ أَمْرٍ يَقْتَضِي عِزّاً يَحْتَاجُ لِلتَّحقُّقِ بِذُلِّهِ، وكُلُّ أَمْرٍ يَقْتَضِي قُدْرَةً يَتَحَقَّقُ فيه بِعَجْزِه، وكُلُّ أَمْرٍ يَقْتَضِي قُوَّةً يَتَحَقَّقُ فيه بِضَعْفِه.

- وفي دُعَاءِ بَعْضِ الْمَشايِخِ: "إِلَهِي: مَنْ أَقْوَى مِنِّي حَوْلاً وأَنْتَ حَوْلِي وقُوَّتِي، ومَنْ أَوْثَقُ مِنِّي بِوَجْهِ آمَالِهِ وأَنْتَ مَأْمُولِي، سَيِّدِي: مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي قُوَّةً وأَنْتَ قُوَّتِي، ومَنْ أَحَقُّ مِنِّي بِالْأَمَانِ وأَنْتَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وأَمْرُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِكَ".

- يَجِبُ الإيمانُ المُطْلَقُ بأنَّ اللهَ هو العَزِيزُ، وأنَّه هو وَحْدَهُ مَصْدَرُ العِزَّةِ ووَاهِبُهَا، وأنَّه لَا أَحَدَ يَمْلِكُ العِزَّةَ أو يَهَبُهَا سِوَاهُ {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}،{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. (فاطر 10، المنافقون 8، آل عمران 26).

- طَلَبَ رُسْتُمُ مِنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنْ يَبْعَثَ إليهِ رَسُولًا يُفاوِضُه قبلَ أنْ يَبْدَأَ القِتالَ في مَعْرَكَةِ القادِسِيَّةِ، فَأَرْسَلَ إليهِ المُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لِرُسْتُمَ: "إِنَّا ليسَ طَلَبُنَا الدُّنْيا وإنَّما هَمُّنَا وطَلَبُنَا

الآخِرَةُ"، ثمَّ بَعَثَ إليهِ سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ وهو رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ فَدَخَلَ عليهِ وقدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بالنَّمارِقِ المُذَهَّبَةِ والحَرِيرِ، وأظْهَرُوا اليواقِيتَ واللآلِئَ الثَّمِينَةَ، وقدْ جَلَسَ على سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ، ودَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وسَيْفٍ وتُرْسٍ وفَرَسٍ قَصِيرَةٍ، ولم يَزَلْ رَاكِبَها حتّى دَاسَ بها على طَرَفِ البِسَاطِ، ثمَّ نَزَلَ ورَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الوَسَائِدِ وأَقْبَلَ وعليهِ سِلَاحُهُ ودِرْعُهُ، فَقَالُوا لهُ: ضَعْ سِلاحَكَ، فقالَ: "إِنِّي لم آتِكُمْ، وإنَّما جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وإلَّا رَجَعْتُ"، فقالَ رُسْتُمُ: ائْذَنُوا لهُ، فَأَقْبَلَ يَتوكَّأُ على رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمارِقِ فَخَرَقَ عَامَّتَهَا، فقالُوا لهُ: ما جَاءَ بِكُمْ؟ قالَ: "اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللهِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيا إلى سَعَتِهَا، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إلى عَدْلِ الإسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إلى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إليهِ فمَنْ قَبِلَ ذلكَ قَبِلْنَا منهُ ورَجَعْنَا عنهُ، ومَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حتّى نُفْضِيَ إلى مَوْعُودِ اللهِ"، قالوا: وما موعودُ اللهِ؟ قالَ: "الجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ على قِتَالِ مَنْ أَبَى، والظَّفْرُ لِمَنْ بَقِيَ"، فَطَلَبَ رُسْتُمُ مُهْلَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا غَادَرَ رِبْعِيٌّ اجْتَمَعَ رُسْتُمُ بِرُؤَسَاءِ قَوْمِهِ فقالَ: هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ أَعَزَّ وأَرْجَحَ مِنْ كَلَامِ هذا الرَّجُلِ؟ فقالوا: مَعَاذَ اللهِ أنْ تَمِيلَ إلى شَيْءٍ مِنْ هذا وتَدَعَ دِينَكَ إلى هذا الكَلْبِ، أَمَا تَرَى إلى ثِيَابِهِ؟ فقالَ: وَيْلَكُمْ لَا تَنْظُرُوا إلى الثِّيَابِ، وانْظُرُوا إلى الرَّأْيِ والكَلَامِ والسِّيرَةِ. [البِدَايَةُ والنِّهَايَةُ لابْنِ كَثِيرٍ]

112) رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ.

– الكَرَامَةُ: أمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ غيرُ مُستَنِدٍ لأسْبابٍ، ولا مَقرونٍ بالتَّحدِّي، يُجرِيهِ الحَقُّ تعالَى على مَنْ اخْتَصَّهُ مِنْ عِبادِه المُطِيعينَ، تَرقِيَةً لِهِمَّتِه، أو إظْهاراً لِرُتْبَتِه، أو تَأْنِيساً له مِنْ وَحْشَتِه، أو إعانةً له على وقْتِه، أو زِيادةً له في مَعرفَتِه، أو امْتِحاناً له في حالِه.

– وظُهورُ الكرامةِ وإنْ دَلَّ على الاسْتِقامَةِ فلا يَدُلُّ على كَمالِهَا، فلا يَغْتَرِرْ بها إلّا مَخْدُوعٌ، ولا يُهمِلُ فَضْلَ اللهِ فيها إلّا مَغْرُورٌ.

– ومَرْجِعُ الكرامةِ صِحَّةُ الإيمانِ باللهِ، واتِّباعُ ما جاءَ به رسولُ اللهِ ﷺ ظاهِراً وباطِناً، ولذلك قالَ أبو يَزيدٍ البِسْطامِيُّ رحمهُ اللهُ: "لو أنَّ رَجُلاً بَسَطَ مُصَلّاهُ على الماءِ، وتَرَبّعَ في الهواءِ، فلا تَغْتَرُّوا به حتى تَنظُرُوا كيفَ تجِدُونَه في الأمرِ والنّهيِ"، وقِيلَ له: إنّ فُلاناً يَمُرُّ في لَيْلَةٍ إلى مَكَّةَ، فقالَ: "إنّ الشَّيْطانَ يَمُرُّ في لَحْظَةٍ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ". وقِيلَ له: إنّ فُلاناً يَمْشِي على الماءِ، فقالَ: "الحِيتَانُ في الماءِ والطَّيْرُ في الهواءِ أعْجَبُ مِنْ ذلك".

– وقال يونسُ بنُ عبدِ الأَعْلَى الصَّدَفي: قلتُ للشّافِعِيّ: إنّ صاحِبَنا الليثَ كانَ يقولُ: "إذا رَأَيْتُمُ الرّجُلَ يمشِي على الماءِ فلا تَغْتَرُّوا به حتى تَعْرِضُوا أمْرَهُ على الكتابِ والسنّةِ". فقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ: "قَصَّر الليثُ رحمهُ اللهُ، بل إذا رَأَيتُمُ الرّجُلَ يمشِي على الماءِ، ويَطِيرُ في الهَواءِ فلا تَغْتَرُّوا بهِ حتى تَعْرِضُوا أمْرَهُ على الكتابِ والسنّةِ".

– مَذْهَبُ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ الإيمانُ بالكَراماتِ، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالى: "ومِنْ أُصُولِ أهلِ السنةِ، التّصديقُ بكراماتِ الأولياءِ، وما يُجرِي اللهُ على أيْدِيهِم مِنْ خَوارِقِ العَادَاتِ". وقالَ الإمامُ الطّحاوِيُّ رحمهُ اللهُ تعالى: "ونُؤمِنُ بما جاءَ مِنْ كَراماتِهم وصَحَّ عَنِ الثّقاتِ مِنْ رِوَاياتِهم".

– وكراماتُ الأولياءِ، قد تَكُونُ تَأْيِيداً وتَثْبِيتاً للشّخصِ، وقد تكونُ تأييداً للحَقِّ.

– وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَو الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ، ولهذا كانتِ الكراماتُ في التابعينَ ومَنْ جاءَ بعدَهُم أَكْثَرَ مِنَ الصّحابَةِ، لأنّ الصحابَةَ عندَهُم مِنَ التّثْبِيتِ ما يَسْتَغْنُونَ بهِ عَنِ الكرامات، فالعاقلُ الذى يَطْلُبُ الاستقامةَ لا الكرامةَ.

قالَ أبو علي الجَوْزَجَانِيُّ: "كُنْ طالِباً للاستِقَامَةِ لا طالِباً للكَرامَةِ، فإنَّ نَفْسَكَ مُنْجَبِلَةٌ على طَلَبِ الكَرامةِ، ورَبُّكَ يَطْلُبُ منكَ الاستقامةَ".

– رَوَى البخاريُّ، وأحمدُ –واللفظُ له– عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ أَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا فَكَانَا يَمْشِيَانِ بِضَوْئِهَا، فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَضَاءَتْ عَصَا هَذَا وَعَصَا هَذَا".

– ذكرَ غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ أنّ عُكاشةَ بنَ مِحْصَنٍ رضي الله عنه انْقَطَعَ سَيْفَهُ يومَ بدرٍ، فَدَفَعَ إليهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عُوداً، فعادَ في يَدِهِ سَيْفاً شديدَ المَتْنِ.

– رَوَى البُخارِيُّ مِنْ طريقِ عبدِ الملِكِ بنِ عُمَيرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: "شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ. وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ –يعني هذا الرجل– يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ".

– وفِي صَحيحِ مسلمٍ عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: "أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ بَيْنَ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، ثُمَّ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ، وَلَمْ يَنْزِلْ فِيهِ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ، وَقَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّى اكْتَوَيْتُ، فَتُرِكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ، فَعَادَ". وقالَ أبو داودُ في سُنَنِه: "كَانَ يَسْمَعُ تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ، فَلَمَّا اكْتَوَى انْقَطَعَ عَنْهُ، فَلَمَّا تَرَكَ رَجَعَ إِلَيْهِ".

– ورَوَى البخاريُّ حديثَ خُبَيْبِ بنِ عَدِيٍّ رضي الله عنه لَمّا أسَرَهُ الْمُشركونَ، وكَانَ خُبَيْبٌ قد قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فقال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ: قالت بِنْتُ الحَارِثِ: "وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ"، وَكَانَتْ تَقُولُ: "إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا".

– وروى ابنُ سَعْدٍ في "الطبقات" عن عثمانَ بنِ القاسمِ قال: "لَمّا هاجَرَتْ أمُّ أيمنَ أَمْسَتْ بالمُنصرَفِ دونَ الرّوحاءِ، فَعَطِشَتْ وليسَ معها ماءٌ وهي صائِمةٌ، فَجَهِدَها العَطَشُ، فَدُلِّيَ عليها مِنَ السماءِ دَلْوٌ مِنْ ماءٍ، بِرِشاءٍ أبيضَ، فأخَذَتْهُ فَشَرِبَتْ منه حتى رَوِيَتْ، فكانتْ تقولُ: "ما أصَابَنِي بعدَ ذلكَ عَطَشٌ، ولقد تَعَرّضْتُ للعَطَشِ بالصومِ في الهَواجِرِ فما عَطِشْتُ بعدَ تلكَ الشَّرْبَةِ، وإنْ كنتُ لأَصُومُ في اليومِ الحَارِّ فما أَعْطَشُ".

– وكانَ التّابعيُّ الجليلُ عامِرُ بنُ عبدِ قيسٍ يأخُذُ عَطاءَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ في كُمِّهِ وما يَلْقَاهُ سائِلٌ في طَرِيقِه إلّا أعْطَاهُ بغَيْرِ عدَدٍ ثمّ يَجِيءُ إلى بيتِه فلا يَتَغَيّرُ عددُهَا

ولا وَزْنُها. ومَرَّ بِقَافِلَةٍ قد حَبَسَهُمُ الأَسَدُ فجاءَ حتى مَسَّ بِثِيَابِهِ الأَسَدَ ثمّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وقالَ: إنَّما أنتَ كَلْبٌ مِنْ كِلابِ الرّحمنِ، وإِنِّي أَسْتَحِي أنْ أَخَافَ شَيئاً غَيْرَهُ ومَرّتِ القافِلَةُ. ودَعا اللهَ تعالى أنْ يُهَوِّنَ عليه الطَّهُورَ في الشّتاءِ فكانَ يُؤْتَى بالماءِ لهُ بُخارٌ.

– وَتَغَيَّبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ الْحَجَّاجِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَرَوْهُ. ودَعَا عَلَى بَعْضِ الخَوارِجِ كانَ يُؤْذِيهِ فَخَرَّ مَيّتاً.

– صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً وَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ يَا بُنَيَّ خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ فَأَخَذَ سَرْجَهُ فَمَاتَ الْفَرَسُ. وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَطْعَمَهُ فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةِ رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا. وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ أُطْلُبْ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ.

– وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ.

– وَرَجُلٌ مِنْ "النَّخْعِ" كَانَ لَهُ حِمَارٌ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَك عَلَى رِحَالِنَا فَقَالَ لَهُمْ: أَمْهِلُونِي هُنَيْهَةً ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ.

– وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِيُّ وَجدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ وَوَجدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ.

– وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُقْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَأَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ. وَكَانَ السَّبْعُ يَحْمِيه وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ أَصْحَابِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغَزْوِ أَنَّهُ يَخْدِمُهُمْ.

– وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَتُهُ. وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ.

– وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلٍ فِي قَبْرِهِ فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ.

– وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التَيْمِيُّ يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا، وَخَرَجَ يَمْتَارُ لِأَهْلِهِ طَعَامًا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَفَتَحَهَا فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ، فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا تَخْرُجُ السُّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتَرَاكِبًا.

– وَكَانَ عُتبةُ الْغُلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: صَوْتًا حَسَنًا، وَدَمْعًا غَزِيرًا، وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ. فَكَانَ إِذَا قَرَأَ بَكَى وَأَبْكَى، وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرَهُ، وَكَانَ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ فَيُصِيبُ فِيهِ قُوتَهُ وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيه.

– وَكَانَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ الْفَالِجُ فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقْتَ الْوُضُوءِ فَكَانَ وَقْتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهُ.

– الخُلاصَةُ: أنّ الكَرامةَ هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَعالَى لِعَبْدِهِ الصالحِ ، يُقَدِّرُها اللهُ عزّ وجلّ بإرادَتِه متى شاءَ وكيفَ شاءَ في بعضِ الأحوالِ، أمّا في غالِبِ الأحوالِ فالوَلِيُّ إنّما يَسِيرُ وَفْقَ سُنَنِ الكَوْنِ وقَوانِينِ الحياةِ، فقد يُبْتَلَى بالفَقْرِ أو المرضِ أو الجُوعِ أو التِّيهِ أو الفَقْدِ أو القَحْطِ أو غيرِها مِنْ أنواعِ البلاءِ، فيَدْعُو ويَرْجُو رَبَّهُ كَشْفَ ما أَصَابَهُ فلا يُعَجِلُ اللهُ إجابَتَه في الدنيا؛ لأنَّه بَشَرٌ خاضِعٌ لِسُنَنِ الكونِ وقَوانِينِ الحياةِ التي أَوْدَعَها رَبُّنا سبحانَه فيها.

– أما الكرامةُ عندَ الغُلاةِ فهي عَصا سِحْريةٌ، وحالةٌ ثابتةٌ، تُمَكِّنُ الوَلِيَّ من تَغييرِ الأوضاعِ وخَرْقِ السُّنَنِ وتَجاوُزِ حُدودِ الطاقَةِ البشريةِ، فَيَسْتَعْمِلُها متى شاءَ وكيف شاءَ، بل وتَضْمَحِلُّ معها مَعانِي بَشَرِيّتِه؛ لأنّها ثابِتَةٌ له في حَياتِه وبعدَ مَماتِه أيضاً، وهذا أيضاً اعتقادٌ يَمنحُ الوليَّ قَدْراً من صِفاتِ الربوبيةِ، سَواءٌ صَرّحَ القائلونَ به أم لم يُصَرِّحُوا، فهو لازِمٌ لِغُلُوِّهِم، بل صَرّحَ بعضُهم بأنّ الوليَّ الفُلانيَّ يَمْلِكُ كلمةَ التّكوينِ، فإذا أرادَ شيئاً إنّما يقولُ له كُنْ فيكونُ.

كما فعلَ ابنُ عَرَبِي في (الفُتُوحات المكِّيَّة) –وتَبِعَهُ عليه كَثِيرونَ– أنَّ التّصرُّفَ في الكَوْنِ مُمكِنٌ بالكَرامَةِ، وقال: "كما قالَ سيدُنا أبو السُّعودِ بنُ الشّبلِ، عاقِلُ زَمانِه، وقد سَأَلَهُ بعضُ مَنْ لَا يَكْتُمُه مِنْ حالِه شيئاً: هلْ أَعْطَاكَ اللهُ التّصَرُّفَ، وهو أَصْلُ الكَراماتِ؟ فقالَ: نَعم، منذُ خَمْسَ عَشَرَةَ سَنَةٍ، وتَركناهُ تَظَرُّفاً، فالحقُّ يَتَصرّفُ لنا". ويقولُ الدّباغُ في (الإبريز): "إنَّ الوَلِيَّ صاحِبُ الكَشْفِ إذا نَظَرَ إلى شَخْصٍ عَرَفَ حالَهُ مِنْ سَعادَةٍ وشَقَاوَةٍ". نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الزَّيْغِ والضَّلالِ.

113) تَسْبِقُ أَنوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ.

– الحِكْمَةُ: إِصَابَةُ الحَقِّ في القَولِ والعَملِ. والحَكِيمُ: صاحِبُ الحِكْمَةِ، فأقوالُه مُسَدَّدَةٌ لأنّها ناشِئةٌ عن نُورٍ مِنْ قلبِه، جاريةٌ على لِسانِه بنورِ الحقِّ الذي لا يُخالِطُه هَوىً، سائِرَةٌ إلى مَنْ واجَهَهُ بها عن صِدْقِ هِمَّةٍ في التَّوْصِيلِ إليه.

وذلكَ دائرٌ على ثلاثةِ أشياءَ:

أوَّلُها: التَّحَقُّقُ بما يَقولُونَه، فلا يَتكلّمُونَ إلّا بِصِدْقٍ في حَقٍّ عنْ حَقٍّ.

الثَّاني: أنَّ نُطْقَهُم في ذلكَ مَصْحُوبٌ بالنَّصِيحَةِ والشّفَقَةِ وقَصْدِ الهِدَايَةِ لِلخَلْقِ.

الثّالثُ: أنّهم يَلْجَؤُونَ إلى اللهِ تعالى ويَرفَعُونَ هِمَمَهُم إليه في تَوصيلِ ما يَقُولُونه لِقَلْبِ مَنْ أرَادُوا مُواجَهَتُه.

– فحيثُ صارَ التّنويرُ مِنْ قلبِ الحكيمِ وَصَلَ التعبيرُ مِنْ قلبِ السّامِعِ، بمعنى إذا نَطَقُوا أثَّرَ كلامُهُم في السّامِعِ على حَسَبِ تَمَكُّنِهِ مِنْ قُلوبِهِم.

– وحيثُ صارَ التنويرُ مِنْ قلبِ السّامعِ وَصَلَ التّعبيرُ منه، بمعنى أنّ السّامِعَ لهم يَنتَفِعُ على قَدْرِ هِمَّتِهِم فيه.

– فما خَرَجَ مِنَ القَلْبِ دَخَلَ القَلْبَ، وما قَصِرَ على اللِّسَانِ لم يُجَاوِزِ الآذَانَ.

– ثمّ إذا وَصَلَ إلى القلبِ وقَرَعَهُ لم يمْنَعْهُ مِنَ التّمكُّنِ إلّا جُحُودٌ أو ضلالٌ، كحالِ الكُفّارِ إذْ أقَرُّوا بالحقيقةِ ولم يُصَدِّقُوا بها جَحْداً وعِناداً، حتى كانُوا يجعلُونَ أصابعَهُم في آذانِهم ويَستَغْشُونَ ثِيابَهُم حَذَراً مِن تَمَكُّنِها لاسْتِحلائِها.

– ثُمَّ بعدَ دُخُولِه للقلبِ قد يُفيدُ فيكونُ مَحَجَّةً، وقد لا يُفيدُ فيكونُ حُجَّةً؛ لأنّ الحقَّ يَصدعُ القلوبَ فتأخُذُ منه على مِقدارِها لا على قَدْرِه، كما أشارَ النبيُّ ﷺ في قولِه: "مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ". (البخاري)

– قال تعالى: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ). الرعد 17.

يقول البغويُّ في تفسيرِه: "وقيل: قوله (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً): هذا مَثَلٌ للقُرآنِ، والأوْدِيَةُ مَثَلٌ لِلْقُلوبِ، يُرِيدُ: يُنَزِّلُ القُرآنَ فَتَحْمِلُ منه القُلوبُ على قَدْرِ اليَقِينِ، والعَقْلِ، والشّكِّ، والجَهْلِ".

114) كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ.

- يَعْنِي: أنّ اللِّسانَ تَرْجُمانُ القلبِ، فإذا تَطهّرَ القلبُ مِنَ الأغْيَارِ، وأشْرَقَتْ عليه الأنْوَارُ اكْتَسَى الكلامُ نُوراً، وانتَفَعَ به السّامعُونَ وازْدَادُوا سُروراً، وأمّا إذا تَدَنّسَ القلبُ بالذُّنُوبِ فإنّ كلامَ صاحِبِه يُوجِبُ قَسْوَةَ القُلوبِ.

- لأنّ الكلامَ صِفَةُ المُتَكَلِّمِ، وما فِيكَ ظَهَرَ على فِيكَ، ولأنّه مَصْحُوبٌ بِحَالَةِ صاحِبِه، ولذلكَ قِيلَ: "النّاسُ حَوَانِيتُ مُغْلَقَةٌ، فإذا تَكَلّمَ الرّجُلانِ تَبَيَّنَ العَطّارُ مِنَ البَيْطارِ".

وقالَ بعضُ السّلَفِ: "ما قَرَأْتُ كِتابَ رَجُلٍ إلّا اطَّلَعْتُ على عَقْلِه".

ويَرحمُ اللهُ عبدَ اللهِ بنَ المبارَكِ إذْ قالَ:

وهَذَا اللِّسَانُ بَرِيدُ الفُؤَادِ *** يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ

فإنَّ الوجْهَ مِرآةٌ للقلبِ، ولهذا قِيلَ: "ما أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إلّا أَظْهَرَهَا اللهُ على صَفْحَةِ وَجْهِهِ وفَلَتاتِ لِسَانِهِ".

- فاللِّسانُ تَرْجُمانُ القلبِ، فإذا صَفَى مِنَ الأكْدَارِ، وتَزَكَّى مِنَ الأغْيَارِ، وأشْرَقَتْ فيه الأنْوَارُ، كانتْ تَرْجَمَانِيَّةُ لِسانِه على حَسَبِ ذلك، فَيَتكلَّمُ بالكلامِ النُّورانِيِّ الذي يَلِجُ آذانَ السّامِعِينَ، فَتَنفَتِحُ به أقْفَالُ قُلُوبِهم، ويَسْتَجِيبُونَ لِنِدَاءِ حَبِيبِهِم.

- وهذا في حَقِّ مَنْ أَرَادَ اللهُ به السَّعادَةَ، وفَتَحَ له طَرِيقَ الإرَادَةِ، لا في حَقِّ مَنْ طُرِدَ عَنِ البابِ، وسُدِلَ بينه وبينَ قَبُولِ الحَقِّ الحِجابُ؛ لأنّه لا يَزيدُه إلّا نُفُوراً، ولا يُثِيرُ له إلّا كُفُوراً، مع مَعْرِفَتِه بِحَقِّيَّتِه وتَحْقِيقِه.

- رَوَى الحافظُ أبو نُعيمٍ رحمهُ اللهُ عن سعيدِ بنِ عاصمٍ قالَ: كانَ قاضٍ يَجلسُ قريباً مِنْ مجلسِ محمدِ بنِ واسعٍ، فقالَ له يوماً وهو يُوَبِّخُ جُلَساءَهُ: ما لي أَرَى القُلُوبَ لا تَخْشَعُ، وما لي أَرَى العُيُونَ لا تَدْمَعُ، وما لي أَرَى الجُلُودَ لا تَقْشَعِرُّ؟ فقال محمدُ بنُ واسعٍ: يا عبدَ اللهِ ما أَرَى القَوْمَ أُتُوا إلَّا مِنْ قِبَلِكَ، إنّ الذِّكْرَ إذا خَرَجَ مِنَ القَلْبِ وَقَعَ على القَلْبِ.

- والنّاسُ في هذا المعنى ثلاثةٌ:

الأوّلُ: رَجُلٌ تَكَلَّمَ بالحَقِّ مَصْحُوباً بِالهَوَى وهو مِنْ أهلِه، فكَلامُه يَقْرَعُ الأَسْمَاعَ، ولا يَحْصُلُ به الانْتِفَاعُ، ورُبّما ضَرَّ، أو زَادَ في وُجُودِ الضَّرَرِ، كالمجذُومِ يُرِيدُ أن يُدَاوِيَ مِثلَهُ فلا يَزِيدُهُ القُربُ منه إلّا جُذاماً.

الثاني: رجلٌ تكلّمَ بالحقِّ سَلِيماً مِنَ الهَوى، قاصِداً ما هو أَعَمُّ مِنْ وُجُودِ النّفعِ، كالعُلَماءِ والوُعّاظِ ونحوِهم ممَّنْ يَقْصِدُ عُمُومَ الخَلْقِ بخِطابِه، فتأْخُذُ منه القُلوبُ على قَدْرِها لأنّ القَصْدَ إقامَةُ حَقِّ الحَقِّ على وُجُودِ الخَلْقِ، لا عَينُ الهِدايةِ فقط.

الثالثُ: رجلٌ تكلّمَ بالحقِّ قَصْداً للهِدَايَةِ، مع سَلامَةٍ مِنَ الهَوى والغَرَضِ، بل كانَ في كلامِه مَصْحُوباً بالفَناءِ، مَشْحُوناً بالمَدَدِ لِمَنْ قَصَدَه بخِطابِه، فهذا لا يَصِحُّ تَوقُّفُ السَّامِعِ دُونَ العَمَلِ بِكَلامِه، ولا يَتَرَدّدُ في الانْتِفَاعِ بِتَوْجُّهِهِ واصْطِحَابِه.

- يقولُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قالَ: خِيَارُكُمُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ". (صحيح ابن ماجه).

- يقولُ جعفرُ بنُ سليمانَ رحمهُ اللهُ: "كنتُ إذا وَجَدْتُ مِنْ قَلْبِي قَسْوَةً غَدَوْتُ فَنَظَرْتُ إلى وَجْهِ محمدِ بنِ واسعٍ، كانَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ ثَكْلَى". يعني: كأنَّه وَجْهُ ثَكْلَى مِنْ آثارِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، بادِيَةٌ عليه آثارُ الإشْفَاقِ، وآثارُ الخَشْيَةِ ظاهِرَةٌ على وَجْهِهِ، فإذا نَظَرُوا إلى وَجْهِهِ؛ رَقَّتْ قُلُوبُهم قبلَ أنْ يَتَكلّمَ.

وقال بعضُهم: ما إِنْ نَنْظُرَ إلى وَجْهِ محمدِ بنِ واسعٍ حتّى نَنْشَطَ في العِبادَةِ شَهْراً.

- ويقولُ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ رحمهُ اللهُ: "إذا نَظَرْتُ إلى الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ جَدَّدَ لي الحُزْنَ ومَقَتُّ نَفْسِي"، ثم بَكَى رحمهُ الله.

- ورُوِيَ أنَّ النّاسَ كانُوا إذا رأَوْا أيوبَ السِّخْتِيَانِيَّ في السُّوقِ كَبَّرُوا، لِمَخَايِلِ النّورِ على وَجْهِهِ.

- وقال ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ عنْ شَيْخِهِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ: "وكُنَّا إذا اشتَدَّ بنا الخَوفُ، وساءَتْ مِنَّا الظُّنونُ، وضاقَتْ بنا الأرضُ؛ أتَيْناه، فما هو إلّا أنْ نَراهُ ونَسمَعَ كَلامَه؛ فيَذهَبَ ذلكَ كُلُّه، ويَنقَلِبَ انشراحاً وقوّةً ويقيناً وطُمَأْنِينَةً".

115) الْعِبَارَاتُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ.

- المُستمعونَ للحقائقِ وغيرِها عِيالٌ على المُتكلِّمِ فيها، وهي أقواتُهم منه، لأنّهم يَطلبُونَها لقَوَامِ المعانِي كما يطلبونَها لقَوامِ الأبدانِ، ويَنتفِعُونَ بها في نُفوسِهم كما يَنتفِعُونَ بالقُوتِ في أبدانِهم، ويَتفاوتُونَ في الانتفاعِ والتّحصيلِ بها كما يَتفاوتُونَ في أقواتِهم انتفاعاً وتحصيلاً، فينبغِي أن يُراعَى حَقُّهُم في ذلكَ بِتَهذِيبِه وتَرتِيبِه وتَقرِيبِه، حتى تَسُوغَهُ قُلوبُهم وتُدرِكَهُ عُقولُهُم ولا يَنالَ لأحدٍ منهم ما يَضرُّه في حالٍ ولا مآلٍ، ولذلك نُهِيَ عن التّكلُّفِ والتّفَيْهُقِ في الكلامِ، وعنِ التّحَدُّثِ بما لا يُوافقِ حالَ المُسْتَمِعِ ورُتبَتَه.

- لَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ، يَحتمِلُ أن يكونَ المُخاطَبُ المُعَبِّرُ، ويَحتمِلُ أن يكونَ المُعَبَّرُ لَهُ. والخارِجُ في ذلك ثلاثُ تأويلاتٍ:

أحدُها: لِلمُعَبِّرِ، ليسَ لكَ إلّا ما انْتَفَعْتَ به، لا ما انتفعَ به غيرُكَ مِنْ عِبارةٍ أو غيرِه، فلا تَشتَغِلْ بِنَفعِ أحدٍ إلّا بعدَ انتفاعِكَ، كمَا أنّكَ لا تُطعِمُ أحداً حتى تَكفِي نفسَك.

الثاني: لهما، ليسَ لكَ إلّا ما يَليقُ بِكَ فاحرِصْ على تَحصيلِ ما يَليقُ بِغيرِكَ، فلا تُشغِلْ نفسَكَ بما هو عنكَ أجنبِيٌّ، وليسَ لأحدٍ أن يُطْعِمَ أحداً غيرَ طعامِهِ، ولا لأحدٍ أن يَشتَغِلَ بغيرِ لائِقٍ.

الثالثُ: للمعبَّرِ لَهُ، ليس لكَ ممّا سَمِعْتَه إلّا ما انتفعْتَ به فأثَّرَ فيك، لا ما تأثَّرَ به غيرُك، كحالِ السَّلَفِ إذْ كانَ أحدُهُم إذا تعلّمَ المسألَةَ ظهرَ أثَرُها في

خُشوعِه وسَمْتِه وهدْيِهِ، وقد قِيلَ: "مَنْ لم يُفِدْهُ السَّماعُ زِيادَةً في حالِهِ وعَملِه فهو عَلَيْهِ، لا لَهُ".

فواجِبُ المُلْقِي قَصْدُ اللَّائِقِ، وواجِبُ السَّامِعِ تَرَصُّدُ المُوافِقِ، (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) البقرة 60، (يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ). الرعد 4.

فالتَّرْوِيحاتُ للمُتَوجِّهِينَ، والمُرَجِّياتُ للقاصِرِينَ، والمَواعِظُ للمُتَخَلِّفِينَ، والتَّنْبِيهُ للمُنْصِفِينَ، والتَّذْكِيرُ للواقِفِينَ، ولِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، ولِكُلِّ عَمَلٍ رِجَالٌ، كما يَنتفِعُ الرَّضِيعُ باللَّبَنِ ولا يُفِيدُ غيرَه شيئاً، وكما يَنتفِعُ غيرُه باللَّحْمِ وهو أَضَرُّ الأَشْياءِ لَهُ.

- قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: "حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ ورَسولُهُ".

- وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: "ما أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْماً حَدِيثاً لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم إلّا كانَ لِبَعْضِهِم فِتْنَةً".

- وقِيلَ للجُنيدِ رحمهُ اللهُ: يَسأَلُكَ الرَّجُلانِ عَنِ المَسْأَلَةِ الوَاحِدَةِ، فتُجِيبُ هذا بِخِلافِ ما تُجِيبُ هذا. فقالَ: "الجَوابُ على قَدْرِ السَّائِلِ، لا على قَدْرِ المَسَائِلِ".

- وقالَ الإمامُ الغزاليُّ رحمهُ اللهُ: "وقد تَضُرُّ الحَقائقُ بأقْوَامٍ كمَا يَتَضَرَّرُ الجُعْلُ بِالوَرْدِ والْمِسْكِ".

116) لَا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ.

- إذا أَرَدْتَ الحُصُولَ على حَقِيقَةِ الصِّدْقِ معَ اللهِ، لاَ تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلائِقِ، لِسَبَبٍ أو بِلا سَبَبٍ مِنْكَ، إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فإنْ مَنَعُوكَ لا تَذُمُّهُم على ما صَدَرَ، وإنْ أَعْطَوْكَ لا تَراهُم مُعطِينَ لِمَا ظَهَرَ، بل يكونونَ عندكَ في المَنْعِ والعَطاءِ سَواءً، تُثْنِي عليهم إنْ أَحْسَنُوا اتِّباعاً لأمْرِ مَولاكَ، وخُروجاً مِنْ رِقِّ إحْسَانِ غيرِه، وتُسَلِّمُ لهم إنْ مَنَعُوا اتِّكالاً على فَضْلِه وبِرِّهِ، عالِماً بأنَّ ما سَبَقَتْ به القِسْمَةُ لا بُدَّ منه، وما لم يُقْسَمْ لا وُصُولَ لَهُ.

- قالَ الشيخُ أبو محمدٍ المَهدَويُّ رحمهُ اللهُ: "أَجْمَعَ العُلَمَاءُ على أنَّ الحَلالَ المُطْلَقَ ما أُخِذَ مِنْ يَدِ اللهِ بِسُقُوطِ الوَسائِطِ".

ومُرادُه بِسُقُوطِ الوَسائِطِ عَدَمُ اعْتِبارِها، كانتْ مَوجُودةً أو مَعْدُومةً.

- وقالَ يَحيَى بنُ معاذٍ رحمهُ اللهُ: "مَنِ اسْتَفْتَحَ بَابَ المَعَاشِ بِغَيْرِ مَفَاتِيحِ الأَقْدَارِ وُكِلَ إلى المَخْلُوقِينَ".

- وقالَ بِشرُ بنُ الحارثِ الحَافِيُّ رحمهُ اللهُ: الفُقَراءُ ثلاثةٌ:

1- فَقِيرٌ لا يَسأَلُ، وإنْ أُعْطِيَ لا يَأخُذُ، فذلكَ مِنَ الرُّوحانِيِّينَ، إذا سَأَلَ اللهَ أعْطَاهُ، وإنْ أَقْسَمَ على اللهِ أَبَرَّ قَسَمَهُ.

2- وفَقِيرٌ لا يَسْأَلُ، وإنْ أُعْطِيَ قَبِلَ، فذلكَ مِنْ أَوْسَطِ القَوْمِ، عَقْدُهُ التَّوكُّلُ والسُّكُونُ إلى اللهِ، وهو مِمَّنْ تُوضَعُ له المَوَائِدُ في حَضِيرَةِ القُدْسِ.

3- وفَقِيرٌ اعْتَقَدَ الصَّبْرَ ومُوافَقَةَ الوَقْتِ، فإذا طَرَقَتْهُ الحَاجَةُ خَرَجَ إلى عَبِيدِ اللهِ وقَلْبُهُ إلى اللهِ بالسُّؤالِ، فكَفّارَةُ سُؤَالِهِ صِدْقُهُ.

– والمَقْصُودُ أنْ تكونَ مُكتَفِياً باللهِ دُونَ ما سِواهُ، فإنْ كُنتَ كذلكَ فَخُذْ، ولكنْ لَا تَأخُذْ إلّا مَا وَافَقَكَ العِلْمُ على أَخْذِهِ بِشُرُوطِ ذلك، وهو الحَلالُ الطَّيِّبُ المَصْحُوبُ بِالوَرَعِ، وما لم يُوافِقْكَ العِلْمُ على أَخْذِهِ فلا تَأْخُذْهُ.

ومِنْ مُقْتَضى العِلْمِ:

1- حِلِّيَّةُ المَأْخُوذِ في نَفْسِه، بحيثُ يُعْلَمُ أَصْلُه، أو لا يَغْلِبُ على الظَّنِّ حُرمَتُه.

2- أنْ يكونَ القَصْدُ في الأَخْذِ مِنَ اللهِ، والمُعامَلَةُ في الإِعْطَاءِ معَ اللهِ.

3- أنْ يكونَ بِوَجْهٍ يُبِيحُه الشَّارِعُ.

4- السَّلامَةُ مِنَ التُّهَمِ في قَبُولِها وإِعْطائِها، كأنْ تكونَ بِقَصْدِ الرِّشْوَةِ مَثلاً.

117) مِنْ عَلاَمَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ.

– الهَوَى: ثَباتُ دَاعِي النَّفْسِ في مُقابَلَةِ دَاعِي الحَقِّ، ومعناهُ مَيْلُ النَّفْسِ لِمَا تُريدُهُ مِنْ غيرِ مُبالاةٍ بالحُقوقِ الشَّرعيّةِ.

– والمَقْصُودُ أنَّ تَرْكَ الأَهَمِّ والتَّهَمُّمَ بَغَيْرِه مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ مُوَافِقٌ للهَوَى، والهوَى أَبْغَضُ مَعْبُودٍ في الأرضِ.

قالَ اللهُ تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ). القصص 50.
وقال عزَّ مِنْ قائِلٍ: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ). الجاثية 23.
وقالَ جَلَّ وعَلا: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ). ص 26.

– وقد قالَ بعضُهم: "مَنْ كانتِ النَّوافلُ أهَمَّ عليه مِنَ الفَرائِضِ فهو مَخْدُوعٌ".

– وقالَ محمدُ بنُ الوَرْدِ رحمهُ اللهُ: "هَلاكُ النَّاسِ في حَرفَيْنِ: اشْتِغَالٍ بِنافِلَةٍ وتَضْيِيعِ فَرِيضَةٍ، وعَمَلِ الجَوارِحِ بِلا مُواطَأَةِ القَلْبِ".

– فالأَهَمُّ على العَبْدِ إقامَةُ الفَرائِضِ، ثمّ القِيامُ بالسُّنَنِ، ثمّ الإتْيَانُ بما تَيَسّرَ مِنَ النَّوافِلِ.

– فَمِنْ عَلامَةِ اتِّبَاعِ هَوَى النّفسِ المُسارَعَةُ إلى نَوافِلِ الخَيْراتِ مِنْ صِيَامٍ وقِيامٍ ونحوِ ذلكَ، مع التّكاسُلِ عن القِيامِ بِحُقُوقِ الوَاجباتِ التي عليكَ، اتِّبَاعاً لِمَا خَفَّ على النَّفْسِ وتَرْكاً لِمَا ثَقُلَ عليها، فإنَّ حَظَّهَا في النَّوافِلِ أنْ تُذْكَرَ بها عِنْدَ النّاسِ بِخِلَافِ الفَرائِضِ، فَتُحْرَمُ الوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الأُصُولِ.

– وما ذَكَرَهُ هو حَالُ أَكْثَرِ النّاسِ، فَتَرى الواحِدَ منهم لا هِمّةَ له إلّا في النّوافِلِ، وهو مع ذلك غيرُ مُتَدارِكٍ لِمَا فَرّطَ فيه مِنَ الوَاجِباتِ، ولا مُتَحَلّلٌ لِمَا لَزِمَ ذِمَّتَه مِنَ الظَّلامَاتِ والتَّبِعَاتِ.

– قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكّيُّ رحمهُ اللهُ: "فأفْضَلُ شيءٍ للعَبْدِ، مَعْرِفَتُه بِنَفْسِه ووُقُوفُه على حَدِّه، وإحْكَامُه لِحَالَتِه التي أُقِيمَ فيها، وابْتِدَاؤُه بالعَمَلِ بما افْتُرِضَ عليه بعدَ اجْتِنابِه لِمَا نُهِيَ عنه، بِعِلْمٍ يُدَبِّرُهُ في جَمِيعِ ذلك، ووَرَعٍ يَحْجُزُه عنِ الهوَى في ذلك، ولا يَشْتَغِلُ بِطَلَبِ نَفْلٍ حتّى يَفْرُغَ مِنْ فَرْضٍ، لأنَّ النَّفْلَ لا يَصِحُّ إلّا بعدَ حَوْزِ السَّلامَةِ، كما لا يَخْلُصُ الرِّبْحُ للتّاجِرِ إلّا بعدَ حَوْزِ رَأْسِ المَالِ، فمَتَى تَعَذّرَتْ عليه السَّلامةُ كانَ مِنَ الفَضْلِ أَبْعَدَ وإلى الاغْتِرَارِ أقْرَبَ".

– وفي الحديثِ عنِ النبيّ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عنْ رّبّه عزَّ وجلَّ: "ومَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ". رواه البخاري.

- ثمّ النَّاسُ في ذَلِكَ ثَلاثةٌ:

الأوّلُ: رَجُلٌ قَامَ بِالفَرْضِ وحُقُوقِه، فَنَفْلُهُ زِيادَةُ فَضْلٍ وكَمَالٍ، وتَحْصِيلُ فَائِدَةٍ وثَوابٍ.

الثّاني: رَجُلٌ قَامَ بِالفَرْضِ، ولم يَقُمْ بِكُلِّ حُقُوقِه بل بِبَعْضِها، فإنْ كانَ الذي لم يَقُمْ به واجِباً فلا عِبْرَةَ به، وإنْ كانَ الذي تَرَكَهُ مَنْدُوباً فالنّافِلَةُ جابِرَةٌ له.

الثالثُ: رَجُلٌ أَخَلَّ بِوَاجِبه أو بِحَقِّ واجِبه، ولم يَلْتَفِتْ لإصْلَاحِ خَلَلِهِ، فالنّافِلَةُ له هَوىً، وتَحْصِيلُ تَعَبٍ بِلا طائِلٍ.

لأنَّ رَبَّ الدَّيْنِ لا يَقْبَلُ الهَدِيّةَ، والـمُكاتِبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه شيءٌ، ولا يَجُوزُ عِتْقُ مَنْ أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمالِهِ، ولا تَبَرُّعٌ لِمَنْ لا رَأْسَ مَالٍ له.

وفي الأَثَرِ الـمَوْقُوفِ على أبي بَكْرٍ رضى الله عنه: "إنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ نافِلَةً حتّى تُؤَدَّى الفَرِيضةُ".

118) قَيَّدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ كَيْ لَا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةٌ فِي الاخْتِيَارِ.

– يعني؛ أنّه سبحانَهُ أنْعَمَ عليكَ بِنِعْمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

الأُولى: أنَّه قَيَّدَ لكَ الطّاعاتِ الواجِبَةِ عليكَ بأَعْيَانِ الأَوْقَاتِ المُعَيَّنَةِ لِوُقُوعِها فيها، ولم يُطْلِقْ وقْتَها كَيْ لا يَمْنَعَكَ عنها وجُودُ التَّسْوِيفِ منكَ فيَفُوتُكَ ثَوابُها.

والثّانيةُ: أنَّه وَسَّعَ عليكَ الوَقْتَ رَأْفَةً بكَ، ولم يُضَيِّقْهُ عليك كيْ تبقَى حِصَّةُ الاخْتِيَارِ، فتَأْتِي بالطّاعَةِ في حَالِ سُكُونٍ وتَمَهُّلٍ في أوّلِ الوَقْتِ أو في وَسَطِه أو في آخِرِه.

– قَيَّدَ اللهُ سبحانَهُ الطّاعَاتِ وَاجِبَةً كانتْ أو مَنْدُوبَةً بأَزْمِنَةٍ مُقَدّرَةٍ للعِبادَةِ شَرْعاً، وتَقْيِيدُهَا بها هو أنَّها مَطْلُوبَةٌ فيها، لا قَبْلَها ولا بَعْدَها، لأنَّها بَعْدَها تَفْوِيتٌ، وقَبْلَها وَضْعٌ للشيءِ في غيرِ مَحَلِّه وإتْيَانٌ به في غيرِ إبَّانِه.

– وفي نَفْيِ التّسويفِ وسَبَبِه نِعَمٌ ثلاثةٌ:

أوّلُها: أنَّ مُبادَرَةَ الأمْرِ تُوجِبُ الرِّضا مِنَ الحَقِّ سبحانَه، ولا أَكْبَرَ نِعْمَةً منه؛ أوّلُ الوَقْتِ رِضْوَانُ اللهِ.

الثّاني: أنَّ العَمَلَ سَبَبُ بُلُوغِ الأمَلِ ثَواباً وغيرَه، فالكَرامَةُ في تَيْسِيرِهِ مِنْ غيرِ إخْلَالٍ ولا مَشَقّةٍ كَرامَةٌ في مُسَبَّبِه.

الثّالثُ: أنَّ القِيَامَ بِحَقِّ الوَقْتِ مُفَرِّغٌ لِمَا بعدَه، والتّسويفَ مُفَوِّتٌ له فضلاً عمّا بعدَه، فهو نَقْصٌ كُلُّه، ونَفْيُه كَمالٌ في الجُمْلَةِ.

- وإنّما كانَ ذلكَ التَّقْييدُ بالأَوْقَاتِ لِثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُها: لِئَلّا تَأْخُذَهُ بِالشَّرَهِ فَيُدْرِكَكَ المَلَلُ المَانِعُ مِنَ التَّشْمِيرِ.

الثّاني: لِيَكُونَ أَتَمَّ في حُضُورِكَ مع مَوْلاكَ، أَوّلاً بِمُراقَبَةِ الوَقْتِ، وثَانِياً بِاسْتِجْمَاعِ النَّفْسِ لِلْعِبَادَةِ.

الثّالِثُ: لِئلّا تَتَشَوّشَ بوُجُوهِ التّشوُّفِ في عُمُومِ الأَوْقَاتِ، وتَنْضَبِطَ للتَّوَجُّهِ بِوَقْتٍ وأَمَدٍ، فَيَكُونَ أَعْوَنَ بِخُلُوِّهِ عَمّا عَدَا ما هو لَهُ.

- وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةٌ فِي الاخْتِيَارِ، وتَوْسِيعُ الوَقْتِ نِسْبِيٌّ، فالعُمُرُ وقتٌ لاسْتِدْرَاكِ الفائِتِ بالتَّوْبَةِ والإنَابَةِ، "إنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ ما لم يُغَرْغِرْ"، وبابُ التّوبَةِ مَفْتُوحٌ ما دَامَ في الجَسَدِ الرُّوحُ، وكذلكَ جَمِيعُ الفَوائِتِ العُمُرُ وَقْتٌ لاسْتِدْراكِهَا على رُتَبِها، وإنْ كانَتْ حُقُوقُ الوَقْتِ فائِتَةً فالحُقُوقُ التي في الوَقْتِ لا تَفُوتُ. وإنّما وَسَّعَ عليكَ الوقتَ لثلاثةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُها: إِظْهَارُ كَرامَتِه عليكَ بِظُهُورِ النِّسْبَةِ في اخْتِيَارِكَ، وإلّا فَمَنْ أنتَ حتّى يَكُونَ لكَ اخْتِيارٌ أَوِ اعْتِبَارٌ؟

الثاني: راحَةُ النَّفْسِ بابْتِهَاجِهَا باتِّسَاعِ الوَقْتِ، وانْتِفَاءُ الحَرَجِ بوُجُودِ التَّوْسِعَةِ.

الثّالثُ: ظُهُورُ الحُجَّةِ على أَهْلِ الكَسَلِ، وتَقْرِيبُ المَحَجَّةِ بِدَفْعِ سَبَبِ المَشَقَّةِ والمَلَلِ، مع التَّمْكِينِ مِنْ إحْكَامِ وَجْهِ العَمَلِ، لأنَّ الضّيقَ لا يَقُومُ معه شيءٌ في ذلك. ولو ضَيَّقَ عليكَ لكانَ يُشْبِهُ العُذْرَ، ولا عُذْرَ، ولو انْتَفَى التَّوْقِيتُ لكانَ إِعَانَةً على الإهْمَالِ.

119) عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ الإِيجَابِ، "عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقادُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ".

- لَمَّا عَلِمَ الحقُّ سبحانَه أنّ مَنْ نَهَضَ لِمُعامَلتِه دونَ تَنبيهٍ ولا تَأْكِيدٍ مِنَ العِبَادِ قَليلٌ، وأنّ أكثرَ الخَلْقِ إنّما يَتّبِعُونَ الهوَى أو يَشتغِلُونَ بِدُنْيَا ونَحْوِها، عَزَمَ لهم بالإِيجابِ لِيَكُونَ مَحَجّةً لِلْعَاقِلِ وحُجَّةً على الغافِلِ، فَلَزِمَهُم ذلك طَوْقَ أعْنَاقِهِم كالسَّلاسِلِ، سَاقَهُم إليه بِسَلاسِلِ الإِيجابِ.

- والقِلَّةُ هُنا وَاقِعَةٌ على العِبَادِ في النُّهوضِ، لا على النُّهوضِ فقط، فالمعنى أنّ القَلِيلَ مِنَ العِبَادِ هو الذي يَنهَضُ إلى مُعامَلَتِه دُونَ سَبَبٍ يَقْتَضِيه وجُودُ نفْسِهِ، وهُمُ الأَحْرَارُ الذينَ لا شُعُورَ لهم بِنُفُوسِهِم معه.

- واسْتَعَارَ السَّلاسِلَ للإِيجابِ؛ لِمُنَاسَبَتِه لها مِنْ وجُوهٍ: عَدَمُ الانْفِكَاكِ بِكُلِّ حَالٍ، وكَوْنُها قائِدَةٌ أو سَائِقَةٌ لِمَا يُرادُ كَرْهاً لِمَنْ أَبَاهُ طَوْعاً، وتَوْصِيلُهَا لِعَيْنِ المُرَادِ، لا مِنْ حيثُ تَعلَّقَتْ به.

- والنّاسُ في ذلك ثلاثةٌ:

1- رَجُلٌ أنهَضَتْهُ للعبادةِ والخِدمةِ مَحْضُ العُبوديّةِ وحَقُّ الخِدْمَةِ، وهذا حُرٌّ كامِلٌ.

2- ورَجُلٌ أَنْهَضَهُ لها حُسْنُهَا أو حُسْنُ مَنْ نُسِبَتْ له وهو مُعَامِلٌ بها، وهذا مُرِيدٌ طالِبٌ أو عارِفُ مُستبْشِرٌ.

3- ورَجُلٌ أنهضَهُ إليها وُجُودُ الثّوابِ والعِقابِ، وهذا مِنْ عَوامِّ المؤمنينَ وكافّةِ أصحابِ اليَمِينِ.

فأمّا مَنْ أخْلَدَ إلى الأرضِ واتّبَعَ هَواهُ، وآثَرَ دُنْيَاهُ وخالَفَ مَوْلاهُ فلا حَدِيثَ عليه.

- قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ في (لَطائف المِنَنِ): "فَسَحَ اللهُ على الضُّعَفَاءِ بالاكْتِفَاءِ بالوَاجِبَاتِ، وفَتَحَ لِلأَقْوِيَاءِ بَابَ نَوافِلِ الخَيْرَاتِ، فَعِبَادٌ أَنْهَضَهُم إلى القِيَامِ بالواجِبَاتِ خَوْفُ عُقُوبَتِهِ، فقامُوا بها تَخْلِيصاً لأنْفُسِهِم مِنْ وُجُودِ الهَلَكَةِ ومُلاقاةِ العُقُوبَةِ، فما قامُوا للهِ شَوْقاً له ولا طَلَباً لرُؤيَتِه، فلو قُوبِلُوا بالمُحَاقَقَةِ لم يُقْبَلْ منهم قِيامُهُم هذا، فإنّهم لم يَنْهَضُوا إلّا لِأَجْلِ نُفُوسِهم، ولم يَطْلُبُوا إلّا حُظُوظَهُم، فَقامُوا بواجِبَاتِ اللهِ مَجْرُورِينَ بِسَلاسِلِ الإيجَابِ".

- ثمّ الطَّاعَةُ والمُعَامَلَةُ جُنَّةٌ في الحَالِ، ومُوَصِّلَةٌ إلى الجنّةِ في المَآلِ، والحَقُّ تَعالَى غَنِيٌّ عَنِ العِبَادِ، وهذا ما أَشارَ إليهِ إذْ قالَ: "عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقادُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ"، يعنِي أَظْهَرَ العَجَبَ منهم، وذلك أنَّ الجنّةَ مَحْبُوبَةٌ بالطَّبْعِ، جَمِيلَةُ الوَصْفِ، مَوْضِعُ المَنافِعِ والفَوائِدِ، والتَّراخِي عَنْ مِثْلِ ذلكَ مِنَ العَجَبِ العُجابِ.

- ووقَّعَ ابنُ عطاءِ اللهِ بحديثِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في الأَسْرَى، وأَخَذَهُ بِالأَمْرِ الأَعَمِّ، فلذلكَ صَحَّ أنْ يَكُونَ واقِعاً على ما ذُكِرَ.

- فِي صَحِيحِ البخاريِّ قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ".

- وفِي رِوايةٍ أُخْرَى: اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ يُقَادُونَ بِالسَّلَاسِلِ إِلَى الْجَنَّةِ"، وَهُمْ كَارِهُونَ". (الألباني في السلسلة الصحيحة)

- وعن أبي الطُّفَيلِ قالَ: ضَحِكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى اسْتَغْرَقَ ضَحِكًا، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّا ضَحِكْتُ؟ قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ مِمَّا ضَحِكْتَ؟ قَالَ: "رَأَيْتُ نَاساً مِنْ أُمَّتِي يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ، مَا أَكْرَهَهَا إِلَيْهِمْ! قُلْنَا: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: قَوْمٌ مِنَ العَجَمِ يَسْبِيهُمُ المُهَاجِرُونَ فَيُدْخِلُوهُمْ فِي الإِسْلَامِ". (الألباني في السلسلة الصحيحة).

- المعنى: يُؤخَذُونَ أُسَارَى كَرْهاً وقَهْراً فِي السَّلاسِلِ والقُيُودِ فِي السَّبْيِ مَثَلاً، فَيَدْخُلونَ فِي دَارِ الإسلامِ، ويَكُونُونَ مع المسلمينَ، لأنَّ السَّبْيَ يُوَزَّعُ فيكونُ هذا مع هذا البَيْتِ، وهذا في هذا البَيْتِ مِنْ بُيُوتِ المُسْلِمِينَ، ثُمّ يرزُقُهمُ اللهُ الإيمانَ فَيُسْلِمُونَ، ويَمُوتُونَ على الإسلامِ، ويَدْخُلُونَ الجنّةَ، فهذا مَعْنَى يُقادُونَ إلى الجنّةِ بالسَّلاسِلِ.

قالَ ابنُ الجَوْزِيِّ رحمهُ اللهُ: مَعْنَاهُ أُسِرُوا وقُيِّدُوا، فَلَمّا عَرَفُوا صِحّةَ الإسلامِ دَخَلُوهُ طَوْعاً، فَدَخَلُوا الجنّةَ، فكانَ الإِكْرَاهُ على الأَسْرِ والقَيْدِ هو السَّبَبُ الأَوّلُ، لكنْ بعدَ ذلكَ صَارَ اقْتِنَاعاً ودُخُولاً عَنْ طَوَاعِيَةٍ فِي الإسلامِ.

120) أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلاَّ دُخُولَ جَنَّتِهِ.

– إِنّكَ إذا تأمَّلْتَ رَأَيْتَ أنّه تعالى أَوْجَبَ عليكَ وُجُودَ طاعَتِه في ظاهِرِ الأمرِ، وما أَوْجَبَ عليكَ بالحَقِيقَةِ إلّا دُخُولَ جَنَّتِهِ، إذِ الأمْرُ آيِلٌ إليها، والأسْبَابُ عَدَمِيَّةٌ.

– إذا ثَبَتَ أنَّ الحَقَّ سُبْحَانَه غَنِيٌّ عنكَ بِكُلِّ حَالٍ، وأنّه لا تَنفَعُهُ طاعَتُكَ ولا تَضُرُّهُ مَعصِيَتُكَ؛ إذْ لا يَزِيدُ في عِزِّهِ إقْبالُ مَنْ أقْبَلَ عليه، ولا يُنْقِصُ مِنْ عِزِّهِ إدْبَارُ مَنْ أدْبَرَ عنه، ظَهَرَ أنه إنّما أمَرَكَ ونَهَاكَ لِمَا يَعُودُ إليكَ مِنْ دُخُولِ الجنَّةِ، ونحوِها ممَّا هو قَبْلَ دُخُولِها وذلك مِنْ مَعانِي الجنّةِ، ومن ذلك: ما تَجِدُه مِنْ لَذَّةِ الطّاعاتِ وحَلاوَةِ المُناجاةِ الذي يَغِيبُ فيه نَعِيمُ الجنَّةِ، وكذلكَ ما يَسْرِي لكَ مِنْ رَوْحِ القُرْبِ ونَسَماتِ الأُنْسِ مِنِ اعْتِنَاءِ الحَقّ بكَ؛ إذْ وَفَّقَكَ وقَرَّبَكَ وهَدَاكَ لِمَا هو مَحْبُوبٌ عندَه، وكذلكَ ما يَقَعُ لكَ مِنَ التَّعَزُّزِ والعِزِّ بِطَاعَتِه بَدَلاً مِنَ الذُّلِّ والتَّذَلُّلِ بِمَعْصِيَتِه.

– إنّما أوْجَبَ الحَقُّ الأعْمَالَ عليهِم لِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِم مِنَ مَصَالِحِهِمْ، وهو دُخُولُ الجنّةِ لا لِيَحْصُلَ مِنْهُم على نَفْعٍ وهو الغَنِيُّ عَنْ عِبَادِهِ، وهذا تَصْرِيحٌ بما عُلِمَ قَبْلَه، لأنَّ حاصِلَهُ أنّه تعالَى إنّما أوْجَبَ على عِبَادِه طاعَتِه لِقِلَّةِ نُهُوضِهِم إليها، فَساقَهُم إليها بِسَلَاسِلِ الإيجابِ، وسَوْقُهُم إليها بذلكَ إنّما هو لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إليهم، وهو دُخُولُ الجنّةِ، فيَؤُولُ المعنى إلى أنَّ سَوْقَهُم إلى طاعَتِه، وهو إيجابُهَا عليهِمْ سَوْقٌ إلى الجنّةِ، فلمْ يُوجِبْ عليهِمْ إلّا دُخُولها.

- والناسُ في هذا الأمْرِ ثلاثةٌ:

الأوّلُ: رَجُلٌ قامَ بالواجِبِ والمَنْدُوبِ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِه على بِسَاطِ الحُرِّيَّةِ والعُبُودِيّةِ، أو تَصْدِيقِ وَعْدِ الرُّبُوبِيّةِ، وهذا مِنَ الفائِزِينَ.

الثاني: رَجُلٌ قَامَ بالوَاجِبِ على حَدِّهِ دُونَ زَائِدٍ، مِنْ غيرِ تَفْرِيطٍ ولا تَقْصِيرٍ، وهذا مِنَ المُفْلِحِينَ. للحديثِ في البُخارِيِّ، أنَّ أعْرَابِيًّا جَاءَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ أخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقالَ: "الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ شَيْئاً"، فَقالَ: أخْبِرْنِي ما فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقالَ: "شَهرَ رَمضَانَ إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ شَيْئاً"، فَقالَ: أخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الإسْلَامِ، قَالَ: والَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئاً، ولَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ إنْ صَدَقَ". وجاءَ في لَفْظٍ آخَرَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وهو يَقُولُ: واللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ولَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ".

الثالثُ: رَجُلٌ غَلَبَهُ هَوَاهُ فَقَصَّرَ في الحُقُوقِ وانْهَمَكَ في الغَفْلَةِ، وهذا مِنَ الهَالِكِينَ إنْ لم تَتَدَارَكْهُ العِنَايَةُ الرَّبّانِيّةُ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ أو مَغْفِرَةٍ لاحِقَةٍ، لكنْ حَقُّهُ أَلَّا يَيْأَسَ مِنْ مَوْلَاهُ، ولَا يَسْتَغْرِبَ تَنَصُّلَهُ مِنْ هَواهُ، كما نَبَّهَ عليه ابنُ عَطاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ في الحِكْمَةِ التي تَلِيهَا.

121) مَنِ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ، فَقَدِ اسْتَعْجَزَ القُدْرَةَ الإِلَهِيَّةَ {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً}.

– أي مَنِ اسْتَغْرَبَ أنْ يُخَلِّصَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ التي أَسَرَتْهُ، وأنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وجُودِ غَفْلَتِهِ التي اسْتَهْوَتْهُ، فَقَدِ اسْتَعْجَزَ: أي نَسَبَ القُدْرَةَ الإِلَهِيَّةَ إلى العَجْزِ، واللهُ تعالَى مُتَّصِفٌ بِالاقْتِدَارِ على كُلِّ شيءٍ، ومنه الإِنْقَاذُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، والإِخْرَاجُ مِنَ الغَفَلَاتِ، كما قالَ سُبحانَه: (وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً). الكهف 45.

– فَمَنِ اسْتَرَقَّتْهُ الشَّهْوَةُ واسْتَوْلَتْ عليه الغَفْلَةُ فلا يَنبَغِي له أنْ يَسْتَغْرِبَ أنْ يُنقِذَهُ اللهُ مِنْ أَسْرِ شَهْوَتِهِ وأنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ لِمَا يُشاهِدُ مِنِ اسْتِحْكَامِ ذلكَ فيهِ، فَإِنَّ في ذلكَ نِسْبَةُ العَجْزِ إلى القُدْرَةِ الإلهيّةِ، واللهُ تعالَى القَادِرُ على كُلِّ شيءٍ، ولا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، وليَعْلَمِ العَبْدُ أنَّ قُلُوبَ العِبَادِ ونَواصِيَهُم بِيَدِهِ فلا يَقْنَطُ ولا يَيْأَسُ، وليَقْصِدْ بابَ مَوْلاهُ بالذِّلَّةِ والانْكِسَارِ والافْتِقَارِ فَعَساهُ يُسَهِّلُ عليه ما اسْتَصْعَبَهُ، ويُظْهِرُ فيه ما اسْتَغْرَبَهُ، وما ذلكَ على اللهِ بِعَزِيزٍ، وليَعْتَبِرْ هذا المعنى بالحِكاياتِ التي تُرْوَى عَنِ الصَّالِحِينَ الذين تَقَدَّمَتْ لهم في بِدَاياتِهِم الزَّلّاتُ، ووَقَعَتْ مِنْهُم قَبْلَ تَوْبَتِهِم الهَفَواتُ، فَتَدارَكَهُمُ اللهُ تَعالَى بِلُطْفِهِ، واسْتَنْقَذَهُمْ بِجُودِه وعَطْفِه، فأَصْلَحَ أعْمَالَهُم، وصَفَّى أحْوَالَهُم، وأبْدَلَ سَيِّئاتِهِم حَسَناتٍ، ورَفَعَهُم مِنْ أَسْفَلِ سافِلِينَ إلى أَعْلَى الدَّرَجاتِ، كُلُّ ذلكَ في أَقْرَبِ زَمَانٍ وأَقْصَرِ مُدَّةٍ وأَوَانٍ، والحِكاياتُ في هذا المَعْنَى عَنِ الشُّيُوخِ مِثْلِ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ ومالكِ بنِ دينارٍ وبشرٍ الحافِيّ وغيرِهِم؛ مَعرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ.

– ومِنْ أَعْجَبِ الحِكايَاتِ في هذا المعنى ما جاءَ في الحديثِ كمَا في الصَّحِيحَيْنِ عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قالَ: "كانَ فِيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عن أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ فَدُلَّ علَى راهِبٍ، فأتاهُ فقالَ: إنَّه قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهلْ له مِن تَوْبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ به مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عن أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ فَدُلَّ علَى رَجُلٍ عالِمٍ، فقالَ: إنَّه قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهلْ له مِن تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَن يَحُولُ بيْنَهُ وبيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إلى أرْضِ كَذا وكَذا، فإنَّ بها أُناسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ معهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ، فإنَّها أرْضُ سَوْءٍ، فانْطَلَقَ حتَّى إذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أتاهُ المَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فقالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاءَ تائِبًا مُقْبِلًا بقَلْبِهِ إلى اللهِ، وقالَتْ مَلائِكَةُ العَذابِ: إنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فأتاهُمْ مَلَكٌ في صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بيْنَهُمْ، فقالَ: قِيسُوا ما بيْنَ الأرْضَيْنِ، فَإِلَى أيَّتِهِما كانَ أدْنَى فَهو له، فَقاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أدْنَى إلى الأرْضِ الَّتي أرادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ".

قالَ قَتادَةُ: فقالَ الحَسَنُ: "ذُكِرَ لَنا، أنَّه لَمَّا أتاهُ المَوْتُ نَأَى بصَدْرِهِ".

– قال عيسى بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ: "كانَ يُقالُ ما وَفَّقَ اللهُ عبداً لِعَمَلٍ إلّا وهو يُريدُ أنْ يَقبَلَهُ منه، ولا وَفَّقَ اللهُ عبداً لِنُزُوعٍ عن ذَنْبٍ إلّا وهو يُريدُ أنْ يَغفِرَهُ له".

- وذكرَ ابنُ الصفّارِ رحمهُ اللهُ عن مُغِيثِ بْنِ سُمَيٍّ رحمهُ اللهُ قالَ: "كانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إسرائيلَ يَعْمَلُ بِالخَطايا، فبينما هو يَسِيرُ ذاتَ يومٍ ذَكَرَ ما سَلَفَ مِنْ عَمَلِهِ، فقالَ: اللهمَّ غُفرانَكَ، فَمَاتَ على ذلكَ الحَالِ، فَغُفِرَ لَهُ".

- وذَكَرَ أيضاً عَنْ رَجُلٍ مِنَ العُلَماءِ أنَّه رَأَى فِي مَنامِه شَيْخاً وجَماعةً مِنَ الشُّعَراءِ قدْ أَحْدَقُوا به يَسْأَلُونَه، قالَ: فَقُلْتُ له أَيُّها الشَّيخُ أخْبِرْنِي بِأَحْكَمِ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ، فأنشَدَني:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ *** فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ اِبْعَدِ

قال: فواللهِ لقد نَفَعَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا البَيْتِ، ما ذَكَرْتُه بعدَ ذلكَ عندَ شَهْوَةٍ أو خَطِيئَةٍ إلّا ارْتَدَعْتُ عنها، وأرْجُو أنْ لَا يُفارِقَنِي الانْتِفَاعُ بهِ ما بَقِيتُ إنْ شاءَ اللهُ تَعالَى.

- والمقصودُ أنّ مَنْ فاتَتْهُ الاسْتِقامَةُ بِطَرِيقِ العَمَلِ، فلا يَنْبَغِي أنْ تَفُوتَهُ بِطَرِيقِ اليَقِينِ وإنْ خَلَا عَنْ فائِدَتِه وهو العَمَلُ، فإنّ ذلكَ يَرُدُّهُ إلى مَوْلاهُ مِنْ وُجُوهٍ ثلاثةٍ: أحدُها: عِلمُهُ بكرمِ مولاهُ الذي لا يَتوَقَّفُ على عِلّةٍ ولا سَبَبٍ، ومنه يَنبعِثُ الرجاءُ الحاملُ على نَفْيِ اليأسِ، الباعثُ على الانحياشِ إلى جَنابِ الحقِّ.

الثاني: عِلْمُهُ باتّساعِ عِلْمِ اللهِ؛ إذْ قدْ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ ما تَخْفَى أسْبَابُه في الحَالِ، ولا تَظْهَرُ إلّا فِي المَآلِ، وذلك مُستفادٌ من حِكاياتِ أهلِ البِداياتِ الذين سَبَقَتْ لهمُ العِنَايةُ فاستدرَكَتْهُمُ الكرامةُ بالرُّجعى إلى مولاهُم، كابنِ أدهمَ وبِشرٍ الحافي ومالكِ بنِ دِينارٍ والفُضَيْلِ وغيرِهم.

الثالثُ: عِلْمُهُ باتِّساعِ قُدْرَةِ مَوْلاهُ وأنّها لا تَتوقَّفُ على أمْرٍ يُرِيدُه الحَقُّ سُبحانَه، إذْ (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ). يس 82.

- وإنّما نَهَى عَنِ الوُقُوفِ مع هذا الاسْتِغْرابِ لِوُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنّه مِفْتَاحُ اليَأْسِ مِنْ رَحمةِ اللهِ، (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) يوسف 87، (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) الحجر 56.

الثاني: ما في ذلك مِنْ سُوءِ الظّنّ باللهِ، والاعْتِمادِ على عَمَلِكَ، ورُجُوعِكَ إلى نَفْسِكَ في القُرْبِ مِنْ مَوْلاكَ بِنَظَرِكَ إليها دُونَه.

الثالثُ: ما في ذلك مِنْ مُفارَقَةِ أدَبِ الوَقْتِ، واقْتِضَاءِ هذه الحَالِ لِلْبُعْدِ عَنِ التّوبةِ ونحوِها مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الحَالِ بزِيَادَةِ الجُرْأَةِ، فإنّ مَنِ انْقَطَعَ يَأْسُهُ عَنِ التّوبةِ لم يَتَوَقَّفْ في مُلابَسَةِ الحَوْبَةِ.

- يقولُ الشيخُ أبو محمدٍ بنُ أبي زيدٍ رحمهُ اللهُ: "ولْيَلْجَأْ إلى اللهِ فيما عَسُرَ عليه مِنْ قِيادِ نَفْسِه ومُحاوَلةِ أمْرِه، مُوقِناً أنّه المَالِكُ لِصَلاحِ شَأْنِه وتَوْفِيقِه وتَسْدِيدِه، لا يُفارِقُ ذلك على ما كانَ مِنْ حَسَنٍ أو قَبِيحٍ، ولا يَيْأَسْ مِنْ رحمةِ اللهِ".

يقولُ الشيخُ زَرُّوق في شَرْحِه لهذا الكلامِ: "يعني أنّ العبدَ يَتَعَيّنُ عليه أنْ يَقِفَ بِبَابِ اللهِ على كُلِّ حالٍ مِنْ أحوالِه، ولا يَسْتَبْعِدَ صَلَاحَه مع قَبِيحِ ما هو عليه ومُتّصِفٌ به مِنْ قَبائحِ المعاصِي والشّهَواتِ ونحوِها، وكلامُ الشّيخِ هنا واضِحٌ، وهو لِكُلِّ مُؤْمِنٍ صَالحاً كانَ أو طَالحاً".

- قالَ الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ: ومَنْ أَخْلَدَ إلى أَرْضِ الشَّهَواتِ، وارْتَكَبَ طُرُقَ الشُّبُهاتِ، ولم يَتورَّعْ عَنِ الأَقْوَاتِ، ورَكَنَ إلى الرَّاحَاتِ والمَأْلُوفاتِ مِنَ العَادَاتِ، واتَّبَعَ الهوَى، ولم تُساعِدْهُ نَفْسُهُ على التَّجلِّي، وغُلِبَ على التَّخَلِّي، فَعُبُودِيَّتُه عَنْ أمرَيْنِ:

أحدُهما: مَعرِفَةُ النِّعمةِ مِنَ اللهِ فيما وَهَبَ له مِنَ الإيمانِ والتّوحيدِ، إذ حبَّبَهُ في قلبِهِ وزَيَّنَهُ، وكَرَّهَ إليه الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، فيقولُ: يا رَبِّ أنعمْتَ عَلَيَّ بهذا وسَمَّيْتَنِي رَاشِداً، فكيفَ أَيْأَسُ مِنكَ وأنتَ تَمُدُّني بفضلِكَ وإنْ كُنتُ مُتَخلِّفاً، فأَرجوكَ أنْ تقبَلَني وإنْ كنتُ زَائِفاً.

والأمرُ الثاني: اللَّجأُ والافتقارُ إلى اللهِ دائماً، ويقولُ: يا رَبِّ سَلِّمْ ونَجِّني وأنقِذْنِي. فلا طَريقَ لِمَنْ غَلَبَتْ عليه الأَقْدَارُ، وقَطَعَتْهُ عَنِ العُبُودِيَّةِ المَحْضَةِ للهِ تَعالَى مع عَدَمِ التَّفَكُّرِ والاعْتِبَارِ، إلَّا هذانِ الأَمْرانِ، فإنْ ضَيَّعَهُما فالشَّقْوَةُ حَاصِلَةٌ والبُعْدُ لَازِمٌ، والعِيَاذُ بِاللهِ.

قالَ الشيخُ زَرُّوقٌ مُعَلِّقاً على هذا الكَلامِ: "وهو عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أنْ يُكْتَبَ بِمَاءِ اليَاقُوتِ لِمُوافَقَتِهِ أَحْوَالَ أَمْثَالِنَا، ودَلَالَتِهِ على مَا يُصْلِحُنا، وَفَّقَنا اللهُ لِلْعَمَلِ بهِ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ".

بعضُ قِصَصِ التّائبِينَ مِنْ (كتاب التّوّابِينَ) لابنِ قُدامَةَ المقْدسِيّ رحمهُ اللهُ:

– رُوِيَ أنّه لَحِقَ بني إسرائيلَ قَحْطٌ على عَهْدِ موسى عليه السلامُ، فقالوا: يا كَلِيمَ اللهِ، ادْعُ لنا رَبَّكَ أنْ يَسْقِيَنا الغَيْثَ، فَقامَ مَعَهُم، وخَرَجُوا إلى الصَّحْراءِ وهم سَبْعُونَ ألفاً ويَزِيدُونَ، فَدَعا موسى واسْتَغاثَ، فما زَادَتِ السَّماءُ إلّا تَقَشُّعاً، وأَوْحَى اللهُ إليه: أنَّ فِيكُم عَبْدٌ يُبارِزُنِي بالمعاصِي منذ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَنَادِ في النّاسِ حتّى يَخرجَ مِنْ بينِ أَظْهُرِكُم، فبِهِ مَنَعْتُكُمْ، فقامَ مُنادِياً يُنادِي على العاصِي، فَنَظَرَ العَبْدُ العاصِي فلمْ يَرَ أحداً خَرجَ، فَعَلِمَ أنّه المطلوبُ، فأدْخَلَ رَأسَه في ثِيابِه نادماً على فِعالِه، وقال: إلهي وسَيِّدِي، عَصَيْتُكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وأمْهَلْتَنِي، وقد أَتَيْتُكَ طائِعاً فَاقْبَلْنِي، فلمْ يَسْتَتِمَّ الكَلامَ حتّى أَمْطَرَتْ كَأفْوَاهِ القِرَبِ. فقالَ موسى: إلهي وسَيّدِي، بماذا سَقَيْتَنا وما خَرَجَ مِنْ بينِ أظهُرِنا أحَدٌ؟ فقال: يا موسى، سَقَيْتُكُم بالذي به مَنَعْتُكُم. فقال موسى: إلهي، أَرِنِي هذا العَبْدَ، فقالَ: يا موسى، إنِّي لم أَفْضَحْهُ وهو يَعْصِينِي، أَأَفْضَحُهُ وهو يُطِيعُنِي؟

– قال إبراهيمُ بنُ بشارٍ خادمُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ: قلتُ: يا أبا إسحاقَ، كيفَ كانَ أوائلُ أمرِكَ؟ قال: "كانَ أبي مِنْ أهلِ بلْخَ وكان مِنْ مُلوكِ خُراسانَ، وحُبِّبَ إلينا الصّيْدُ، فخرجْتُ راكِباً فَرَسِي، فبينما أنا كذلكَ، ثارَ أَرْنَبٌ أو ثَعْلَبٌ، فَحَرّكْتُ فَرَسِي فَسَمِعْتُ نِدَاءً مِنْ وَرائِي: ليسَ لِذا خُلِقْتَ، ولا بِذا أُمِرْتَ، فوقَفْتُ أنْظُرُ يَمْنَةً ويَسْرَةً، فلمْ أرَ أحداً، فقلتُ: لَعنَ اللهُ إبليسَ، ثم حرّكْتُ فَرَسِي فأَسْمَعُ نِدَاءً أجْهَرَ مِنْ ذلك، يا إبراهيمُ ليسَ لِذا خُلِقْتَ، ولا بِذا أُمِرْتَ، فوقَفْتُ

أنْظُرُ يمنةً ويَسرةً، فلا أرى أحَداً، فقلتُ: لَعنَ اللهُ إبليسَ، ثم حَرَّكْتُ فَرَسِي فأسْمَعُ نِدَاءً مِنْ قَرْبُوسِ سَرْجِي: يا إبراهيمُ ليسَ لِذا خُلِقْتَ، ولا بِذا أُمِرْتَ، فوقَفْتُ. فقلتُ: أنْبَهْتَ، أَنْبَهْتَ، جاءَنِي نَذِيرٌ مِنْ رَبِّ العالمينَ، واللهِ لا عَصَيْتُ اللهَ بعدَ يومِي هذا ما عَصَمَنِي رَبِّي. فرَجَعتُ إلى أهلِي، ثمّ جِئْتُ إلى أحَدِ رُعاةِ أبي، فأخَذْتُ منه جُبَّةً وكِساءً، وأَلْقَيْتُ ثِيابِي إليه، ثمّ أقبلتُ إلى العِراقِ، أرضٌ تَرفعُنِي، وأرضٌ تَضَعُنِي، حتّى وَصَلْتُ إلى العِراقِ، فَعَمِلْتُ بها أياماً، فلمْ يَصْفُ لِي منها -يعني الحلال- فسَأَلْتُ بعضَ المشايخِ، فقال لي: إذا أَرَدْتَ الحَلالَ فعليكَ ببلادِ الشامِ، فَصِرْتُ إلى بِلَادِ الشامِ".

- ورُوِيَ أنَّ عبدَ الباقِي بنَ قانِعٍ كانَ مع المهدِيِّ في دُنيا واسعةٍ، فشرِبَ ذاتَ يومٍ على لَهْوٍ وسَمَاعٍ، فلمْ يُصَلِّ الظُّهْرَ والعَصْرَ والمغْرِبَ، وفي كُلِّ ذلك تُنَبِّهُهُ جارِيَةٌ حَظِيَّةٌ عندَه. فلمَّا جازَ وقْتُ العِشاءِ وضَعَتِ الجَارِيَةُ جَمْرَةً على رِجْلِهِ، فانْزَعَجَ وقالَ: ما هذا؟ قالتْ: جَمْرَةٌ مِنْ نَارِ الدنيا، فكيفَ تَصْنَعُ بِنَارِ الآخِرَةِ؟ فَبَكَى بُكاءً شَدِيداً، ثمّ قامَ إلى الصَّلاةِ، ووَقَعَ في نَفْسِه ممّا قالتِ الجَارِيَةُ، فلمْ يَرَ شيئاً يُنْجِيهِ إلّا مُفارَقَةُ ما هو فيه مِنْ مَالِهِ، فأعْتَقَ جَوارِيهِ، وتَحَلَّلَ مِنْ مُعامِليهِ، وتَصَدَّقَ بما بَقِيَ، حتّى صارَ يَبِيعُ البَقْلَ، وتَبِعَتْهُ على ذلك الجاريةُ. فدَخَلَ عليه سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ، وفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ، فوَجَدا تحتَ رأسِه لَبِنَةً وليسَ تحتَه شيءٌ، فقال له سفيانُ: إنّه لم يَدَعْ أحَدٌ للهِ شيئاً إلّا عَوّضَه اللهُ منه بَدَلاً، فمَا عَوّضَكَ ممّا تَرَكْتَ له؟ قال: الرِّضَى بما أنا فيه.

– ورُوِيَ عن مالكِ بنِ دينارٍ أنّه سُئِلَ عن سَبَبِ توبتِه، فقال: كنتُ شُرَطِيّاً وكنتُ مُنهَمِكًا على شُرْبِ الخَمْرِ، ثمّ إنّني اشْتَرَيْتُ جارِيَةً نَفِيسَةً ووقَعَتْ مِنّي أحْسَنَ مَوقعٍ، فوَلَدَتْ لي بِنْتاً فَشَغِفْتُ بها، فلمّا دَبّتْ على الأرضِ ازْدَادَتْ في قلبي حُبّاً وأَلِفَتْني وأَلِفْتُها، فكنتُ إذا وضَعْتُ المُسْكِرَ بينَ يديَّ جاءتْ إلي وجاذَبَتْني عليه وهَرَقَتْهُ مِنْ ثَوْبِي، فلمّا تمّ لها سَنَتانِ ماتَتْ فأَكْمَدَنِي حُزْنُها، فلمّا كانتْ ليلةُ النّصفِ مِنْ شَعبانَ وكانتْ ليلةُ الجُمُعَةِ بِتُّ ثَمِلاً مِنَ الخَمْرِ ولم أُصَلِّ فيها عِشاءَ الآخِرَةِ، فرأَيْتُ فيما يَرى النّائِمُ كأنّ القيامةَ قد قامَتْ ونُفِخَ في الصُّورِ وبُعثِرَتِ القُبورُ وحُشِرَ الخَلائِقُ وأنا معهم فَسَمِعْتُ حِسّاً مِنْ وَرائِي فالْتَفَتُّ فإذا أنا بِتِنّينٍ أعْظَمِ ما يَكُونُ أسْوَدَ أزْرَقَ قد فَتَحَ فَاهُ مُسْرِعاً نحوي، فمَرَرْتُ بينَ يَدَيْهِ هارِباً فَزِعاً مَرْعُوباً، فمَرَرْتُ في طَرِيقِي بشيخٍ نَقِيِّ الثّوبِ طَيِّبِ الرّائِحَةِ فَسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ السّلامَ فقلتُ: أيُّها الشيخُ، أَجِرْنِي مِنْ هذا التِّنّينِ أجارَكَ اللهُ، فبَكَى الشيخُ وقالَ لِي: أنا ضَعِيفٌ وهذا أَقْوَى مِنّي وما أَقْدِرُ عليه، ولكِنْ مُرَّ وأَسْرِعْ فَلَعَلَّ اللهُ أنْ يُتِيحَ لكَ ما يُنْجِيكَ منه، فَوَلَّيْتُ هاربًا على وجْهِي فَصَعْدْتُ على شُرْفٍ مِنْ شُرَفِ القيامةِ فأشْرَفْتُ على طَبَقاتِ النِّيرانِ فنظَرْتُ إلى هَوْلِهَا وكِدْتُ أَهْوِي فيها مِنْ فَزَعِ التِّنينِ، فصاحَ بي صائِحٌ: ارْجِعْ فَلَسْتَ مِنْ أهْلِهَا فاطْمَأْنَنْتُ إلى قولِه، ورَجَعْتُ ورَجَعَ التِّنينُ في طَلَبِي فأتيتُ الشيخَ فقلتُ: يا شيخُ، سأَلْتُكَ أنْ تُجيرَنِي مِنْ هذا التِّنينِ فلم تَفْعَلْ فَبَكَى الشيخُ وقال: أنا ضَعِيفٌ ولكنْ سِرْ إلى هذا الجَبَلِ فإنَّ فيهِ وَدائِعَ المسلمينَ فإنْ كانَ لكَ فيه وَدِيعَةٌ فَسَتَنْصُرُكَ، قال:

فَنَظَرْتُ إلى جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ مِنْ فِضّةٍ، وفيه كُوىً مُخَرّمَةٌ وسُتورٌ مُعلّقَةٌ على كُلِّ خَوْخَةٍ وكُوَّةٍ مِصْراعانِ من الذّهبِ الأحمرِ مُفَصَّلَةٌ باليَواقِيتِ مُكَوْكَبَةٌ بالدُّرِّ على كلِّ مِصْراعٍ سِتْرٌ من الحَرِيرِ، فلمّا نَظَرْتُ إلى الجَبَلِ ولَّيْتُ إليه هاربًا والتّنينُ مِنْ وَرَائي؛ حتّى إذا قَرُبْتُ منه صاحَ بعضُ الملائِكَةِ: ارْفَعُوا السُّتُورَ وافْتَحُوا المصارِيعَ وأشْرِفُوا فلَعَلَّ لهذا البائِسِ فيكم وَدِيعةٌ تُجِيرُه مِنْ عَدُوِّه، فإذا السُّتُورُ قد رُفِعَتْ والمصارِيعُ قد فُتِحَتْ فأشْرَفَ عليَّ مِنْ تلك المُخَرَّماتِ أطفالٌ بوُجُوهٍ كالأقْمارِ، وقَرُبَ التّنينُ مِنّي فتَحيّرْتُ في أَمْرِي فصاحَ بعضُ الأطفالِ ويْحَكُم أشْرِفُوا كُلُّكُم فقد قَرُبَ منه عَدُوُّه فأشْرَفُوا فَوْجًا بعدَ فَوْجٍ، وإذا أنا بابْنَتِي التي ماتَتْ قد أشْرَفَتْ عَلَيَّ معهم، فلمّا رَأَتْنِي بَكَتْ وقالتْ: أبي واللهِ، ثُمَّ وَثَبَتْ في كَفَّةٍ مِنْ نُورٍ كَرَمْيَةِ السَّهْمِ حتى مَثُلَتْ بينَ يديَّ فَمَدّتْ يَدَها الشِّمالَ إلى يَدِي اليُمْنَى فتَعلّقْتُ بها ومَدَّتْ يدَها اليُمْنى إلى التّنينِ فَوَلَّى هارِبًا، ثم أَجْلَسَتْنِي وقَعَدَتْ في حِجْرِي وضَربَتْ بِيَدِهَا اليُمْنَى إلى لِحْيَتِي وقالتْ: يا أَبَتِ {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}، فبَكَيْتُ وقلتُ: يا بُنَيَّةُ، وأنتم تَعْرِفُونَ القُرآنَ؟ فقالت: يا أَبَتِ نحنُ أَعْرَفُ به منكم، قلتُ: فأخْبِرِيني عَنِ التِّنّينِ الذي أرادَ أنْ يُهلِكَني؟ قالت: ذلك عَمَلُكَ السُّوءُ قَوَّيْتَهُ فأرادَ أنْ يُغْرِقَكَ في نارِ جهَنّمَ، قلتُ: فأخْبِرِيني عَنِ الشيخِ الذي مَرَرْتُ به في طَرِيقي؟ قالت: يا أَبَتِ ذلك عَمَلُكُ الصَّالحُ أضْعَفْتَه حتّى لم يكنْ له طاقَةٌ بِعَمَلِكَ السُّوءِ، قلتُ: يا بُنَيّةُ وما تَصْنَعُونَ في هذا الجَبَلِ، قالت: نحنُ أطفالُ المسلمينَ قد أُسْكِنّا فيه إلى أنْ تَقُومَ السّاعَةُ

نَنْتَظِرُكم تَقْدُمونَ علينا فَنَشفعُ لكم، قال مالكٌ: فانْتَبَهْتُ فَزِعًا وأَصْبَحْتُ فَأَرَقْتُ المُسْكِرَ وكَسَرْتُ الآنِيَةَ، وتُبْتُ إلى اللهِ، وهذا كان سَبَبَ تَوْبَتِي.

– قال عليُّ بنُ خَشرمٍ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ جِيرانِ الفُضيلِ بنِ عياضٍ قال: كانَ الفُضَيْلُ يَقْطَعُ الطريقَ وحْدَه فخَرَجَ ذاتَ ليلةٍ لِيَقْطَعَ الطريقَ فإذا هو بِقافِلَةٍ قد انْتَهَتْ إليه ليلاً فقالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ: اعْدِلُوا بنا إلى هذه القريةِ فإنَّ أمامَنا رَجُلاً يَقْطَعُ الطريقَ يُقالُ له: الفُضيلُ. قال: فَسَمِعَ الفُضيلُ فَأَرْعَدَ، فقالَ: يا قَوْمُ، أنا الفُضَيْلُ جَوِّزُوا، واللهِ لَأَجْتَهِدَنَّ أنْ لَا أَعْصِيَ اللهَ أبداً فَرَجَعَ عَمَّا كانَ عليهِ.

ورُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى أنَّه أَضافَهُم تلكَ الليلةَ وقالَ: أنتم آمِنُونَ مِنَ الفُضَيْلِ وخَرَجَ يَرْتادُ لهم عَلَفاً ثم رَجَعَ فَسَمِعَ قارئاً يَقْرَأُ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} قالَ: "بَلَى واللهِ قدْ آنَ، فكانَ هذا مُبْتَدَأَ تَوْبَتِه".

وقال إبراهيمُ بنُ الأشعثِ: سَمِعْتُ فُضَيلاً ليلةً وهو يَقْرَأُ سُورةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ويَبْكِي ويُرَدِّدُ هذه الآيةَ {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، وجَعَلَ يقولُ: "ونَبْلُوَ أخْبارَكُم! ويُرَدِّدُ ويقولُ: وتَبْلُوَ أَخْبَارَنا؟ إنْ بَلَوْتَ أَخْبَارَنا فَضَحْتَنَا وهَتَكْتَ أَسْتارَنا، إنْ بَلَوْتَ أَخْبَارَنَا أهْلَكْتَنَا وعَذَّبْتَنَا".

– ورُوِيَ أنَّ بِشْرَ بنَ الحَارِثِ الحَافِيَّ سُئِلَ: ما كانَ بِدْءُ أَمْرِكَ؟ قالَ: كُنْتُ رَجُلاً عَيَّاراً صاحِبَ عَصَبِيَّةٍ فَجُزْتُ يوماً فإذا أنا بِقِرْطاسٍ في الطّرِيقِ فَرَفَعْتُه فإذا فيه: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فَمَسَحْتُهُ وجَعَلْتُهُ في جَيْبِي، وكانَ عندي دِرهمانِ ما كنتُ أَمْلِكُ غَيْرَهما فذَهْبْتُ إلى العَطّارِينَ فاشْتَرَيْتُ بهما غَالِيَةً ومَسَحْتُه في القِرْطاسِ، فَنِمْتُ تلكَ الليلةَ فَرَأَيْتُ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ: يا بِشْرَ بنَ الحَارِثِ، رَفَعْتَ اسْمَنَا عَنِ الطَّرِيقِ وطَيَّبْتَه لَأُطَيِّبَنَّ اسْمَكَ في الدنيا والآخرةِ، ثمّ كانَ ما كانَ.

وحُكِيَ أنَّ بِشْراً كانَ في زَمَنِ لَهْوِهِ في دَارِهِ وعندَه رُفَقاؤُهُ يَشْرَبُونَ ويَطِيبُونَ فاجْتازَ بهم رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ فَدَقَّ البابَ فَخَرَجَتْ إليه جارِيَةٌ فقالَ: صاحِبُ هذه الدَّارِ حُرٌّ أو عَبْدٌ؟ فقالتْ: بل حُرٌّ! فقالَ: صَدَقْتِ لو كانَ عَبْداً لَاسْتَعْمَلَ أَدَبَ العُبُودِيَّةِ وتَرَكَ اللَّهْوَ والطَّرَبَ. فَسَمِعَ بِشْرٌ مُحَاوَرَتَهُمَا فَسارَعَ إلى البَابِ حَافِياً حَاسِراً وقدْ وَلَّى الرَّجُلُ فقالَ لِلجارِيَةِ: وَيْحَكِ! مَنْ كَلَّمَكِ على البابِ فَأَخْبَرَتْهُ بما جَرَى فقالَ: أيَّ ناحِيَةٍ أَخَذَ الرَّجُلُ؟ فقالتْ: كَذَا. فَتَبِعَهُ بِشْرٌ حتّى لَحِقَهُ فقالَ له: يا سَيِّدِي، أنتَ الذي وَقَفْتَ بالبَابِ وخَاطَبْتَ الجارِيَةَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: أَعِدْ عَلَيَّ الكلامَ فأعَادَهُ عليهِ، فَمَرَّغَ بِشْرٌ خَدَّيْهِ على الأرْضِ وقالَ: بلْ عَبْدٌ، عَبْدٌ، ثمّ هامَ على وجْهِهِ حَافِياً حاسِراً حتّى عُرِفَ بالحَفاءِ. فقِيلَ له: لِمَ لا تَلْبَسُ نَعْلاً قالَ: لِأَنِّي ما صَالحَنِي مَوْلَايَ إلَّا وأنا حَافٍ فلا أَزُولُ عَنْ هذِهِ الحَالَةِ حتّى المَمَات.

– يقولُ أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدٍ البَزّازُ: لم يَرْوِ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْلَمَةَ القَعْنَبِيُّ عنْ شُعْبَةَ بنِ الحَجّاجِ غيرَ هذا الحَدِيثِ الواحِدِ، وله شَرْحٌ: حدّثَني بعضُ القُضاةِ عن بعضِ وَلَدِ القَعْنَبِيّ بالبَصْرَةِ قالَ: كانَ أبي يَشْرَبُ النَّبِيذَ فدعا يوماً أصحابَه وقد قَعَدَ على البابِ يَنْتَظِرُهُمْ فَمَرَّ شُعْبَةُ على حِمَارِهِ والنّاسُ خَلْفَه يُهْرَعُونَ. فقال: مَنْ هذا؟ قيل: شُعْبَةُ. قال: وأَيْش شُعْبَة؟ قالوا: مُحَدِّثٌ. فقامَ إليه وعليه إزارٌ أحْمَرُ فقالَ له: حَدِّثْني، فقالَ له: ما أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الحَدِيثِ فَأُحَدِّثُكَ، فَأَشْهَرَ سِكِّينَهُ وقال: تُحَدِّثُني أو أَجْرَحُكَ؟ فقال له: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ". فَرَمَى سِكِّينَهُ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَامَ إِلَى جَمِيعِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الشَّرَابِ فَهَرَاقَهُ وَقَالَ لأُمِّهِ: السَّاعَةَ أَصْحَابِي يَجِيئُونَ فَأَدْخِلِيهِمْ وَقَدِّمِي الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ فَإِذَا أَكَلُوا فَخَبِّرِيهِمْ بِمَا صَنَعْتُ بِالشَّرَابِ حَتَّى يَنْصَرِفُوا. وَمَضَى مِنْ وَقْتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَزِمَ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ فَأَثَرَ عَنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَقَدْ مَاتَ شُعْبَةُ فَمَا سَمِعَ مِنْهُ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ.

122) رُبَّمَا وَرَدَتِ الظُّلَمُ عَلَيْكَ، لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ.

- والمُرادُ بالظُّلَمِ هنا: المَعاصِي والغَفَلاتُ والشَّهَواتُ.

وابْتِلَاءُ العبدِ بها تارةً يكونُ طَرْداً، وتارةً يكونُ تَأْدِيباً، وتارةً يكونُ تَقْرِيباً، فإذا أَثْمَرَتْ إِنابَةً كانتْ تَقْرِيباً، وإذا أثمرَتِ انْكِساراً وتَذْكِيراً كانتْ تَأْدِيباً، وإذا أثمرَتْ تَعَلُّقاً بها كانتْ طَرْداً.

- رُبّما وَرَدَتِ الظُّلَمُ أي الشَّهَوَاتُ والمعاصِي والغَفَلاتُ عليكَ لِيُعَرِّفَكَ حالَ وُرُودِها قَدْرَ ما مَنَّ اللهُ بهِ عليكَ، أي ما كانَ قدْ مَنَّ اللهُ به عليكَ سابقاً مِنَ الأَنْوَارِ والإِقْبَالِ على مَوْلاكَ فتَحمَدُهُ عليها، وإذا رَجَعْتَ إلى حالِكَ عرَفْتَ أنّ ذلك نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ فَيَكْثُرُ منكَ الحَمْدُ والشُّكرُ، فقد صارتِ النِّقْمَةُ نِعْمَةً، وقد يكُونُ سَبَبُ وُرُودِها ما حَصَلَ منكَ مِنَ الإعْجَابِ بِطاعَتِكَ، فيُورِدُها عليكَ لِتَعرِفَ قَدْرَكَ، ولا تَتَعدَّى طَوْرَكَ فلا تَتَكَبّرُ، ولا تَرى نَفْسَكَ على أبناءِ جِنسِكَ، وهذه نِعمةٌ أيضاً، وقد تَرِدُ عليكَ عُقوبةً وامْتِحاناً، وعَلامَةُ ذلكَ أنّكَ كُلّما خَرَجْتَ مِنْ مَعْصِيَةٍ وقَعْتَ في أُخرَى وهكذا، ولا تُوَفَّقُ للتّوبةِ ولا تَعْتَقِدُ التَّقْصِيرَ مِنْ نَفْسِك.

– يقولُ ابنُ عجيبةَ رحمهُ اللهُ: لا شَكَّ أنّ نَيْلَ الشيءِ بعدَ الطَّلَبِ، أَلَذُّ وأعَزُّ مِنَ المُساقِ بغيرِ تَعَبٍ، والمحبَّةُ بعدَ القَطِيعَةِ أَحْلَى مِنَ المحبّةِ بِلا القَطِيعَةِ، والصَّفاءُ بعدَ الجَفاءِ أَصْفَى مِنَ الصَّفاءِ بِلا جَفاءٍ، وفِطامُ النَّفْسِ عَنْ مَأْلُوفاتِهَا وعَوائِدِها أَشَدُّ مُعالَجَةً مِنَ النَّفْسِ السَّلِسَةِ المُنْقادَةِ مِنْ غيرِ تَعَبٍ، فيكونُ الأَجْرُ على قَدْرِ التَّعَبِ، فهذه حِكْمَةُ تَقْدِيمِ وُرُودِ الغَفْلَةِ والشَّهْوَةِ على العَبْدِ، ثمّ يُنقِذُه منها لِيَعلَمَ قَدْرَ هذه النِّعْمَةِ التي أَنْعَمَ اللهُ بها عليه، فَرُبَّما أَوْرَدَ عليكَ الحَقُّ تَعالَى الظُّلَمَ، وهي جَمْعُ الظُّلْمَةِ: وهي الأَغْيَارُ والأَكْدَارُ وحُبُّ الشَّهَواتِ والعَوائِدِ فَتَغْرَقُ في بِحَارِها وتُسْجَنُ في سُجُونِ ظُلُمَاتِهَا، ثم يُنقِذُكَ منها في ساعَةٍ واحِدَةٍ، وذلك لِتَعْرِفَ بعدَ الفَتْحِ قَدْرَ ما مَنَّ اللهُ به عليكَ، فَتَزْدادُ مَحبّةً وشُكْراً، ولأَجْلِ هذا جَعَلَ اللهُ الجنّةَ مَحْفُوفَةً بالمكارِهِ، لِيَعرِفَ العِبَادُ بعدَ دُخُولِها قَدْرَ النِّعمةِ التي مَنَّ اللهُ بها عليهم، وكذلكَ جَنَّةُ العارِفِ محفُوفةً بالمكارِهِ، لِيَعرِفَ العارِفُ قَدْرَ الخيرَ الذي مَنَحَهُ اللهُ إيّاهُ.

– وقد قِيلَ: "إنّمَا يَعرفُ قَدْرَ الماءِ مَنْ بُلِيَ بِعَطَشِ البَادِيَةِ، لا مَنْ كانَ على شَاطِئِ الأَوْدِيَةِ الجارِيةِ". وقيلَ أيضاً: "الولدُ العاقُّ المُصِرُّ على تَأَبِّيهِ إنّما يَعرفُ قدْرَ الأبِ يومَ وفاةِ أبِيهِ".

123) مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدَانِهَا، عَرَفَهَا بِوُجُودِ فِقْدَانِهَا.

– ولذلكَ قِيلَ: نِعَمُ اللهِ مَجهولةٌ وتُعرَفُ إذا فُقِدَتْ.

وذلك لأنّ النِّعْمَةَ إنّما وَرَدَتْ لِتَعرِيفِ جَمالِ الحقِّ سبحانَه، وتُنَبِّهُ على كَرَمِهِ حتى يُعبدَ بالشُّكرِ عليها، فإذا لم تُفِدْ ذلكَ سُلِبَتْ لِتَعرِيفِ الجلالِ والقَهْرِ، فيَرْجِعُ العبدُ لمولاهُ بطريقِ النِّعَمِ إنْ كانَ مِنَ الفريقِ الأوّلِ، وبِطريقِ النِّقَمِ إنْ كانَ مِنَ الفريقِ الثاني، فإنْ لم يَفعلْ فقد تَمّتْ حُجَّةُ اللهِ عليه بما يُنَبِّهُهُ به مِنْ وارِدَاتِ صُنْعِهِ، وهو الفَعّالُ لِمَا يُرِيدُ.

– والنّاسُ في ذلك ثلاثةٌ:

الأولُ: رَجُلٌ قابلَ النِّعمةَ بالشُّكرِ قِياماً بِحَقِّها أو بِحقِّ الرّبوبيةِ، وهذا حَظُّهُ مِنَ اللهِ المَزيدُ، إمّا حِسّاً باسْتِرْسَالِ ما شَكَرَ عليه، أو مَعْنىً بإبْدَالِهِ ما هو خيرٌ منها.

الثاني: رَجُلٌ قابَلَ النِّعْمَةَ بالإهْمَالِ، فلمْ يَنْتَبِهْ لِوُجُودِ شُكْرِها، ولا عَرَّضَ نَفْسَه لوُجُودِ كُفْرِها، كعامّةِ الخَلْقِ، وهذا قَرِيبٌ مِنَ السَّلبِ لِغَفْلَتِه، قَرِيبٌ مِنَ الانْتِبَاهِ لاشْتِبَاهِ حَالَتِه، وعَلامَتُهُ أنْ يَتَذَكّرَ إذا ذُكِّرَ، ويَنتَهِيَ إذا وُعِظَ وزُجِرَ.

الثّالثُ: رَجُلٌ قابَلَ النِّعْمَةَ بالكُفْرَانِ، وَوَاجَهَ المِنَّةَ بالطُّغْيَانِ، أَقْبَلَ على وُجُودِ شَهْوَتِه، وانْهَمَكَ في وُجُودِ غَفْلَتِه، ولم يَشْعُرْ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه، وهذا حَرِيٌّ

بالسَّلْبِ أوِ الاسْتِدْراجِ والإِمْلَاءِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ، كُلُّ ذلكَ لِيَعْرِفَ ما هو فيه، أو تَتِمَّ حُجَّةُ اللهِ عليه فيما يَقْتَفِيهِ، بِهَتْكِ أسْتَارِهِ، وظُهُورِ عَوَارِهِ.

فقد قِيلَ: "مَنْ لم يَعرفْ قدْرَ النِّعَمِ سُلِبَها مِنْ حيثُ لا يَعلمُ".

وقالَ بعضُ السلفِ: "النِّعَمُ وَحْشِيَّةٌ فقَيِّدُوها بالشُّكرِ".

- وكانَ مِنْ دعاءِ بعضِ الصالحينَ: "اللهمَّ عَرِّفْنا نِعَمَكَ بِدَوامِهَا، ولا تُعَرِّفْهَا لَنا بزَوَالِهَا".

- وقال الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ: "إنَّ اللهَ لَيُمتِّعُ بالنِّعْمَةِ مَا شَاءَ، فإِذَا لَمْ يُشْكَرْ عَلَيْها قَلَبَها عَذَابًا".

- ويقولُ سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: "الشَّاكِرُ هو الذي يَعْلَمُ أنَّ النِّعْمَةَ مِنَ اللهِ تَعالى أَعْطَاهُ إِيّاهَا لِيَنْظُرَ كيفَ يَشْكُرُ وكيفَ يَصْبِرُ".

- ورَأَى بَكْرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنِيُّ حَمَّالاً وهو يقولُ: (الحمدُ للهِ، أستغفرُ اللهَ)، قالَ: فانْتَظَرْتُهُ حتَّى وَضَعَ ما عَلى ظَهْرِهِ، وقلتُ لهُ: أمَا تُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا؟ قالَ: بَلَى، أُحْسِنُ خَيْرًا كَثِيرًا، أَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ، غَيْرَ أنَّ العَبْدَ بَيْنَ نِعْمَةٍ وَذَنْبٍ، فَأَحْمَدُ اللهَ عَلى نِعَمِهِ السَّابِغَةِ، وأَسْتغفِرُهُ لِذُنُوبِي، فقلتُ: الحَمَّالُ أَفْقَهُ مِنْ بَكْرٍ.

- قالَ صُغْدِيُّ بْنُ أَبِي الْحِجْرِ: كُنَّا نَدْخُلُ عَلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ مُحَمَّدٍ فَنَقُولُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: "أَصْبَحْنَا مُغْرَقِينَ فِي النِّعَمِ، مُوَقَّرِينَ مِنَ الشُّكْرِ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْنَا رَبُّنَا وَهُوَ عَنَّا غَنِيٌّ، وَنَتَمَقَّتُ إِلَيْهِ وَنَحْنُ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ".

- ولأجلِ غَلَبَةِ الجَهْلِ بالنِّعَمِ إلّا عندَ الفَقْدِ وتَضْييعِ الشُّكرِ عليها مِنَ العَبْدِ أَمَرَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بالنَّظَرِ إلى مَنْ هُوَ أسْفَلُ مِنّا لِئَلّا نَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللهِ علينا، والسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِه.

ففي صحيحِ مسلمٍ عن النبيّ ﷺ أنّه قالَ: "انْظُرُوا إلى مَنْ أسْفَلَ مِنكُمْ، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فَوْقَكُمْ، فَهو أجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ".

وفي البخاريّ قولُه ﷺ: "إذا نَظَرَ أحَدُكُمْ إلى مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أسْفَلَ منه".

- قالَ الشيخُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمهُ اللهُ:

"وكانَ بعضُ الصُّوفِيّةِ وَظَفَ على نَفْسِهِ كُلَّ يومٍ أنْ يَحضُرَ دارَ المرضَى فيُشاهِدُهُم ويُشاهِدُ عِلَلَهُم ومِحَنَهُم، ويَحضُرَ حبْسَ السُّلطانِ ويُشاهِدُ أربابَ الجِناياتِ ومِحَنَهُم في التّعرُّضِ لإقامةِ العقوباتِ، ويحضرَ المقابرَ فيُشاهِدُ أصحابَ العَزاءِ وتأَسُّفَهُم على ما لايَنْفَعُ مع اشْتِغَالِ الموتى بما هم فيه، وكانَ يَعُودُ إلى بيتِه ويَشتغِلُ بالشُّكْرِ طُولَ النّهارِ على نِعَمِ اللهِ عليه في تَخْلِيصِهِ مِنْ تلكَ البَلايَا".

124) لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ القِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ.

– إذا تَرادَفَتْ نِعَمُ اللهِ تعالى عليكَ، فلا يَنْبَغي أنْ تُدهِشَكَ عنِ القيامِ بِشُكرِها مِنْ حيثُ تَرى عجْزَ نَفْسِكَ عنْ تَوْفِيَةِ ذلكَ، وأنْ لَا قِبَلَ لكَ بهِ فتَتْرُكُه، فإنّ اللهَ تعالَى رَفَعَ قَدْرَكَ، وأَعْلَى أَمْرَكَ، وجَعَلَ القَلِيلَ منكَ كَثِيراً، وأَشْهَدَكَ مِنْ حُسْنِ تَوَلِّيهِ لكَ ونِسْبَةَ أَفْعالِكَ إليكَ ما يُؤْذِنُ بِرِفْعَةِ قَدْرِكَ، فَلِمَ تُبْخِسُ نفسَكَ حَقَّها وتَحُطُّها عنْ قَدْرِها، فَتَراها عاجِزَةً عنِ الشُّكْرِ والقِيامِ بمُقْتَضَى الأَمْرِ؟

– فإذا أَرَدْتَ القِيامَ بِوَاجِبِ حَقِّهِ تعالى في الشُّكرِ، فلا تُدْهِشْكَ وارِدَاتُ النِّعَمِ بِكَثْرَتِهَا وتَدَاخُلِهَا وتَسَلْسُلِهَا، عَنِ القيامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ اعْتِباراً بِوَصْفِكَ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ عندَ رَبِّكَ، فَيَنبَغِي أنْ تَعْمَلَ للهِ بما أمَرَكَ بهِ في نِعَمِهِ بحيثُ لا تَعْصِيهِ بها، وتَحْمَدُهُ عليها، مُعْتَقِداً أنَّه يَقْبَلُ اليَسِيرَ ويُعْطِي الكَثِيرَ بِلَا عِلَّةٍ ولَا سَبَبٍ.

– والدَّهَشُ: وَقْفَةٌ تَعْرِضُ لِلْقَلْبِ مِنْ حِيرَتِهِ فيما يَرِدُ عليه، ويعني بِوَارِداتِ النِّعَمِ، ما يَرِدُ منها دائماً، وأتَى بِذِكْرِ الوُرُودِ لِيُشْعِرَ بأنَّ مُوجِبَ الحِيرَةِ وُجُودُ التَّجَدُّدِ، وذلكَ باعْتِبَاراتٍ ثلاثةٍ:

أَحَدُها: مِنْ حيثُ تَواتُرُها وتَسَلْسُلُها الذي لا يَنقَضِي أبَدَ الآبِدِينَ ودَهْرَ الدّاهِرِينَ، وهذا مِنْ أكبَرِ ما يُدْهِشُ عَنِ المُقابَلَةِ بالشُّكرِ لِعَدَمِ اتِّسَاعِ الزَّمانِ للمُوافاةِ.

الثاني: مِنْ حيثُ اتِّسَاعُ أنْوَاعِها وأصْنَافِها ووَقَائِعِها وجَرَيانِها، ووُجُوهُهُ في التَّعرُّفِ وغَيرِه دِيناً ودُنْيا جَلْباً ودَفْعاً، كما قالَ تعالَى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ) وما لَا يُحْصَى لا يُقْدَرُ على مُقابَلَتِه، وهذا مَوقِفٌ مِنَ الدّهَشِ عنِ الشُّكْرِ أيضاً.

الثالثُ: مِنْ حيثُ تَسَلْسُلُ الشُّكرِ عليها لتَسَلْسُلِ وُقُوعِها، إذْ ما مِنْ نِعْمَةٍ إلّا والشُّكرُ عليها نِعْمَةٌ، ومَعْرِفَةُ كَوْنِ الشُّكْرِ نِعْمَةً نِعْمَةٌ، وشُكْرُ تلكَ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ، ومَعْرِفَةُ ذلك كُلِّهِ نِعْمَةٌ، وهذا مِنْ أَعْظَمِ مَواقِفِ الدَّهَشِ أيضاً.

- ولَا مُوجِبَ لِهذا الدَّهَشِ إلّا أُمورٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: نَظَرُ العَبْدِ لِحَوْلِه وقُوَّتِه في شُكرِ ما وَصَلَ إليهِ مِنْ مِنَّةِ مَوْلاهُ، لأنَّه لو نَظَرَ لِحَوْلِ مَوْلاهُ وقُوَّتِه اعْتَرَفَ بِعَجْزِه، وعَلِمَ أنَّ ما أُمِرَ به مِنَ الشُّكرِ إنّما هو مَعْرِفَتُه بأنَّه لا طاقَةَ له على القيامِ بوُجُودِ الشُّكرِ، إلّا مِنْ حيثُ الثَّناءُ على الحَقِّ بِكَمالِ الوَصْفِ.

الثاني: نَظَرُ العَبْدِ إلى وُجُودِ المُقابَلَةِ في الشُّكرِ مِنْ حيثُ العَقْلُ القاضِي بما ذُكِرَ مِنَ الاتِّساعِ والتَّسلسُلِ؛ لأنّه لو تَحقّقَ أنَّ أوْصَافَ العبدِ لا تَقْدِرُ على مُقابَلَةِ ذَرّةٍ مِنْ آثارِ الحَقِّ -ولو اجْتَمَعَ الخَلْقُ مِنْ عندِ آخِرِهِم في ذلك- لَعَلِمَ

أنَّ الشُّكرَ المَأْمُورَ به رَسْمٌ شَرْعِيٌّ يُوقَفُ عندَ حَدِّهِ فيكونُ وَفاءً لِمَا وَجَبَ مِنْ شُكرِهِ، حَسَبَ وَعْدِهِ الكَرِيمِ في أَمْرِهِ، فهو منه وإليه، وبهذا يَظْهَرُ أنَّ الشُّكرَ شَرْعِيٌّ لا عَقْلِيٌّ، خِلافاً لِمَنْ شَرَدَ عَنِ الحَقِّ وأَرَادَ مُقابَلَةَ نِعَمِ الحَقِّ بِأَوْصَافِ نَفْسِه، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ.

الثالثُ: وجُودُ الجَهْلِ بِوَصْفِ الرّبِّ سبحانَه؛ لأنَّه لو عرفَ حَقَّ المَعْرِفَةِ بِوُجُودِ عَظَمَةِ الحَقِّ وجَلالِه وكِبْرِيائِه عَلِمَ أنَّه لَا يُقابَلُ ما مِنهُ بِحَالٍ، ولا يُعادَلُ ما يأتِي منه مِنْ فَضْلٍ ونَوالٍ، فَيَظْهَرُ له أنَّ الشُّكرَ المَطْلُوبَ إنَّما هو لِزيادَةِ الإِفْضَالِ، لا سِيَّمَا وقد وُعِدَ بالمَزِيدِ، فيأتِي بِمَا عليهِ دُونَ دَهَشٍ ولا غَيرِه.

- رُوِيَ أنَّ دَاوُدَ عليهِ السّلامُ قالَ: "إلهي، ابْنُ آدمَ ما فِيهِ شَعْرَةٌ إلَّا وفَوْقَهَا نِعْمَةٌ وتَحْتَهَا نِعْمَةٌ، فَمِنْ أينَ يُكافِيهَا؟" فَأَوْحَى اللهُ إليه: "يا دَاودُ إِنِّي أُعْطِي الكَثِيرَ وأَرْضَى بِاليَسِيرِ، وإنَّ شُكْرَ ذلكَ أنْ تَعلَمَ أنَّ ما بِكَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنِّي".

- وقالَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ: "ما مِنْ نِعْمَةٍ إلَّا والحَمْدُ أَفْضَلُ منها، والنِّعْمَةُ التي أُلْهِمَ بها الحَمْدُ أَفْضَلُ مِنَ الأُولى، لأنَّ الشُّكْرَ يَسْتَوْجِبُ المَزِيدَ".

- وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ: "لم يُنْعِمِ اللهُ على عَبْدٍ نِعْمَةً فيَحْمَدُهُ عليها إلَّا كانَ حَمْدُهُ أَفْضَلَ مِنْ نِعْمَتِهِ".

وفي مَعْنَى ذلكَ قَوْلُ الشّاعِرِ:

إِنَّ للهِ عَلَيْنَا نِعَماً *** عَجَزَ الْعَبْدُ عَنِ الْحَصْرِ لَهَا

فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى نَعْمَائِهِ *** وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى الْحَمْدِ لَهَا

– ثم شُكرُ النِّعْمَةِ إنّما هو زِيادَةٌ في شَرَفِ العَبْدِ، لَا لِحَاجَةٍ مِنَ الرَّبِّ سُبحانَه، فَتَرْكُهُ انْحِطاطٌ عَنْ رُتْبَةِ الكَمالِ، كما نَبّهَ عليه بقولِه: فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ، وفي كَلامِهِ هذا فَوائِدُ:

أوّلُها: أنَّ الشُّكْرَ إنّما هو لِفائِدَةِ العَبْدِ في نَفْسِه، لَا لِاحْتِياجٍ مِنَ الرَّبِّ سُبحانَه له، لأَنَّه الغَنِيُّ على الإِطْلَاقِ، الذي لم يَحْتَجْ ولَا يَحْتَاجُ أَبَداً، تعالَى وجَلَّ.

الثاني: أنَّ الوُقُوفَ عَنِ الشُّكرِ لوُجُودِ الدَّهَشِ في عَظِيمِ النِّعْمَةِ نَقْصٌ؛ لِمُفارَقَةِ رَسْمِ الشَّرِيعَةِ الذي لا كَمالَ إلَّا باتِّباعِهِ، وهو القيامُ في كُلِّ شيءٍ بما طُلِبَ فيه، على حَدِّ الفَرَحِ بالمِنَّةِ به.

الثالثُ: أنَّه –معَ كَوْنِه نَقْصاً– حَطٌّ لِرُتْبَةِ العَبْدِ في عِلْمِهِ وعَمَلِهِ، واتِّباعِهِ إلى رُتْبَةِ الهوَى واتِّساعِهِ، إذْ يَجْعَلُ وُجُودَ دَهَشِهِ أَصْلاً لإِبْطالِ وُجُودِ الشُّكرِ، لأنَّ ما لَا يُقْدَرُ عليه لا يُتَوَجَّهُ له، وهذا مِفْتَاحُ الضَّلالِ على عِلْمٍ، وهو بِسَاطُ تَمَكُّنِ الهوَى.

125) تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ الْهَوَى مِنَ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ.

– التَمَكُّنُ هو الرُّسُوخُ والثُّبُوتُ، والحَلاوَةُ لَذَّةٌ وِجْدَانِيّةٌ يَأْنَسُ بها الطَّبْعُ فلا تَسمَحُ النَّفْسُ بمُفارَقَةِ سَبَبِها، والهَوى مَيْلُ النَّفْسِ لِمُلَائِمِهَا طَبْعاً دُونَ تَمالُكٍ، والدَّاءُ العُضَالُ هو الذي لَا يَزِيدُهُ التَّداوِي إلّا تَمَكُّناً.

وإنّما تَتَمكّنُ حلاوَةُ الهوَى مِنَ القلبِ بثلاثةِ أمورٍ: الرِّضا عَنِ النّفْسِ، والغَفْلَةِ عنها، والاسْتِرْسَالِ مع مُرادِهَا. وإنّما كانَ هذا الدَّاءُ عُضالاً لوُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنّه راتِبٌ في النّفْسِ لأنّه لها جَارٍ على وَفْقِ مُرادِها، لا يَصِحُّ لها مُفارَقَتُهُ لوُجُودِ إلْفِهِ، ولا مُخالفَتُهُ لِعَدَمِ كَشْفِهِ.

قالَ بعضُهم: "نَحْتُ الجِبالِ بالأظافِرِ أيْسَرُ مِنْ زَوالِ الهَوى إذا تَمكّنَ".

الثاني: أنّ مُدْرَكَهُ خَفِيٌّ في ذاتِه، لأنّه لا يَكونُ غالباً إلّا مُتَلَبّساً بِحَظٍّ أو معنىً يَخفَى به كونُهُ مُضِرّاً، ولا يَظهرُ إلّا بعدَ نَظَرٍ وجُهْدٍ جَهِيدٍ، فهو مِنَ النَّفْسِ في كَمِينٍ لا تَشعُرُ به إلّا عندَ الاحْتِيَاجِ إليه، إذْ تُبْدِي في الحُجَّةِ له ما يُشْبِهُ الحَقَّ، فَيُوجِبُ التَّلْبِيسَ، وهذا هو الضَّلالُ على عِلْمٍ.

الثالثُ: اعْتِضادُ شُبْهَتِهِ بِشَوَاهِدِ العِلْمِ الذي لا يُشَكُّ فيه، لأنّ الهوَى إذا تَمكّنَ أَثْمَرَ عِلْماً على وَفْقِهِ، فلا يُمكِنُ رُجُوعُ صاحِبِهِ عنه بوَجْهٍ ولا حَالٍ ما لم تَأْتِهِ عِنايَةٌ مِنْ رَبِّه.

قالَ تعالَى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ).

الجاثية 23.

وفيها تَنْبِيهٌ على أنّ مَنْ هذه حالُهُ لا تَنفَعُ فيه الحِيَلُ والأسْبَابُ، وإنّما تنفَعُ فيه العِنايَةُ الرَّبّانِيَّةُ بِجَذْبَةٍ إِلَهِيّةٍ ناشِئَةٍ عنْ شُهُودِ جَلالٍ يَقْتَضِي خَوْفاً مُزْعِجاً، أو جَمالٍ يَقْتَضِي شَوْقاً مُقْلِقاً، كمَا نَبَّهَ عليهِ في الحِكْمَةِ اللّاحِقَةِ.

126) لا يُخرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ القَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ.

- وذلك لأنَّ الخَوْفَ والشّوْقَ مِنْ بِساطِ قَهْرٍ وجَلالٍ، وإذا بَدَتْ أوْصافُ الحَقّ لَمْ يَبْقَ أَثَرٌ لأوْصَافِ الخَلْقِ.

فالخوفُ انزِعاجُ السِّرّ لِمَا عَلِمَ مِنَ الوِزْرِ عندَ مُشاهَدَةِ القَهْرِ.

والشوقُ اهْتِيَاجُ القَلَقِ عندَ تَمَكُّنِ الحُرَقِ.

وقد يكونُ الخوفُ غيرُ مُزعِجٍ، والشوقُ غيرُ مُقلِقٍ، فلا يُفِيدَانِ تَرْكاً ولا تَوَجُّهاً.

- قالَ الشيخُ أبو العباسِ الحَضرَمِيُّ رحمهُ اللهُ: "واعْلَمْ أنّ المَوْعِظَةَ الحَقِيقيّةَ هي جَذْبُ الحَقِّ لكَ، ولُطْفُ الحَقِّ بك، وأنْ يَخْلُقَ اللهُ في قَلبِكَ الخوفَ الشّديدَ المُلازِمَ لَقَلْبِكَ، وتَستَحْضِرَ عَظَمَةَ اللهِ تعالى، والخوفَ مِنَ اللهِ تعالى، والشّوْقَ إلى اللهِ تعالَى".

- لا يُخْرِجُ الشَّهوَةَ التي جُبِلَ عليها الإنسانُ مِنَ القلبِ إلّا خوفٌ مِنْ هَيْبَةِ القَهّارِ وجَبَرُوتِ الجَبّارِ ومِنْ غَضَبِ العَظِيمِ ودُخُولِ النّارِ، خوفٌ مُزعِجٌ للقلبِ، فإنّه يُذيبُ كُدُوراتِه ويُطَهِّرُهُ عنها كما تُذهِبُ النّارُ خَبَثَ الحَدِيدِ وتُطَهِّرُهُ مِنَ الأكْدَارِ.

أو شوقٌ إلى ذِي الإِفْضَالِ والنَّوالِ، مُقْلِقٌ له، فإنّه لا يَزالُ يُنَظِّفُه عن ما في باطِنِه مِنَ الأقْذَارِ والعِلَلِ حتّى يَجْعَلَه خالِصاً للذي يَشْتاقُ إليه، وهو الكَرِيمُ ذُو الجُودِ والفَضْلِ.

ومَنْ لم يكُنْ فيه كِلاهُما أو أحَدُهُما لا يَتَأَتّى له قَلْعُ شَهْوَتِه مِنْ قَلْبِه، أَلَا يَرَى هل يُمكِنُ إخْرَاجُ وَسَخِ الحَدِيدِ مِنْ غيرِ إدْخَالِهِ في الكِيرِ؟

– قِيلَ: "الشَّوْقُ يُقَرِّبُ البَعِيدَ، ويُسَهِّلُ العَسِيرَ، ويَحْمِلُ العَبْدَ على مَوَارِدِ التَّلَفِ، ويُصَيِّرُ حالَهُ للرِّضَى، لا لِلْخَوْفِ والرَّجَا".

– وإنّما كانَ ما ذُكِرَ هو الحامِلُ على خُروجِ الشّهوةِ لا غيرهُ لظُهورِهما –الخوفُ والشوقُ– بِسُلْطانِ الوَجْدِ الذي لا يَقَرُّ معه قَرارٌ ولا يَبعُدُ معه مَزارٌ، ولا يَبقَى معه ثَباتٌ ولا اصْطِبَارٌ، وكذلكَ لأنّهما مالِكَا الأصلِ الذي هو القلبُ، ولا حَرَكةَ لوجُودِ العبدِ دُونَه، وبه صَلاحُهُ وفَسادُه لأنّه حَوْضُ البَدَنِ في مَعناهُ.

– حُكِيَ عنْ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه لَمَّا احْتُضِرَ قالَ: "لَوْ كانَ لي ما طَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ وغَرَبتْ لافْتَدَيْتُ بهِ مِنْ هَوْلِ المَطْلَعِ".

– وقدْ عُوتِبَ الحسنُ رحمهُ اللهُ في شِدَّةِ حُزْنِهِ وخَوْفِهِ، فقالَ: "ما يُؤَمِّنُنِي أنْ يَكُونَ اللهُ تعالَى قَدِ اطَّلَعَ عَلَيَّ في بَعْضِ ما يَكْرهُ فَمَقَتَنِي فقالَ: اذْهَبْ فَلا غَفَرْتُ لكَ". وَقِيلَ له: نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: "أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي".

– وهذا طَاوُسُ بنُ كَيْسَانَ يَتَقَلَّى كما تَتقلَّى الحَبَّةُ في المَقْلَى ثمّ يَثِبُ ويَستقبلُ القِبْلَةَ حتى الصّباح، ويقولُ: "طَيَّرَ ذِكْرُ جهَنَّمَ نَوْمَ الخَائِفِينَ".

– وقالَ مالِكُ بنُ دِينارٍ: "لو اسْتَطَعْتُ لم أَنَمْ مَخافَةَ أنْ ينزِلَ العذابُ، يا أيّها الناسُ النَّارَ النَّارَ".

– فلا تَطْمَعْ في الخوفِ وعَيْنُكَ تَشْتَهِي النَّظَرَ لِزَخارِفِ دُنياكَ، وتُؤْثِرُ ما يَفْنَى على ما اشْتَمَلَتْ عليه مِنَ النَّعِيمِ أُخْراكَ، وقَلْبُكَ يُسْخِطُكَ مَقادِيرَ مَوْلاكَ، وكُلُّ ذلكَ حِجابٌ لكَ وقَسْوَةٌ لِفُؤادِكَ.

– تَأَمَّلْ قولَهُ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قِيلَ لهُ: قدْ دَبَّ الشَّيْبُ في رأسِكَ، فقالَ: "شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخَوَاتُها".

– ولمّا قَرأَ عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه سُورةَ الطُّورِ حتى بَلَغَ قولَهُ تعالى: (إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) بَكى واشْتَدَّ نَحِيبُهُ حتى مَرِضَ وعَادُوهُ، وقالَ وهو يَموتُ بعدما طُعِنَ: "وَيْلِي وويلُ أُمِّي إنْ لمْ يَغْفِرْ لي رَبِّي". وقالَ رضي الله عنه: "وَدِدْتُ أنِّي أنْجُو لا أجْرَ ولا وِزْرَ".

– وكانَ عُثمانُ رضي الله عنه إذا وَقَفَ على القَبْرِ يَبْكِي حتّى يَبُلَّ لِحيَتَهُ ويقولُ: "لو أنّني بينَ الجنّةِ والنّارِ ولا أدْرِي إلى أيّتِهِمَا أصِيرُ لاخْتَرْتُ أنْ أكونَ رَماداً قبلَ أنْ أعْلَمَ إلى أيتِهِمَا أصِيرُ".

– وهذا عَلِيٌّ رضي الله عنه يقولُ: "وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا أَرَى الْيَوْمَ شَيْئًا يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ صُفْرًا شُعْثًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَأَمْثَالِ رُكَبِ الْمِعْزَى، قَدْ بَاتُوا لِلَّهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِباهِهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ، فَإِذَا أَصْبَحُوا فَذَكَرُوا اللَّهَ مَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيحِ، وَهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ ثِيَابَهُمْ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّ الْقَوْمَ بَاتُوا غَافِلِينَ". ثُمَّ نَهَضَ رضي الله عنه، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مُفْتَرًّا يَضْحَكُ.

– يقولُ مُوسى بنُ مَسعودٍ رحمهُ اللهُ: "كُنّا إذا جَلَسْنَا إلى الثَّوريِّ كأنَّ النَّارَ قدْ أحاطتْ بِنا لِمَا نَرَى مِنْ خَوْفِهِ وعَجْزِهِ". وكانَ سفيانُ الثوريُّ يُنادِي: "النَّارَ النَّارَ، شَغَلَنِي ذِكرُ النَّارِ عَنِ النَّومِ والشُّبُهاتِ". وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ مَهديّ: لَمَّا اشْتَدَّ بِسُفيانَ الثوريِّ جَعَلَ يَبكِي. فقالَ لهُ رجلٌ: يا أبا عبدِ اللهِ أراكَ كثيرَ الذنوبِ؟ فرفعَ شيئًا مِنَ الأرضِ، فقالَ: "واللهِ لَذُنُوبِي أهونُ عندِي مِنْ ذَا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ".

– وهذا الضَّحَّاكُ بنُ مُزَاحِمٍ: كانَ إذا أَمْسَى بَكى فيُقالُ لهُ، فيقولُ: "لا أدْرِي ما صَعَدَ اليومَ من عَمَلِي".

– ولَمَّا احْتُضِرَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ الْمُلَائِيُّ بَكى، فقالَ لهُ أصحابُهُ: عَلامَ تَبْكِي، فَوَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ غَضِيضَ الْعَيْشِ أَيَّامَ حَيَاتِكَ؟ فقالَ: "واللهِ ما أبْكِي على الدنيا، وإنّما أبْكِى خوفًا أنْ أُحْرَمَ خَيْرَ الآخِرَةِ".

– وجَزِعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ عندَ موتِهِ، فقيلَ لهُ: لِمَ تَجْزَعُ؟ قالَ أخْشَى آيةً مِنْ كتابِ اللهِ {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} فأنا أخْشَى أنْ يَبْدُوَ لي مِنَ اللهِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ.

– وكانَ يزيدُ الرَّقَاشِيُّ يَبْكِي ويقولُ لأصْحابِهِ: "اِبْكُوا الْيَوْمَ قَبْلَ الدَّاهِيَةِ الْكُبْرَى، اِبْكُوا الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ تَبْكُوا غَدًا، اِبْكُوا الْيَوْمَ قَبْلَ يَوْمٍ لا يُغْنِي فِيهِ الْبُكَاءُ، اِبْكُوا عَلَى التَّفْرِيطِ أَيَّامَ الدُّنْيَا". قَالَ: ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يُرْفَعَ صَرِيعًا مِنْ مَجْلِسِهِ. وكانَ يقولُ: "يَا يَزِيدُ مَنْ يُصَلِّي لَكَ بَعْدَكَ؟ وَمَنْ يَصُومُ يَا يَزِيدُ؟ وَمَنْ يَضْرَعُ لَكَ إِلَى

رَبِّكَ بَعْدَكَ؟ وَمَنْ يَدْعُو؟" فَكَانَ يُعَدِّدُ عَلَى هَذَا وَنَحْوِهِ، وَيَبْكِي وَيَقُولُ: "يَا إِخْوَتَاهُ اِبْكُوا أَوْ بَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَارْحَمُوا كُلَّ بَكَّاءٍ".

- وَفِي الْقَلْبِ شَعَثٌ، لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ، وَفِيهِ وَحْشَةٌ، لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ، وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ، وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسَكِّنُهُ إِلَّا الِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَفِيهِ فَاقَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَصِدْقُ الْإِخْلَاصِ لَهُ، وفيهِ مَرَضٌ لا يَشْفِيهِ إلّا لِقَاءُ مَوْلاهُ في يَوْمِ الْمَزِيدِ، وَمَنْ خَلَى قَلْبُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ والشَّوْقِ إليهِ فَلْيَبْكِ عَلَى مَوْتِ قَلْبِهِ.

- قال بعضُ العَارِفِينَ: "مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنيا، خَرَجُوا مِنَ الدّنيا ومَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فيها، قِيلَ: وما أَطْيَبُ ما فِيها؟ قال: مَحَبَّةُ اللهِ والأُنْسُ بهِ والشَّوقُ إلى لِقَائِهِ، والتَّنَعُّمُ بِذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ".

- وقال آخَرُ: "واللهِ مَا طَابَتِ الدّنيا، إِلّا بِمَحَبَّتِهِ والشَّوقِ إليهِ وطَاعَتِهِ، ولا الجنّةُ إِلّا بِرُؤْيَتِهِ ومُشَاهَدَتِهِ".

- وكان مِنْ دُعاءِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم: "أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ، في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ". صحيح النسائي للألباني.

فَجَمَعَ في هذا الدُّعاءِ العَظِيمِ بينَ أَطْيَبِ شَيءٍ في الدّنيا وأَعْلَى نَعِيمٍ فِيها، وهو الشَّوقُ إلى لِقَائِهِ سُبحانَهُ، وَأَطْيَبِ شَيءٍ في الآخِرَةِ، وأَعْلَى نَعِيمٍ في الجِنَانِ، وهو النَّظَرُ إلى وَجْهِهِ سُبحانهُ.

إِذَا القُلُوبُ خَلَتْ مِنْ حُبِّ خَالِقِها *** فَهْيَ الصُّخُورُ الَّتِي تَحْتَلُّ أَبْدَانا

إِذَا خَلَا الْمَرْءُ مِنْ شَوْقٍ وَمَعْرِفَةٍ *** ظَلَمْتَ نَفْسَكَ لَوْ تَدْعُوهُ إِنْسَانا

- (مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) العنكبوت 5، هذا تَعْزِيَةٌ لِلْمُشْتاقِينَ، وتَسْلِيَةٌ لهم بِرَجَاءِ اللِّقَاءِ، أَيْ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَائِي فَهُوَ مُشْتاقٌ إِلَيَّ فَقَدْ أَجَّلْتُ لهُ أجلاً يكونُ عَنْ قَرِيبٍ، فَإِنَّهُ آتٍ لا مَحالَةَ، وكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ.

لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ لَقُطِّعَتْ *** نَفْسُ الْمُحِبِّ صَبَابَةً وتَشَوُّقا

وَلَقَدْ يَكَادُ يَذُوبُ مِنْهُ قَلْبُهُ *** مِمَّا يُقَاسِي حَسْرَةً وَتَحَرُّقا

حَتَّى إِذَا رَوْحُ الرَّجَاءِ أَصَابَهُ *** سَكَنَ الْحَرِيقُ إِذَا تَعَلَّلَ بِاللِّقَا

- وفِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "فَواللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِهِ". مسلم والترمذي، وفِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ، ورَأَوْا وجْهَهُ عِياناً نَسُوا ما هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وذَهَلُوا عَنْهُ، ولَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ".

وقَدْ كانَ صلى الله عليه وسلم يَفْرَحُ بِالْمَطَرِ ويَتَلَقَّاهُ بِثَوْبِهِ ويقولُ: "إِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ" مسلم وأبو داود. وفِي هذا مِنَ الشَّوقِ إلى الْمَوْلَى عزّ وجلّ ما فيهِ.

يَا مَنْ يُذَكِّرُنِي بِعَهْدِ أَحِبَّتِي ** طَابَ الْحَدِيثُ بِذِكْرِهِمْ وَيَطِيبُ

أَعِدِ الْحَدِيثَ عَلَيَّ مِنْ أَطْرَافِهِ ** إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ

مَلَأَ الضُّلُوعَ وَفَاضَ عَنْ جَنَبَاتِهَا ** قَلْبٌ إِذَا ذُكِرَ الْحَبِيبُ يَذُوبُ

مَا زَالَ يَخْفِقُ ضَارِباً بِجَنَاحِهِ ** يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَطِيرُ قُلُوبُ

- وكانَ أبو الدَّرْداءِ رضي الله عنه يقولُ: "أُحِبُّ الموتَ اشْتِياقاً إلى رَبّي".

- وقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عِنْدَ مَوْتِهِ: "اللهمَّ إِنِّي أُحِبُّ لِقَاءَكَ فَأَحِبَّ لِقَائِي".

- يقولُ أبو عُتْبَةَ الخَوْلانِيُّ: "كانَ إِخْوانُكُمْ لِقَاءُ اللهِ أَحَبَّ إليهِمْ مِنَ الشُّهْدِ".

- وقالَ عبدُ اللهِ بنُ زكريّا: "لو خُيِّرْتُ بينَ أنْ أَعِيشَ مِائَةَ سَنَةٍ في طاعةِ اللهِ أوْ أُقْبَضَ في سَاعَتِي هذهِ لاخْتَرْتُ أنْ أُقْبَضَ في سَاعَتِي هذهِ، شَوْقاً إلى اللهِ وإلى رسولِهِ، وإلى الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ".

- وقالَ عُبَيْدُ اللهِ التَّيْمِيُّ: سَمِعْتُ امْرَأَةً مِنَ الْمُتَعَبِّداتِ تقولُ: "واللهِ لو وَجَدْتُ الموتَ يُباعُ لاشْتَرَيْتُهُ شَوقاً إلى لِقَاءِ اللهِ وحُبّاً لِلِقَائِهِ، قالَ فقُلتُ لها: أَفَعَلَى ثِقَةٍ أَنْتِ مِنْ عَمَلِكِ؟ قالتْ: لا، ولَكِنْ لِحُبِّي إِيَّاهُ، وَحُسْنِ ظَنِّي بِهِ، أَفَتَرَاهُ يُعَذِّبُنِي وأنا أُحِبُّهُ؟".

- وكانَ الفتحُ رحمهُ اللهُ يقولُ: "قد طَالَ شَوقِي إليكَ فَعَجِّلْ قُدُومِي عليكَ".

- وكانَ عبدُ الواحدِ بنُ زَيْدٍ رحمهُ اللهُ يقولُ: "وَعِزَّتِكَ لا أَعْلَمُ لِمُحِبِّيكَ فَرَحاً دونَ لِقَائِكَ، والاشْتِفَاءِ مِنَ النَّظَرِ إلى جَلالِ وَجْهِكَ في دَارِ كَرامَتِكَ". وكانَ يقولُ رحمهُ اللهُ: "يَا إِخْوَتَاهُ، أَلَا تَبْكُونَ شَوْقاً إلى اللهِ عزّ وجلَ؟ أَلَا إِنَّهُ مَنْ بَكَى شَوقاً إلى سَيِّدِهِ لم يَحْرِمْهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ".

- وكانَ السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ يقولُ:

مَنْ لَمْ يَبِتْ وَالْحُبُّ حَشْوُ فُؤَادِهِ *** لَمْ يَدْرِ كيفَ تُفَتَّتُ الأَكْبادُ.

– وَرُوِيَ عَنِ الْعَابِدَةِ شَعْوَانَةَ رَحِمَهَا اللهُ أنّها كانتْ تقولُ في مُناجَاتِهَا: "إِلهي ما أشْوَقَنِي إلى لِقَائِكَ، وأَعْظَمَ جَزَائِي لِجَزَائِكَ، وأنتَ الكريمُ الذي لا يَخِيبُ لَدَيْكَ أَمَلُ الآمِلِينَ، ولا يَبْطُلُ عِنْدَكَ شَوْقُ الْمُشْتَاقِينَ".

– وَيَقُولُ ابنُ الجوزيّ رَحِمَهُ اللهُ: "قُلوبُ القومِ في الدُّجى قَلِقَةٌ، وَأَفْئِدَتُهُمْ مِنَ الخَوْفِ مُحْتَرِقَةٌ، وجُفُونُهُمْ مِنَ البُكاءِ غَرِقَةٌ، وعُرُوقُ الْمَحَبَّةِ في سُوَيْدَائِهِمْ عَلِقَةٌ، والآمَالُ إليهِ في كُلِّ وقتٍ مُنْطَلِقَةٌ، وما عَادَتْ قَطُّ إِلَّا وهي بِالشَّوقِ عَبِقَةٌ".

– اللهمَّ إنّا نَسأَلُكَ نعيمًا لَا ينفَدُ، ونَسالُكَ قرَّةَ عينٍ لا تنقَطِعُ، ونَسأَلُكَ الرِّضَى بعدَ القضاءِ، ونَسأَلُكَ برْدَ العيشِ بعدَ الموْتِ، ونَسأَلُكَ لذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ، والشوْقَ إلى لقائِكَ، في غيرِ ضراءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ.

127) كَمَا لا يُحِبُّ العَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، كَذَلِكَ لا يُحِبُّ القَلْبَ الْمُشْتَرَكَ، العَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ.

- العَمَلُ المُشْتَرَكُ هو الذي يُداخِلُه ثلاثةُ أحوالٍ:

1- الرِّياءُ وهو العَمَلُ على رُؤْيَةِ الخلْقِ.
2- والتَّصَنُّعُ وهو تَحْسِينُ العملِ والتّكَلُّفُ بالهَيئاتِ وغيرِها لأجْلِ الخلْقِ.
3- والعُجْبُ وهو رُؤْيةُ النَّفْسِ في العَمَلِ.

فالرِّياءُ قَادِحٌ في صِحَّةِ العملِ، وما بعدَه قَادِحٌ في كَمَالِه.

والرّبُّ سبحانَه وتعالى إنَّمَا يَرضى بِعَمَلٍ خالصٍ لوجْهِهِ، مُخْلَصٌ مِنْ شَوائِبِ الالتِفاتاتِ لغيرِه.

- والقلبُ المُشْتَرَكُ هو الذي دَاخَلَهُ الهوَى والشَّهْوةُ والأُنْسُ بالخلقِ والاستِنَادُ إليهِم، وكذلكَ الأنْسُ بالعَوَائِدِ والأسْبابِ والاعتِمَادِ عليها دونَ الحقِّ وذلكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ.

- العَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ، وعملٌ لا يَقْبَلُهُ مَرْدُودٌ على صاحبِه، وقلبٌ لا يَقْبَلُهُ مقطوعٌ عنه، وكلٌّ منهما مُصِيبةٌ لا نِهايةَ لها في الدنيا ولا في الآخرةِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

- وإنّما كانَ الأمرُ كذلكَ لوُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: إكْرَاماً للعَبْدِ عنْ أنْ يَكُونَ بالعُبوديّةِ لغيرِ مَوْلاهُ في حالةٍ مِنْ أحْوالِه.

الثاني: إفْراداً لِوَجْهِهِ حتّى لا يَتَحَيَّرَ في تَوَجُّهِهِ ولا يَشْغَلَهُ شاغِلٌ فيما هو به عَمَّنْ هو له، لأنّ قَصْدَ ما لَهُ أمثالٌ يُوجِبُ التَّنازُعَ والانتِقالَ، وقَصْدَ فَرْدٍ بِنِيَّةٍ مُفرَدَةٍ مُريحٌ مِنْ كُلِّ تَعَبٍ.

الثالثُ: أنّ الحَقَّ سبحانَه كانَ لكَ في كُلِّ شيءٍ مِنكَ، فَوَجَبَ أنْ تكونَ له بِكُلِّ شيءٍ فيكَ، مِنْ غيرِ إدخالٍ لِعِلَّةِ الغيرِ في مُعامَلَتِه اعتباراً بِعِزِّ جَلالِه،

- وفي الحديثِ عنِ النبيّ ﷺ: "لا أحَدَ أغْيَرُ مِنَ اللَّهِ". (البخاري).

- وقال ﷺ فيما يَرويهِ عَنْ رَبِّهِ: "قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ". (مسلم)

128) أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الْوُصُولِ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ.

– ومعنى الأنْوَارِ، الظِّلالُ الواقِعَةُ في الصَّدْرِ مِنْ مَعانِي الأسماءِ والصِّفاتِ وما يَرجِعُ إليهما. أنْوارٌ أُذِنَ لها في الوُصولِ إلى ظاهرِ القلبِ فقط، وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدُّخولِ إلى صَميمِ القلبِ وسُوَيْدائِهِ، فالأنوارُ الواصِلَةُ إلى ظاهرِ القلبِ يُشاهِدُ العبدُ معها نَفْسَه وربَّه ودُنياهُ وآخِرَتَه، فيكونُ تارةً مع نَفْسِه وتارةً مع رَبِّه، وطَوْراً يَسعَى في العملِ لآخِرَتِه وطوراً يعملُ في أُمورِ دنياه، والأنوارُ الداخِلَةُ إلى صَمِيمِ القلبِ وسُوَيْدائِه لا يَظْهَرُ فيها إلّا وُجُودُ اللهِ عزَّ وجلَّ، فلذلِكَ لا يُحِبُّ سِواهُ ولا يَعبدُ إلّا إيّاهُ.

– قالَ بعضُ العارِفينَ: "إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ كانَ العبدُ مُحِبّاً لِآخِرَتِه ودُنياهُ، وكانَ مَرّةً مع نَفْسِه ومرّةً مع ربِّه، وإذا دخلَ الإيمانُ إلى بَاطِنِ القلبِ أَبْغَضَ العبدُ دُنياهُ، وهَجَرَ هَواهُ".

– قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ رحمهُ اللهُ: "ومَحَبَّةُ العبدِ ذلكَ أنْ يَنْظُرَ، فإنْ كانَ يُؤْثِرُ اللهَ تعالى على جَمِيعِ هواهُ، ويَغلِبُ مَحَبَّتَه على هواهُ، حتّى تَصيرَ مَحَبّةُ اللهِ هي مَحَبّةَ العبدِ مِنْ كُلِّ شيءٍ، فهو مُحِبٌّ للهِ تعالى حقّاً كما أنّه مُؤمِنٌ به حقّاً، وإنْ رَأَيْتَ قلْبَكَ دونَ ذلك، فلكَ مِنَ المَحَبّةِ بِقَدْرِ ذلكَ".

– وعَلامةُ الدّاخِلِ على القَلْبِ ثلاثةُ أشياءَ:

أحدُها: النّدَمُ على الفائتِ بِوَجْهٍ يَقْتَضِي التّنَصُّلَ مِنْ بَقاياهُ والتّلَهُّفَ على وُقُوعِهِ أبداً.

الثّانِي: الضِّنَّةُ بالوَقْتِ حتّى لا يُصْرَفَ في غيرِ مُهِمٍّ، ولا يُشْغَلَ بِمَفْرُوغٍ منه، ولا يُتَوَسَّعَ في غيرِ مَطلوبٍ.

الثالثُ: جَرْيُ الجوارِحِ على حَسَبِ ما تُعْطِيهِ حَقِيقةُ ذلكَ النُّورِ مِنْ غيرِ تَخَلُّفٍ في وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ العَمَلِ اللّازِمِ له.

– وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ، قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ".

فأَرْشَدَ إلى أنَّ علامةَ دُخُولِ النُّورِ لِلقلبِ ظُهُورُ أَثَرِهِ في الخارِجِ.

– وعَلامةُ النُّورِ الوَاصِلِ الذي لم يَدخُلِ القلبَ ثلاثةٌ:

أوّلُها: وجُودُ التّأثُّرِ بالخُشُوعِ والخُضُوعِ وتَغَيُّرِ البَشَرَةِ والقلبِ، مِنْ غيرِ أَثَرٍ في الخارجِ مِنْ عَمَلٍ ولَا حَالٍ.

الثّاني: انبِسَاطُ القلبِ في مَعاني ما تَجَلَّى له، واتِّساعُ وجُوهِ فَهْمِه، مِنْ غيرِ نَتِيجَةٍ في بابِ العَمَلِ الخارِجيّ.

الثّالثُ: انْطِلاقُ اللِّسانِ، واتِّساعُ البَيانِ، وجُرْأَةُ البَنَانِ، مِنْ غيرِ احْتِشامٍ ولا احْتِرامٍ، ولا تَوَقُّفٍ عندَ الأَدَبِ، ولا خوفٍ ولا حياءٍ ولا هَيْبَةٍ ولا إجلالٍ ولا إعْظامٍ.

وهذه كُلُّها علامةُ الخُسرانِ؛ إذْ يُؤَدِّي إلى الدَّعْوَى والاغْتِرارِ والأُنْسِ به عنْ طَلَبِ مَراتِبِ الكَمالِ.

129) رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ، فَوَجَدَتِ الْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ الآثَارِ، فَارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ.

– ربّما وَرَدَتْ عليكَ الأنوارُ لِتَصِلَ لِلقلبِ أو تدخُلَهُ فَوَجَدَتِ الْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ الآثَارِ مِنَ الشَّهَواتِ والعاداتِ وغيرِها، فَارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ، ورَجَعَتْ مِنَ الطَّرِيقِ الذي منه أَقْبَلَتْ؛ إذْ وَجَدَتِ المَحَلَّ غيرَ قابلٍ بما فيه مِنَ القَبائِحِ والرَّذائِلِ، وإلّا فهي لا تَتَوَقَّفُ على عِلَّةٍ ولا سَبَبٍ. وكما قِيلَ:

حَاشَاهُمْ أَنْ يَحْرِمُوكَ وَإِنَّمَا *** مَنَحُوا الْوِصَالَ مَنِ اسْتَقَامَ وَاهْتَدَى

– رُبّما تَلَمَّحَ القلبُ شيئاً مِنَ المعارِفِ ونحوِها، وطافَتْ به، ثم إنّها لم تَثْبُتْ فيه ولم تُداخِلْهُ، فَخَرَجَ مِنْ بِساطِ الهَوَى ما صَرَفَها عنه، مِنْ مَعْصِيَةٍ أو شَهْوَةٍ أو غَفْلَةٍ، فذَهَبَ في هَزِّ الرُّؤُوسِ وتَقْطِيرِ العُيُونِ، وما ذَاكَ إلّا لِمَا انْطَبَعَ مِنْ صُوَرِ الآثارِ في مِرْآةِ القلبِ. وعَلامَتُه ثلاثٌ:

أحدُها: أنْ يَتَأَثَّرَ بما سَمِعَ أو رَأَى أو ذَكَرَ، أو تَذَكَّرَ، ولا يَجِدُ له في الخارجِ فائِدةً.

الثاني: أنْ تَتّسِعَ دائِرةُ فَهْمِه ولا يَنتَهِي بها إلى التّحَقُّقِ بِعِلْمِه وإنْ أوصَلْتُه إلى التّحْقِيقِ فيه.

الثالثُ: أنْ يُمَيِّزَ الحَقَّ ويَجِدَ في نَفْسِه أين هو منه، ويَعرِفَ الباطِلَ ويُمَيِّزَ أين هو منه، ثم لا يَعْمَلُ عليهما، ولو دَخلَ قَلبَه لَمَا أَمْكَنَهُ التّخَلُّفُ في شيءٍ من ذلك.

– ووُرُودُ الأنوارِ للقلبِ: هو ظُهُورُها في عَوالِمِ الصَّدْرِ حتّى يَبدُوَ حُسْنُ الحَسَنِ وقُبْحُ القبيحِ، ووجْهُ الحقِّ والباطِلِ والحقيقةِ وغيرِها، وذلك كلُّه محجُوبٌ عنْ مُباشَرَةِ القلبِ ما لم يُوجِبْ وجُودَ العملِ على مُقْتَضاهُ النّاشِئِ عنْ دُخُولِه باطِنَ القلبِ، ولا حِجابَ له سِوَى ما سَبَقَ مِنِ اشتغالِهِ بالأكوانِ على أحدِ وُجُوهٍ ثلاثَةٍ:

أحدُها: النَّظَرُ لها فيما يَرِدُ ويَصْدُرُ اعْتِمَاداً واسْتِنَاداً، وذلك هو الحِجَابُ عَنِ الحقائِقِ والأحْوَالِ.

الثاني: التّعَلُّقُ بها اسْتِحْسَاناً واسْتِقْبَاحاً، فيَشْتَغِلُ بها القلبُ رَدّاً وقَبُولاً واسْتِيناساً واسْتِيحاشاً، وذلك حِجَابٌ عَنْ إفْرادِ القلبِ للحَقِّ سُبحانَه.

الثالثُ: الاشْتِغَالُ بها دَفْعاً وجَلْباً مِنْ حيثُ الشَّهَواتُ وغيرُها، وذلك حِجَابٌ عَنِ التّحَقُّقِ بما يَرِدُ أو يُرادُ.

وجُملةُ ذلكَ أنْ يَعرِضَ قولَه على عَمَلِه فلا يَتَطابَقانِ، ويُطَبِّقَ عمَلَهُ على عِلْمِه فلا يَتَوافقانِ.

130) فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَارِ، يَمْلَأْهُ بِالْمَعَارِفِ وَالأَسْرَارِ.

– الأَغْيَارُ: جَمْعُ "غَيْرٍ" وهو كُلُّ ما سِوَى الحَقِّ سُبْحانَه. والمَعارِفُ: ما يَرِدُ على القلبِ مِنْ فُتُوحاتِ الحَقِّ المُتَعلِّقَةِ بتَوحيدِه وتَرْكِ ما سِواهُ، وهي أيضاً عُلُومُ الوَهْبِ الرّاجِعَةُ لِمَعاني الأسماءِ والصِّفاتِ. والأَسْرَارُ: العُلُومُ الدَّقِيقَةُ الجَارِيَةُ على سَنَنِ الحَقِيقَةِ.

– فالمَطْلُوبُ مِنَ العبدِ أنْ يُطَهِّرَ قلبَهُ مِمّا سِواهُ، لأنّه لا يَرضَى معهُ بشَرِيكٌ، فإذا فَرّغَ العبدُ قَلْبَهُ مَلأَهُ بأنْوَارِه ومَعارِفِه وأسْرارِه.

– فَرِّغْ قلبَكَ مِنَ الأغْيارِ المُوجِبَةِ للأكْدَارِ، وذلك أنْ تَجْتَهِدَ في إزالَتِها حتّى تَنقلِبَ عندكَ دلائِلَ على خَالِقِها وشَواهِدَ على مَالِكِها، يَمْلَأْهُ الحَقُّ سُبحانَه بالمَعارفِ والأسرارِ الإلهيةِ، لأنّ الأغيارَ والأسرارَ ضِدّانِ لا يَجتمعانِ.

– وإنّما يَمتلِئُ القلبُ بما ذُكِرَ إذا أُفْرِغَ مِمّا ذُكِرَ لثلاثةِ أوجُهٍ:

أحدُها: أنّ القلبَ ليسَ له إلّا وِجْهَةٌ واحِدةٌ، فإذا فُرّغَ مِنْ شيءٍ عُمِّرَ بِمُقابِلِه.

الثاني: أنّ شُرُوقَ الأنوارِ على حَسَبِ صَفاءِ الأسْرارِ، وصَفاءَ الأسرارِ على قَدْرِ بُعْدِها عَنِ الأغيارِ.

الثالثُ: أنّ وُرُودَ الإمْدادِ بِحَسَبِ الاسْتِعدادِ، وكَرامةَ اللهِ للعبدِ على قَدْرِ فِرارِه مِنْ غَيرِه، وبُعْدَهُ عنه على قَدْرِ تَعَلُّقِه بِسِواهُ.

- ويَرحمُ اللهُ سَرِيَّ السَّقَطِيِّ القائِلَ:

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى *** حَلَلْتُ مَحِلَّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيل

وَأَغْضَيْتُ الْجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا *** وَصُنْتُ النَّفْسَ عِنْ قَالٍ وَقِيل

- وقالَ بعضُ الحُكَماءِ: "لا تَطْمَعْ أنْ تَصْحُوَ وبِكَ عَيْبٌ، ولا تَطْمَعْ أنْ تَنْجُوَ وعليكَ ذنبٌ".

قالَ اللهُ تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). العنكبوت 69.

131) لا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ النَّوَالَ، وَلَكِنِ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبَالِ.

– لأنَّ الإقْبالَ هو بِساطُ النَّوالِ، ومَنْ أَتَى بَابَ الكريمِ بالأَدَبِ جَدِيرٌ بِتَحصِيلِ المَقْصَدِ والأَرَبِ، لأنّهُ قد أَتَى الأَمْرَ مِنْ بابِه، وتَوَسَّلَ له بِوُجُودِ أسبابِه، ومَنْ كانَ على العَكْسِ كانَ جَدِيراً بالحِرْمَانِ، لأنّ طلَبَ النّوالِ بدونِ الإقبالِ إتيانٌ للأمرِ مِنْ غيرِ بابِه، وتوسُّلٌ له بغيرِ وجُودِ أسبابِه، والاهتمامُ بالـمُسَبَّبِ دُونَ إعمالِ السَّبَبِ ولا التّهَمُّمِ به جَهلٌ وحُمقٌ.

– قال مَعروفٌ الكَرْخِيُّ رحمهُ اللهُ: "طَلَبُ الجنَّةِ بِلا عَملٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنوبِ، وارتِجاءُ الشّفاعةِ بِلا سَبَبٍ نَوعٌ مِنَ الغُرورِ، وارتجاءُ رحمةِ مَنْ لا يُطاعُ حُمْقٌ وجَهلٌ".

– لا تَسْتَبْطِئْ أيُّها العبدُ مِنْ رَبّكَ العَطَاءَ، فإنّه يُنَزّلُه بِحِكْمَتِه فيما يَختارُهُ لكَ، وفي الوقتِ الذي يُريدُ. فتقولُ: أرَدْتُ الفَتْحَ فَلَمْ يُفْتَحْ لي، ولكنِ اسْتَبْطِئْ مِنْ نفسِكَ وُجُودَ الإقبالِ عليه، بِتَرْكِ ما عَداهُ، وتَسْلِيمِ الأمْرِ إليه، فإنّ مَنْ تَعلَّقَ بالأغيارِ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ مِنَ الأخيارِ، فاصْدُقْ في الإرادَةِ تَنَلْ منه الحُسنَى وزِيادةً.

– وقد تَقَدَّمَتِ الحِكْمَةُ على هذا المعنى عندَ قولِه: "لا تُطالِبْ رَبَّكَ بِتأْخِيرِ مَطْلَبِكَ، ولكنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتأخيرِ أَدَبِكَ". والعبارتانِ مُتّفِقتانِ معنًى وإنِ اختلَفَتا لفظاً.

- وإنّما أُمِرْتَ باسْتِبْطاءِ ما مِنْكَ إليه، لا بما مِنهُ إليكَ، لثلاثةِ وُجُوهٍ:

أحدُها: أنّه جَعَلَ ما مِنكَ إليه بِسَاطَ ما مِنُهُ إليكَ، حتّى تكونَ له بما يكونُ لكَ قبلَ كَونِه، فلا يَصِحُّ إعراضُكَ عنه بما يَرِدُ عليكَ ممَا تُرِيدُ.

الثاني: أنّ ما مِنكَ إليه حقُّ رُبوبِيّتِه عليكَ، وما منه إليكَ حظُّ نفسِكَ منه، ولَأَنْ تكونَ بحقِّ رَبِّكَ أَوْلَى مِنْ أنْ تكونَ بحظِّ نفسِكَ.

الثالثُ: أنّ ما مِنه إليكَ لا يَفُوتُ؛ لوُجُودِ غِنَاهُ وقُدْرَتُه وعدَمِ تأثُّرِه بالعَوارِضِ، وما مِنكَ إليه يَفُوتُ لوُجُودِ العَوارِضِ الدَّافِعَةِ عنه التي منها حُصُولُ أَرَبِكَ المُشْعِرُ بوُجُودِ غِناكَ وإنْ كانَ عَرَضِيّاً.

فَتَرتِيبُ العُبوديّةِ عندَ مُثِيراتِ الأسْبَابِ إنّما هو لِتَحْصِيلِ الكَمالِ بِطَرِيقِ العَوائِدِ، وهي مِنْ جَمِيلِ إحْسَانِ الحَقِّ وتَيْسِيرِهِ سَبِيلَ المِنَّةِ له.

132) حُقُوقٌ فِي الأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، وَحُقُوقُ الأَوْقَاتِ لا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَللهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيْهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللهِ فِيهِ؟

– الحُقُوقُ التي في الأوقاتِ هي ما يَقَعُ اسْتِئْنافُه بِتَجدُّدِ سَبَبِه بعدَ انْتِفائِه، مع اتِّساعِ الزَّمَنِ لإيقاعِه، والواجبُ مِنْ ذلك ثلاثةُ أنواعٍ:

أوّلها: ما وَقْتُهُ العُمُرُ كالحَجِّ وسُنَّتِه العُمْرَةِ.

الثاني: ما وقْتُهُ السَّنَةُ أو ما في حُكْمِها، وهو الصومُ والزّكاةُ، وتَتْبَعُها سُنَنٌ مؤَكّدَةٌ وغيرُ مؤكّدةٍ.

الثالثُ: ما يَتَجدَّدُ بِتَجَدُّدِ الأيامِ والأوقاتِ وهو الصلاةُ، وقد يَخْتَصُّ بعضُها بأسبابٍ كالجمُعَةِ.

وكلُّ هذه يُمكِنُ قَضاؤُها إذا فاتَتْ، يَعنِي إذا أُخِّرَ فِعلُها عن زَمَنِ مَطلوبِيَّتِها، ثمّ هي وإنْ كانَ القضاءُ فيها مُمكِناً قد يَتعذَّرُ بِصارِفٍ أو قاهِرٍ فلا يُمكِنُ، وكلُّ ذلك لبقاءِ فُسحَةٍ مِنَ الزّمانِ خَلِيَّةٍ عنِ التّكليفِ بإيقاعِها، إنْ لم تكنْ وَجَبَتْ، أو قد فُرِغَ منها.

– والحقوقُ المُتَعَلِّقَةُ بأعيانِ الأوقاتِ (حقوقُ الأوقاتِ) هي أحكامُ مَا تَجرِي به مِنْ نقْصٍ وكمالٍ في جميعِ الأحوالِ، وهي أربعةُ أحوالٍ:

أوّلُها: الطّاعةُ، وهي كَمالٌ وخيرٌ، حَقُّكَ فيها شُهُودُ المِنَّةِ المَقْرونُ بالحَمْدِ عليها، والشُّكرِ على التّوفيقِ لها تَبَرِّياً مِنَ الدّعوَى ورُؤيةِ الحَوْلِ والقوّةِ.

الثاني: المَعْصِيَةُ، وهي نَقْصٌ وإخْلالٌ، وحَقُّكَ فيها المُبادَرَةُ إلى التوبةِ والاستغفارِ المَقْرُونِ بالنَّدَمِ على ما اجْتُرِمَ، والأَسَفِ على ما سَلَفَ، والتَّشْميرِ في المُسْتأنَفِ، بدلاً مِنَ الإعْراضِ في السَّالفِ.

الثالثُ: النِّعْمَةُ التي هي حُصُولُ نَفْعٍ ما، وحقُّكَ فيها بَذْلُ المَجْهُودِ بالشُّكرِ عليها بما تَقتضِيهِ، ولُزُومُ ما يَطلبُهُ الحَقُّ منكَ فيها ويَرتَضِيهِ.

الرّابعُ: البَلِيَّةُ، وهي ما يَجْرِي بالمُضِرَّاتِ على أيِّ نوعٍ كانتْ، وحَقُّكَ فيها وُجُودُ الصَّبرِ لِحُكْمِ مَولاكَ، والتّوبةُ له مِنَ الذُّنُوبِ المُقْتَضِيَةِ لِذاكَ، إذْ (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)، والحَمْدُ له على أنْ كانتْ أصْغَرَ مِنْ أكْبَرَ، وأقَلَّ مِنْ أكْثَرَ، وفي الدُّنيا لا في الدِّينِ، إلى غيرِ ذلك.

– يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ في (التنوير) عنْ أوقاتِ العبدِ: "هي إذاً أربعةٌ: طاعةٌ، ومعصيةٌ، ونِعْمَةٌ، وبَلِيّةٌ، وهي أربعٌ لا خامسَ لها، وللهِ عليكَ في كُلِّ واحدٍ مِنْ هذه الأربَعِ عُبوديَّةٌ يَقْتَضِيها منكَ بِحُكْمِ الرُّبوبيّةِ، فَحَقُّه عليكَ في الطاعةِ شُهُودُ المِنّةِ منه عليكَ فيها، وحَقُّه عليكَ في المَعْصِيَةِ الاسْتِغْفَارُ ممّا ضَيَّعْتَ فيها، وحَقُّه عليكَ في البَلِيَّةِ الصَّبْرُ معه عليها، وحَقُّه عليكَ في النِّعْمَةِ وجُودُ الشُّكرِ منكَ فيها".

وهذا الكلامُ النَّفِيسُ هو جَوابُ الإمامِ أبي العبّاسِ المُرسِيّ لِتِلْمِيذِهِ ابنِ عَطاءِ اللهِ عندما شَكَا له ما يَجِدُهُ مِنْ هُمُومٍ وأحْزَانٍ. (كما في لطائفِ المِنَنِ).

وبالجُملةِ فلِلَّهِ عليكَ في كُلِّ وقتٍ سَهْمٌ مِنَ العُبوديةِ، يَقْتَضِيهِ مِنْكَ بِحُكْمِ الرُّبوبيّةِ، بحيثُ لا يُمكِنُكَ أنْ تَتَفرَّغَ لِغيرِه إلّا بِتَقْصِيرٍ منكَ، كما أشارَ إليه بقولِه: إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَللهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيْهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللهِ فِيهِ؟

– فأشارَ بقولِه: مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ، لتَعلِيلِ حُقوقِ الأوقاتِ بِتَجَدُّدِ حقِّ الحَقِّ فيها أبداً؛ لأنّكَ عبدٌ، والعبدُ مطلوبٌ بِحَقِّ العبوديةِ في كلِّ نَفَسٍ، وذلك يَقْتَضِي له مُراقَبَةَ الربوبيةِ على مَرِّ الأنْفاسِ وإنْ كانَ غيرَ مُطالَبٍ معها، فَمَآلُ الأمرِ راجعٌ لذلكَ.

– وبَينَ قولِه حَقٌّ جَدِيدٌ، وأَمْرٌ أَكِيدٌ، مُغايَرَةٌ في المعنى المقصودِ، فالحقُّ الجديدُ ما يَقتَضِيه الوقتُ مِنْ شُكرٍ أو صَبْرٍ أو تَوْبَةٍ أو رُؤيةِ مِنَّةٍ أو غيرِ ذلكَ، والأَمْرُ الأَكِيدُ هو ما يَتَفَرَّعُ عن ذلك مِنْ وجْهِ القِيامِ به حَسَبَ ما يقتَضِيه، كالصَّدَقَةِ مِنْ نِعْمَةِ المَالِ، وردِّ المَظالِمِ تَحْقِيقاً للتَّوْبَةِ، وعَدَمِ الشَّكْوَى في بَلِيّةِ المَرَضِ، والتّوبةِ سِرّاً في مَعْصِيَةِ السِّرِّ، وجَهْراً في مَعْصِيَةِ الجَهْرِ، وإِظْهَارِ التَّبَرِّي مِنَ الحَولِ والقُوَّةِ عندَ عُرُوضِ الدَّعوَى بالطّاعةِ، إلى غيرِ ذلكَ.

– وحَقُّ الغَيْرِ هنا ما يَقْتَضِيه شاهِدُ العُرْفِ والأُلْفَةِ ونحوِهما ممّا يُوجِبُ وجُودَ الغفلةِ عَنِ الحقِّ، لا ما وجَبَ شرعاً ولم يُنافِ وجُودَ شَرْعٍ.

– وإنّما كانَ حقُّ اللهِ تعالى أوجَبَ، بل لا واجِبَ غيرُه، لوُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنّكَ مِلْكٌ له، والـمَالِكُ مُسْتَحِقٌّ لِمَا مَلَكَ، لا حَقَّ لأَحَدٍ فيه سِواهُ، فَحَقُّه مُقَدَّمٌ على غيرِه، بل قَضاءُ حَقِّ الغيرِ تَعَدٍّ عليه، إلّا بأمرِهِ فيَصِيرُ حقّاً له.

الثاني: أنّه الـمُنْعِمُ عليكَ في وُجُودِكَ ومَوْجُودِكَ دُونَ نِسْبَةٍ لأَحَدٍ، فوجُودُ شُكرِهِ وامْتِثَالُ أَمْرِهِ مُقَدَّمٌ على كُلِّ شيءٍ بطريقِ شُكرِهِ.

الثالثُ: أنّه سُبحانَه إنّما يَدعُوكَ لِمَا فيه نَفْعُكَ، لا لِأَمْرٍ يَعُودُ منكَ إليه، فسَعْيُكَ في مُعامَلَتِه عائِدٌ عليكَ بالـمَنْفَعَةِ لِثُبُوتِ غِناهُ، ولا يَصِحُّ لِعاقِلٍ تَفْوِيتُ مَنْفَعَتِه لوجُودِ مَنفَعَةِ غيرِه، مع وجُودِ مَضَرَّتِه بوجُودِ نقْصِه ولُحُوقِ مُصِيبَتِه.

وبالـجُمْلَةِ فَقَضاءُ اللهِ أَحَقُّ، وشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ، (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ). التوبة 62.

133) مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لَا عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيمَةَ لَهُ.

- لو عَلِمْتَ أنَّ ما فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ له، لم تَصِحَّ منكَ غَفلَةٌ ولا إهمالٌ، ولَكُنْتَ تأخُذُ بالعزمِ والحزمِ، بحيثُ تُبادِرُ الأوقاتَ وتُراقِبُ الحالاتِ خَوْفَ الفواتِ، عَاملاً على قولِ القائلِ:

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قَوْلاً وفِعْلاً *** حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

- وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ إذا عَلِمْتَ أنّه لَا قِيمَةَ لَهُ، كُنتَ تَستَغْرِقُ أوقاتَكَ في شُكْرِ الحاصِلِ وتَحصيلِ الوَاصِلِ، فقدْ قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: "بَقِيّةُ عُمُرِ المرْءِ ما لها ثَمَنٌ؛ يُدْرِكُ بها ما فاتَ، ويُحْيِي ما ماتَ".

وقد نَظَمَهُ أبو الفتحِ البُسْتِيُّ فقال:

بَقِيَّةُ العُمُرِ عِنْدِي مَا لَهَا ثَمَنٌ *** وإنْ غَدَا خَيْرُ مَحْبُوبٍ بِلَا ثَمَنِ
يَسْتَدْرِكُ الْمَرْءُ فِيهَا مَا أَفَاتَ وَيُحْ *** يِي مَا أَمَاتَ وَيَمْحُو السُّوءَ بِالْحَسَنِ

- رَوَى أبو داودَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ". (قال الألباني: حسن صحيح).

– وعنه أيضاً عن النبيّ ﷺ قالَ: "مَا جَلَسَ قَومٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكرُوا الله تَعَالَى فِيهِ ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهم فِيهِ إلاَّ كانَ عَلَيّهمْ تِرةٌ، فإِنْ شاءَ عَذَّبَهُم، وإنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُم". (رواه الترمذي وقال حديث حسن).

– فإنْ كانَ عَامِلاً تَحَسَّرَ على كَوْنِ عَمَلِه أَقَلَّ بالنِّسْبَةِ إلى عَمَلِ غيرِه، وإنْ كانَ غَافِلاً كانتْ حَسْرَتُه على غَفْلَتِه.

ورحِمَ اللهُ القائِلَ:

مَا مَضَى فَاتَ والْمُؤَمَّلُ غَيبٌ *** وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

– وقِيلَ: "الأوقاتُ ثلاثةٌ: وقتٌ مَضَى فلهُ ما وَقَعَ فيه، ووقتٌ يأتِي لا تَدرِي ما اللهُ صَانِعٌ فيه، ووقتٌ أنتَ فيه فأنتَ مُطالَبٌ به".

– فعُمُرُ العبدِ مَيدانٌ لأعْمَالِه الصّالِحَةِ المُقرّبَةِ له مِنَ الله تعالى، والمُوجِبَةِ له جَزيلَ الثّوابِ في الدّارِ الآخِرَةِ، وهذه هي السَّعادَةُ التي يَكدَحُ العَبْدُ ويَسْعَى مِنْ أجْلِها، وليسَ له منه إلّا ما سَعَى، كما قالَ تعالَى: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ) النجم 39، فكُلُّ جُزْءٍ يَفُوتُه مِنَ العُمُرِ خالياً مِنْ عَمَلٍ صالحٍ يَفُوتُه مِنَ السّعادَةِ بِقَدْرِه ولا عِوَضَ له منه، وكلُّ جُزْءٍ يَحْصُلُ له مِنَ العُمُرِ غيرُ خالٍ مِنْ ذلكَ يَتَوَصَّلُ به إلى مُلْكٍ كَبيرٍ لا يَفْنَى.

– قالَ الحَسَنُ رحمهُ اللهُ: "أدْرَكْتُ أقواماً كانوا على أوقاتِهم أَشَدَّ منكم حِرصاً على دَنانِيرِكُم ودَراهِمِكُم".

– وقالَ رجُلٌ لِعامِرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ رحمه الله، وهو يُريدُ الجمعةَ: قِفْ حَتّى أُكَلِّمَكَ. فقال له: "لولا أَنِّي أُبَادِرُ لوقَفْتُ لك". قال له: وما تُبادِرُ؟ قالَ: "أُبادِرُ خُرُوجَ رُوحِي".

– ورُوِيَ أنَّ الزّاهِدَ عَلِيَّ الجُرجَانِيَّ كانَ معه في سَفَرِهِ مِزوَدٌ فيه سَوِيقُ الشَّعِيرِ فَسَفَّ منه، فقالَ له السّرِيُّ السّقَطِيُّ: ما دَعاكَ إلى هذا؟ قالَ: "إِنِّي حَسَبْتُ ما بينَ المَضْغِ والسَّفِّ سَبْعِينَ تَسْبِيحَةً، فما مَضَغْتُ الخُبْزَ منذُ أَرْبَعِينَ سنةً".

134) مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً.

- إنّما يُعِينُكَ على مُراقبةِ أوقاتِكَ للهِ بِلا عِلّةٍ حُبُّكَ إيّاهُ؛ لأنّكَ مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، إِذْ لا يُمكِنُكَ التّصرُّفُ إلّا على مُقتَضَى مُرادِ مَحبُوبِكَ، أَبَتِ المَحَبّةُ أنْ تَستَعْمِلَ مُحِبّاً لغيرِ مَحْبُوبِه.

وَاللهُ سبحانه لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً، إجلالاً لِقَدْرِكَ، لا لِحاجَةٍ منه لك، فكما لم يَرضَ لكَ بغيرِهِ لا تَرضَ لِنَفْسِكَ أنْ تكونَ عبداً لِسِواهُ.

- قالَ محمدُ بنُ السَّمَّاكِ رحمهُ اللهُ: "كَتَبَ إِلَيَّ أخٌ لي: إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تَكونَ لغيرِ اللهِ عَبْداً ما وَجَدْتَ مِنَ العُبوديّةِ له بُدّاً فافْعَلْ".

- وقالَ الجُنَيْدُ رحمهُ اللهُ: "إنّكَ لنْ تكونَ على الحَقِيقَةِ له عَبْداً وشيءٌ مِمّا دُونَه لكَ مُسْتَرِقٌ، وإنّكَ لنْ تَصِلَ إلى صَرِيحِ الحُرّيّةِ وعليكَ مِنْ حَقِيقَةِ عُبوديّتِه بَقِيّةٌ". وقالَ أيضاً: "المُكاتِبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليهِ دِرْهَمٌ".

- فالمحبّةُ تَمَلُّكُ المُحِبّ للمَحْبُوبِ، لأنّه يَذِلُّ ولا يُبذَلَ له، وأنّه في قَبْضَتِه مَيّتٌ بينَ يدي مَحْبُوبِه، ولذلك قِيلَ: المَحَبّةُ أنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أنتَ له مُحِبٌّ حتّى لا يَبقَى لكَ مِنكَ شيءٌ.

– وأمّا أنّه تعالى لا يُحِبُّ أنْ تكونَ عبداً لغيرِه إعْزَازاً لكَ وتَكْرُمَةً، ولأنَّ عِزَّ المُلْكِ يَأبَى ذُلَّ المُشارَكَةِ، وإذا كانَ الأمْرُ كذلكَ فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ على بَصِيرَةٍ وحُسْنِ نَظَرٍ.

أَنْتَ القَتِيلُ بِأَيِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ *** فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

– مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً، والمَحَبّةُ للشيءِ تَقْتَضِي الانْقِيَادَ له وشِدّةَ العِلَاقَةِ، وأنْ لَا يَبْغِي به بَدَلاً، وكما قِيلَ: حُبُّكَ للشيءِ يُعْمِي ويُصِمُّ، وذلك معنى اسْتِعْبَادِه للمُحِبِّ له، فمَنْ أَحَبَّ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ فقدِ اسْتَعْبَدَه ذلكَ الغيرُ كائِناً ما كانَ، واللهُ لا يُحِبُّ أنْ تكونَ لغيرِه عَبْداً ولا يَرْضَى بذلك.

– وفِي الحَدِيثِ فِي صَحِيحِ البُخاريِّ قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإِذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ".

والخَمِيصَةُ: كِساءٌ أسْوَدُ مُربَّعٌ، له خُطُوطٌ. و"تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتُقِشَ"، أي: تَعِسَ وانقَلَبَ على رَأْسِه، وهو دُعاءٌ عليه بالخَيبةِ والخُسرانِ، وإذا أصابَتْه شَوكةٌ فَلا قَدِرَ على إخراجِها بالمِنْقَاشِ، ولا خَرَجَتْ، والمُرادُ أنَّه إذا أُصِيبَ بأقَلِّ أذًى لا يَجِدُ مُعِينًا على الخَلاصِ منه.

– لَمَّا كانتِ المَحَبَّةُ أخْذَ جَمالِ المَحْبُوبِ بِحَبَّةِ القَلْبِ حتّى لا يُمكِنُه خُروجٌ عن مُرادِه، ولا عُدولٌ عن وِدادِه، ولا تَوَقُّفٌ في مَحَابِّه، كانَ المُحِبُّ عبداً

لِمَحْبُوبِه لأنّه في تَصْرِيفِه وخِدْمَتِه، مع إسْقَاطِ حُظُوظِه وأغْراضِه، وإنْ كانتْ عَيْنَ ما يَقتَضِيه الحِبُّ مِنْ وِصَالِه.

وفي هذا قِيلَ:

أَرْضَى رِضَاهُ ولَوْ أَفْضَى إِلَى تَلَفِي *** وكلُّ ما يَفْعَلُ المَحْبُوبُ مَحْبُوبُ

فهذه رتبةٌ وراءَ الحُبِّ قلَّ أن تُوجَدَ إلّا في مُحِبٍّ فَنِيَ عنْ وُجُودِه بِمَحْبُوبِه، ولا هِمّةَ له إلّا في رِضَى المَحْبُوبِ عنه وإنْ كانَ فيه حَتْفُه، وقِيامُه له بِكُلِّ شيءٍ منه وإنْ لم يَبْقَ له خَبَرٌ عنه، والعَمَى عنِ الغيرِ به حتّى لا يَلْتَفِتَ لشيءٍ سِواهُ وإنْ كانتْ نَفْسَه.

وفي معنى ذلكَ قِيل:

لَئِنْ بَقِيَتْ في العَيْنِ مِنّي قَطْرَةٌ *** فَإِنّي إذاً في العَاشِقِينَ دخِيلُ

– وبالجُملةِ فالمَحَبَّةُ نارٌ تَحْرِقُ مِنَ المُحِبِّ جَمِيعَ حُظُوظِه وأغْراضِه، وتَسْتَهْلِكُهُ في رِضَى المَحْبُوبِ وإنْ بإعْراضِه، فلا يَبقَى له كُلٌّ ولا بَعْضٌ، ولا وُجُودٌ ولا مَوْجُودٌ، ولا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ ولا خَبَرٌ، كأنَّه قَتِيلٌ مُحْرَقٌ أو مَطْمُوسٌ مُغْرَقٌ أو مَجْنُونٌ مُطْبَقٌ، إنْ نَطَقَ فلا يَنْطِقُ بغيرِه، وإنْ عَمِلَ فلا يَعملُ سِوَى أَمْرِه، لو قِيلَ له: ما تُرِيدُ؟ لَقالَ: نَظْرَةً، ولو قِيلَ له: ما تَشْتَهِي؟ لَقالَ: رِضَى المَحْبُوبِ وبِرَّهُ، يُنْشِدُ بِلِسَانِ حَالِه في كُلِّ أَحْوَالِه:

إنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أقْصَى مُرَادِكُمُ *** فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِي

– وإذا كانَ الأمْرُ كذلكَ فَيَتَعَيّنُ على كُلِّ عاقِلٍ أنْ لَا يُحِبَّ سِوَى مَنْ هو بهِ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، ويَدْفَعَ ما يَعْرِضُ له مِنْ حُبِّ غَيرِه قبلَ أن يَشْغَفَ القلبُ أو يَهِيمَ.

– فيا ذَوِي الهِمَمِ العَلِيَّةِ والنُّفُوسِ الزَّكِيّةِ هذا مَولاكُم لم يَرضَ لكم بِغيرِه، فلا تَرضَوْا لأنفُسِكُم بِسِواهُ، عَالِمِينَ أنّه إنّما نَدَبَكُمْ لذلكَ لِمَا يَعُودُ إليكم، لا لِمَا يَعُودُ إليه لأنّه الغَنِيُّ على الإطلاقِ، العَزِيزُ بِكُلِّ حَالٍ، وهذا ما نَبَّهَ عليه ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في الحِكْمَةِ التّالِيَةِ.

– ولنْ يَضِيرَ حُبَّكَ هذا للهِ سُبحانَه، كما لنْ يَضِيرَ حَقِيقَةَ عُبُودِيَّتِكَ له، أنْ تَتَفَرّعَ عنْ جِذْعِ محبّتِكَ لِلوَاحِدِ الذي هو اللهُ سُبحانَه، أَغْصَانٌ كَثِيرةٌ مِنْ محبّةِ الأهْلِ والأوْلَادِ والأصْدِقاءِ والأخِلَّاءِ، ومَظاهِرِ الجَمَالِ المُخْتَلِفَةِ، ما دَامَ الجِذعُ والأسَاسُ هو محبّةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، إنّما المُهِمُّ أنْ تكونَ كما قالَ اللهُ عنْ عِبادِه المؤمِنِينَ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). البقرة 165.

بل إنّ مَحبَّةَ اللهِ إذا رَسَختْ في القَلْبِ، غَدَتْ المَحَبَّةُ للأهْلِ والأوْلَادِ والأخِلّاءِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أنْواعِ المَحابِّ، مَحَبَّةً في اللهِ يُثابُ عليها جَزِيلَ الثّوابِ والأجْرِ.

– قالَ النبيُّ ﷺ: " لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ". البخاري ومسلم.

- وقالَ ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ فقَدْ أَحَبَّنِي، ومَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي". أخرجه النسائي، وابن ماجه، وأحمد، وصحّحه الألباني.

- وقالَ ﷺ: "اللهَ اللهَ في أَصْحَابِي، اللهَ اللهَ في أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، ومَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، ومَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، ومَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، ومَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ". الترمذي وأحمد وابن حبان.

- ويقولُ النبيُّ ﷺ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ولَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ والشُّهَدَاءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، ولَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، ولَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. صحيح أبي داود للألباني.

- وقالَ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي". صحيح مسلم.

- وفِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ ذَكَرَ مِنْهُمْ: "ورَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ". البخاري ومسلم.

135) لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَذِهِ وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ لِمَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْكَ.

– اللهُ سُبحانَه يُحِبُّ عُبُودِيَّتَكَ له إِجْلَالاً لِقَدْرِكَ، لا لِحَاجَةٍ منه لكَ، لأنَّه لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ، وَلا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، إِذْ هو الغَنِيُّ على الإطلاقِ، القادِرُ بِلا عَجْزٍ، القَوِيُّ بِلا ضَعْفٍ، العَزِيزُ بِلا ذُلٍّ، الذي لا يَحتاجُ إلى وَزِيرٍ ولا ظَهِيرٍ، ولا يَفْتَقِرُ إلى مُعِينٍ ولا مُشِيرٍ، يَفْعَلُ ما يَشَاءُ بِلا عِلَّةٍ، ويَحْكُمُ ما يُرِيدُ ولا تُدْرِكُهُ القِلَّةُ، الذي لا يَصِحُّ افتِقارُهُ ولا احْتِياجُهُ لِشَيءٍ ولا تَوَقُّفُه عليه.

– وإنّما أمَرَكَ بالطّاعاتِ، ونَهاكَ عَنِ المعاصِي، لِمَا يَعُودُ إليكَ مِنْ فوائِدِهما المُرَتَّبَةِ عليهِمَا حَسْبَمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وأوْجَبَتْهُ رَحْمَتُهُ، إذْ لم يأمُرْ عِبادَهُ بشيءٍ ولا يَنْهاهُم عنهُ إلّا لِمَصْلَحَةٍ لهم عاجِلَةٍ أو آجِلَةٍ، ولأنَّ العبدَ مُفْتَقِرٌ إليه سبحانه، والعُبُودِيّةَ له أعْظَمُ فوائِدِهِ.

– قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (لَطائِف المِنَنِ):

"ولَسْنَا نقُولُ كما قالَ مَنْ عُدِلَ به عَنْ طريقِ الهُدَى: إنّهُ يَجِبُ على اللهِ رِعايَةُ مَصَالحِ عِبادِه، بل إنّما نقولُ: ذلكَ عادَةُ الحَقّ وشِرْعَتُهُ المُسْتَمِرُّ فِعْلُهَا مع عِبادِه على سَبِيلِ التّفَضُّلِ، فَلَيْتَ شِعْرِي إذا قالُوا: يَجِبُ على اللهِ مُراعاةُ مَصالحِ عِبَادِهِ، فَمَنْ هو المُوجِبُ عليه؟ ثُمَّ إنّا نَظَرْنَا فَرَأَيْنَا كُلَّ ما هو مَأْمُورٌ بِهِ أو مَنْدُوبٌ إليه يَسْتَلْزِمُ الجَمْعَ على اللهِ، وكُلَّ مَنْهِيٍّ عنه أو مَكْرُوهٍ يَتَضَمَّنُ التَّفْرِقَةَ

عنه، فإذاً مَطْلُوبُ اللهِ مِنْ عِبادِهِ وُجُودَ الجَمْعِ عليه، لكنَّ الطّاعاتِ هي أسْبَابُ الجَمْعِ ووسَائِلُهُ، فلِذلكَ أمَرَ بها، والمعاصِيَ هي أسْبَابُ التَّفْرِقَةِ ووسَائِلُهَا، فلذلكَ نَهَى عنها".

– فالحَقُّ سُبحانَه لا تَنْفَعُهُ طاعَتُكَ فإنّه هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، فإنّه مُنَزَّهٌ عنْ أنْ يَصِلَ إليهِ مَكْرُوهٌ مِنْ خَلْقِهِ، لِعِزَّتِهِ التي لا تُرَامُ، وإنّما أمَرَكَ بالطّاعَةِ ونَهَاكَ عَنِ المعصِيَةِ لِحِكْمَةٍ يَرْجِعُ نَفْعُهَا عليكَ، فاشْكُرْ هذه النِّعْمَةَ واسْتَحْضِرْهَا على الدَّوامِ بينَ عَيْنَيْكَ.

يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ في مُنَاجَاتِهِ: "إِلهي، تَقَدَّسَ رِضَاكَ عَنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنّي؟! أَنْتَ الغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيّاً عَنّي؟!

136) لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ.

– وذَلِكَ لِثُبُوتِ كَمَالِ وَصْفِهِ في عِزِّهِ وغِنَاهُ، فلا يَحْتَاجُ إلى زِيادَةِ كَمالٍ بِحَالٍ، تعالَى رَبُّنَا وتَقّدَّسَ، لَوْ أَقْبَلَ عليهِ كُلُّ الخَلائِقِ واجْتَمَعُوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ ما زَادَ في مُلْكِهِ شيئاً، ولو اجْتَمَعُوا على أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ ما نَقَصَ ذلكَ مِنْ مُلْكِهِ شيئاً، فسُبحانَه مِنْ عَلِيٍّ عَظِيمٍ، ما أَعْلَى شَأْنَهُ، وما أَعَزَّ سُلْطَانَهُ، لا إلهَ إلّا هو العَزِيزُ الحَكِيمُ.

– بلْ عِزُّهُ صِفَةٌ ذَاتِيّةٌ له، لا تَزِيدُ بالعَوارِضِ ولا تَنْقُصُ بها، إذْ لا تَجُوزُ عليه التَّقَلُّبَاتُ ولا العَوارِضُ، بلْ هو في وُجُودِهِ مُنَزَّهٌ عَنِ الزَّوَالِ، وفي صِفاتِ كَمالِهِ غَنِيٌّ عنْ زِيادَةِ الاسْتِكْمالِ.

– في صَحيحِ مُسلمٍ عَنِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فِيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قالَ:

"يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا

ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي إنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ".

137) النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وُجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ.

– النَّعِيمُ الْتِذَاذٌ يَصحَبُهُ فَرَحٌ وسُرورٌ بِالْمُلْتَذِّ به. ومَظاهِرُهُ بِمَا يَتَجلَّى فيه وبه مِنَ الفوائِدِ والعَوائِدِ وغيرِهما مِمَّا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُنُ في هذه الدارِ وفي تلكَ الدارِ، ولا كَمالَ له، بل ولا صِحَّةَ إلّا بوُجُودِ الهَنَاءِ، ولا هَناءَ إلّا بِشُهُودِ مِنَّتِهِ تعالَى وشُكْرِهِ على نِعْمَتِه، والنَّظَرِ إلى وجْهِهِ الكريمِ في هذه الدارِ بالبَصائِرِ وفي تلك الدارِ بالأَبْصارِ، لأنَّ كلَّ نِعْمَةٍ لا تُشْهَدُ فيها المِنَّةُ يكونُ صاحبُها مَفْتُوناً بها مِنْ حيثُ وَصَلَتْ له، ومِنْ حيثُ خوفُ زَوالِها، ومِنْ حيثُ الاشتِغالُ بأسبابِ غيرِها، وكلَّ نِعْمةٍ لا يَصْحَبُها الشُّكْرُ فهي إلى الزَّوالِ أَقْرَبُ، والعُقُوبةُ فيها وبها ومعها أَظْهَرُ، وكلُّ نَعِيمٍ غابَ منه الحَبِيبُ فأيُّ عِبْرَةٍ به؟ أم أيُّ فائِدَةٍ فيه؟ ثم لولا تَجَلِّيهِ تعالَى بإحْسانِه ما صَحَّ نَعِيمٌ لِمُنْعَمٍ أبَداً.

– فكُلُّ نِعيمٍ دُونَ شُهُودِ الحَبِيبِ عَدَمٌ، وكلُّ عافِيَةٍ دُونَ اقْتِرَابِهِ أَلَمٌ.

– وكُلُّ نَعِيمٍ اقْتَرَنَ بوُجُودِ المُنَغِّصاتِ فليسَ بِنَعِيمٍ، وإنْ كانَ فيه وجْهٌ مِنَ التَّنَعُّمِ، وكلُّ عذابٍ صَحِبَهُ وُجُودُ ما يَقْتَضِي عَدَمَ التَّأَثُّرِ به فليسَ بِعذابٍ.

– وقَدْ عُرِفَ في الشَّاهِدِ أنَّ غَيْبَةَ الحبيبِ عَنْ مُحِبِّهِ تُوجِبُ نَفْيَ كُلِّ نَعِيمٍ عنه وإنْ كانَ في وَسَطِهِ، وحُضورَهُ معه يُوجِبُ له نَفْيَ كُلِّ عَذابٍ وإنْ كانَ في عَيْنِ العَذابِ، كَمَا قِيلَ:

العِيدُ لِي مَأْتَمٌ إنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي *** والعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْءاً ومُسْتَمَعَا

– وحُكِيَ أنَّ رَجُلاً ضُرِبَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سَوْطاً فَمَا صاحَ ولا اسْتَغاثَ، فَلَمّا ضُرِبَ الوَاحِدَةَ كَمالَ المِائَةِ صاحَ واسْتَغاثَ، فقِيلَ له في ذلكَ فقالَ: العَيْنُ التي ضُرِبْتُ مِنْ أجْلِهَا كانتْ تَنظُرُ إلَيَّ في التِّسْعَةِ والتِّسْعِينَ، وفي الوَاحِدَةِ حُجِبَتْ عَنِّي.

– ولو لم يَكُنْ في ذلك إلّا قولُه تعالَى: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ). يوسف 31، لكانَ كافياً، فافْهَمْ.

قالَ كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ: أنّهُنَّ حَزَزْنَ بالسِّكِّينِ في أَيْدِيهِنَّ، وهُنَّ يَحْسَبْنَ أنّهُنَّ يُقَطِّعْنَ الأُتْرُجَّ، ولا يَشْعُرْنَ بذلكَ. نُقِلَ ذلك عنِ ابنِ عبّاسٍ ومجاهدٍ وقَتادَةَ وغيرِهم.

– فَسَبَبُ الْعَذَابِ وُجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ.

وُجُودُ الحِجابِ في هذه الدارِ على البَصِيرَةِ، وفي تلكَ الدارِ على البَصَرِ، والنَّظَرُ في هذه الدارِ بالبَصِيرَةِ، وفي تلكَ الدارِ بالبَصَرِ.

فلولا الحِجابُ ما صَحَّ العَذابُ، ولا يَتِمُّ النَّعِيمُ إلّا بِرُؤيَةِ الـمُنْعِمِ.

وقدْ قالَ بعضُهم: "لو تَجلَّى الحَقُّ سُبحانَه على أهلِ النّارِ لَنَسُوا ما هُمْ فيه مِنَ العذابِ".

– وبالجُملةِ فالنّعِيمُ والعذابُ عَرَضانِ لا وُجُودَ لهما إلّا مِنَ الحَقِّ، ولا تَحَقُّقَ لهما إلّا بِشُهُودِه وفَقْدِه.

فَهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نارِهِ ... وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ.

نسألُ اللهَ جَمِيلَ الوِصالِ.

138) مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ، فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ العِيَانِ.

– لأنّها لو كانتْ مُعايِنَةً جَمالَ الحَقِّ شَغَلَهَا عَنْ وُجُودِ العَالَمِ، فلا يَلْحَقُها هَمٌّ ولا غَمٌّ، بل يكونُ وقْتُها كلُّهُ سُرُوراً وفَرَحاً بمولاها فيما يُوَجِّهُهُ إليها مِنْ نَقْضٍ وإبْرامٍ؛ إذْ كانَ مِنْ بِساطِ جَميلٍ لا مِثْلَ له، ومَلِكٍ لا نَظِيرَ له، فلا يكونُ أحْلَى منه عندَ مَنْ عَرَفَهُ، ولا أَيْسَرَ منه لرِضاهُ عنه.

ولذلك قال الشِّبْلِيُّ رحمهُ اللهُ: "مَنْ عَرَفَ اللهَ لا يكونُ عليه غَمٌّ أبداً".

وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ رحمهُ اللهُ: "مَنْ عَرَفَ اللهَ عَاشَ، ومَنْ مَالَ إلى الدنيا طَاشَ، والأحْمَقُ يَغْدُو ويَروحُ في لَاش، والعاقِلُ عَنْ عُيُوبِه فَتَّاش".

– ولأنَّ الهُمُومَ والأحزانَ إنّما تَدخُلُ للقلبِ الفارِغِ؛ إذْ ليسَ للقلبِ إلّا وَجْهٌ واحدٌ، فإنْ عُمِّرَ بشيءٍ لا يَقْبَلُ غيرَهُ.

– وذلك لا يكونُ إلّا مع فِقدانِ الحقيقةِ، وعَدَمِ النَّظَرِ لِلْأَقْدارِ، لأنَّ مَنْ عايَنَ التّوحيدَ حَصَلَ على التّسليمِ والرِّضا، فلا يَبْقَى له هَمٌّ ولا غَمٌّ أبداً.

– قالَ تعالَى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ). الحديد 22، 23.

– قالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، ولَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ

ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ". مسلم. وفي روايةٍ: "عَجِبْتُ لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمَدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ إِلَّا المُؤْمِنُ" السلسلة الصحيحة للألباني.

وفي النَّسائيِّ قولُه ﷺ: "المُؤْمِنُ بِخَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ".

- وفي مَعْنَى ذلكَ قِيلَ:

إِنَّ عِرْفَانَ ذِي الجَلَالِ لَعِزٌّ *** وَبَهَاءٌ وبَهْجَةٌ وَسُرُورُ

وَعَلَى العَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ *** وعَلَيْهِمُ مِنَ المَحَبَّةِ نُورُ

فَهَنِيئاً لِمَنْ يُحِبُّكَ رَبِّي *** هُوَ بِخَيْرٍ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

- مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ، فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ العِيَانِ، يعني الذي تَجِدُه القلوبُ مِنَ الهُمومِ بالمُستَقْبَلِ، والأحْزانِ المُتعلِّقَةِ بالماضِي، إنّما يكونُ لأجْلِ ما مُنِعَتْهُ مِنْ وُجودِ مُعايَنةِ الحَقِّ جلَّ شأْنُهُ بعَيْنِ البَصِيرَةِ، وذلك مِنْ نَتائِجِ رُؤيةِ النَّفْسِ وبَقاءِ حَظِّها، فلو غابَ شَخصٌ عَنْ رُؤيةِ نَفْسِه بمُعايَنةِ سَيِّدِه كانَ دائِمَ الفَرَحِ، فَمَنِ اسْتَنارَ قَلْبُه بنُورِ المَعْرِفَةِ زَالَ هَمُّهُ، وتَباعَدَ غَمُّهُ.

لكنْ مَنْ لم يَصِلْ إلى هذا المَقامِ يكونُ هَمُّهُ مُصَفِّياً لقلبِه، ومُوجِباً لِتَطهيرِه مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ، فإنّ الهُمومَ في الأمُورِ الدُنيويّةِ -كَطَلَبِ المَعِيشَةِ- كَفَّاراتٌ، وفي الأمُورِ الأُخْرَوِيّةِ رفْعُ درَجاتٍ.

139) مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ.

– يَرْزُقُكَ الكِفَايَةَ فلا يُشَوِّشُكَ بِالفَقْدِ، ويَمْنَعُكَ الزِّيادَةَ لِئَلَّا يُشْغِلُكَ بالوُجْدِ، بل تَكُونُ سَالِماً مِنْ إِقْبَالِهَا وسَالِماً مِنْ إِدْبَارِهَا، فَفِي الكَفَافِ كَرامَاتٌ ثلاثٌ:

1- الرّاحَةُ مِنَ التَّعَبِ جَلْباً ودَفْعاً.

2- التَّفَرُّغُ لِلْخِدْمَةِ قَلْباً وقَالِباً.

3- تَحْصِيلُ الشُّكْرِ والصَّبْرِ في حَالَةٍ واحِدَةٍ.

– ولِذَا قِيلَ: إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الغِنَى مَعَ الشُّكْرِ ومِنَ الفَقْرِ مَعَ الصَّبْرِ، حتَّى سَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ ولِعِيالِهِ وآلِهِ كمَا في صَحيحِ البُخاريِّ: "اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا". والقُوتُ: ما يَسُدُّ الرَّمَقَ، وقيلَ: القُوتُ كِفايَةُ الحَاجَةِ، وفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ "كَفَافاً"، بَدَلاً مِنْ لَفْظِ "قُوتاً".

وفي الحَدِيثِ: فَضْلُ التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنيا والاقْتِصَارِ على القُوتِ مِنْهَا، والدُّعاءُ بذلكَ، وفيه: فَضْلُ الكَفَافِ وأَخْذِ البُلْغَةِ مِنَ الدُّنيا، والزُّهْدِ فيما فَوْقَ ذلكَ؛ رَغْبَةً في تَوْفِيرِ نِعَمِ الآخِرَة، وفيه: أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دَعَا لِآلِهِ أنْ يَكُونَ رِزْقُهُمْ قُوتًا، فلا يَطْغَونَ بالإِكْثَارِ، ولا يَحْسُدُهُمْ أَهْلُ الدُّنيا في أَرْزَاقِهِم؛ إذا رَآهُمُ الفَقِيرُ اسْتَعْمَلَ الرِّضَا، وإذا رَآهُمُ الغَنِيُّ اسْتَحْيَا.

– ومَعْنَى الكَفَافِ: أنْ لا يَحْتَاجَ، ولا يَفْضُلَ لَهُ، فبُوجُودِ الكِفَايَةِ تَستَرِيحُ النَّفْسُ مِنْ كَدَرِ المَعاشِ، وبِعَدَمِ الزِّيادَةِ يَستَرِيحُ القَلْبُ مِنْ تَعَبِ المُعالجَةِ، مع الإِعَانَةِ على الدِّيَانَةِ بالجَانبَيْنِ؛ إذْ لو فُقِدَتِ الكِفَايَةُ لَتشَوَّشَ البَالُ، ولو حَصَلَتِ الزِّيادَةُ لَتشَعَّبَ الحَالُ.

– وفي الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قالَ: " ما طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إلَّا الثَّقَلَيْنِ: يا أيُّها النَّاسُ هَلُمُّوا إلى رَبِّكُمْ فَإِنَّ مَا قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، ولَا آبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنادِيانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خلَفاً وأَعْطِ مُمْسِكاً تلَفاً". (أخرجه أحمد وابن حبان والطبراني ورجاله رجال الصحيح).

– ورُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضى الله عنه أنّه قالَ: "خَيْرُ مَالِكَ ما أَغْنَاكَ، وخَيْرٌ مِنْهُ ما كَفَاكَ".

– وكانَ الشَّيْخُ ابنُ عَرَفَةَ يُفَضِّلُ الغِنَى ويقولُ: إِنَّهَا صَفَتُهُ صلى الله عليه وسلم. قالَ: "ولا يُقالُ: إنَّهُ فَقِيرٌ، ولا ذُو كَفَافٍ؛ لأنَّهُ صلى الله عليه وسلم مَلَكَ أنْ يَمْلِكَ، ومَنْ هو كَذَلِكَ لا يُقالُ فيه فَقِيرٌ ولا ذُو كَفَافٍ. نَعَمْ كانَ لَا يَدَّخِرُ".

– وكانَ مِنْ دُعاءِ النبيِّ ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ". النسائي، وابن حبان وصحّحه.

– وكذلكَ اسْتَعاذَ النبيُّ ﷺ من الغِنَى والفَقْرِ مَعاً كما في صَحِيحِ البُخاريِّ دُعاؤُهُ ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ والهَرَمِ، والمَغْرَمِ والمَأْثَمِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وفِتْنَةِ النَّارِ، وفِتْنَةِ القَبْرِ وعَذَابِ القَبْرِ، وشَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى، وشَرِّ فِتْنَةِ الفَقْرِ، ومِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطاياي بِمَاءِ الثَّلْجِ والبَرَدِ، ونَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطايا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وباعِدْ بَيْنِي وبَيْنَ خَطاياي كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ".

قولُه: "وشرِّ فِتْنَةِ الغِنَى"، قَيَّدَ الاسْتِعَاذَةَ بِالشَّرِّ؛ لأنَّ فيه خَيْرٌ باعْتِبَارٍ، وشَرٌّ باعْتِبَارٍ آخَرَ، فالاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّهِ يُخْرِجُ ما فيهِ مِنَ الخَيْرِ، وشَرُّ الغِنَى: مِثْلُ البَطَرِ، والطُّغْيانِ، والتَّفَاخُرِ، والاسْتِعْلَاءِ، وإزْدِرَاءِ الفُقَراءِ، وصَرْفِ المَالِ في المُحَرَّماتِ، والشُّحِّ بما يَجِبُ إخْراجُهُ مِنْ واجِبَاتِ المَالِ ومَنْدُوبَاتِهِ، أوِ الإسْرافِ، والانْخِرَاطِ في الشَّهَوَاتِ.

وقولُه: "وشَرِّ فِتْنَةِ الفَقْرِ"، أيضاً قَيَّدَهُ بالشَّرِّ كسَابِقِه، ففِيهِ خَيْرٌ وشَرٌّ، وشَرُّهُ ما يَنْشَأُ عنه مِنْ حَسَدِ الأغْنِيَاءِ، والطَّمَعِ في مَالِهِم، والتَّذَلُّلِ لهم بِمَا يُدَنِّسُ العِرْضَ، ويُنْقِصُ الدِّينَ، ويُوجِبُ عَدَمَ الرِّضا بِمَا قَسَمَ، والسُّخْطَ، والقُنُوطَ، لِمَنْ لَا صَبْرَ له يَمْنَعُهُ مِنْ ذلكَ إيمانٌ قَوِيٌّ يَدْفَعُهُ عَنْ ذلكَ، وقدْ يَدْفَعُ إلى التَّوَرُّطِ بِعَظائِمِ الأمُورِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ الدِّينِ والمُرُوءَةِ، كَالزِّنَى والقَتْلِ، والسَّرِقَةِ، والحِرَابَةِ.

– وفي صحيح البُخاريِّ رَوَى أبو هُرَيرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: "لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ".

أي: ليسَ الغِنَى الحَقِيقِيَّ المُعْتَبرَ كَثْرَةُ المَالِ؛ لأنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ وُسِّعَ عليهِ في المالِ لا يَقْنَعُ بِمَا أُوتِي، فهو يَجْتَهِدُ في الازْدِيادِ ولا يُبَالِي مِنْ أينَ يَأْتِيهِ، فَكَأَنَّهُ فَقِيرٌ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ؛ ولَكِنَّ الغِنَى الحَقِيقيَّ المُعْتَبَرَ المَمْدُوحَ غِنَى النَّفْسِ بما أُوتِيَتْ وقَنَعُهَا بهِ ورِضَاهَا، وعَدَمُ حِرْصِها على الازْدِيادِ والإلحَاحِ في الطَّلَبِ؛ لأنَّها إذا اسْتَغْنَتْ كَفَّتْ عَنِ المطامِعِ، فَعَزَّتْ وعَظُمَتْ وحَصَلَ لها مِنَ الحُظْوَةِ والنَّزاهَةِ والشَّرَفِ والمَدْحِ أَكْثَرَ مِنَ الغِنَى الذي يَنالُهُ مَنْ يَكُونُ فَقِيرَ النَّفْسِ بِحِرْصِه، فإنَّه يُوَرِّطُهُ في رَذَائِلِ الأمُورِ وخَسائِسِ الأفعالِ؛ لِدَناءَةِ هِمَّتِه وبُخْلِه، ويَكْثُرُ ذَامُّوهُ مِنَ النَّاسِ، ويَصْغُرُ قَدْرُهُ عندَهم، فيكونُ أَحْقَرَ مِنْ كُلِّ حَقِيرٍ، وأذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيلٍ، وهو معَ ذلكَ كأنَّه فَقِيرٌ مِنَ المَالِ؛ لكَوْنِه لم يَسْتَغْنِ بما أُعْطِيَ فَكأنَّه ليسَ بِغَنِيٍّ، ولو لم يكنْ في ذلكَ إلَّا عَدمَ رِضاهُ بما قَضاهُ اللهُ، لَكَفَاه.

140) لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

– ولْيَكْثُرْ ما تَفْرَحُ بِهِ، يَكْثُرْ ما تَحْزَنُ عليه، فإنَّ سُرُورَ الأَوْبَةِ على قَدْرِ طُولِ الغَيْبَةِ، والتَّألُّمَ بالفِراقِ على قَدْرِ الأُنْسِ بالمَحْبُوبِ، ولأنَّ الأَلَمَ بالفَواتِ على قَدْرِ الفائِتِ، والنُّزولَ على قَدْرِ العُلُوِّ، ولأنَّ الحُزنَ بالفِقْدَانِ على قَدْرِ الفَرَحِ بالوُجْدَانِ.

وقدْ قِيلَ لبَعْضِهم: لِمَ لَا تَغْتَمُّ؟ قالَ: لِأَنِّي لَا أَقْتَنِي ما يَغُمُّنِي.

– وحُكِيَ أنَّهُ حُمِلَ إلى بعضِ المُلُوكِ قَدَحٌ مِنْ فَيْرُوزَجٍ مُرَصَّعاً بِالجَوْهَرِ لم يُرَ لَهُ نَظِيرٌ، فَفَرِحَ المَلِكُ بِه فَرَحاً شَدِيداً وقالَ لبعضِ الحُكَماءِ عِنْدَه: كيفَ تَرى هذا؟ قالَ: أَرَاهُ مُصِيبَةً وفَقْراً. قالَ: وكيفَ ذلكَ؟ قالَ: إذا انْكَسَرَ كانتْ مُصِيبَةً لَا جَبْرَ لها، وإنْ سُرِقَ صِرْتَ فَقِيراً إليهِ ولم تَجِدْ مِثْلَه، وقدْ كُنتَ قَبْلَ أنْ يُحْمَلَ إليكَ في أَمْنٍ مِنَ المصِيبَةِ والفَقْرِ. فاتَّفَقَ أنِ انْكَسَرَ القَدْحُ يوماً فَعَظُمَتْ مُصِيبَةُ المَلِكِ فيهِ وقالَ: صَدَقَ الحَكِيمُ، لَيتَهُ لم يُحْمَلْ إلينا.

وفي مَعْنَى ذلكَ قِيلَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَهْدِمُ مَا بَنَى *** وَيَسْلُبُ مَا أَعْطَى وَيُفْسِدُ مَا أَسْدَى
فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ *** فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئاً يَخَافُ لَهُ فَقْدَا
فَإِنَّ صَلَاحَ الْمَرْءِ يَرْجِعُ كُلُّهُ *** فَسَاداً إِذَا الإِنْسَانُ جَازَ بِهِ الحَدَّا

- لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ. أيْ لِيَقِلَّ الشيءُ الذي تَفْرَحُ به مِنَ المالِ والجَاهِ؛ لِيَقِلَّ حُزْنُكَ عليهِ عندَ فَقْدِهِ. فإنَّ المَفْرُوحَ بِهِ هو المَحْزُونُ عليهِ، إنْ قَلِيلاً فَقَلِيلٌ، وإنْ كَثِيراً فَكَثِيرٌ.

كمَا قِيلَ في ذلكَ:

عَلَى قَدْرِ مَا أُولِعْتَ بِالشَّيْءِ حُزْنُهُ *** وَيَصْعُبُ نَزْعُ السَّهْمِ مَهْمَا تَمَكَّنا

- ودَرْءُ مَفْسَدَةِ وُجُودِ الحُزْنِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ مَصْلَحَةِ الفَرَحِ الذي لا يَدُومُ. فَمَنْ زَوَى اللهُ تعالَى عنه فُضُولَ الدنيا فَرَضِيَ بذلكَ وقَنَعَ منها باليَسِيرِ ولم يَتَطَلَّعْ إلى زيادَةٍ مِنْ مالٍ أو جاهٍ، فهو كامِلُ العَقْلِ حَسَنُ النَّظَرِ لِنَفْسِه، لأنّه دَفَعَ عنْ نَفْسِه مَفْسَدَةَ وُجُودِ الحُزنِ؛ بِتَرْكِه لِمَا يُفِيدُه حُصُولَ مَصْلَحَةِ الفَرَحِ الذي يَزُولُ عَنْ قُرْبٍ، واعْتَاضَ مِنْ ذلكَ الرَّاحةَ الدَّائِمَةَ.

- فالمَحْبُوباتُ إنْ لم تُؤْخَذْ منه بِغَصْبٍ أو سَرِقَةٍ أو جائِحَةٍ نَازِلَةٍ، فلا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ هو عنها بالمَوْتِ الهَاذِمِ لِلّذَّاتِ المُنَغِّصِ للشَّهَواتِ، فإنْ كانَ له أَلْفُ مَحْبُوبٍ مثلاً نَزَلَ به عندَ المَوْتِ ألفُ مُصِيبةٍ في وقتٍ واحِدٍ لأنّه كانَ يُحِبُّها كُلَّها وقد سُلِبَتْ منه في كَرّةٍ واحِدَةٍ، ولذلكَ كانَ الزُّهدُ في الدنيا مِنْ قَضايَا العَقْلِ.

- قالَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ: "لِلْعَقْلِ أَلْفُ اسْمٍ، ولِكُلِّ اسْمٍ منها أَلْفُ اسْمٍ، وأَوَّلُ كُلِّ اسْمٍ منها تَرْكُ الدنيا".

- وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ: "كيفَ يُسَمَّى عاقِلاً وهو يُمْسِي ويُصْبِحُ في الدنيا ومُباهاةِ أهلِها في المطاعِمِ والمشارِبِ والملابِسِ والمراكِبِ، أولئكَ الخاسِرونَ وأولئكَ الغافِلُونَ وأولئكَ الجاهلُونَ".

أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ *** طَافِحٌ مَوْجُهُ فَلَا تَأْمَنَنْهَا

وَسَبِيلُ النَّجَاةِ فِيهَا بَيِّنٌ *** وَهُوَ أَخْذُ الكَفَافِ والقُوتِ مِنْهَا

- وقالَ أبو عليٍّ الثّقَفِيُّ رحمهُ اللهُ: "أُفٍّ مِنْ أَشْغالِ الدنيا إذا أقْبَلَتْ، وأُفٍّ مِنْ حَسَراتِها إذا أَدْبَرَتْ، والعاقِلُ مَنْ لا يَرْكَنُ إلى شيءٍ إذا أقْبَلَ كانَ شُغلاً، وإذا أدْبَرَ كانَ حَسْرَةً".

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسُرُّهُ *** فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا

إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً *** وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا

- ومِمّا يَعْظُمُ الفَرَحُ بهِ فَيَعْظُمُ الحُزْنُ بِفُقْدَانِه على قَدْرِ ذلكَ وُجُودُ الرِّيَاسَةِ والوِلَايَةِ، وقَدْ نَبَّهَ عليها ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في الحِكْمَةِ التاليةِ.

141) إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وِلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ.

– وَكُلُّ وِلاياتِ الدنيا لا تَدُومُ لكَ، وإنْ دَامَتْ لكَ فلا تَدُومُ لها، إنْ لم تُعْزَلْ عنها بالحياةِ عُزِلْتَ عنها بالمَمَاتِ، فَطِبْ نفساً عنها ابْتِداءً ودَوَاماً بأنْ لا تَتَوَلَّى على كُلِّ حَالٍ، وإنْ وُلِّيتَ أَمْراً فلا تَعْتَدَّ به ولا تَأْنَسْ به، بل عُدَّ نَفْسَكَ مَعْزُولاً مِنْ يومِ الوِلايَةِ تَكُنْ يومَ العزْلِ في عِزٍّ وعِنايَةٍ، فقد قِيلَ: "الْتَزِمْ مُفَارَقَةَ مَنْ لا بُدَّ مِنْ فِراقِهِ، فلا تَأْلَمُ لِفِراقِهِ".

– فَوَجَبَ أنْ تَعْزِلَ نَفْسَكَ قبلَ أنْ تُعْزَلَ؛ بأنْ لا تَدْخُلَها بِنَفْسِكَ ولا لِنَفْسِكَ، وتكونَ فيها غيرَ مُتَعَلِّقٍ بها، وعلامَةُ ذلكَ ثلاثٌ:

أوّلُها: أنْ لا تَقْبَلَها إلّا لِأمرٍ تَخْشاهُ دِيناً أو دُنيا بعدَ الفِرارِ الصّادِقِ.

الثّاني: أنْ تُلَازِمَ فيها الحَذَرَ والإِشْفاقَ.

الثالثُ: أنْ يكونَ الخُروجُ منها أَشْهَى إليكَ مِنَ الإِقَامَةِ فيها.

– والوِلايةُ إذا صُوحِبَتْ بثلاثٍ كانَ صَاحِبُها خارجاً عنها في عَيْنِ تَلَبُّسِهِ بها:

أوّلُها: وَرَعٌ صادِقٌ على وَفْقِ العِلْمِ والتّحقِيقِ.

الثاني: تَرْكُ الحُظُوظِ والأغْراضِ وإنْ كانتْ مُباحةً مُوَسَّعَةً.

الثالثُ: العملُ في الفِرارِ غايةَ الجُهدِ بِوُقُوعِ الاقْتِصارِ على مَحَلِّ الضَّرُورَةِ.

– سُئِلَ الشيخُ أبو محمدٍ عبدُ القادِرِ رحمهُ اللهُ عنِ الدنيا فقالَ: "أَخْرِجْهَا مِنْ قَلْبِكَ، واجْعَلْها في يَدِكَ، فإنَّها لا تَضُرُّكَ".

– فوِلاياتُ الدنيا تكونُ منها بينَ إِحْدَى ثلاثٍ: إمّا أنْ تُعزَلَ عنها بالحياةِ وهي أَكْبَرُ المصائِبِ، أو تَذْهَبَ عنها بالموتِ وهو أمرٌ لا بُدَّ منه، أو تكونَ لك جارِيةً على غيرِ مُرادِكَ وهي مُصِيبَةٌ حاضِرَةٌ، والعاقِلُ لا يَعْدِلُ بالسّلامَةِ شيئاً. فإنّها نِعمَتِ المُرضِعَةُ وبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ.

مُبْتَدأٌ حُلْوٌ لِمَنْ ذَاقَهُ *** وَلَكِنِ انْظُرْ خَبَرَ المُبْتَدَا

– والوِلايةُ التي تَدُومُ هي وِلايةُ العِزِّ باللهِ، والغِنَى به، والمعرفةِ له، والغَيْبَةِ عمّا سِواهُ، فلا شَكَّ أنَّ هذِه وِلايةٌ لا تَنْقَطِعُ، وشَرفٌ لا يَنْفَدُ، وعِزٌّ لا يَبِيدُ.

– يُحْكَى أنَّ عبدَ اللهِ بنَ المبارَكِ رحمهُ اللهُ قَدِمَ على هَارونَ الرشيدِ، فانْجَفَلَ النَّاسُ خَلْفَ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ، وتَقَطَّعَتِ النِّعَالُ، وارْتَفَعَتِ الغَبَرَةُ، فأَشْرَفَتْ أُمُّ وَلَدٍ لِأَمِيرِ المؤمِنِينَ الرّشِيدِ مِنْ بُرْجٍ مِنْ قَصْرِ الخَشَبِ، فلمّا رَأَتِ النّاسَ قالَتْ: ما هذا؟ قالُوا: عَالِمٌ مِنْ أَهْلِ خُراسانَ قَدِمَ الرِّقَّةَ يُقالُ له عبدُ اللهِ بنُ الْمُبارَكِ، فقالَتْ: "هذا واللهِ الْمُلْكُ؛ لَا مُلْكُ هارُونَ الذِي لَا يَجْمَعُ النَّاسَ إلّا بِشُرَطٍ وأَعْوَانٍ". (تاريخُ بَغدادَ، وسِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلاءِ).

142) إِنْ رَغَّبَتْكَ البِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ.

- إنْ رَغَّبَتْكَ البِداياتُ بِحُصُولِ الفَوائِدِ زَهَّدَتْكَ النِّهاياتُ بِوُقُوعِ النَّوائِبِ، إنْ رَغَّبَتْكَ البِداياتُ بِوُجُودِ المَنافِعِ زَهَّدَتْكَ النِّهاياتُ بِوُقُوعِ الفَجائِعِ، إنْ رَغَّبَتْكَ البِداياتُ بِتَحْصِيلِ مَا تُرِيدُ زَهَّدَتْكَ النِّهاياتُ بِالوُقُوعِ فيما لا تُرِيدُ، وذلك بِسُرْعةِ فَقْدِها وحَسْرَتِها.

- رُوِيَ أنَّ عَلِيَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه كَتَبَ لِسَلمانَ رضي الله عنه: "إنّما مَثَلُ الدنيا كَمَثَلِ الحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سُمُّهَا، فأَعْرِضْ عنها وعمّا يُعْجِبُكَ منها لِقِلَّةِ ما يَصْحَبُكَ منها، ودَعْ عنكَ هُمُومَها لِمَا تَيَقَّنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا، وكُنْ أَسَرَّ ما تكونُ فيها أَحْذَرَ ما تكونُ منها، فإنَّ صَاحِبَهَا كُلَّما اطْمَأَنَّ فيها إلى سُرُورٍ أَشْخَصَ منها إلى مَكْرُوهٍ".

- وفي المعنى لبعضِ الشُّعراءِ:

وَمَا نَحْنُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ *** وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيق

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ *** لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيق

– إنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ اغْتِراراً بِصُورَتِهِ وبِما تَسْتَفِيدُ مِنها، نَهَاكَ عنها باطِنٌ اعْتِبَاراً بحقِيقَتِه، واعْتِباراً بِمَآلِ أمْرِها وقُبْحِ حَالِها؛ لأنَّ ظَاهِرَها غِرَّةٌ وباطِنَها عِبْرَةٌ.

– ولله دَرُّ أبي مُوسى الثَّقَفِيّ حيثُ يقولُ: "أُفٍّ للاشْتِغالِ بالدنيا إذا أقْبَلَتْ، وأُفٍّ لِحَسْرَتِهَا إذا أدْبَرَتْ، والعَاقِلُ لَا يَرْكَنُ لِشيءٍ إذا أدْبَرَ كانَ حَسْرَةً، وإذا أقْبَلَ كانَ شُغْلاً".

وقالَ بَعْضُهم: "تركْتُ الدنيا لِسُرْعَةِ فَنَائِهَا وكَثْرَةِ عَنَائِهَا وقِلَّةِ غِنَاهَا وخِسَّةِ شُرَكَائِهَا".

وفي معنى ذلكَ قِيلَ:

فَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسُرُّهُ *** فَسَوْفَ لَعَمْري عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا

إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً *** وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا

وأنْشَدُوا أيضاً:

وَقَائِلَةٌ مَا لِي أَرَاكَ مُجَانِباً *** أُمُوراً وَفِيهَا لِلتِّجَارَةِ مَرْبَحُ

فَقُلْتُ لَهَا مَا لِي بِرِبْحِكِ حَاجَةٌ *** فَنَحْنُ أُنَاسٌ بِالسَّلَامَةِ نَفْرَحُ

– قال محمدُ بنُ عليّ التِّرمذِيُّ رحمهُ اللهُ: "لم تَزَلْ الدنيا مَذْمُومةً في الأُمَمِ السّالِفَةِ عندَ العُقلاءِ منهم، وطَالِبُوها مُهَانِينَ عندَ الحُكَماءِ المَاضِينَ، ومَا قَامَ دَاعٍ في أُمّةٍ إلّا وقد حَذَّرَ مِنْ مُتابَعَةِ الدنيا وجَمْعِهَا والحُبِّ لها، ألا تَرَى مُؤمنَ آلِ فِرْعَونَ كيفَ قالَ: (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)، وقالَ: (إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)، أيْ لنْ تَصِلَ إلى سَبِيلِ الرَّشادِ وفي قَلبِكَ مَحَبَّةُ الدنيا وطَلَبٌ لها".

– والحِكاياتُ والآثارُ في أحوالِ الدنيا وغُرورِها وشُرورِها أكثرُ مِنْ أنْ تُحصَى، ولا شَيءَ أبْيَنُ في ذلكَ مِنْ قولِ الله تعالَى في صِفَتِها:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ). الحديد 20.

143) إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلّاً لِلْأَغْيَارِ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ الْأَكْدَارِ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا.

– الأَغْيَارُ هُنا جَمْعُ غِيَرٍ بِكَسْرِ أَوَّلِه وفَتْحِ ثانِيهِ، وهو ما يُشَوِّشُ المُعْتادَ مِنَ الأُمُورِ، ومَعْدِنُ الشّيءِ مَحَلُّهُ الذي يُلازِمُه فلا يُوجَدُ في غَيرِه، والأَكْدارُ الأَنْكادُ والـهُمُومُ والغُمُومُ التي لا يَنْفَكُّ عنها وقْتٌ مِنْ أَوْقاتِ الدنيا ولا حَالٌ مِنْ أحْوالِها، حتّى قالَ جَعفرُ بنُ مُحمّدٍ الصَّادِقُ رحمهُ اللهُ: "مَنْ طَلَبَ مَا لَمْ يُخْلَقْ، أتْعَبَ نَفْسَهُ ولَمْ يُرزَقْ" يَعْني الرّاحةَ في الدنيا.

– وقالَ بعضُ البُلَغاءِ في وَصْفِها: "الدنيا كأحْلامِ المَنامِ، وسُرُورُها كَظِلّ الغَمامِ، وأحْداثُها كَصَوائِبِ السِّهامِ، وشَهَوَاتُها كَمَشُوبِ السِّمامِ، وفِتْنَتُها كَالأَمْواجِ الطِّمامِ".

وفي مَعْنَى ذلكَ قِيلَ:

أَضْغَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ *** إنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

– والتَّزْهِيدُ اسْتِدْعاءُ الزُّهْدِ، وهو بُرُودَةُ القَلبِ عنِ الدنيا في الفَقْدِ والوَجْدِ حتّى لا تَحْزَنَ عليها إذا فُقِدَتْ ولا تَبْخَلَ بها إذا وُجِدَتْ، وإنّما زَهَّدَكَ فِيها لِثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

<u>أَحَدُها</u>: إكْراماً لكَ عنِ الشُّغُلِ بها عنه.

<u>الثّاني</u>: إِرَاحَةً لِوُجُودِكَ في حَالِكَ عنْ تَعَبِ مُعَالَجَتِهَا.

<u>الثالثُ</u>: تَفْرِيغاً لِقَلبِكَ مِنَ الشَّواغِبِ الطَّارِئَةِ عنها.

- إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلاًّ لِلْأَغْيَارِ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ الْأَكْدَارِ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا، وذلكَ لِمَا يَبْدُو لكَ مِنْ نَقْصِها وفَسادِها وعَدَمِ جَدْوَاها.

كما اتَّفَقَ لِبَعْضِهِم حَسْبَما أَخْبَرَ عنْ نَفْسِه إذْ قالَ: "تَرَكْتُ الدنيا؛ لِكَثْرَةِ عَنائِهَا، وقِلَّةِ غَنائِهَا، وخِسَّةِ شُرَكائِهَا، وسُرْعَةِ فَنائِهَا".

ومَعْرِفَةُ ذلكَ بالتّجْرُبَةِ والذَّوْقِ أَتَمُّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالتَّعَلُّمِ والفُهْمِ، وهذا ما نَبَّهَ عليه في الحِكْمةِ اللّاحِقَةِ.

- وُرُودُ الأغْيارِ والأكْدارِ الدّنْيَوِيّةِ على العَبْدِ نِعَمٌ مِنَ اللهِ تعالَى عليه، لأنَّ ذلكَ يَدْعُوهُ إلى الزّهادَةِ في الدنيا والتَّجافِي عنها، ويَصْرِفُ عنه وُجُودَ الغَبَاوَةِ والجَهالَةِ لأجْلِ تَمسُّكِهِ بِالخَيالِ، وما يَسْتَضِرُّ بهِ في الحَالِ والمَآلِ؛ لأنَّ المُوجِبَ لِرَغْبَتِهِ فيها وحِرْصِهِ على نَيْلِهَا إنّما هو ما يَتَوَهَّمُهُ فيها مِنَ الحُصُولِ على مُنْيَتِهِ وبُغْيَتِهِ، وقَضاءِ غَرَضِهِ مِنْ شَهْوَتِه ونَهْمَتِه، مِنْ غيرِ مُكَدِّرٍ ولَا مُنَغِّصٍ، ولو تُصُوِّرَ له حُصُولُهُ على هذه الأشْياءِ على حَسَبِ ما يُحِبُّهُ ويَهْواهُ كانَ يُنْبَغِي لهُ أنْ يَرْغَبَ عنها عُروضاً عَنِ الرّغْبَةِ فيها إنْ كانَ عاقِلاً؛ لأنَّ مَآلَ أمْرِها إلى الفَناءِ والزَّوالِ، والافْتِقارِ والانْقِضاءِ والارْتِحَالِ، وقدْ قَالُوا: "شَرٌّ لَا يَدُومُ، خَيْرٌ مِنْ خَيْرٍ لَا يَدُومُ".
وقالَ الشاعِرُ:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي في سُرُورٍ *** تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ارْتِحَالا
أَرَى الدُّنْيَا عَلَى مَنْ كَانَ فِيهَا *** تَدُورُ فَلَا تُدِيمُ عَلَيْهِ حَالا

- ثمّ هي مانِعَةٌ له مِنْ سَعادَةِ الآخِرَةِ، والقُرْبِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي هو غايَةُ طَلَبِ الطَّالِبِينَ، ونِهَايَةُ رَغْبَةِ الرَّاغِبِينَ، فكيفَ وهو مُعَرَّضٌ فيها لِأَنْوَاعِ المصائِبِ والفَجائِعِ، ووُقُوعِ الأغْيارِ والأكْدارِ، فما مِنْ أَحَدٍ فيها إلَّا وهو في كُلِّ حَالٍ ووَقْتٍ غَرَضٌ لِأَسْهُمٍ ثلاثةٍ: سَهْمِ بَلِيَّةٍ، وسَهْمِ رَزِيَّةٍ، وسَهْمِ مَنِيَّةٍ، فإذا نَزَلَ به ذلكَ عَادَتْ النِّعْمَةُ نِقْمَةً، وانْقَلَبَتِ الحَبْرَةُ عَبْرَةً، وصارَتِ الفَرْحَةُ تَرْحَةً، وهكذا شَأْنُ الدنيا أبداً، فلا يَفِي مَرْجُوُّها بِمَخَوِّفِهَا، ولا يَقُومُ خَيْرُهَا بِشَرِّهَا، ولقدْ صَدَقَ الشّاعِرُ في قَوْلِهِ:

إنَّ اللَّيَالِيَ لَمْ تُحْسِنْ إلَى أَحَدٍ *** إلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

- وقد كَتَبَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه إلى سَلْمانَ رضى الله عنه: "إنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَنْهَا، وعَمَّا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَدَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا؛ لِمَا تَيَقَّنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا، وَكُنْ أَسَرَّ مَا تَكُونُ فِيها، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَ مِنْهَا إِلَى مَكْرُوهٍ".

- قالَ أبُو العَتَاهِيةِ:

هِيَ الدَّارُ دَارُ الأَذَى والقَذَى *** ودَارُ الفَنَاءِ ودَارُ الغِيَر

وَلَوْ نِلْتَهَا بِحَذَافِيرِهَا *** لَمُتَّ وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا الوَطَر

أَيَا مَنْ يُؤَمِّلُ طُولَ البَقَاءِ *** وَطُولُ الْخُلُودِ عَلَيْهِ ضَرَر

إِذَا مَا كَبِرْتَ وَفَاتَ الشَّبَابُ *** فَلَا خَيْرَ فِي العَيْشِ بَعْدَ الكِبَر

144) عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا.

- النُّصْحُ المُجَرَّدُ لا يَقْبَلُه إلّا مَنْ لم يَسْتَحْكِمْ فيه حُبُّ العاجِلَةِ، والأُنْسُ بِلَذَّاتِهَا الفانِيَةِ وكانَ كَرِيمَ الطَّبْعِ سَهْلَ القِيادِ، وأمّا مَنْ اسْتَحْكَمَ فيه حُبُّ العاجِلَةِ وتَمَكَّنَتْ مِنْ باطِنِهِ وكانَ صَعْبَ المَقَادَةِ؛ فلا بُدَّ في قَصْدِ هِدايَتِه وإرْشادِه مِنْ زِيادَةٍ على النُّصْحِ والوَعْظِ وهو وُجُودُ ما يَقْهَرُه ويُجْبِرُه.

- لأنَّ المُباشَرَةَ بالفِعْلِ أبْلَغُ في الاتِّعاظِ مِنَ القَوْلِ، فإنْ وُفِّقْتَ للمُفَارقَةِ كانتْ لكَ مَحَجَّةً، وإلّا فهي عليكَ حُجَّةً، وما مِثالُكَ في ذلكَ إلّا كَصَبِيٍّ نُهِيَ عنْ تَناوُلِ حَيَّةٍ فَأَبَى إلّا تَناوُلَهَا، فلا جَرَمَ أنّ ناصِحَهُ يُذِيقُهُ أَلَمَ الضَّرْبِ حتّى يَرجِعَ عنها، أو يُعَوِّضُهُ ما هُو أحْسَنُ وأسْلَمُ منها، وإلّا لَدَغْتُهُ فَقَتَلَتْهُ بِسُمِّهَا.

- فهو سُبحانَه زَهَّدَكَ فيها بما هي عليهِ، وأَكَّدَ ذلكَ بما يُلابِسُكَ منها.

وفي ذلكَ قِيلَ:

إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى المَرْءِ حَسْرَةً *** وإنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا

- ففائِدَةُ الزُّهْدِ فيها ثلاثٌ:

1- السَّلامَةُ مِنْ نَكَدِهَا.

2- والرَّاحَةُ منْ تَعَبِهَا.

3- وفَراغُ الوَقْتِ للعُبُودِيّةِ ونحوِها.

– واسْتِفادَتُهُ مِنْ تَقَلُّباتِهَا أَتَمُّ لثلاثةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّ النَّفْسَ تَتَأَثَّرُ بما يُمَاسُّها أكْثَرَ مِنْ غيرِهِ فهو عَونٌ على تَرْكِهَا. الثاني: أنَّ كَثْرَةَ الجَفاءِ تَقْطَعُ أُصُولَ المَحَبَّةِ، والدنيا مَحْبُوبةً بالطّبْعِ، فلا يُزِيلُ مَحَبَّتَهَا إلّا كَثْرَةُ جَفاهَا. الثّالثُ: أنَّ المُماسَّةَ في الجَفاءِ أَوْجَعُ للقلبِ وأَقْوَى في الحُجَّةِ وأَوْضَحُ في المَحَجَّةِ.

– يقولُ أبو هاشِمٍ الزَّاهِدُ رحمهُ اللهُ: "إنَّ اللهَ وَسَمَ الدنيا بالوَحْشَةِ لِيَكُون أُنْسُ المُرِيدِينَ به دُونَهَا، ولِيُقْبِلَ المُطِيعُونَ إليهِ بالإعْراضِ عنها، وأهْلُ المعرِفَةِ باللهِ مِنَ الدنيا مُسْتَوْحِشُونَ وإلى الآخِرَةِ مُشْتَاقُونَ".

– وإنّما لا تَقْبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ عَنِ التَّجْرِبَةِ لِغَلَبَةِ دائِرَةِ الوهْمِ عليكَ حتّى آثَرْتَ العَاجِلَ على الآجِلِ بوَجْهٍ لا يُزِيلُه مِنْ يَدِكَ إلّا أمْرٌ فاعِلٌ في الوهْمِ، ولأنَّ الحاجَةَ ماسَّةٌ إليها، وما كانَ في مَوْقِفِ الضَّرورَةِ لا يُزالُ عنه إلّا بِتَحَقُّقِ الضَّرَرِ في عَيْنِه.

– عَلِمَ الحَقُّ سُبحانَه في عِلْمِهِ القَدِيمِ أنّكَ لا تَقبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ في تَزهِيدِهِ إيّاكَ عنها، لأنّكَ مَجْبُولٌ على حُبِّهَا، فَذَوّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا المُرَّةِ ودَوَاهِيهَا الشّدِيدَةِ وبَلاياها العَدِيدَةِ، ما يُسَهِّلُ عليكَ وُجُودَ فِراقِهَا، لِعِلْمِكَ بِحَقِيقَتِها وخِسَّتِها وذِلَّتِها وعَدَمِ وَفائِها وكَثْرَةِ بَلائِهَا ولَأْوائِها، فلا يَثْقُلُ عليك فِراقُهَا، بل يَسْتَوِي عندَكَ إقْبالُهَا وإدْبارُهَا، وقدْ تَكْرَهُ إقْبالَهَا وتُحِبُّ إدْبارَها. أمَّا العَاشِقُونَ لها فلا يَزْهَدُونَ فيها ولو ذَاقُوا مِنْ بلاياها ما هو كالمَوْتِ، بل يَزْدادُونَ شَوْقاً إليها عندَ كَثْرَةِ بَلَاياها.

145) العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِنَاعُهُ.

- يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ فَتَنْكَشِفُ الأُمُورُ على حَقائِقِها، فَيَرى الآخِرَةَ خَيْراً مِنَ الدنيا، وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأبْقَى، لأنَّ ما عِندَنا يَنْفَدُ وما عِندَ اللهِ بَاقٍ، إلى غيرِ ذلكَ من المَعانِي.

- وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِنَاعُهُ، أيْ سِتْرُهُ فَيُباشِرُ العِلْمُ سُوَيْداءَ قَلبِه، فلا يُمْكِنُهُ التَّخَلُّفُ عَنْ مُقتَضَى عِلْمِه مِنْ إقْبالٍ أو إدْبارٍ فيما هو به.

- والنّاسُ في ذلكَ ثلاثةٌ:

الأوّلُ: رَجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ بِوَجْهٍ لا يَصِحُّ شَكُّهُ فيه ولا رُجُوعُهُ عنه، غيرَ أنّه لم يُؤَثِّرْ في وُجُودِه شيئاً زائِداً على ذلكَ، وهذا باسْمِ الوِعَاءِ أحَقُّ منه باسْمِ العَالِمِ.

الثاني: رجُلٌ عَلِمَهُ على الوَجْهِ المذكُورِ بِزيادَةِ التّأثُّرِ الدّاعِي للاعْتِرافِ بالقُصُورِ في مَحَلِّهِ، والاتِّعاظِ في مَحَلِّهِ، ورُبّما تَراجَعَتْ أحْوالُهُ في العَمَلِ به، وهذا هو الفَقِيهُ في حالِهِ إذْ عَرَفَ الحَقَّ له وعليه، وقامَ به بِقَدْرِ وُسْعِهِ أو حالِهِ.

الثالثُ: رَجُلٌ تَمَكَّنَتْ حقِيقَةُ العِلْمِ مِنْ قَلبِهِ، فانْبَسطَتْ جَوارِحُهُ بالجَرْيِ على حُكْمِهِ مِنْ غيرِ مُخالَفَةٍ ولا إمْكانِها، كالعِلْمِ بِنَفْعِ الخُبْزِ للجُوعِ، والماءِ للعَطَشِ، وضُرِّ سُمِّ العَقْرَبِ والحَيَّةِ، وهو العِلْمُ النّافِعُ في الجُملَةِ.

- يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:

(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). الأنعام 122.

- قالَ الشّيخُ أبو محمدٍ المَهدَوِيُّ رحمهُ اللهُ: "العِلْمُ النَّافِعُ هُو عِلْمُ الوَقْتِ، وصفاءُ القلبِ، والزُّهدُ في الدنيا، وما يُقَرِّبُ مِنَ الجنّةِ، وما يُبْعِدُ عنِ النارِ، والخوفُ مِنَ الله والرّجاءُ فيه، وآفاتُ النُّفُوسِ وطَهارَتُها، وهو النُّورُ المُشارُ إليه أنّه نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ في قَلْبِ مَنْ يَشاءُ، دُونَ عِلْمِ اللِّسانِ والمَنقُولِ والمَعْقُولِ".

- يقولُ ابنُ القيّمِ رحمهُ اللهُ عن البَصِيرَةِ: "هي نُورٌ يَقذِفُه اللهُ في القلبِ، يُفَرِّقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والصّادِقِ والكاذِبِ".

ويقولُ أيضاً: "هي نُورٌ يَقذِفُه اللهُ في القلبِ، يَرَى به حَقِيقَةَ ما أَخْبَرَتْ به الرُّسُلُ كأنّه يُشاهِدُه رَأْيَ عَيْنٍ، فَيَتحقَّقُ مع ذلك انْتِفاعُه بما دَعَتْ إليه الرُّسُلُ، وتُضَرُّرُهُ بِمُخالَفَتِهِم، وهذا معنى قولِ بعضِ العارِفِينَ: البَصِيرَةُ تَحَقُّقُ الانْتِفاعِ بالشيءِ والتَّضَرُّرِ بهِ".

- قالَ الجُنَيْدُ رحمهُ اللهُ: "العِلْمُ النّافِعُ أنْ تَعْرِفَ رَبَّكَ، ولا تَعْدُو قَدْرَكَ".

- وقالَ الإمامُ مالكٌ رحمهُ اللهُ: "ليسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، إنّما العِلْمُ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ في القُلُوبِ".

- فالعِلْمُ النّافِعُ هو العِلمُ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وأسْمائِه، والعِلمُ بكَيْفِيّةِ التّعَبُّدِ له والتّأَدُّبِ بينَ يَدَيْهِ، فهذا العِلمُ الذي يَبْسُطُ في الصَّدْرِ شُعاعَهُ، فيَتَّسِعُ ويَنْشَرِحُ للإسلامِ، ويَكْشِفُ عنِ القلبِ قِناعَه فتَزُولُ عنه الشُّكُوكُ والأوْهامُ.

العلمُ الذي يُقَرِّبُ العَبدَ مِنْ رَبِّهِ ويُبْعِدُه عنْ رُؤْيةِ نَفْسِه، وذلكَ غايةُ سَعادَتِه ومُنتَهَى طلَبِه وإرادَتِه.

- وفي الحديثِ أنّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ إذا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً ورِزْقاً طَيِّباً وعَمَلاً مُتَقَبَّلاً". صحيح ابن ماجه للألباني.

ومِنْ دُعائِهِ أيضاً ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا". صحيح مسلم.

146) خَيْرُ العِلْمِ مَا كَانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ.

– لأنّهُ مَصْحُوبٌ بِمعرِفَةِ اللهِ، دَالٌّ على العُبوديّةِ للهِ، فهو شَرِيفُ الأصْلِ والفَرْعِ، والأشياءُ تَشْرُفُ بِشرَفِ مَقاصِدِهَا، ولذلكَ قِيلَ: فَضْلُ العِلْمِ لِفَضْلِ مَنْ عُلِمَ به؛ واللهُ تعالَى أجَلُّ مَعْلُومٍ؛ فالمعرِفَةُ به أفْضَلُ العُلومِ، وإذا كانَ اللهُ هو غايةَ الغاياتِ، فالمعرِفةُ به أجَلُّ العِباداتِ.

وحَقِيقَةُ الخَشْيةِ مَهابَةٌ يَصْحَبُها تَعظِيمٌ، وذلكَ يُفْضِي لِحُسْنِ الأدَبِ والمُراقَبَةِ.

– فالعِلْمُ النّافِعُ هو ما كانَ صَاحِبُهُ مُلازِماً للخَشْيَةِ، وهي خَوْفٌ مع إجْلالٍ يَنْشَأُ عنه العَمَلُ.

وقد أثْنَى اللهُ تعالَى على العُلَماءِ بذلكَ فقالَ سُبحانَه:
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر 28.

وأمّا العالِمُ الذي لا خَشْيَةَ معه فليسَ عالِماً على الحَقِيقَةِ خُصُوصاً إذا كانَ هَمُّهُ الجَمْعُ والادِّخارُ والمُباهاةُ والاسْتِكْبارُ، فإنَّ عِلْمَ هذا حُجَّةٌ عليه، وسَبَبٌ في جَرِّ وَبَالِ العُقُوبَةِ إليهِ.

- يقولُ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (تاج العروسِ): "العِلْمُ النّافِعُ هو الذي يُستَعانُ به على الطّاعةِ، ويُلْزِمُ الخَشْيَةَ مِنَ اللهِ تعالَى والوُقُوفَ على حُدُودِ اللهِ تعالَى، وهو عِلْمُ المَعرِفَةِ باللهِ تعالى".

ويقول أيضاً في (لطائف المِنَنِ): "حَيْثُمَا وَقَعَ العِلْمُ في كِتابِ الله تعالَى وكلامِ رسُولِهِ ﷺ فإنّما المُرادُ به العِلْمُ النّافِعُ المُخْمِدُ للهَوَى القَامِعُ، الذي تَكْتَنِفُه الخَشْيَةُ وتكونُ معه الإنابةُ".

- وإنَّمَا كانَ هذا خَيْرَ العِلْمِ لأنّه يَقْتَضِي ثلاثةُ أمُورٍ:

أوّلها: الإعْراضَ عنِ الدنيا وأهْلِها لوُجُودِ العِلْمِ بها وبأهْلِها.

الثّاني: اتّهامَ النّفْسِ والحَذَرَ منها للعِلْمِ بِما انْصَبَغَتْ به حَقِيقَتُها.

الثّالث: الانْحِيَاشَ إلى الحَقِ سُبحانَه للعِلْمِ بأنّه القائِمُ به كُلُّ شيءٍ، ولا غِنىً لشيءٍ عنه.

- قالَ الواسِطِيُّ رحمهُ اللهُ: "أَرْحَمُ النّاسِ العُلَماءُ، لِخَشْيَتِهم مِنَ اللهِ تعالَى، وإشْفاقِهم مِمَّا عَلَّمَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ".

- يقولُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ الله في تفسيرِ قولِه تعالَى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، أي: إنَّمَا يَخْشاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ العُلماءُ العارِفُونَ به؛ لأنّه كُلّما كانتِ المَعْرِفَةُ للعَظِيمِ القَدِيرِ العَلِيمِ المَوْصُوفِ بِصِفاتِ الكَمالِ المَنْعُوتِ بالأَسْمَاءِ الحُسْنى، كُلّما كانتِ المعرفَةُ بهِ أَتَمَّ والعِلْمُ بهِ أَكْمَلَ، وكَانَتِ الخَشْيَةُ له أَعْظَمَ

وأَكْثَرَ، قالَ عليُّ بنُ أبي طَلْحَةَ، عَنِ ابنِ عبّاسٍ في قولِه تعالَى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، قالَ: "الذينَ يَعْلَمُونَ أنّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ". وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضاً قالَ: "العالِمُ بالرحمنِ مَنْ لم يُشْرِكْ به شيئاً، وأحلَّ حلالَه، وحرّمَ حرامَه، وحَفِظَ وَصِيّتَه، وأيْقَنَ أنّه مُلاقِيهِ ومُحاسَبٌ بِعَمَلِه". وقالَ سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: "الخَشْيَةُ هي التي تَحُولُ بينكَ وبينَ مَعْصِيَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ". وقالَ الحسنُ البصريُّ: "العالِمُ مَنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغَيْبِ، ورَغِبَ فيما رَغِبَ اللهُ فيه، وزَهِدَ فيما سَخِطَ اللهُ فيه"، ثمّ تَلا الحسنُ: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)، وعنِ ابنِ مسعودٍ، رضي الله عنه، أنّه قالَ: "ليسَ العِلْمُ عنْ كَثْرَةِ الحَدِيثِ، ولكنَّ العِلْمَ عنْ كَثْرَةِ الخَشْيَةِ".

– ويقولُ السَّعديُّ في قولِه تعالَى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، فكُلُّ مَنْ كانَ باللهِ أَعْلَمَ، كانَ أَكْثَرَ له خَشْيَةً، وأَوْجَبَتْ له خَشْيَةُ اللهِ الانْكِفَافَ عنِ المعاصِي، والاسْتِعْدادَ لِلِقاءِ مَنْ يَخْشَاهُ، وهذا دَلِيلٌ على فَضِيلَةِ العِلْمِ، فإنَّه دَاعٍ إلى خَشْيَةِ اللهِ، وأهلُ خَشْيَتِه هُمْ أَهْلُ كَرامَتِه، كما قالَ تعالَى: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

– وفي صحيحِ البُخاريّ: عنْ عائِشةَ رضي الله عنها قالتْ: صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ شيئًا فَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهَ عنْه قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قالَ: "ما بَالُ أقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أصْنَعُهُ؟ فَوَاللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللَّهِ، وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً".

– وقالَ مسروقٌ: "كَفَى بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْماً، وكَفَى بِالاغْتِرَارِ باللهِ جَهْلاً".

– وقالَ رَجُلٌ للشَّعْبِيِّ: أَفْتِنِي أيُّها العالِمُ، فقالَ الشَّعْبِيُّ: "إنّما العَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ".

– وقالَ الرَّبِيعُ بنُ أَنَسٍ: "مَنْ لَمْ يَخْشَ اللهَ تَعالَى فَلَيْسَ بِعالِمٍ".

– وعنْ قَتادَةَ في قَولِهِ (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) قالَ: "كانَ يُقالُ: كَفَى بالرّهْبَةِ عِلْماً".

147) العِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ، وَإِلَّا فَعَلَيْكَ.

- يَعنِي فَلَكَ أجْرُه وثَوابُه، وإلّا فعلَيْكَ إثْمُه وعِقابُه، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: فَلَكَ مَحَجَّةً، وإلّا فَعليْكَ حُجَّةً، وإنْ شئتَ قلتَ: فلَكَ مَنْفَعَتُه فائِدةً، وإلّا فعليْكَ مَضَرَّتُه عائِدةً، وإنْ شئتَ قلتَ: فلَكَ فَوائِدُه، وإلّا فَعليْكَ مَصائِبُه وشَدائِدُه.

- وفي الحديثِ عنِ النبيّ ﷺ أنّه قال: "والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها". صحيح مسلم.

- وقال النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ تَعَلَّم عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعالَى، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيامَةِ". يعني ريحَها.

أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد، وهو في صحيح الترغيب للألباني.

- قال الحسنُ رحمهُ اللهُ: "ما طَلَبَ هذا العِلْمَ أحَدٌ إلّا كانَ حَظُّهُ منهُ ما أَرَادَهُ".

- وعَنِ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ وأَسَدِ بنِ الفُراتِ قَالا: "بَلَغَنا أنَّ الفَسَقَةَ مِنَ العُلَماءِ ومِنْ حَمَلَةِ القُرآنِ يُبْدَأُ بِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ قَبْلَ عَبَدَةِ الأوْثانِ". قالَ الفُضيلُ: "لأنَّ مَنْ عَلِمَ ليسَ كَمَنْ لم يَعلَمْ".

وعنهُ رحمهُ اللهُ أنّه قالَ: "لو أنَّ أهلَ العِلمِ أكْرَمُوا أنفسَهُم، وشَحُّوا على دِينِهِم، وأعَزُّوا العِلْمَ وصانُوهُ، وأنْزَلُوا العِلْمَ حيثُ أنْزَلَهُ اللهُ، لَخَضَعَتْ لهُمْ رِقابُ الجَبابِرَةِ، وانْقادَتْ لهُمُ النّاسُ وكانُوا لهم تَبَعاً، وعَزَّ الإسلامُ وأهلُهُ، لكنَّهُم ذَلُّوا

أنفسَهُم، ولم يُبالُوا ما نَقَصَ مِنْ دِينِهِم إذا سَلِمَتْ لهم دُنياهُم، فَبَذَلُوا عِلْمَهُم لِأَبْناءِ الدنيا، لِيُصِيبُوا بذلكَ مِمّا في أيدي النّاسِ، فَذَلُّوا وهانُوا على النّاسِ".

وفي ذلكَ قالَ بَعضُهم:

لَوْ أنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ *** ولَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

ولَكِنَّهُمْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا *** مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

– قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (لطائف المِنَنِ): "رُبَّما غَرَّ الغافِلَ مِنْ طَلَبَةِ العِلمِ قَوْلُ مِنْ قَالَ: طَلَبْنَا العِلمَ لِغَيْرِ اللهِ فَأَبَى أنْ يَكُونَ إلّا للهِ، وليسَ في قولِ هذا القائِلِ ما يَسْتَرْوِحُ إليهِ مَنْ طَلَبَ العِلْمَ للرِّئاسَةِ والمُنافَسَةِ، وإنّما أخْبَرَ هذا القائِلُ عنْ أمْرٍ مُنَّ به عليهِ وفِتْنَةٍ سَلَّمَهُ اللهُ منها، لا يَلْزَمُ أنْ يُقاسَ عليه فيها غيرُهُ، وذلكَ بِمَثابَةِ مَنْ به مَرَضٌ مُزْمِنٌ في المِعَى أَعْيَا بَالَهُ وضاقَ عليه خُلُقُهُ فأخَذَ خِنْجَراً وضَرَبَ به مَرَاقَّ بَطْنِه لِيَقْتُلَ نفسَه، فصادَفَ ذلكَ المِعَى فقَطَعَهُ فخَرَجَ الدّاءُ منه، فهذا لا يَسْتَصْوِبُ العُقلاءُ فِعْلَه وإنْ نَجَحَتْ عاقِبَتُه، وليسَتْ سَلامَةُ العواقِبِ رافِعَةً لِلْعَتَبِ عَنِ المُلْقِينَ أنفسَهُم إلى التَّهْلُكَةِ، ليسَ المُغَرِّرُ محموداً وإنْ سَلِمَ".

– قالَ المُحَاسِبِيُّ في كتابِ (الرِّعاية): العِلمُ كما قالَ وهْبٌ: كالغَيْثِ يَنْزِلُ مِنَ السماءِ حُلْواً صافِياً، فَتَشرَبُه الأشجارُ بِعُرُوقِها، فتُحَوِّلُه على قَدْرِ طُعُومِها، فتَزدادُ المُرّةُ مَرارَةً، وتزدادُ الحُلْوَةُ حَلاوَةً، ويكثُرُ ماؤُها بالحَلاوَةِ، ويكثُرُ ماءُ

المُرِّةِ بالمَرارَةِ، فكذلِكَ العِلمُ تَحْفَظُه الرِّجالُ فَتُحَوِّلُه على قدْرِ هِمَمِهَا وأهْوائِهَا، فَيزيدُ المُتَكَبِّرُ كِبْراً، لأنّ مَنْ كانتْ هِمّتُهُ الكِبْرُ وهو جاهِلٌ فإذا حَفِظَ العِلْمَ وجَدَ ما يَتَكَبّرُ به فازدادَ كِبْراً، وإذا كانَ الرّجُلُ جاهِلاً وهو يَخافُ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، ويعلمُ أنَّ حُجّةَ الله تعالَى له لازِمَةٌ وإنْ كانَ جاهِلاً، فإذا حَفِظَ العلمَ وفَهِمَه ازدادَ خوفاً ووَجَعاً، كما قالَ أبو الدّرداءِ رضى اللهُ عنه: "مَنِ ازْدادَ عِلْماً ازْدادَ وَجَعاً"، فإذا ازدادَ وجَعاً لِعِظَمِ الحُجّةِ عليه لِمَا عَلَّمَهُ الله عزّ وجلَّ ازدادَ ذُلّاً وتواضُعاً وإشْفاقاً وخوفاً، وإذا كانتْ هِمّتُه وهواهُ الدنيا والتعظيمَ لها؛ ازدادَ بالعِلمِ كِبْراً أو أَنَفاً واحْتِقاراً لِمَنْ دونَه، وازدادَ على مَنْ هو مِثلُه ومَنْ فوقُه كِبْراً أو أنَفاً وحُبّاً للغَلَبَةِ".

– قالَ ابنُ عطاءِ الله رحمهُ اللهُ في (لطائف المِنَنِ): "شاهِدُ العِلْمِ الذي هو مَطلوبُ اللهِ الخَشيةُ، وشاهِدُ الخَشيةِ مُوافَقَةُ الأمْرِ، أمّا عِلْمٌ تكونُ معه الرّغبةُ في الدنيا، والتّمَلُّقُ لأربابِهَا، وصَرْفُ الهِمَّةِ إلى اكْتِسابِها والجَمْعِ والادِّخارِ والمُباهاةِ والاسْتِكْثَارِ وطُولِ الأمَلِ ونِسْيَانِ الآخِرَةِ؛ فَمَا أبْعدَ مَنْ هذا عِلْمُه مِنْ أن يكونَ مِنْ وَرَثَةِ الأنبياءِ، وهل يَنْتَقِلُ الشيءُ المَوْرُوثُ إلى الوَارِثِ إلّا بالصِّفَةِ التي كانَ بها عندَ المَوْرُوثِ عنه؟ جَعَلَ اللهُ العلمَ الذي عَلِمَهُ مَنْ هذا وصْفُه حُجّةً عليه، وسَبَباً في تَكْثيرِ العُقُوبَةِ لَدَيْهِ".

148) مَتى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ.

– متى تَأَلَّمَتْ نَفْسُكَ بإدْبَارِ الخَلْقِ عنكَ وعَدَمِ إقْبالِهِم فانْظُرْ لِمَا ذُمِمْتَ به أو فُرَّ عنكَ مِنْ أجْلِه، فإنَّ اللهَ تعالَى يَعْلَمُ مِنْكَ وجُودَه، فارْجِعْ إليه بالتّوبةِ والإنابَةِ واللُّجوءِ والاستغفارِ، نَظراً لأنَّ أَلْسِنَةَ الخَلْقِ أقْلَامُ الحَقِّ، وأقْلامُه مُسَلَّطونَ عليكَ بما وقَعَ مِنَ الذّنبِ، وتَنَبَّهْ في ذلكَ لِسَتْرِ الحَقِّ سُبحانَه وتعالَى؛ إذْ يُجْرِي عليكَ ما لا تَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِكَ بِسَبَبِ تَلَبُّسِكَ بمُوازِيه، فلا تَقِفْ مع صورةِ ما رُمِيتَ، بلِ انْظُرْ إلى ما يَدُورُ عليه، كما إذا رُمِيتَ مثلاً بالزّنا وأنتَ بَرِيءٌ منه فانْظُرْ إلى الغِيبَةِ فإنّها مُوازِيَةٌ له، عُقُوبَتُها مِنْ نَوعِه، فقد تكونُ عُقُوبتُها بِذِكْرِه.

– وإنْ كانَ ما وَقَعَ لكَ لا تَجِدُهُ مِنْ نَفْسِكَ فارْجِعْ إلى مولاكَ بالكِفايَةِ عَنْ عِلْمِ غيرِه، وقُلْ بِلِسانِ حالِكَ ومَقالِكَ: أنتَ تَعْلَمُ بَراءَتِي وكَفَى بكَ وكِيلاً كَفِيلاً، وارْجِعْ إليه في الدَّفْعِ عنكَ عُبوديّةً وتَضَرُّعاً؛ لأنّه المَقصُودُ بِابْتِلائِكَ.

– قالَ أبو الحسنُ الشّاذِلِيُّ رحمهُ اللهُ: "لا تَنْشُرْ عَمَلَكَ لِيُصدِّقَكَ النّاسُ، وانْشُرْ عَمَلَكَ لِيُصَدِّقَكَ اللهُ، وإنْ كانَ الأمرُ لِعِلّةٍ موجُودَةٍ؛ فَعِلّةٌ تكونُ بينَكَ وبينَ اللهِ مِنْ حيثُ أَمَرَكَ خَيْرٌ مِنْ عِلَّةٍ تكونُ بينكَ وبينَ النّاسِ مِنْ حيثُ نَهاكَ، ولَعِلَّةٌ تَرُدُّكَ إلى اللهِ خيرٌ مِنْ عِلّةٍ تَقْطَعُكَ عَنِ اللهِ، فَلأجْلِ ذلكَ عَلَّقَكَ بالثّوابِ

والعِقابِ؛ إذْ لا يُخافُ ولا يُرجَى إلّا مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالَى، وكَفَى باللهِ صادِقاً ومُصَدِّقاً، وكَفَى باللهِ عالِماً ومُعَلِّماً، وكَفَى باللهِ هادِياً ونَصِيراً ووليّا، هادِياً فَيَهْدِيكَ ويَهْدِي بكَ ويَهْدِي إليكَ، ونَصِيراً يَنْصُرُكَ ويَنْصُرُ بكَ ولا يَنْصُرُ عليك، ووَلِيّاً يُوالِيكَ ويُوالِي بكَ ولا يُوالِي عليكَ".

وهو عجِيبٌ، ومَدارُهُ على الاكْتِفاءِ بِعِلْمِ اللهِ والقَناعَةِ بِعِلْمِه وهو رأسُ الفَضائِلِ.

- رُجُوعُكَ إلى عِلمِ اللهِ فيكَ هو أنْ تَكْتَفِيَ به فيما أنتَ فيه، فلا تُرِيدُ زائِداً على عِلْمِه في العِلْمِ بِحالِكَ، وذلكَ أنْ تَنْظُرَ مِنْ وجُوهٍ ثلاثَةٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ إقْبالُ الخَلْقِ عليكَ أو نُفْرَتُهُمْ عنكَ لأمرٍ عَلِمَ اللهُ أنّكَ مُتَلَبِّسٌ به، فَتَشْكُرُه تعالَى في الأوّلِ على أنْ حَلّاكَ بِحِلْيَةٍ أنتَ بها محمودٌ عندَهُ، مِنْ غيرِ تَعْرِيجٍ على خَلْقِه، وتَسْتَحِيي منه في الأُخْرَى أنْ قدْ رَآكَ على قَبِيحٍ، فَتَرْجِعُ إليه مِمّا أنتَ مُتَّصِفٌ به ومُكِبٌّ عليه، وتَرى إعْراضَهُم تَنْبِيهاً لكَ وعُقُوبةً لِمَا أنتَ به مِنْ ذلكَ.

الثانِي: أنْ لا يكونَ فيكَ ما وُسِمْتَ به، فَتَحْمَدُهُ في الأوّلِ على سَتْرِه، وتَكْتَفِي في الثّانِي بِعِلْمِه حتّى يكونَ هو الكافِيَ لكَ، فلا تَطْلُبْ أنْ يَعْلَمَ به أحَدٌ مِنْ خَلْقِه، إلّا مَنْ أمَرَكَ بإعْلامِهِ أو أباحَهُ لكَ بِوَجْهٍ لا يَقْدَحُ في تَوَجُّهِكَ إليه مِنْ صَدِيقٍ أو شيخٍ أو غَيرِه.

الثالثُ: أنْ تكونَ خَلِيّاً مِنْ بَعْضِه، مُتَّصِفاً بِبَعضِه، أو بِمُقابِلِه مِنْ نَوعِه، فَتَشْكُرُه تعالَى على سَتْرِه فيما اسْتَتَرَ، وتَحْمَدُه على التّنْبيهِ بما أبْدَى وأظْهَرَ، مِنْ غيرِ التِفاتٍ إلى المَخلُوقاتِ، في حالَةٍ مِنَ الحَالاتِ.

- قالَ إبراهيمُ التَّيْمِيُّ رحمهُ اللهُ لِبَعضِ أصحابِه: ما يَقُولُ النّاسُ فِيَّ؟ فقالَ: يَقُولُونَ إنَّكَ مُرَاءٍ، فقالَ: "الآنَ طَابَ العَمَلُ". فقالَ بِشْرٌ الحافِيُّ رحمهُ اللهُ: "اكْتَفَى واللهِ بِعِلْمِ اللهِ فَلَمْ يُحِبَّ أنْ يَدْخُلَ معَ عِلْمِ اللهِ عِلْمُ غيرِه".

- وقالَ بِشرٌ رحمهُ اللهُ: "سُكُونُ النَّفْسِ إلى قَبُولِ المَدْحِ لَهَا أضَرُّ عليها مِنَ المَعاصِي".

- فَإنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَناعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ. يقولُ: فإنْ لم تَكْتَفِ بِعلمِ اللهِ وأَرَدْتَ أنْ يعلمَ النّاسُ حقِيقَةَ ما أنتَ عليه؛ أدْرَكَتْكَ مُصِيبَةُ الالْتِفاتِ إلى الخَلْقِ فَوُكِلْتَ إليهم، وذلكَ مِنْ أعظَمِ المصائِبِ وأكْبَرِ الآفاتِ والنّوائِبِ، ومِنْ أعْظَمِ ما فيه رجُوعُكَ إلى الخَلْقِ بَدَلاً مِنَ الاكتِفاءِ بالحَقّ، ويُداخِلُكَ مِنْ ذلكَ الرّياءُ، والتَّكَلُّفُ، وعَدَمُ الاحترامِ للجَانِبِ الكَريمِ، فَيَنْقَلِبُ عِزُّكَ ذُلّاً وغِناؤُكَ فَقْراً، ويَظْهَرُ عليكَ مِنْ أسبابِ المَقْتِ ما لا مَزِيدَ عليه.

- قالَ الجُنَيْدُ رحمهُ الله: "مَنْ أَشَارَ إلى الحَقِّ وتَوَجَّهَ للخَلْقِ أحْوَجَهُ اللهُ إليهِمْ ونَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلوبِهِم عليه".

- وعلامَةُ الاكتِفاءِ بِعِلْمِ اللهِ:

1- التّحَفُّظُ مِنَ الوَقِيعَةِ فيمَنْ آذَاكَ.

2- والقَصْدُ في العَمَلِ بأسْبابِ الدّفْعِ حيثُ تَوجَّهْتَ.

3- والقِيامُ للهِ بالعُبُودِيَّةِ افْتِقاراً فيما أنتَ به.

- عَدَمُ قَناعَتِكَ بعلمِه سبحانَه قادِحٌ في إيمانِكَ، ومُوجِبٌ لكَثْرَةِ شَغَبِك بِتَشَوُّفِكَ لِتَصْدِيقِ الخَلْقِ لكَ، وانْتِظارِكَ لإحاطَتِهِم بما أنتَ عليه في حالِكَ، ووجُودُ الأذَى منهم يَرُدُّكَ إلى مولاكَ باللَّجَإِ إليه في سَتْرِهِ، والتِزَامِ حَمْدِهِ وشُكْرِهِ على ما سَتَرَ مِمَّا ظَهَرَ ومِنْ خِلافِ ما ظَهَرَ.

- خُلاصةُ معنى الحِكْمةِ: مَتَى أَوْجَعَكَ عَدَمُ إقْبالِ النّاسِ عليكَ بالمَدْحِ، أوْ آلَمَكَ تَوَجُّهُهُم إليكَ بالذّمِّ، فارْجِعْ إلى عِلْمِ اللهِ فيكَ، فإنّه هو الذي يَعْلَمُ ظاهِرَكَ وخَافِيَكَ، فإنْ كنتَ عندَه مُخْلِصاً في أعْمالِكَ فلا تَغْتَمَّ لِذَمِّ الذّامّينَ، وإنْ كنتَ عندَه مَمْقُوتاً فلا تَغْتَرَّ بِمَدْحِ المَادِحِينَ، فإنْ كانَ لا يَنْفَعُكَ عِلْمُ اللهِ تعالَى بكَ بَلْ نَظَرْتَ إلى ما مِنَ المَخْلوقِينَ، فَمُصِيبَتُكَ الحَاصِلَةُ لكَ بِعَدَمِ قَناعَتِكَ بِعِلْمِه أشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بوُجُودِ الأذَى منهم، لِبُعدِكَ عنْ رَبِّ العالَمِينَ، فلا يَنْبَغِي للعَبْدِ أنْ يكونَ مَطْمَحُ نَظَرِهِ إلّا إلى مولاه، فلا يَفْرَحُ إلّا بإقْبالِه عليه، ولا يَحْزَنُ إلّا لإعْراضِهِ عنه والعِياذُ باللهِ.

149) إِنَّمَا أَجْرَى عَلَيْكَ الأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، كَيْ لا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِم.

– فَإذايَتُهُم لكَ رحمَةٌ بِكَ لأنَّ ذلكَ يَرُدُّكَ إلى رَبِّكَ، وأَفْضَلُ الأُمُورِ ما رَدّكَ إليه، كما أنَّ شَرَّهَا ما صَرَفَكَ عنه. فإنْ تَنَبَّهْتَ لذلكَ وعَمِلْتَ عليه فأنتَ مَكْرُومٌ، وإنْ غَفِلْتَ عنه وسَكَنْتَ إليهِم فأنتَ محرُومٌ.

– ومِنْ فوائدِ ذلكَ: التّحَرُّرُ مِنْ رِقِّ إحْسانِهِم، والسّلامَةُ مِنْ مُؤْنَةِ القِيامِ بِحُقُوقِهم، والعافِيَةُ مِنَ الفِتْنَةِ بِحُبِّهِم، فقد قِيلَ: السَّوْطُ مِنَ العَدُوِّ سَوْطُ اللهِ يَرُدُّ بهِ القُلوبَ إذا شَرَدَتْ عنه، وإلّا رَقَدَ القلبُ في ظِلِّ العِزِّ والجاهِ وهو حِجابٌ عن اللهِ عَظِيمٌ.

– قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ في (لطائف المِنَنِ): "اعْلَمْ أنَّ أولياءَ اللهِ تعالَى حُكْمُهُم في بِدايَتِهِم أنْ يُسَلَّطَ الخَلْقُ عليهم لِيُطَهَّرُوا مِنَ البَقايا وتَكْمُلَ فيهمُ المَزايا، وكَيْ لا يُساكِنُوا هذا الخَلْقَ باعْتِمادٍ، أو يَمِيلوا إليهم باسْتِنادٍ، ومَنْ آذاكَ فقد أعْتَقَكَ مِنْ رِقِّ إحْسانِه، ومَنْ أحْسَنَ إليكَ فقدِ اسْتَرَقَّكَ بوُجُودِ امْتِنانِه، ولذلكَ قالَ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ"، كُلُّ ذلكَ لِيَتَخَلَّصَ القلبُ مِنْ رِقِّ إحْسانِ الخَلْقِ، ولِيَتَعَلَّقَ بالمَلِكِ الحَقِّ".

– وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ الله: "اهْرُبْ مِنْ خَيْرِ النّاسِ أكْثَرَ ممّا تَهْرُبُ مِنْ شَرِّهِم، فإنَّ خَيْرَهُم يُصِيبُكَ في قلبِكَ، وشَرُّهُم يُصِيبُكَ في بَدَنِكَ، ولَأَنْ تُصابَ في بَدَنِكَ خيرٌ مِنْ أنْ تُصابَ في دِينِكَ، ولَعَدُوٌّ تَصِلُ به إلى اللهِ خيرٌ مِنْ صَدِيقٍ

يَقْطَعُكَ عنِ اللهِ، وعُدَّ إِقْبالَهُم عليكَ لَيْلاً وإعْراضَهُم عنكَ نَهاراً؛ أَلَا تَراهُم إذا أَقْبَلُوا فَتَنُوا؟".

– وكانَ بعضُ العارِفِينَ يقولُ في دُعائِه: "اللهمَّ إنَّ قَوْماً سَأَلُوكَ أنْ تُسَخِّرَ لهم خَلْقَكَ، فَسَخَّرْتَ لهم خَلْقَكَ فَرَضُوا مِنكَ بذلكَ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ اعْوِجاجِ الخَلْقِ عَلَيَّ حتّى لا يكونَ لي مَلْجَأٌ إلّا إليكَ".

– قالَ أبو الحسينِ الوَرّاقُ النَّيْسابُورِيُّ رحمهُ اللهُ: "الأُنْسُ بالخَلْقِ وَحْشَةٌ، والطَّمَأْنِينَةُ إليهِم حُمْقٌ، والسُّكُونُ إليهِم عَجْزٌ، والاعْتِمادُ عليهِم وَهَنٌ، والثِّقَةُ بِهِم ضَياعٌ، وإذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً جَعَلَ أُنْسَهُ به وبِذِكْرِهِ وتَوَكُّلِه عليه، وصَانَ سِرَّهُ عَنِ النَّظَرِ إليهِم، وظاهِرَه عَنِ الاعْتِمادِ عليهِم".

– وقد قَالُوا: "الزُّهادُ يُخْرِجُونَ المالَ عَنِ الكِيسِ تَقَرُّباً إلى اللهِ تعالَى، وأهلُ الصَّفاءِ يُخْرِجُونَ الخَلْقَ مِنَ القلبِ تَحْقِيقاً باللهِ عزَّ وجلَّ".

150) أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

– أَرَادَ أنْ يُزعِجَكَ مِنْ كُلِّ شيءٍ بِما يُجْرِهِ لكَ مِنْ ذاكَ الشيءِ فَتَرجِعُ إليه في كُلِّ شيءٍ، تارةً باللُّجُوءِ إليه في دَفْعِ بَلْواهُ، وتارةً بالفِرارِ منه إلى اللهِ تعالَى.

كما قالَ اللهُ تعالَى: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) الذاريات 49، 50.

فَجَعَلَ ازْدِواجَ الخلقِ بِساطَ الفِرارِ للخالِقِ.

– أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهَ شَيْءٌ، لأنّه لا يُحِبُّ أنْ تكونَ عبداً لِغيرِه، ولا يَرضَى أنْ تَقِفَ بِبابِ غيرِه، إجْلالاً منه لكَ لا لِفَقْرٍ منه إليكَ وحاجَةٍ، ولو شاءَ لفَعَلَ ذلكَ مِنْ طَرِيقِ القُدْرَةِ، لكنْ لِلْحِكْمَةِ وَجْهٌ في النَّفْيِ والإثْباتِ.

– ثمّ وَجْهُ الانْزِعاجِ عنِ الدنيا بِثلاثٍ: ما فِيها مِنَ الأكْدارِ، وما فيها مِنَ الآثارِ، وما تؤولُ إليه مِنَ الزّوالِ.

وعنِ الخلائِقِ بثلاثٍ: الفِتْنَةِ في إقْبالِهم، والأذَى في إدْبارِهِم، والكُلَفِ والأهْوَالِ في مُلابَسَتِهِم.

وعنِ النَّفْسِ بِثلاثٍ: اتّباعِ الهَوى فيما يُريدُه، والاعْتِراضِ فيما يَطْلُبُه، والجَهْلِ فيما يَخْتارُه.

فَمَنْ عَلِمَ ذلكَ مِمّنْ ذُكِرَ فَرَّ منه ضرورةً، وكَذا مِنَ الشيطانِ، فإنّه شرٌّ كلُّه، لكنْ لِلْفِرارِ مِنَ الكُلِّ وجُوهٌ أحْسَنُها الفِرارُ بالعُبوديّةِ في بِساطِ التّوحيدِ.

151) إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ.

- أمّا كونُ الشيطانِ لا يَغْفَلُ عنكَ فأمْرٌ لا يَجْهَلُه أحَدٌ؛ لأنّه عَدُوٌّ فارِغٌ مُسَلَّطٌ، وأمّا الذي ناصِيَتُكَ بيدِه فهو مَوْلاكَ الذي لا مَحِيدَ لكَ عنْ إرادَتِه، ولا خُروجَ لكَ عنْ قُدْرَتِه، ولا قُدْرَةَ لأَحَدٍ عليكَ معَ وجُودِ عِصْمَتِه ورَحْمَتِه.

- قالَ مالِكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ: "إنَّ عَدُوّاً يَراكَ ولا تَراهُ لَشَدِيدُ المَؤُونَةِ، إلّا مَنْ عَصَمَ اللهُ سبحانَه".

- وقالَ ذُو النُّونِ رحمهُ اللهُ: "إنْ كانَ هو يَراكَ مِنْ حيثُ لا تَراهُ، فإنَّ اللهَ تعالَى يَراهُ مِنْ حيثُ لا يَرى اللهَ، فاسْتَعِنْ باللهِ عليه".

- وقالَ بعضُهُم: "إنّمَا مَثَلُ الشّيطانِ كَمَثَلِ الكَلبِ إنِ اشْتَغَلْتَ بِمُقاوَمَتِه مَزَّقَ الثِّيابَ وقَطَّعَ الإِهَابَ، وإنْ رَجَعْتَ إلى رَبِّه رَدَّهُ عنكَ بِرِفْقٍ".

- وقِيلَ لِبَعْضِ العارِفِينَ؛ كيفَ مُجاهَدَتُكَ للشيطانِ؟ فقالَ: "إنّا لا نَعْرِفُ الشيطانَ، نحنُ قَوْمٌ صَرَفْنَا هِمَمَناَ إلى اللهِ فكَفانَا مِنْ دُونِه".

- وقال الشيخُ أبو العبّاسِ المُرسِيُّ رحمهُ اللهُ في قولِه تعالَى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا): "فقومٌ فَهِمُوا مِنْ هذا الخِطابِ أنّهم أُمِرُوا بِعَداوَةِ الشيطانِ

فَشَغَلَهُم ذلكَ عنْ مَحبّةِ الحَبِيبِ، وقومٌ فَهِمُوا مِن ذلكَ إنَّ الشيطانَ لكم عَدُوٌّ، وأنا لكم حَبِيبٌ، فاشتَغَلُوا بمحبَّتِه فكَفاهُم مِنْ دُونِه".

يقول الشيخُ زروقٌ رحمهُ اللهُ: وذلك مُسْتَفادٌ مِنَ الإضافَةِ في قولِه تعالَى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) الحجر 42، وقولِه تعالَى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) النحل 99.

– إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ، وذلكَ بالدّوامِ على ذِكْرِهِ، واتّباعِ أمْرِهِ ونَهْيِه، والقيامِ بعُبوديّتِه وشُكْرِه، لِيَكْفِيَكَ أمْرَه، وحتّى لا تكونَ له حُجّةٌ عليكَ، بل لا يَجِدُ إليكَ طَرِيقاً ولا مَحَجّةً.

152) جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ.

– معنى لِيَحُوشَكَ، لِيَرُدّكَ به، أي بِسَبَبِ ما يَصْدُرُ منه وما يَجْرِي عليه إليه، أيْ إلى الحَقِّ سبحانَه، وذلكَ بأنْ تَرجِعَ إليه بوُجُودِ اللَّجَإِ في شأنِه، وتَدُومَ على ذلكَ خَوفاً مِنْ غَوائِلِه، وتَتَحَصَّنَ به عندَ ظُهُورِ أسبابِ آفاتِه.

كما أمَرَ به تَعالَى في قولِه العزيزِ: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). فصلت 36.

وقالَ عزّ مِنْ قائِلٍ: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ). الأعراف 201.

– قالَ بَعضُ العُلماءِ: "لا أجْهَلَ مِنْ إبليسَ لأنّه يُقَوِّي المُؤمنَ فيكونُ سبَباً في انْبِعاثِه للذِّكْرِ، ويُوقِعُه في المَعْصِيَةِ فيكونُ ذلك سَبَباً في وُجُودِ التّوبةِ التي هي بِساطُ محبّةِ الحَقِّ له".

– وقِيلَ إنّ الحِكْمةَ في خَلقِ إبليسَ ثلاثةُ أشياءَ:

أحَدُها: لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ باتّباعِه أو باتِّباعِ الرُّسُلِ.

الثاني: لِيَكُونَ مَنْديلاً لِلْعَارِ فَتُمْسَحُ فيه أوساخُ الإنسانِ مِنَ المعاصِي والقبائِحِ ونحوِ ذلكَ.

الثالثُ: لِيَكُونَ سَبَباً في انْحِياشِ العبدِ إلى مَولاهُ لأنَّ مَنْ له حَبِيبٌ يَخافُ عَدُوّاً يَقْتَطِعُه دُونَه؛ كانَ انْحِياشُه إلى حَبِيبِه أعْظَمَ مِمَّنْ له حَبِيبٌ ليسَ دُونَه قاطِعٌ.

– فَوُجُودُ الشيطانِ مِنّةٌ على المؤمنِ المُتَوَجِّهِ، كما أنّه مِحْنَةٌ على الغافِلِ المُعْرِضِ، وكَذا وُجُودُ الخَلْقِ في نَفْعِهِم وأذاهُم، والدنيا في إقْبالِها وإدْبارِها، وإنْ كانَ الكُلُّ أعداءً فقد تأتِي الفوائِدُ مِنْ وجُوهِ المِحَنِ، ومنه بلْ أعْظَمُه حَرَكاتُ النَّفْسِ، وفائِدتُه كما ذكَرَ في قولِه: "وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ".

– حَرّكَ عليكَ النّفْسَ بالشّهوةِ مرةً، وبالهَوى أُخْرَى، وجَعَلَ ذلك على مَرِّ الأوقاتِ إلّا لِمَنْ عَصَمَهُ وحَفِظَهُ، قال تعالَى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)، وقال جلَّ وعلا: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)، وقالَ سبحانَه: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ).

(يوسف 53، النازعات 40، 41، الجاثية 23).

– وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ:

تَحْرِيكُ النّفْسِ بِطَلَبِ هَواهَا، وإيثارِ دُنياها، وكَثْرَةِ تَطَلُّبِها، وعَدَمِ الوفاءِ بِعَزْمِها، وجُمُوحِها في جُنُوحِها.

وإقْبالُكَ عليه بالثّقَةِ فيما تَرْتَجِيهِ، واللُّجُوءِ إليه فيما تَتَّقِيهِ، والإنابَةِ له فيما تَرتَضِيهِ، تارةً على بِساطِ المُشاهَدَةِ، وتارةً بِوَجْهٍ مِنَ المُجاهَدَةِ.

- قالَ الشيخُ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ: "أعْظَمُ القُرُباتِ عندَ اللهِ مُفارَقةُ النَّفْسِ بِقَطْعِ إرَادَتِها، وطَلَبُ الخَلاصِ منها بِتَرْكِ ما تَهْوَى لِمَا يُرجَى مِنْ حياتِها، وإنَّ مِنْ أشْقَى النّاسِ مَنْ أحَبَّ أنْ يُعامِلَه النّاسُ بكلِّ ما يُريدُ وهو لا يَجِدُ مِنْ نَفْسِه بعَضَ ما يُريدُ".

- وقد قالَ أحمدُ بنُ سَهلٍ رحمهُ اللهُ: "أعْدَاؤُكَ أرْبَعَةٌ:

الدُّنْيَا، وسِلَاحُهَا لِقاءُ الخَلْقِ، وسِجْنُهَا العُزْلَةُ.

والشيطانُ، وسِلاحُهُ الشَّبَعُ، وسِجْنُه الجُوعُ.

والنَّفْسُ، وسِلاحُها النّومُ، وسِجنُها السّهَرَ.

والهَوى، وسِلاحُه الكَلامُ، وسِجنُه الصَّمْتُ".

- وللهِ دَرُّ بعضِ الشُّعراءِ حيثُ يقولُ:

إنّي بُليتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي *** بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ
إبْليسُ والدُّنْيا ونَفْسِي والهَوَى *** يا رَبِّ أنتَ عَلَى الخَلاصِ قَدِيرُ

– فسُبحانَ مَنْ جَعَلَ رَحمتَهُ في عَيْنِ وُجُودِ عَذابِه، والمُوجِبَ لوُجُودِ القُرْبِ منه عَيْنَ الصَّارِفِ عَنْ بابِه: إذْ خَلَقَ الشيطانَ وجَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفسَ لِيَدُومَ إِقْبالُكَ عَلَيْهِ، فَكُلَّما تَسَلَّطا عليكَ رَجَعْتَ إليه بالافْتِقارِ، وقُمْتَ بينَ يَدَيْهِ على نَعْتِ اللَّجَإِ والاضْطِرارِ.

– قالَ سَهْلٌ رحمهُ اللهُ: "ليسَ إلّا مَوْلَاهُ، وأحْسَنُ أحْوالِه أنْ يَرْجِعَ إلى مَوْلاه، إذا عَصَى قالَ: يا رَبِّ اسْتُرْ عَلَيَّ، يا رَبِّ تُبْ عَلَيَّ. فَإذا تَابَ قال: يا رَبِّ وفِّقْنِي حتّى أعْمَلَ. فإذا عَمِلَ قال: يا رَبِّ وَفِّقْنِي حتّى أُخْلِصَ. فإذا أخْلَصَ قالَ: يا رَبِّ تَقَبَّلْ مِنِّي".

153) مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقَّاً، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقّاً.

– فَمَنْ أَثْبَتَ التّواضُعَ فقدْ أَثْبَتَ تِلْكَ الرِّفْعَةَ؛ إِذْ بِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأَشْياءُ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَواضُعاً فقد أَثْبَتَّ لها شيئاً أَرْفَعَ مِمّا هي فيه حَتّى اتَّضَعَتْ عنه، وبِحَسَبِ ذلكَ فأنتَ المُتَكَبِّرُ حَقّاً، ولو كُنتَ في الظّاهِرِ في أَقْصَى دَرَجاتِ التّواضُعِ.

– ومتى لَمْ تَرَ لِنَفْسِكَ قَدْراً بِوَجْهٍ ولا بِحَالٍ فأنتَ المُتواضِعُ وإنْ كانَ ظاهِرُ حالِكَ في أَقْصَى دَرجاتِ الكِبْرِ؛ إِذِ التّواضُعُ أَمْرٌ قَلْبِيٌّ حَقِيقَتُه عَدَمُ رُؤْيَةِ المَرْءِ نَفْسَهُ أَهْلاً لِشيءٍ، والكِبْرُ عَكْسُهُ.

– وذلكَ لأنّه لا يَصِحُّ تَواضُعٌ إلّا عَنْ مَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ، فَمَنْ لم يُحِسَّ بِعُلُوّ مَرْتَبَتِهِ لم يُحِسَّ بِتَواضُعِهِ، ومَنْ أَحَسَّ بِتَواضُعِهِ فقدْ أَحَسَّ بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، وذلكَ قاضٍ له بِبَقاءِ رِفْعَةٍ في نَفْسِه هي عَيْنُ كِبْرِهِ، كما نَبَّهَ عليه بأَنْ قالَ: "إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ".

– والمطلُوبُ مِنَ العَبْدِ إنّما هو أَنْ يَتَّصِفَ بذلكَ حَقِيقَةً لا إِظْهاراً فقط، بأَنْ يَنْتَفِيَ عنه وُجُودُ الرِّفْعَةِ بالكُلِّيّةِ، وحِينَئِذٍ يَبْرَأُ العبدُ مِنَ الكِبْرِ ولا يَكونُ له وُجُودٌ أَلْبَتَّةَ.

– ومِنْ علامَةِ المُتحَقّقِ بِخُلُقِ التَّواضُعِ أنْ لا يَغْضَبَ إذا عُوتِبَ، ولا يَكْرَهَ أنْ يُذَمَّ، ولا يَحْرِصَ أنْ يكونَ له عندَ الناسِ قَدْرٌ أو جاهٌ. وتَواضُعُ كُلِّ أحَدٍ على قَدْرِ مَعْرِفَتِه بِرَبِّه ونَفْسِه.

– وقدْ قالَ بَعْضُهُم: لا يَجُوزُ للعَبدِ أنْ يَرى لِنَفْسِه مَزِيّةً على غيرِه ولو كافِراً، لِعَدَمِ أَمْنِ العَاقِبَةِ، وناهِيكَ قوله تعالَى: (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف 99، وقوله تعالَى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) الأنفال 24.

– وفي الحديثِ قولُه صلى الله عليه وسلم: "لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَسْرَعُ تَقَلُّباً مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَاناً". (أخرجه أحمد، وابن أبي عاصم في السُّنة، وصححه الألباني).

– وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ". (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

– وفي صحيح مسلمٍ أنّ النّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ: "بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا".

154) لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنِ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ.

– فالتّواضُعُ أنْ لا تَرَى لِنَفْسِكَ قَدْراً، وأنَّ كُلَّ ما وَضَعْتَها فيه مِنْ أنْواعِ الذِّلَّةِ هي مُسْتَحَقَّةٌ لِمَا دُونَه؛ لِمَا هي مَوْسُومَةٌ به مِنَ النّقائِصِ تأصِيلاً وتَفْصِيلاً.

– قالَ الشِّبْلِيُّ رحمهُ اللهُ: "مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ قِيمَةً فليْسَ له مِنَ التّواضُعِ نَصِيبٌ".

– وقالَ أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ رحمهُ اللهُ: "لا يَتَواضَعُ العبدُ حتّى يَعْرِفَ نَفْسَهُ".

– وقالَ أبو يَزيدٍ رحمهُ اللهُ: "ما دَامَ العبدُ يَنْظُرُ أنَّ في الخَلْقِ مَنْ هو شَرٌّ منه فهو مُتَكَبِّرٌ"، قِيلَ: فَمتَى يكونُ مُتواضِعاً؟ قالَ: "إذا لم يَرَ لِنَفْسِهِ حَالاً ولا مَقاماً".

– والتّواضُعُ مِنْ حيثُ اللّفْظُ موضُوعٌ لِشُعُورِ النَّفْسِ بِضَعَتِهَا مِنْ غَيرِ زائِدٍ على ذلك، وسَبَبُه: نَظَرُ العبدِ لأوْصافِ نَفْسِه ونَقْصِها، ونَظَرُه لأوْصافِ رَبِّه وكَمالِهَا.

– لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وإنْ كانَ في أقْصَى دَرَجاتِ الضَّعَةِ في الصُّورَةِ؛ لأنَّ مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ قِيمَةً فلا قِيمَةَ له.

– وقد قالُوا: "مَنْ ذاقَ طَعْمَ ذُلِّهِ في ذُلِّهِ فهو مَتَعَزِّزٌ، وفيه بَقِيَّةٌ".

– وقالَ أبو سليمانَ الدّارانِيُّ رحمهُ اللهُ: "لو اجْتَمَعَ الخلقُ أنْ يَضَعُونِي كاتِّضاعِي عندَ نَفْسِي ما قَدِرُوا عليه".

– ومِثالُ ذلكَ مَنْ جَلَسَ في آخرِ المجلِسِ، ورأى أنّه يَسْتَحِقُّ الجلُوسَ في صَدْرِه، وإنّما فَعَلَ ذلكَ تواضُعاً، فهو المُتَكَبِّرُ، ومَنْ رَأى أنَّ مَرْتَبَتَهُ أحطُّ مِنْ

ذلكَ، وأنَّ جُلوسَه في آخِرِ المجلِسِ فوقَ ما يَسْتَحِقُّ؛ لِكَونِه لا يَرى لِنَفْسِه قَدْراً ولا رُتْبَةً، فهو المُتَواضِعُ.

– وَلَكِنِ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ، بِحيثُ يرَى نفسَه أقَلَّ مِنْ كُلِّ أقَلٍّ ودُونَ كُلِّ دُونٍ، فإذا ظَهَرَ عليه شيءٌ مِنَ التّذَلُّلِ كانَ في باطِنِه ما هو أعْظَمُ منه.

– قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكّيُّ رحمهُ اللهُ: "ومتى ذَلَّ في نفسِه واتَّضَعَ عندَ نفسِه فلا يَجِدُ لِذِلَّتِه طَعْماً ولا لِضَعَتِه حِسّاً، فقد صارَ الذُّلُّ والتّواضُعُ كَونَهُ، فهذا لا يَكْرَهُ الذّمَّ مِنَ الخَلْقِ لِوَجْدِ النّقْصِ في نفسِه، ولا يُحِبُّ المَدْحَ عندَهُم لِفَقْدِ القَدْرِ والمَنْزِلَةِ في نفسِه، فصارَتِ الذِّلَّةُ والضَّعَةُ صِفَةً لا تُفارِقُه، لازِمَةً لُزُومَ الزِّبالَةِ للزَّبّالِ والكُساحَةِ للكَسّاحِ، هُما صَنْعَتانِ لهما كسائِرِ الصّنائِعِ، ورُبَّما فَخَرُوا بِهِما لِعَدَمِ النَّظَرِ إلى نَقْصِهِما، فهذه وِلايَةٌ عظِيمَةٌ مِنْ رَبِّه، قدْ وَلّاهُ على نَفْسِه ومَلَّكَه عليها فقَهَرَها بِعِزِّه، وهذا مَقامٌ مَحْبُوبٌ". ثمّ قالَ: "ومَنْ كانَ حالُهُ مع اللهِ تعالى الذُّلَّ طَلَبَهُ واسْتَحْلاهُ، كما يَطْلُبُ المُتَكَبِّرُ العِزَّ ويَسْتَحْلِيهِ إذا وَجَدَهُ، فإنْ فَارَقَ ذلك الذُّلُّ ساعةً تَغَيَّرَ قَلبُه لِفِراقِ حالِه، كما أنَّ المُترَفِينَ إذا فَارَقَ أحدُهُم العِزَّ ساعةً تَكَدَّرَ عَيْشُهُ لأنَّ ذلكَ عَيْشُ نفسِه".

– قالَ أبو يُونسَ بنُ عُبيدِ اللهِ رحمهُ الله، وقدِ انْصَرَفَ مِنْ عَرفاتٍ: "لَمْ أَشُكَّ في الرَّحْمَةِ لولا أنّي كُنْتُ فِيهِم". وقِيلَ لِمُحَمّدِ بنِ مُقاتِلٍ: ادْعُ اللهَ لنا فبَكَى، وقالَ: "يا لَيْتَنِي لم أَكُنْ أنا سَبَبَ هَلاكِكُم".

155) التَّوَاضُعُ الْحَقِيقِيُّ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ.

– وذلكَ بأنْ يَرى كَمالَ الحَقِّ تعالَى، وأنَّ كُلَّ شيءٍ دونَه ناقِصٌ مُحْتَقَرٌ، فَيَفْنَى الكُلُّ في جَلالِه وكِبْريائِه وعَظَمَتِه. لأنّه لا بَقاءَ لِآثارِ الخَلْقِ عندَ ظُهُورِ وَصْفِ الحَقِّ، فلو ظَهَرَتْ صِفاتُه اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّناتُه، فإذا رَأى العبدُ أنَّ المُنْفَرِدَ بالعَظَمَةِ هو اللهُ سُبحانَه، وأنَّ مَنْ سِواهُ في وَصْفِ النَّقْصِ مُتَّحِدٌ، إلّا مَنْ مَنَّ عليه بما أجْرَى عليه مِنَ الكَمالِ اللّائِقِ به، لم يَبْقَ له تَكَبُّرٌ ولا عُلُوٌّ.

– قالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ رحمهُ اللهُ: "مَنْ أَرادَ التّواضُعَ فَلْيُوَجِّهْ نَفْسَه إلى عَظَمَةِ اللهِ فإنّها تَذُوبُ وتَصْغُرُ، ومَنْ نَظَرَ إلى سُلْطانِ اللهِ تعالَى ذَهَبَ سُلْطانُ نَفْسِه؛ لأنَّ النُّفُوسَ كُلَّها حَقِيرَةٌ عندَ هَيْبَتِه، ومِنْ أَشْرَفِ التّواضُعِ أنْ لا يَنْظُرَ إلى نَفْسِه دُونَ اللهِ تعالَى".

– قالَ أبو حَفْصٍ السُّهْرَوَرْدِيُّ رحمهُ اللهُ: "واعْلَمْ أنَّ العبدَ لا يَبْلُغُ حَقِيقَةَ التّواضُعِ إلّا عندَ لَمَعانِ نُورِ المَشاهَدَةِ في قَلْبِه، فعندَ ذلكَ تَذُوبُ النَّفْسُ، وفي ذَوَبانِها صَفاؤُها مِنْ غِشِّ الكِبْرِ والعُجْبِ، فَتَلِينُ وتَنْطَبِعُ لِلْحَقِّ ولِلْخَلْقِ بِمَحْوِ آثارِها، وسُكُونِ وَهَجِها وغُبارِها".

– قالَ الجُنَيْدِ رحمهُ اللهُ: "التّواضُعُ عندَ أهلِ التّوحِيدِ تَكَبُّرٌ". قالَ الإمامُ أبو حامدٍ الغَزالِيُّ رحمهُ اللهُ: "ولَعَلَّه أَرادَ أنَّ المُتواضِعَ يُثْبِتُ نَفْسَه ثُمَّ يَضَعُهَا، والمُوَحِّدُ لا يُثْبِتُ نَفْسَه ولا يَراها شيئاً حتَّى يَضَعَها أو يَرْفَعَها".

- والنّاسُ في ذلكَ ثلاثٌ:

1- رجلٌ رَأى قُبْحَ فِعْلِه، فلم يَرَ لِنَفْسِه قَدْراً.

2- ورجلٌ شَهِدَ قَبِيحَ وَصْفِه، فلم يَشْهَدْ لِنَفسِه نِسْبَةً.

3- ورجلٌ شاهَدَ عَظَمَةَ رَبّه فَنَسِيَ كُلَّ شيءٍ به، وهذا أَتَمُّ الوُجُوهِ وأحْسَنُها.

- ألَا يُرَى لو قُوبِلَ قَطْرَةٌ مِنَ البِحارِ أينَ تكونُ القَطْرَةُ في جَنْبِها؟ بل وجُودُها بالنِّسْبَةِ إليها كَعَدَمِها، فكذلكَ إذا قُوبِلَ بينَ عَظَمَةِ العَظِيمِ وعَظَمَةِ غَيرِه الذي أعْطاهُ إيّاها كأنّها ليستْ بشيءٍ في جَنْبِ عَظَمَةِ اللهِ وكِبْريائِه.

ولذا كُلُّ مَنْ كانَ باللهِ أعْرفُ فهو أشَدُّ تواضُعاً له.

ألَا تَرى إلى سيّدِ الخَلْقِ محمدٍ صلّى الله عليه وسلّمَ كانَ أشدَّ الخَلْقِ تواضُعاً، مع كَوْنِه فَرْداً في الفَضْلِ؟

وكُلُّ مَنْ كانَ به أجْهَلُ فهو أشَدُّ تَكَبُّراً.

ألَا تَرى إلى فِرْعونَ ادَّعَى الرُّبُوبيّةَ لِنِهايَةِ جَهْلِه بِرَبّه؟

156) لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ، إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ.

– يَعْنِي أنّه لا يُخرِجُكَ عَنْ وَصْفِكَ الدَّنِيّ الخَسِيسِ النَّفْسِيّ إلّا شُهُودُ وَصْفِه العَلِيّ الكَبِيرِ القُدُسِيّ، فالوَصْفُ الأوَّلُ خِلافُ الوَصْفِ الآخِرِ، فلا خُرُوجَ عنِ الأوّلِ إلّا بشُهُودِ الثّانِي؛ مَنْ شَهِدَ كِبْرِياءَ الحَقّ لم يَبْقَ له كِبْرٌ، ومَنْ شَهِدَ غِنَاهُ لم يَرَ لِنَفْسِه غِنىً، ومَنْ شَهِدَ قُدْرَتَه لم تَبْقَ له قُدْرَةٌ، فَيَبْقَى بِرَبِّه لا بِنَفْسِه، ولِرَبِّه لا لِنَفْسِه.

– وكذا شُهُودُكَ عَظَمَتَه يُخْرِجُكَ عنْ عَظَمَتِكَ، وشُهُودُكَ عِلْمَه يُخرجُكَ عنْ عِلْمِكَ، وشُهودُكَ كَرَمَ رَبّكَ يُخْرِجُكَ عنْ دَناءَةِ نَفْسِكَ، وهكذا في باقِي الأوصافِ، فلا يُخْرِجُكَ عنْ أوصافِ نَفْسِكَ الحَقِيرَةِ إلّا شُهُودُ أوصافِ رَبّكَ العَظِيمَةِ.

– لا يُخرِجُكَ عَنْ وَصْفِكَ النَّفسانِيّ إلّا شُهُودُ الوَصْفِ الرّبانِيّ، فإذا لم تَشْهَدْ عَظَمَتَه وكِبْرِياءَه وجَلالَه فلا تَتَوَهَّمْ أنَّ لكَ نَصِيباً مِنَ التّواضُعِ الحَقِيقِيّ.

فَقِفْ عندَ حَدّكَ، واعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِكَ.

– وقدْ يكونُ بِمَعْناهُ، والتّقْدِيرُ: لا يُخْرِجُكَ عنْ وَصْفِكَ إلّا شُهُودُ وَصْفِكَ على حَقِيقَتِه، فإنَّ مَنْ شَهِدَ حَقِيقَةَ وَصْفِه لم يُمْكِنْهُ الثَّباتُ في وَصْفِه، ولا ادّعاءُ المَرْتَبَةِ لِنَفْسِه.

157) الـمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً.

– فهو مَعْزُولٌ عنْ رُؤيةِ نَفْسِه بِشُهودِ رَبّه، وعنْ حُظُوظِ نَفْسِه لِحُقُوقِ مولاهُ، حَسَبَما اقْتَضَى له ذلكَ وجُودُ إيمانِه باللهِ الذي منه كُلُّ شيءٍ وإليه يَعُودُ، وهذا مُوجِبُ شُكْرِه، وبما جاءَ عنِ الله الذي لا بُدَّ منه، وهذا مُوجِبُ شُغُلِه عنْ حَظِّه.

– فهو باللهِ ولله، لا بِنَفْسِه ولا لِنَفْسِه، وإذا كانَ كذلكَ فلا وَجْهَ للتَّكَبُّرِ عندَه لانْتِفاءِ أسْبَابِه مِنْ طَلَبِ الحُظُوظِ ورُؤيةِ النّفْسِ، ونحوِ ذلك.

– فهو متى رَأى في عَوالِمِ نَفْسِه ما يُوجِبُ شُكْرَها نَسَبَهُ لِمُسْتَحِقّه وفاعِلِه الـمُسْتَحِقّ للحَمْدِ على الحَقِيقةِ، فاشْتَغَلَ بِحَمْدِه على تَوفيقِه وكَمالِ أوْصافِه، حتّى لا يَتَفَرَّغَ لِأوْصافِ نَفْسِه ولا للثّناءِ عليها بما يُوجِبُ لها كِبْراً ولا غيرَه، فهو عنِ الكِبْرِ بِمَعْزِلٍ؛ إذ لا يَرى وجُودَ شيءٍ مِنْ نَفْسِه، ولا يُشْغَلُ به عنْ رَبّه.

– قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا". صحيح مسلم.

قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ في (التنوير): "فمَنْ رَضِيَ باللهِ رَبّاً اسْتَسْلَمَ له، ومَنْ رَضِيَ بالإسْلامِ دِيناً عَمِلَ به، ومَنْ رَضِيَ بِمُحَمّدٍ ﷺ رَسُولاً اتّبَعَهُ. ولا تَصِحُّ واحِدَةٌ مِنْ هذه إلّا بإعْراضِ العبدِ عنْ نَفْسِه وإقْبالِه على رَبّه، وذلكَ لا يَصِحُّ ما لم يكنِ اللهُ ورسُولُه أحَبَّ إليه مِمّا سِواهُما".

– فالمؤمِنُ المُحَقَّقُ بحقائِقِ إيمانِه، والذي جَرى في أحْوَالِه على حُكْمِ إيمانِه، يَرَى كُلَّ فَضْلٍ منه مِنْ مولاه فيما أسْدَى إليه مِنْ نَظَرِه لِمَا وَصَلَ إليه، وكَمالِه به، فلا يَشْكُرُ نَفْسَه ولا يَنْظُرُ إليها، فإذا أَطْلَقَ الثّناءَ أَثْنَى على مولاهُ بما هو أهْلُه في الفَقْدِ والوُجْدان، وتَشْغَلُه حُقُوقُ اللهِ الواجِبةُ وغيرُها مِنْ مُقْتَضياتِ العُبوديَةِ عنْ أنْ يكونَ لِحُظُوظِه ذاكِراً، فإنْ كانَ مُلابِساً للحُظُوظِ فلا يَتناوَلُها إلّا لِأَمْرِ اللهِ إيّاهُ فيها، وذلكَ كُلُّه مِنْ بِساطِ حُبِّه لمَولاهُ، وإيثارِه على هَواهُ، إذْ يَفْعَلُ لا لِعِلَّةٍ ولا سَبَبٍ، كما هو شَأْنُ كُلِّ مَحِبٍّ.

158) لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ غَرضاً، فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ.

– المَحَبَّةُ أَخْذُ جَمالِ المَحْبُوبِ بِحَبَّةِ القلبِ، حتّى لا يُمْكِنُ الانْفِكاكُ عنه، ولا مُخالَفَةُ مُرادِه، ولا وُجُودُ الاخْتيارِ عليه؛ لوُجُودِ سُلْطانِ الجَمالِ القاهِرِ للحَقِيقةِ بِتَجَلّيه المُسْتَفِيَضِ عليه، دُونَ اخْتِيارٍ منه ولا مُهْلَةٍ ولا رَوِيَّةٍ، فالمَحَبَّةُ تَنْفِي الأعْواضَ والأغراضَ، وتُفْنِي الحَقائِقَ والأعْراضَ، فلا يَبْقَى مع غيرِ المَحْبُوبِ قَرارٌ، ولا عَمّا سِواهُ إخْبارٌ.

– قالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القُرَشِيُّ رحمهُ اللهُ: "حَقِيقَةُ المَحَبَّةِ أنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَ، حتّى لا يَبْقَى لكَ منكَ شيءٌ".

– وقالَ أبو يَعقُوبَ السُّوسِيُّ رحمهُ اللهُ: "حَقِيقَةُ المَحَبّةِ أنْ يَنْسَى العبدُ حَظَّهُ مِنَ اللهِ، ويَنْسَى حَوائِجَهُ إليه".

– وقِيلَ: "المَحبَّةُ: الإيثارُ بِدَوامِ الحَنِينِ".

– وقِيلَ: "المَحَبّةُ نارٌ تَحْرِقُ الخَبِيثَ مِنَ العبدِ، وتُصَيّرُ حالَهُ لِلرِّضَى، لا لِلْخَوفِ والرّجاءِ".

– وقالَ أبو محمدٍ رُوَيْمٌ رحمهُ اللهُ: "مَنْ أَحَبَّ العِوَضَ بَغَّضَ العِوَضُ إليهِ مَحْبُوبَهُ".

لأنّه دائِرٌ مع غَرَضِه؛ فإنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإلّا لم يَرْضَ، وذلكَ يُنافِي وجُودَ المَحَبّةِ وإحكامِ حَقائِقِها، ويكونُ المَحْبُوبُ حِينَئِذٍ وجُودَ ذلكَ العِوَضِ أو الغَرَضِ، لا المُدَّعَى حُبُّهُ، بل تَنْقَلِبُ الحَقائِقُ بأنْ يَصِيرَ المَحْبُوبُ مُحِبّاً والمُحِبُّ مَحْبُوباً، وذلكَ باطِلٌ كما أشارَ إليه بقوله: "فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ". بلْ الذي يُبْذَلُ له هو المَحبُوبُ، والمُحِبُّ مَنْ يَبْذُلُ الرُّوحَ ويَسْتَقِلُّها، لا مَنْ يُبْذَلُ له ويَأْنَفُ مِنْ خِدْمَةِ المَحبُوبِ أو يَسْتَثْقِلُها.

ورَحِمَ اللهُ القائِلَ:

ما لِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ رُوحِهِ *** فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

فَلَئِنْ رَضِيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي *** يَا خَيْبَةَ المَسْعَى إذَا لَمْ تُسْعِفِ

– وقدْ قِيلَ لبعضِ المُحِبِّينَ وكانَ قدْ بَلَغَ المَجْهُودَ في بَذْلِ مالِهِ ونَفْسِه: ما كانَ سَبَبُ حَالِكَ هذه في المَحَبَّةِ؟ قال: كَلِمَةٌ سَمِعْتُها مِنْ خَلْقٍ لِخَلْقٍ عَمِلَتْ فِيَّ هذا. قِيلَ: وما هي؟ قالَ: سَمِعْتُ مُحِبّاً خَلا بِمَحْبُوبِه وهو يقولُ: أنا واللهِ أُحِبُّكَ بِقَلْبِي كُلِّه، وأنتَ تُعْرِضُ عنّي بِوَجْهِكَ كُلِّه. فقالَ له المَحْبُوبُ: إنْ كنتَ تُحِبُّنِي فأيُّ شيءٍ تُنْفِقُ عَلَيَّ؟ فقالَ: أُمَلِّكُكَ ما أَمْلِكُ، ثمّ أُنْفِقُ عليكَ رُوحِي حتّى أهْلَكَ. فقلتُ: هذا خَلْقٌ لِخَلْقٍ وعبدٌ لِعَبْدٍ، فكيفَ بِخَلْقٍ لِخالِقٍ وعبدٍ لِمَعْبُودٍ؟

– وقالَ بعضُهم: "المحبّةُ: الإيثارُ، وهو أنْ لا يَدَعَ لِمَحْبُوبِه مَيْسُوراً إلّا بَذَلَهُ، ولا مُمْكِناً إلّا اسْتَعْمَلَهُ، ولا يُبْقِيَ لِنَفْسِه نَفَساً ولا سِنَةً، ولا يَسْتَثْنِيَ مِنْ كُلِّ ما بَذَلَهُ له سِمْسَمَةً".

– يقولُ ابنُ عَبّادٍ الرّنديُّ في شرحِهِ للحِكَمِ: وذكَرَ الشَّيخُ أبو نُعَيْمٍ الحافظُ أنَّ مَيْسَرَةَ الخادمَ قالَ: غَزَوْنَا في بعضِ الغَزَوَاتِ، فإذا فتًى إلى جانِبِي، وإذا هو مُقَنَّعٌ بالحَدِيدِ، فَحَمَلَ على المَيْمَنَةِ، فَثَنَاها، ثُمَّ على المَيْسَرَةِ حتّى ثَنَاهَا، وحَمَلَ عَلَى القَلْبِ حتّى ثَنَاهُ، ثمّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَحْسِنْ بِمَوْلَاكَ سَعِيدُ ظَنّا ... هَذا الَّذِي كُنْتَ لَهُ تَمَنَّىٰ

تَنَحّ يَا حُورَ الْجِنَانِ عَنَّا ... مَا لَكِ قَاتَلْنَا وَلاَ قُتِلْنَا

لَكِنْ إلَىٰ سَيِّدِكُنَّ ٱشْتَقْنَا ... قَدْ عَلِمَ السِّرَّ وَمَا أَعْلَنَّا

قالَ: فَحَمَلَ، فَقاتَلَ، فَقَتَلَ منهم عَدَداً، ثمّ رَجَعَ إلى مَصَافِّهِ، فَتَكالَبَ عليهِ العَدُوُّ، فإذا هو قد حَمَلَ على النّاسِ، وأَنْشَأَ يقولُ:

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخِبْ ... أَلَّا يَضِيعَ الْيَوْمَ كَدِّي وَالطَّلَبْ

يَا مَنْ مَلاَ تِلْكَ الْقُصُورَ باللُّعَبْ ... لَوْلاَكَ مَا طَابَتْ وَلا طَابَ الطَّرَبْ

ثمّ حَمَلَ فقاتلَ، فَقَتَلَ منهم عَدَداً، ثمّ رَجَعَ إلى مَصَافِّه، فتَكالَبَ عليهِ العَدُوُّ فحَمَلَ في المَرّةِ الثّالِثَةِ، وأَنْشَأَ يقولُ:

يَا لُعْبَةَ الْخُلْدِ قِفِي ثُمَّ ٱسْمَعِي ... مَا لَكِ قَاتَلْنَا فَكُفِّي وَٱرْجِعِي

ثُمَّ ٱرْجِعِي إِلَى الْجِنَانِ وَأَسْرِعِي ... لاَ تَطْمَعِي لاَ تَطْمَعِي لاَ تَطْمَعِي

فقاتل رضي الله عنه حتَّىٰ قُتِلَ.

– ومَيْسَرةُ الذي حدّثَ بهذه القِصَّةِ هو مَيْسَرةُ بنُ مَسْرُوقٍ العَبْسيُّ قائِدٌ مِنْ شُجْعانِ الصحابةِ رضي الله عنهم، كانَ مِنَ التِّسعَةِ الذينَ وَفِدُوا على النّبيِّ ﷺ مِنْ بني عَبْسٍ، وشهِدَ حَجَّةَ الوَدَاعِ.

159) وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلاً، بَشَائِرُ العَامِلِينَ بِوُجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً.

- ثَمَراتُ الطاعاتِ هي: الأنْوَارُ التي تَحْصُلُ في القُلُوبِ وتُشْرِقُ على الظَّواهِرِ، والتَّلَذُّذُ بالطّاعاتِ عندَ فِعْلِها، وعندَ مُناجاةِ الحقّ سبحانَه، والحضُورُ والنَّشاطُ في العِبادَةِ، والكَفُّ عَنِ الآثامِ، وغيرُ ذلكَ مِنْ الثَّمراتِ الظّاهِرَةِ والباطِنَة.

- فثَمَرَةُ الطّاعَةِ تَتمثّلُ في حُضُورِ القلبِ وسَرَيانِ الخَشْيَةِ إلى النّفْسِ، والشُّعُورِ بِلَذَّةِ الإقْبَالِ إِلَى اللهِ، ومُتْعَةِ الدُّخُولِ في مُناجَاتِه، وهي لَذِيذُ الطاعةِ، وحَلاوةُ المُناجاةِ، وأُنْسُ القلبِ، وفَرَحُ الرُّوحِ.

- قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ: "تَفَقَّدُوا الحَلاوَةَ في ثَلاثٍ، فإنْ وَجَدْتُمُوها فَأَبْشِرُوا، وامْضُوا لِقَصْدِكُم، وإنْ لم تَجِدُوها فاعْلَمُوا أنَّ البَابَ مُغلَقٌ: عندَ تِلاوَةِ القُرآنِ، وعندَ الذِّكْرِ، وعندَ السُّجُودِ".

- وقد تكونُ الثَّمَرةُ مَعْنىً آخَرَ وهو وُجُودُ الحياةِ الطَّيِّبَةِ، وسُقوطُ الخَوْفِ بالنّظَرِ إلى الحَقّ دونَ سِواهُ، ووُجُودُ الكِفايَةِ والرِّضَى والقَناعَةِ، ومثلُ هذهِ المَعانِي القَلْبِيّةِ.

– فوُجدانُ الثَّمراتِ عاجِلاً –أيْ في الدُّنْيَا– بَشائِرُ مِنَ اللهِ تعالَى بِوُجُودِ الجَزاءِ عليها في الدَّارِ الآخِرَةِ، وأنَّها مَقْبُولةٌ عندَ اللهِ، فابنُ عطاءِ اللهِ يُلفِتُ النَّظرَ في ذلكَ إلى قَرِينةٍ إنْ وُجِدَتْ، دَلَّتْ على قَبُولِ اللهِ لَهَا، وهي أنْ يَجِدَ العبدُ ثَمَرةَ طاعتِه عاجلاً أيْ في الحَياةِ الدنيا، بل رُبَّما أثناءَ تَلَبُّسِهِ بتلكَ الطَّاعةِ.

– وقدْ تَقَدَّمَ هذا المَعْنَى عندَ قَوْلِه: "مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلاً". في الحِكْمَةِ (44).

– وقدْ دَفَعَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بالحِكْمَةِ التَّالِيَةِ الفَهْمَ بِأَنَّ العَمَلَ هو سَبَبُ الجَزاءِ وعِلَّتُهُ، لأنَّ الأجْرَ والثَّوابَ هو مَحْضُ فَضْلٍ خالِصٍ مِنَ اللهِ سبحانَه.

160) كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ؟

- كَيفَ تَطْلُبُ العِوَضَ والجَزاءَ على عَملٍ هو مُتَصَدِّقٌ به عليكَ، أيْ أنَّ هذا غيرُ لائِقٍ منكَ، لأنَّ الإنسانَ لا يَطْلُبُ الجَزاءَ مِنَ الغيرِ إلّا إذا فَعَلَ معه فِعلاً يَعُودُ نَفْعُهُ على ذلكَ الغيرِ، وذلكَ مَفْقُودٌ هنا، لأنَّ نَفْعَ تلكَ الأعمالَ عائِدٌ عليكَ لا على الرَّبِّ سُبحانَه، لأنّه غَنِيٌّ عنكَ وعنْ أعْمالِكَ.

- وكذلكَ طَلَبُ الجَزاءِ على الصِّدْقِ وهو الإخْلَاصُ في العَمَلِ، لأنَّه هو سبحانَه مُهْدِيهِ إليكَ، فالعَمَلُ والإخلاصُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ إلّا لِمَنْفَعَتِكَ، فَطَلَبُ العِوَضِ والجَزاءِ إذنْ عَلَى ذلكَ فِي غايةِ القُبْحِ.

- وقدِ اسْتَعْمَلَ لَفْظَ الصَّدَقَةِ في الأعْمالِ الظاهِرَةِ والهَدِيّةِ في الصِّدقِ الذي هو مِنَ الأَعْمَالِ الباطِنَةِ وهو الإخلاصُ وعليه مَدارُ قَبُولِ الأعمالِ الظاهِرَةِ؛ إشْعاراً بِتَبايُنِهما في الشَّرَفِ كَتَبايُنِ الصَّدقَةِ والهَدِيّةِ.

- قالَ الوَاسِطِيُّ رحمهُ اللهُ: "مُطالَبَةُ الأعْواضِ على الطّاعاتِ مِنْ نِسيانِ الفَضْلِ".

- وسُئِلَ ابنُ عطاءِ اللهِ رحمهُ اللهُ عنْ أقْرَبِ شيءٍ إلى مَقْتِ اللهِ تعالَى فقالَ: "رُؤْيَةُ النَّفْسِ وأَفْعالِهَا، وأَشَدُّ مِنْ ذلكَ مُطالَبَةُ الأعْواضِ على أفْعالِهَا".

- وبالجُملةِ فإنْ رَاعَيْتَ أشْكَالَكَ في أَعْمالِكَ كُنْتَ بِعِلَّةِ الخُروجِ عنِ العبُوديّةِ مَرْسُوماً، وبِفَقْدِ الصِّدْقِ في أَعْمالِكَ مَوْسُوماً، وبِنِسْيانِ المِنَّةِ والإفْضالِ مَلْزُوماً.

- قالَ بَعْضُهم: "لا تَنْظُرْ لِعَمَلِكَ وإنْ صَحَّ، وانْظُرْ لِمَنْ وَفَّقَكَ إليهِ".

161) أَكْرَمَكَ بكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ: جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ، وَلَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ.

– أمّا الأَوّلُ: "جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ"، فَمُسْتَفادٌ مِنْ نُطْقِ الظَّواهِرِ بالإلَـهِيّةِ، معَ أنّكَ لَسْتَ بِأَهْلٍ لذلكَ مِنْ حيثُ ذاتُكَ، بَلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِه: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). النور 21.

– وأمّا الثّاني: "جَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ"، فَمِنْ وُجُودِ النِّسْبَةِ لِلرُّبُوبيّةِ ووُقُوعِ الخِطابِ، إذْ يُقالُ: أنتَ عَبدٌ وهو رَبٌّ، وأنتَ مَأمُورٌ وهو آمِرٌ، وأنتَ مُخَاطَبٌ وهو مُخَاطِبٌ، ويُقالُ لكَ: هذا عَبْدُ اللهِ، ولولا اعْتِبارُكَ عندَه ما كانتْ لكَ هذه النِّسْبةُ منه.

– وأمّا الثّالِثُ: "جَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ"، فَمِنْ جِهَةِ الجَزاءِ المَوْعُودِ إذْ قالَ تعالَى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) البقرة 152، ومِنْ جِهَةِ اعْتِبارِهِ بكَ حتّى خَاطَبَكَ، وأمَرَكَ ونَـهاكَ.

- وفي الحديثِ عنِ النَبِيِّ صلّى الله عليه وسلَّمَ فيما يَرْويهِ عَنْ رَبِّه، وفيهِ:

"فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ". متفق عليه.

- وقالَ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ:

"لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الـمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ". صحيح مسلم.

162) رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيَلةٍ آمَادُهُ، كَثِيرَةٍ أَمْدَادُهُ.

– رُبَّ عُمُرٍ اتّسَعَتْ آمادُهُ، أيْ غاياتُه وأزْمِنَتُه، وقلَّتْ أمْدادُه، أيْ فوائِدُه، وذلكَ كأعْمارِ الغافِلينَ عَنِ اللهِ، المُشتَغِلينَ بِشَهَواتِ نُفُوسِهم، فإنَّها وإنْ كانتْ طَويلَةً في الحِسّ فهي قَصِيرةٌ في المَعْنَى لِقِلَّةِ أَمدادِها وفوائِدِها.

– وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيَلةٍ آمَادُهُ، كَثِيرَةٍ أَمْدَادُهُ، وذلكَ كأعْمارِ الصَّالِحِينَ الذَّاكِرينَ، فإنّها وإنْ كانتْ قَصِيرةً حِسّاً فهي طويلةٌ معنىً لكثْرةِ أمْدَادِهَا وفَوائِدِهَا، وذلكَ هو معنى البَرَكَةِ في العُمُرِ، ففوائِدُ العُمُر لا يَلْزَمُ أنْ تكونَ على قَدْرِ أزمِنَتِهِ وبِحَسَبِها، بل قد يَحْصُلُ لِصاحِبِ العُمُرِ القَصِيرِ مِنَ الفوائِدِ ما لا يَحْصُلُ لِمَنْ هو أطْولُ منه بأضْعَافٍ مُضاعفَةٍ.

– وفي سِيَرِ الصّحابَةِ ومَنْ بعدَهم مِنَ العُلَمَاءِ والصَالحِينَ مَنْ كانَتْ أعْمَارُهُم ما بينَ الثّلاثِينَ والأرْبَعِينَ ولكنّهم كانوا أَعْلاماً تَفْخَرُ بهم الأمّةُ وتَروِي سِيَرَهُم على مَرِّ الأجْيالِ، مِنْ هؤلاءِ:

– مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه، قال عنه أبُو نُعَيْمٍ في الحْليةِ: "إمامُ الفُقَهَاءِ، وكَنْزُ العُلَماءِ؛ شَهِدَ العَقَبَةَ، وبَدْرًا، والمَشَاهِدَ؛ وكانَ مِنْ أَفْضَلِ شَبابِ الأنْصارِ حِلْمًا وحَياءً وسَخاءً، وكانَ جَمِيلًا وسيمًا".

مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رضِيَ اللهُ عنه الذي أخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنّهُ أعلَمُ الأُمّةِ بالحَلالِ والحَرامِ، أي: أعلَمُهم بأحكامِ اللهِ، وقد ورَدَ أنَّه يكونُ أَمَامَ العُلَماءِ يَوْمَ القِيامَةِ برَتْوةٍ، أي: برُتْبَةٍ؛ ولِعِلْمِه وفِقْهِهِ بَعَثَه النبيُّ ﷺ إلى اليَمَنِ دَاعِياً إلى الإِسْلامِ وقاضيًا ومُعلِّمًا.

– جاء في (الاستيعاب في معرفة الأصحاب):

أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، خَلَّفَ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ بِمَكَّةَ حينَ وَجَّهَ إلى حُنَيْنٍ يُفَقِّهُ أهْلَ مكَّةَ ويُقْرِئُهُمُ القُرآنَ. وأنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ خَطَبَ بالجَابِيَةِ فقالَ: مَنْ كانَ يُرِيدُ أنْ يَسْأَلَ عَنِ الفِقْهِ فَلْيَأْتِ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ. وكان عُمَرُ بنُ الخطّابِ يقولُ حينَ خَرجَ مُعاذُ إلى الشَّامِ: لقدْ أَخَلَّ خُرُوجُه بالمدينةِ وأهْلِهَا في الفِقْهِ وما كانَ يُفْتِيهِم به، ولقدْ كنتُ كَلَّمْتُ أبا بكرٍ رحمهُ اللهُ، أنْ يَحْبِسَه لِحاجَةِ النّاسِ إليهِ فَأَبَى عَلَيَّ وقالَ: رَجُلٌ أرَادَ وَجْهًا يُرِيدُ الشَّهادَةَ فلا أَحْبِسُه، فقلتُ: واللهِ إنَّ الرَّجُلَ لَيُرْزَقُ الشّهادَةَ وهو على فِراشِه وفي بَيْتِه عَظِيمُ الغِنَى عَنْ مِصْرِه. وقال كعبُ بنُ مالِكٍ: وكانَ مُعاذُ بنُ جبلٍ يُفْتِي بالمدينةِ في حياةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم، وأبي بَكْرٍ. وقال عُمَرُ إنَّ العُلَماءَ إذا حَضَرُوا يومَ القِيامَةِ كانَ مُعاذُ بنُ جبلٍ بينَ أيْدِيهِم قَذْفَةً بِحَجَرٍ.

تُوُفِّيَ في طاعونِ عَمَوَاسَ وعُمُرُهُ ثَمانٍ وثلاثُونَ سنةً، وقِيلَ: ثَلاثٌ، وقِيلَ: أَرْبَعٌ وثلاثُونَ، رضي اللهُ عنه وأرضاهُ.

– قالَ عَمرُو بنُ قَيْسٍ: إِنَّ مُعاذَ بنَ جبلٍ لَمّا حَضَرهُ الموتُ قالَ: انْظُرُوا، أَصْبَحْنَا؟ فقِيلَ: لَمْ نُصْبِحْ. حتّى أُتِيَ فَقِيل: أَصْبَحْنَا. فقالَ: "أَعُوذُ باللهِ مِنْ لَيْلَةٍ صَباحُهَا إِلى النارِ، مَرْحَبًا بالموتِ، مَرْحَبًا زَائِرٌ حَبِيبٌ جاءَ على فاقَةٍ، اللهمَّ، تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَخافُكَ، وأَنا اليومَ أَرْجُوكَ".

– سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه، قال الذَّهَبِيُّ في سِيَرِ أعلامِ النُّبلاءِ: "السَّيِّدُ الكَبِيْرُ، الشَّهِيْدُ، أَبُو عَمْرٍو الأَنْصَارِيُّ، الأَوْسِيُّ، الأَشْهَلِيُّ، البَدْرِيُّ، الَّذِي اهْتَزَّ العَرْشُ لِمَوْتِهِ، وَمَنَاقِبُهُ مَشْهُوْرَةٌ فِي الصِّحَاحِ، وَفِي السِّيْرَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ".

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَسْلَمَ وَقَفَ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ! كَيْفَ تَعْلَمُوْنَ أَمْرِي فِيْكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا فَضْلاً، وَأَيْمَنُنَا نَقِيْبَةً. قَالَ: فَإِنَّ كَلاَمَكُم عَلَيَّ حَرَامٌ، رِجَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ. قَالَ: فَوَاللهِ مَا بَقِيَ فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلاَ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَأَسْلَمُوا.

– قال رسول الله ﷺ: "هذا الذي تَحرَّكَ لهُ العرْشُ، وفُتِحَتْ لهُ أبوابُ السماءِ، وشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا من الملائِكةِ، لقدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثمَّ فُرِّجَ عنْهُ". وفي رِوايةٍ أخرى: "اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحمنِ لِمَوْتِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ". ولَمَّا حَكَمَ سَعْدٌ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ أَنْ يُقْتَلَ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ المَوَاسِي، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَقَدْ حَكَمَ فِيْهِم بِحُكْمِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ مِنْ فَوْق سَبْعِ سَمَوَاتٍ".

رُمِيَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الهِجْرَةِ، فَمَاتَ مِنْ رَمْيَتِهِ تِلْكَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ سَبْعٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً، رضي اللهُ عنه وأرضاهُ.

- عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ، قالَ عنه الذّهَبِيُّ: "الإمامُ الحافِظُ العَلّامةُ المُجْتَهِدُ الزّاهِدُ العابِدُ السَّيّدُ أَمِيرُ المُؤمِنينَ حَقّاً، وكانَ مِنْ أئِمَّةِ الاجْتِهادِ، ومِنَ الخلفاءِ الرّاشِدينَ". وقالَ عَمرُو بنُ مَيمُونَ: "كانتِ العُلماءُ معَ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ تَلامِذَةً". ماتَ رَحِمَهُ اللهُ مَسْمْوماً في الأرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِه.

- ولا يعنِي ما تَقَدّمَ على إطلاقِه، فقد يكونُ طُولُ العُمُرِ لِمَنْ وفّقَهُ الله خيراً عَظِيماً وفَضْلاً جَزيلاً، كما جاءَ في الحديثِ عنْ أبي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بنِ الحارثِ رَضِي اللهُ عَنه: أنَّ رجلًا قالَ: يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قالَ ﷺ: "مَنْ طالَ عُمُرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ"، قالَ: فأيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قالَ ﷺ: "مَنْ طالَ عُمُرُهُ وسَاءَ عَمَلُهُ". صحيح الترمذي للألباني.

- فحُسْنُ العَمَلِ معَ طُولِ العُمُرِ مِنَ الأُمُورِ الَّتي يُغْبَطُ عليها صاحِبُهَا، بِعَكْسِ سُوءِ العَمَلِ معَ طُولِ العُمُرِ؛ فهي مِمَّا يُسْتَعاذُ منه، فهو يَستَفِيدُ بطُولِ عُمُرِه في الزّيادةِ مِنْ حَسَناتِه، وبحُسْنِ العَمَلِ مِن الطَّاعاتِ واتّباعِ أوامرِ اللهِ ورسولِه، وهذا يدُلُّ على سَعادةِ الدَّارَين والفوزِ بالحُسنَيَين.

- وأسوَأُ النَّاسِ مَنْ طالَ عُمُرُه، وعَمِلَ الأعمالَ السَّيّئةَ مِنَ المَعاصِي؛ لأنَّه يَخْسَرُ ويُغْبَنُ مِنْ زيادةِ عُمُرِه، بِعَكْسِ الأوَّلِ، فكُلَّما زاد عُمُرُهُ زادَتْ سيّئاتُه بِسُوءِ عَمَلِه، وهذا يدُلُّ على التَّعاسةِ في الدَّارَيْنِ.

– وفي صَحِيحِ البُخاريّ أنَّ أنَسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: دَخَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فأتَتْهُ بتَمْرٍ وسَمْنٍ، قالَ: "أعِيدُوا سَمْنَكُمْ في سِقَائِهِ، وتَمْرَكُمْ في وِعَائِهِ؛ فإنِّي صَائِمٌ". ثُمَّ قَامَ إلى نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ، فَصَلَّى غيرَ المَكْتُوبَةِ، فَدَعَا لِأُمِّ سُلَيْمٍ وأَهْلِ بَيْتِهَا، فَقالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ لي خُوَيْصَّةً، قالَ: ما هي؟ قالَتْ: خَادِمُكَ أنَسٌ. فَما تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ ولَا دُنْيَا إلَّا دَعَا لي به؛ قالَ: "اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا ووَلَدًا، وبَارِكْ له فِيهِ". فإنِّي لَمِنْ أكْثَرِ الأنْصَارِ مَالًا، وحَدَّثَتْنِي ابْنَتي أُمَيْنَةُ: أنَّه دُفِنَ لِصُلْبِي مَقْدَمَ حَجَّاجٍ البَصْرَةَ بِضْعٌ وعِشْرُونَ ومِئَةٌ.

163) الْخِذْلاَنُ كُلُّ الْخِذْلاَنِ أَنْ تَتفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تَتوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَرْحَلَ إِلَيْهِ.

– المقصُودُ أنّه مَنْ رُزِقَ فَراغاً وقُوّةً دُونَ مانِعٍ، ولم يَتَوَجّهْ لِمَولاهُ بِما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ، فهو مَخْذُولٌ.

– وقد قِيلَ: "مِنْ عَلامَةِ الخِذْلَانِ أنْ لا تَجِدَ للطّاعةِ مَدْخلاً، ولا للمعْصِيَةِ مُفَرّعاً، وصُحْبَةُ الفاسِقِينَ، ومِنْ علامَةِ التّوفِيقِ أنْ لا تَجِدَ للمَعْصِيَةِ مَدْخَلاً، ولا للطّاعَةِ مَفْزَعاً، وصُحْبَةُ الصّالحِينَ".

– قالَ النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ". البخاري.

– وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ". صحيح الترغيب للألباني.

– يقولُ أبو القاسمِ القُشَيْرِيُّ رحمهُ اللهُ: "فَراغُ القَلْبِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، فإذا كَفَرَ عَبْدٌ هذه النِّعْمَةَ بأنْ فَتَحَ على نَفْسِه بابَ الهَوَى، وانْجَرَّ في قِيادِ الشَّهَواتِ، شَوَّشَ اللهُ عليه نِعْمَةَ قَلبِه، وسَلَبَهُ ما كانَ يَجِدُ مِنْ صَفاءِ وَقْتِه".

– قالَ الإمامُ ابنُ بَطّالٍ رحمهُ اللهُ: ومِمّا يُستعانُ به على دَفْعِ الغُبْنِ، أنْ يَعْلَمَ العبدُ أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الخَلْقَ مِنْ غيرِ ضَرُورَةٍ إليهم، وبَدأَهُم بالنِّعَمِ الجَليلَةِ مِنْ غيرِ اسْتِحْقاقٍ منهم لها، فَمَنَّ عليهم بِصِحَّةِ الأجْسامِ، وسَلامَةِ العُقُولِ، وتَضَمَّنَ

أرْزاقَهُم، وضاعَفَ لهم الحَسناتِ، ولم يُضاعِفْ عليهم السّيئاتِ، وأمَرَهُم أنْ يَعبدُوه ويَعْتَبِرُوا بما ابْتَدأَهُم به مِنَ النِّعَمِ الظاهِرَةِ والباطِنَةِ، يَشْكُرُوهُ عليها بِأَحْرُفٍ يَسِيرةٍ، وجَعلَ مُدَّةَ طاعَتِهِم في الدنيا مُنْقَضِيَةً بانْقِضاءِ أعْمَارِهِم، وجَعَلَ جَزاءَهُم على ذلك خُلودًا دائماً في جَنَّةٍ لا انْقِضاءَ لها، مع ما ادَّخَرَ لِمَنْ أطاعَهُ ممّا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، فَمَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ في هذا، كانَ حَرِيّاً أَلَّا يَذْهَبَ عنه وَقْتٌ مِنْ صِحَّتِهِ وفَراغِهِ إِلَّا ويُنْفِقُهُ في طاعَةِ رَبِّه، ولذا قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أَنْفَقَهُ، وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ". أخرجه الترمذي، وقال الألباني في المشكاة: صحيح لشواهده.

– وإنَّ كثيراً مِنَ الناسِ قدْ فَقَدَ الصِّحّةَ والفَراغَ، فمَنْ وجَدَهُما فَلْيَحْمَدِ اللهَ ويَشْكُرُهُ بالعَملِ الصَّالحِ، فإنْ لم يَشْكُرْ فهو مَخْذُولٌ والعِياذُ باللهِ.

– ومِنَ الخِذْلانِ أنْ تَصُدَّكَ العَوائِقُ والشَّواغِلُ عنِ التّوَجُّهِ إلى اللهِ تعالَى والرّحِيلِ إليه، بلِ الواجِبُ عليكَ أنْ تُبادِرَ إلى ذلكَ وتَرمِي بالعَوائِقِ والشّواغِلِ خَلْفَ ظَهْرِكَ، كما قِيلَ: "سِيرُوا إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ عُرْجاً ومَكاسِيرَ، ولا تَنْتَظروا الصِّحّةَ، فإنَّ انْتِظارَ الصِّحَّةِ بِطالَةٌ".

وقد تَقدّمَ الكلامُ على هذا المعنى عندَ قولِه: "إِحالَتُكَ الأعْمالَ على وُجُودِ الفَراغِ مِنْ رُعُوناتِ النَّفْسِ"، فإنْ زالتْ شَواغِلُكَ وقَلَّتْ عَوائِقُكَ ثمّ قَعَدْتَ عَنِ التّوجُّهِ والرّحِيلِ فهذا هو الخِذلانُ كُلُّ الخِذلانِ أَعاذَنا اللهُ منه.

164) الفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الأَغْيَارِ.

– الفكرةُ هنا: التَّفَكُّرُ، والمقْصُودُ اسْتِعْمالُ الفِكْرِ في اسْتِخْراجِ المعلُوماتِ، فهي سَيْرُ القَلْبِ –أيْ مَشْيُهُ وانْتِقالُهُ– بالنَّظَرِ في مَيْدَانِ ومَوْقِفِ الأغْيارِ أيْ المخلُوقاتِ.

فالقَلْبُ يَسِيرُ بِفِكْرِه في الخلائِقِ على حَسَبِ مَراتِبِه، فتارَةً يُفَكِّرُ في وُجُودِهِم فَيَهْدِيهِ لِمُوجِدِهِم، وتارةً يُفَكِّرُ في مَوجُودِهِم فيَهْدِيهِ لِتَرْكِهِم أو الإقْبالِ عليه، وتارةً يُفَكِّرُ في مُعامَلَتِهِم فَيَنْظُرُ فيها على وَجْهٍ يَلِيقُ به وبِهِم، وتارةً يُفَكِّرُ في مُوجِدِهِمْ وما أجْرَى عليهِم فيَهْدِيهِ ذلكَ لِعَظَمَتِه بِرُؤْيَةِ ما له فِيهِم.

– قالَ أبو القاسِمِ القُشَيرِيُّ رحمهُ اللهُ: "التَّفَكُّرُ نَعْتُ كُلِّ طَالِبٍ، وثَمَرَتُهُ الوُصُولُ بِشَرْطِ العِلْمِ، فإذا سَلِمَ الفِكْرُ مِنَ الشّوائِبِ وَرَدَ صاحِبُهُ على مَناهِلِ التّحْقِيقِ".

– وقالَ الحَسنُ رحمهُ اللهُ: "الفِكْرَةُ مِرْآةٌ حَسَنَةٌ تُرِيكَ حَسَنَكَ مِنْ سَيِّئِكَ".

– وقالَ الجُنَيْدُ رحمهُ اللهُ: "أشْرَفُ المَجالِسِ وأعْلاها الجُلُوسُ معَ الفِكْرَةِ في مَيدانِ التَّوْحِيدِ".

165) الفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ.

– سِرَاجُ القَلْبِ لأنّه يَهْتَدِي بِهَا لِمَا هو المَقْصُودُ فَيَتَوجَّهُ له، ولِعَيْنِ المَقْصُودِ فيَعْمَلُ به وله، ولِنَتِيجَتِه فَيَهْتَدِي لها.

– رُوِيَ أنَّ عِيسَى عليه السَّلامُ قالَ: "طُوبَى لِمَنْ كانَ قِيلُهُ ذِكْراً، وصَمْتُهُ تَفكُّراً، ونَظَرُهُ عِبْرَةً، إنَّ أكْيَسَ النّاسِ مَنْ دانَ نفْسَهُ، وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ".

– ورُوِيَ عنِ كَعْبِ الأحبارِ أنّه قالَ: "مَنْ أَرَادَ شَرَفَ الآخِرَةِ فَلْيُكْثِرِ التَّفَكُّرَ".

– وجاءَ في حِلْيَةِ الأولياءِ أنّه قِيلَ لِأُمِّ الدّرداءِ: ما كانَ أفْضَلُ عَمَلِ أبي الدّرداءِ رضى الله عنه؟ قالتْ: "كانَ يُكْثِرُ التَّفَكُّرَ".

– الفِكْرَةُ سِراجُ القلبِ ومِصْبَاحُهُ الذي يَمْشِي به في ظُلْمَةِ الأغْيَارِ، فَيَرى المَنافِعَ والمَضارَّ، ويُبْصِرُ الحَقَّ والحَقِيقَةَ أتَمَّ إبْصارٍ، بِها يَصِلُ إلى الإيمانِ، وبها يَنْتَهِي إلى العِرْفَانِ، وبها يَتَرَقَّى في دَرَجاتِ الإسْلَامِ والإيمَانِ والإحْسَانِ.

– فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ، فإذا لَمْ تكنْ له إضاءَةٌ صَارَ شِبْهَ الأعْمَى، تارةً يُخْطِئُ وتارةً يُصِيبُ، ويَفُوتُه السَّيْرُ ويَنتَفِي عنه الخَيْرُ، فلا يَهْتَدِي سَبِيلاً ولا يُقِيمُ دَليلاً، (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ). النور 40.

- وإنّما كانتْ كذلكَ لِوُجُوهٍ ثلاثةٍ:

أَحَدُها: أنّها تُبِينُ عَنِ الحَقِّ مِنْ وجْهِهِ، وعَنِ الباطِلِ مِنْ وَجهِهِ، فَتَدعُو للإقبالِ على الحَقِّ والإدْبارِ عنِ الباطِلِ.

الثانِي: أنّها تُرِيكَ الحَقِيقَةَ تِبْياناً حتّى كأنّكَ تَرَى الحَقَّ عِياناً، وفقْدُها لا يَصِحُّ معه ذلك.

الثالثُ: أنّها تُرِيكَ كمالَكَ مِنْ نَقْصِكَ، وحَبِيبَكَ مِنْ عَدُوِّكَ، بِشَواهِدَ ما يَجْرِي عليكَ وعلى غيرِكَ، وإذا فَقَدْتَها كُنْتَ خَلِيّاً عَنْ ذلكَ، فلا سُلُوكَ ولا سَيْرَ ولا عِلْمَ ولا عَمَلَ ولا مَعْرِفَةَ إلّا بها.

وقد تَقَدّمَ الكلامُ على الفِكْرَةِ والتَّفَكُّرِ عِندَ قَولِه: "ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بها مَيْدَانَ فِكْرَةٍ".

وصَلِّ اللَّهُمَّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

(انْتَهَيْتُ مِنْ إِعْدَادِ الكِتَابِ بِحَمْدِ اللهِ ومَنِّهِ وتَوْفِيقِهِ

لَيْلَةَ الخَمِيسِ 1443/11/24 هـ، 2022/6/23 م).